رواية أرضنا البكر
ميخائيل شولوخوف

http://alexandra.ahlamontada.com/forum.htm

ترجمة غائب طعمه فرمان
رسوم بوريس اليكسندروفيتش عليموف

М. ШОЛОХОВ

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ

В 4-х томах

ТОМ III

ПОДНЯТАЯ ЦЕЛИНА

Книга 2

На арабском языке

III 4702010200—362 / 031(01)—87 — 082—87

© الترجمة الى اللغة العربية ـ دار «رادوغا» فرع طشقند ١٩٨٧، طبع في الاتحاد السوفيتي.

ISBN 5—05—000704—6
ISBN 5—05—001202—3

الفصل الاول

انتفخت الارض بالمطر، وحين كانت الريح تسوق السحب كانت ترتخي تحت الشمس الساطعة، ويتصاعد منها بخار مزرورق. وفي الصباحات كان الضباب يرتفع من النهر، ومن المنخفضات المستنقعية الراكدة. فيندلح خلال غريمياتشي لوغ أمواجا لفاء، مندفعا نحو روابي السهب، حيث كان يذوب، ويتحلل بطريقة غير مرئية الى سديم فيروزي رقيق، ولكن قطرات الندى الغزيرة الثقيلة تظل حتى الظهر عالقة على اوراق الاشجار، وعلى القصب المسقفة به سطوح البيوت والسقائف متناثرة كالخرز الحامية ينوء العشب تحت ثقلها.

وفي السهب كان النجيل قد ارتفع الى الركبة، وازهر البرسيم الحلو وراء الارض الفضاء، حيث كانت رائحته العسلية في المساء تنتشر في العزبة كلها، مفعمة قلوب الفتيات باللوعة. كانت سنابل القمح الشتوى تمتد حتى الافق كجدار متراص داكن الخضرة، والحقول التي بذرت في الربيع تبهج العين بنمائها الغزير بشكل نادر، واعواد الذرة الفتية تبرز كالسهام من الارض الرملية.

في نهاية النصف الاول من حزيران استقر الطقس تماما، ولم تظهر غيمة واحدة في السماء، فراح السهب الزاهر المغسول بالمطر يزهو عجيبا تحت الشمس! فكان في هذا الوقت كالأم الشابة المرضعة الجميلة جمالا غير اعتيادي،

الوادعة، المتعبة قليلا، المشرقة كليا بابتسامة الأمومة الرائعة الهانئة الصافية.

كان ياكوف لوكيتش في كل صباح، قبل طلوع الشمس، يلقي على كتفيه مشمع المطر، ويطلع الى خارج العزبة يتمتع بمنظر الحبوب النامية. وكان يقف طويلا عند الاخدود حيث فيض الحنطة الشتوية الأخضر المتلألىء بقطرات الندى. كان يقف بلا حراك، منكس الراس، كحصان عجوز، ويفكر: «اذا لم تهب ريح الكالميك*، والحنطة في نضوج، واذا لم تمسها ريح جافة، فان الحبوب ستتخم الكولخوز عليه لعنة الله ثلاثا! محظوظة هذه السلطة السوفيتية الملعونة! كم من السنين مرت، حين كنا مستقلين، والمطر لم ينزل في الوقت المناسب، اما الآن فينزل غزيرا! واذا سيكون المحصول جيدا، ويكافا الكولخوزيون على آيامهم الصعبة بسخاء، فهل من السهل أن تجعلهم ضد السلطة السوفيتية؟ لاتحلم بذلك في حياتك كلها! الانسان الجائع كالذئب في الغابة تستطيع أن تسوقه الى حيث تريد، بينما الشبعان خنزير عند معلفه، لاتستطيع أن تبعده عنه. عقلي لا يفهم ماذا يريد السيد بولوفتسيف، وماذا ينتظر! الوقت مناسب تماما الآن لهز السلطة السوفيتية، ولكنه يتماهل...»

كان ياكوف لوكيتش الذي تعب من انتظار الانقلاب الذي وعده به بولوفتسيف يفكر بهذا الشكل بغيظ. كان يعرف جيدا أن بولوفتسيف لايتماهل ابدا، وانه ينتظر شيئا لسبب وجيه تماما. ففي كل ليلة تقريبا كان يفد رسل من العزب البعيدة والمساكر الأخرى خلال الوهدة التي كانت تمتد من سفح الجبل تماما حتى حديقة اوسترووفنوف. ولعلهم كانوا يتركون خيولهم في قمة الوهدة المشجرة، ويأتون ماشين. وكان ياكوف لوكيتش يفتح لهم الباب على طرقة هادئة متفق عليها، دون أن يشعل المصباح، ويقودهم الى بولوفتسيف في غرفة الجلوس وكانت الصفاقات على

* الريح الجنوبية الشرقية.

نافذتي حجرة الجلوس المطلتين على الفناء مغلقة ليلا ونهارا، ومن الداخل اسدلت عليهما ملاحف سميكة من الصوف الرمادي. وحتى في النهار المشمس كانت الحجرة مظلمة كقبو، وتفوح، كما في القبو، برائحة العفونة، والرطوبة، والهواء الفاسد المخنوق لمكان لايهوى الا نادرا. في النهار لم يكن بولوفتسيف ولا لاتيوفسكي يخرج من البيت. وكان هذان السجينان طوعا يستخدمان لقضاء حاجتهما الطبيعية سطلا مطليا بالزنك وضع تحت لوحة مخلوعة من الواح الأرضية.

كان ياكوف لوكيتش يشعل عود ثقاب في الرواق ليلقي نظرة خاطفة على كل من كان ينسل في الليل كاللص، ولكنه لم يلتق بعد باي وجه كان قد رآه من قبل. كانوا جميعا غرباء عليه، جاءوا من اماكن بعيدة، كما يبدو. وذات مرة تجرأ ياكوف لوكيتش فسأل أحد رجال الاتصال هؤلاء بصوت خافت:

– من اين انت، يا قوزاقي؟

كان ضوء الثقاب المرتجف قد اضاء تحت القبعة وجها ملتحيا ينم عن طيبة لقوزاقي كهل، ورأى ياكوف لوكيتش عينيه المتقلصتين، وشفتيه المفترقين عن ابتسامة ساخرة.

– من العالم الآخر، يا قوزاقي! – رد القادم بنفس الصوت الهامس. واضاف آمرا – خذني الى الرجل بسرعة، وقلل من فضولك!

وبعد يومين عاد هذا الرجل الملتحي بصحبة قوزاقي آخر أصغر منه سنا. ادخلا الى الرواق شيئا ثقيلا، ولكنهما كانا يطآن الأرض بهدوء، يكادان لا يصدران صوتا. اشعل ياكوف لوكيتش عود ثقاب، ورأى الملتحي يحمل سرجين من سروج الضباط، وعلى كتفه لجامان مزينان بالفضة، بينما كان الآخر يحمل على كتفه لفة طويلة، شوهاء الشكل، ملفوفة بجلباب أسود اشعث.

غمز الملتحي لياكوف لوكيتش، وكأنما يعرفه منذ زمان، وسأل:

– في الحجرة؟ كلاهما؟

وسار الى حجرة الجلوس دون ان ينتظر الرد.

احترق عود الثقاب فلذع اصابع ياكوف لوكيتش، وفي الظلام تعثر الملتحي بشيء، وشتم بصوت خافت.

– انتظر، ها انا حالا – قال ياكوف لوكيتش، وهو يخرج عود ثقاب من علبته باصابع لاتطيعه.

فتح بولوفتسيف الباب بنفسه. وقال بخفوت:

– ادخلا، ادخلا حالا، لماذا تتخبطان هناك؟ وتعال انت ايضا، يا ياكوف لوكيتش، فانا اريدك. هدوء، سأشعل المصباح الآن.

واشعل المصباح المسمى بـ«الخفاش»، ولكنه غطاه من الأعلى بجاكتة، ولم يبق الا شريطا ضيقا من الضوء في الأسفل ارتمى مائلا على لوح الأرض المصبوغ بالمغرة.

سلم القادمان باحترام، ووضعا الأشياء التي جاءا بها قرب الباب. خطا الملتحي خطوتين الى الأمام، مطقطقا بكعبيه، واخرج من زيقه مظروفا، ومده الى بولوفتسيف. فض بولوفتسيف المظروف، وقرب الرسالة من الضوء، ومرر عليها بصره بسرعة، وقال:

– قدم شكري الى سيدوي. لن يكون هناك رد. أنتظر منه أخبارا في موعد لايزيد عن الثاني عشر من الشهر. يمكنكما الانصراف. الا يدرككما الفجر وانتما في الطريق؟

اجاب الملتحي:

– لا، قطعا. سنتصل، فان لنا حصانين جيدين.

– طيب، انصرفا. شكرا على الخدمة.

– يسرنا ان نخدمكم!

استدار الاثنان دفعة واحدة كشخص واحد، وصفقا بكعبيهما، وخرجا. فكر ياكوف لوكيتش باعجاب: «هذا هو التدريب الجيد! يبدو من قيافتهما انهما تخرجا من المدرسة القديمة في الخدمة العسكرية! ولكن لماذا لايذكران اسمه بالكامل؟..»

اقترب بولوفتسيف منه، ووضع على كتفه يده الثقيلة.

اتخذ ياكوف لوكيتش هيئة الاستعداد بشكل لا ارادي، مستقيم القامة، مثبتا ذراعيه على جنبيه.

– هل رايت اي صقور؟ – وضحك بولوفتسيف ضحكة خفيفة – مثل هؤلاء لا يخذلوننا. يسيرون ورائي خلال النار والمياه العميقة، ليس مثل بعض الأوغاد والمتزعزي الايمان في عزبة فويسكوفوي. الآن سنرى ماذا جلبوا لنا...

وركع بولوفتسيف على ركبة واحدة، وحل السيور البيضاء التي كانت تشد اللفة باحكام، وفكها، واخرج اجزاء رشاشة يدوية مفككة، واربعة اقراص باهتة البريق من الرصاص ملفوفة في مشمع مدهون. ثم سحب سيفين بحذر، كان احدهما قوزاقيا بسيطا في غمد رث مستهلك، وكان الثاني سيفا من سيوف الضباط له مقبض مزين بالفضة كثيرا ومحلى بعقدة وسام القديس غيورغي كامدة، لهغمد مزخرف بالفضة، وحمالة قوزاقية سودا.

كان بولوفتسيف عند ذاك قد ركع على ركبتيه كلتيهما، ووضع السيف على راحتي يديه الممدودتين، وأحنى رأسه، وكأنه يتلذذ بالتماعات الفضة الكامدة، ثم ضمه الى صدره، وقال بصوت مرتجف:

– يا حسامي الجميل، العزيز! يا رفيقي القديم الوفي! ما يزال عليك ان تخدمني بايمان وصدق!

وارتعش فكه الأسفل الضخم رعشة خفيفة، واغرورقت عيناه بدموع الصرامة والابتهاج، ولكنه تمالك نفسه، مع ذلك، وادار لياكوف لوكيتش وجهه الشاحب المشوه، وقال:

– هل تعرفه، يا لوكيتش؟..

تحشرج بلعوم ياكوف لوكيتش، وهز رأسه بصمت. فقد عرف هذا السيف، وقد رآه لأول مرة عام ١٩١٥ على الخورونجي الشاب المقدام بولوفتسيف في الجبهة البولونية...

كان لاتيوفسكي مستلقيا على السرير صامتا غير مكترث، فقعد، ودلى قدميه العاريتين، وفرقعت عظامه حين

انتصب بجذعه، ولمعت عينه الوحيدة بجهامة. وقال بصوت اجش:

– لقاء مؤثر! نفحة من التمرد، كما يقال. انا لا احب هذه المشاهد العاطفية المخللة بالحماس المصطنع!

قال بولوفتسيف بحدة:

– اسكت!

هز لاتيوفسكي كتفيه.

– ولماذا علي ان اسكت؟ وعن اي شيء يجب ان اسكت؟

– اسكت ارجوك! – قال بولوفتسيف بصوت خافت تماما، ناهضا من ركعته، وتوجه نحو السرير بمشية بطيئة كالمتسلل.

كان يحمل السيف بيده اليسرى المرتعشة، فك وخلع باليمنى ياقة قميصه الرمادي. ورأى ياكوف لوكيتش في رعب كيف تقارب سوادا عيني بولوفتسيف نحو قصبة انفه من الحنق الشديد، وكيف صار وجهه المنتفخ بلون قميصه.

انطرح لاتيوفسكي على السرير بهدوء وعلى مهل والقى يديه تحت راسه.

– حركة مسرحية! – قال مبتسما بهزوء ناظرا الى السقف بعينه الوحيدة – كل ذلك شاهدته من قبل واكثر من مرة، في مسارح الأقاليم الرخيصة. لقد ضجرت من ذلك!

توقف بولوفتسيف على بعد خطوتين منه، ورفع يده بحركة متعبة جدا، ومسح العرق من جبينه، ثم ارتخت يده الرخوة العاجزة منزلقة الى الأسفل.

– الاعصاب... – قال بابهام وارتخاء لسان، كالمشلول، واستطال وجهه برعصة منحرفة شبيهة بابتسامة.

– وهذا ايضا سمعته اكثر من مرة. ولكن كفاك ان تتصرف كالمراة العجوز، يا بولوفتسيف! سيطر على نفسك.

– الأعصاب... – كرر بولوفتسيف – اعصابي تخونني... انا ايضا ضجرت من هذه الحجرة، من هذا القبر...

– الظلام اليف الحكماء، وهو يساعد على التأملات الفلسفية في الحياة، اما الاعصاب فلا تحس بها، في الواقع، الا الآنسات المنمشات المصابات بفقر الدم، والسيدات اللواتي يعانين من الاسهال بالكلام، وداء الشقيقة. واهتزاز الاعصاب عار وشنار على الضابط! ولكنك تتظاهر فقط، يا بولوفتسيف، ليست لك اية اضطرابات عصبية، مجرد نزوة! انا لا اصدق بك! بشرفي كضابط لا اصدق بك!

– لست ضابطا، بل بهيمة!

– لقد سمعت ذلك منك غير مرة، ولكنني لن ادعوك الى مبارزة على اية حال، فاذهب الى الشيطان! فهذه قديمة وفي غير محلها، وهناك اعمال أهم. كما انك تعرف، كرجل جليل، ان المبارزة تكون بالسيوف الرفيعة، وليست بسيوف الشرطة العريضة التي كنت قبل لحظة تضم واحدا منها الى صدرك برقة وتاثر كبير. وانا، كمدفعي قديم، احتقر هذا النوع من الحلية الباردة. وهناك سبب آخر يقف دون دعوتي لك للمبارزة، وهو انك من اصل عامي، بينما انا نبيل بولوني، من اسرة من اعرق الأسر، التي...

– اسمع... ايها النبيل البولوني الرخيص! – قاطعه بولوفتسيف بحدة، وقد اكتسب صوته صلابته المعتادة، ورنينه المعدني الآمر – تهزأ بهذا السلاح العتيد، بوسام القديس غيورغي! اذا ستنطق ولو بكلمة واحدة اخرى فساقطعك كالكلب!

قعد لاتيوفسكي على السرير. ولم يبق اي ظل للابتسامة التي كانت تطل من شفتيه قبل حين. وقال بجدية وبساطة:

– بهذا اصدق! صوتك يفضح نواياك الصادقة الطيبة، ولهذا اسكت.

واستلقى من جديد، وسحب البطانية القديمة من الفانيلة الى ذقنه.

– على كل حال ساقتلك – اكد بولوفتسيف جهما، وقد احنى راسه كالثور، في وقفته عند السرير – بهذا

السيف نفسه اجعل من الشريف البولوني الجلف شطرين. تعرف متى؟ حالما نطيح بالسلطة السوفيتية في الدون!

– في هذه الحال استطيع ان اعيش مطمئنا حتى شيخوختي المتقدمة، ولربما الى ابد الآبدين – قال لاتيوفسكي ضاحكا، وادار وجهه الى الحائط وهويشتم شتائم مقذعة.

كان ياكوف لوكيتش يرفع قدما وينزل أخرى قرب الباب، وكأنما واقف على جمر. هم غير مرة أن يخرج من الحجرة، الا ان بولوفتسيف كان يوقفه بحركة من يده. واخيرا لم يصطبر فقال:

– اسمحوا لي بالانصراف، اعتقني، يا صاحب السيادة! سيطر الفجر قريبا، وعلي أن اخرج الى الحقل...

جلس بولوفتسيف على الكرسي، ووضع السيف على ركبته، واحنى جذعه الى الأسفل مستندا بكلتا يديه على السيف، واعتصم بالصمت وقتا طويلا. فلم تكن تسمع الا أنفاسه الثقيلة الناخرة، ودقات ساعته الجيبية الكبيرة الموضوعة على النافذة. كان ياكوف لوكيتش يظن أن بولوفتسيف قد غلبه النوم، الا أن هذا رفع عن الكرسي جسمه الضخم المكتنز، بحدة، وقال:

– خذ السروج، يا لوكيتش، وسآخذ انا البقية. تعال نخفي كل هذه الأشياء في مكان مأمون جاف. ربما في تلك... كيف... اوه، اللعنة عليها... في السقيفة التي تحفظ فيها جلتك*. ها؟

– اظنها مكانا مناسبا. لنذهب. – وافق ياكوف لوكيتش عن رضى، وكان متشوقا لمغادرة الحجرة.

امسك بيده أحد السروج، واذا بلاتيوفسكي يقفز من السرير في تلك اللحظة كالمسلوع، ويهمس مقلبا عينيه بضراوة:

– ماذا تعمل؟ دعني اسالك ماذا تعمل؟

---

* الجلة: الروث المجفف يستخدم وقودا.

كان بولوفتسيف منحنيا، فرفع جذعه و سأل ببرود:

– ما الخبر؟ ما الذي ازعجك؟

– كيف لا تفهم؟ خبىء السروج، وهذا الحديد الخردة اذا كنت تريد، ولكن ابق الرشاش واقراص العتاد! انت لاتقيم في ضيافة صديق في منزله الريفي، والرشاش يلزمك في اية لحظة. انت تفهم ذلك، على ما أمل؟

وبعد تفكير قصير وافق بولوفتسيف قائلا:

– اظنك على حق، ايها الوغد من رادزيفيل. في هذه الحال ليبق كل شيء هنا. اذهب، يا لوكيتش، ونم. انت حر.

وما أقوى العادات التي يتطبع عليها الانسان في الجيش! قبل ان يتسنى لياكوف لوكيتش التفكير بشيء شعر بأن قدميه الحافيتين «تستديران يسارا» من تلقائهما، وكعبيه المتقسيتين تضرب احداهما الأخرى بصوت جاف لايكاد يسمع. لحظ بولوفتسيف ذلك فابتسم ابتسامة خفيفة، اما ياكوف لوكيتش نفسه، فما ان اغلق الباب وراءه حتى وعى تورطه. نخر في ارتباك، وقال لنفسه «ان ذلك الشيطان الملتحي خدعني بقيافته!»

ولم يغمض له جفن حتى الفجر. تلاشت آماله في نجاح الانتفاضة، وحلت محلها المخاوف في نفسه من الانهيار، والندم في غير اوانه على انه ربط مصير هذا الربط المتعجل بأناس لا امل منهم من مثل بولوفتسيف، ولاتيوفسكي. «آه، استعجلت، ووقعت في داهية!» كان ياكوف لوكيتش يفكر بانسحاق: «كان الاحرى بي، انا الاحمق العجوز، أن اتريث، واراقب عن بعد، ولا اكشف نفسي في البداية لالكسندر انيسيموفيتش، وحين يتغلبون على الشيوعيين، عند ذاك كان من الممكن أن انضم اليهم، والقضية جاهزة، غير أنهم يستطيعون الآن أن يقودوني كالأعمى، الى حفرة لا قرار لها... ولكن اذا كنت افكر في أن اظل في معزل، والآخر يفكر مثل هذا التفكير، والثالث، فماذا سيحصل؟ وتظل السلطة السوفيتية تركب ظهورنا طول الدهر؟ لا يصح هذا ايضا! وهي لا تحل عنا بالحسنى، آه، لا تحل! ليت شيئا

ما يحصل عن قريب... الكسندر انيسيموفيتش يعد بانزال من الخارج، ومساعدة من اهالي كوبان. انها وعود لطيفة، ولكن هل ستتحقق؟ ربنا الرحيم يعرف! طيب، وماذا لو يمتنع الحلفاء عن النزول على ارضنا؟ يرسلون المعاطف العسكرية الانجليزية، مثلما حصل في عام ١٩١٩، ويظلون هم في بيوتهم يرشفون القهوة مع نسائهم، ويرفهون عن انفسهم، في هذه الحال ماذا ستنتفعنا معاطفهم العسكرية وحدها؟ نسمح مخاطنا الدامي باطراف هذه المعاطف، ولا شيء آخر. سيسحقنا هؤلاء البلاشفة، قسما بالله، سيسحقوننا! هذا شيء تعودوا عليه. عند ذلك سيهلك كل من يقف ضدهم. وسيتعالى الدخان من ارض الدون!»

وحزن ياكوف لوكيتش من هذه الافكار، ورثى لنفسه حتى كادت الدموع تتفجر من عينيه. حمحم طويلا، وتوجع، ورسم علامة الصليب، هامسا بالأدعية، وبعد ذلك عاد الى التفكير المضني في امور الدنيا:

«ولماذا لا يتصافى الكسندر انيسيموفيتش مع هذا البولوني ذي العين الواحدة؟ لماذا يتهاوشان دائما؟ امامهما قضية عظيمة، وهما يعيشان ككلبين مسعورين في كشك واحد. واكثر الأحيان يتهجم المتهور ذو العين الواحدة هذا. يقول هذا وذاك. رجل زائف لا اثق به مطلقا. ولاعجب ان يقول المثل: «لا تصدق بالأعور والأحدب وبزوجتك» سيقتله الكسندر انيسيموفيتش، قسما بالله، سيقتله! وليكن، فهو ليس من عقيدتنا».

وعلى هذه الأفكار المهدئة سرح ياكوف لوكيتش اخيرا في نوم قصير مضطرب.

الفصل الثاني

استيقظ ياكوف لوكيتش بعد ان طلعت الشمس. تيسر له في ساعة او اكثر ان يرى العديد من الأحلام، احدها اسخف واكثر ابتذالا من الآخر.

حلم مرة بأنه واقف في الكنيسة قرب المنصة شابا انيق الملبس في حلة عرس كاملة، والى جانبه لاتيوفسكي في فستان زفاف على طوله، ملتفا بنقاب كالغيمة البيضاء، يراوح بنشاط، ويحدجه بعينه الفاسقة الساخرة، ويغمز بها دائما بوقاحة واستثارة. وبدا لياكوف لوكيتش وكأنه يقول له: «فاتسلاف افغوستوفيتش، لا يليق بنا ان نتزوج. فانت رجل ورجل دميم فضلا عن ذلك، فكيف يصح هذا الأمر؟ ثم انني متزوج. فتعال نخبر القس بكل ذلك، والا فسيعقد قراننا ليضحك الناس منا!» ولكن لاتيوفسكي ياخذ يد ياكوف لوكيتش بيده الباردة، وينحني عليه، ويسر له همسا: «لا تقل لأحد أنك متزوج. وساكون لك، يا عزيزي ياشا، زوجة مدهشة!» فيريد ياكوف لوكيتش ان يصيح: «اذهب الى الشيطان، ايها الأحمق الأعور!» وهو يحاول انتزاع يده من يد لاتيوفسكي، ولكنه لايستطيع. فان اصابع لاتيوفسكي باردة فولاذية، وصوت ياكوف لوكيتش غير مسموع بشكل غريب، وشفتيه تبدوان وكانهما من قطن... ويبصق ياكوف لوكيتش حنقا، ويستيقظ. وعلى لحيته ووسادته بصاق لزج...

وقبل ان يلحق ليرسم على نفسه علامة الصليب، ويردد «مبارك انت، يارب» حتى يحلم مرة أخرى بانه يتجول بصحبة ابنه سيميون واغافون دوبتسوف، وآخرين من أهل عزبته في مزرعة هائلة يفطفون الطماطم تحت اشراف مراقبات شابات في فساتين بيض. وياكوف لوكيتش نفسه، وجميع القوزاق المحيطين به عراة لسبب لايعرفه، ولكنه لا احد يخجل من عريه غيره. ودوبتسوف ينحني على شتلة طماطم، مديرا له ظهره، فيقول له ياكوف لوكيتش متقطع الانفاس من الضحك والاستياء: «على الأقل لوقللت من انحنائك الواطيء هذا، ايها المخصي المجدور! على الأقل لو خجلت من النساء!»

وياكوف لوكيتش يقطع الطماطم بيده اليمنى فقط، مقرفصا بارتباك، ويفعل بالأخرى، كما يفعل السباح العاري، عند نزوله في الماء...

وعندما استيقظ ياكوف لوكيتش قعد على السرير وقتا طويلا، وحدق امامه في بلاهة بعينين مرعوبتين معتوهتين. «مثل هذه الاحلام الرذيلة لاتبشر بخير. ستقع مصيبة!» صمم على ذلك في ذهنه، وهو يحس في قلبه بثقل غير مريح وحين عادت اليه حواسه في اليقظة كان يبصق كلما تذكر ما حلم به قبل حين.

لبس ثيابه في مزاج كئيب للغاية، ورفس القطة التي راحت تداعبه، واثناء الفطور نعت امراته بالحماقة بدون سبب، وهز الملعقة على كنته التي انبرت تتكلم على المائدة عن شؤون البيت في وقت غير مناسب، هز الملعقة عليها وكانها صبية صغيرة وليست امراة راشدة. طرب سيميون من تعنت ابيه، فرسم على وجهه تقطيبة خائفة بلهاء، وغمز لزوجته، فارتعد جسم الزوجة كله بضحكة مكبوتة، مما افقد ياكوف لوكيتش ما تبقى من رباطة جاشه. فالقى الملعقة على المائدة، وصرخ بصوت جارح ضار:

– اضحكوا، ولكن ربما ستبكون قريبا!

وقبل ان يتم فطوره، اخذ ينهض من وراء المائدة، واذا به، من نكد الحظ، يسند كفه على حافة طاسة، ويسكب على بنطلونه ما تبقى فيها من الحساء الساخن. غطت كنته وجهها في يديها، واندفعت الى الرواق. وبقي سيميون في مكانه الى المائدة، وقد انزل راسه على يديه، سوى ان ظهره العضلي راح يهتز من الضحك، ودفتيه القويتين اخذتا تختلجان. وحتى زوجة ياكوف لوكيتش الرزينة ابدا، لم تستطع أن تمسك نفسها عن الضحك. سالت ضاحكة:

– ماذا حصل لك اليوم، يا أب؟ هل نزلت من السرير برجلك اليسرى، أم حلمت أحلاما مزعجة؟

– وكيف تعرفين، ايتها المشعوذة العجوز؟ – صاح ياكوف لوكيتش بأعلى صوته، و هرع تاركا المائدة.

وعند عتبة المطبخ تشربك بمسمار ناتئ من عضادة الباب شق كم قميصه الجديد الساتان حتى المرفق. عاد الى حجرته، واخذ يبحث في الصندوق عن قميص آخر، واذا

بغطاء الصندوق يسقط، وقد ركنه على الحائط باهمال، فوقع على قفاه ثقيلا يرن في راسه.

– عليك اللعنة! باي بداية بدا هذا اليوم! – صرخ ياكوف لوكيتش غاضبا، وانهد على مقعد خائرا، متلمسا العجرة الكبيرة التي ظهرت في قفاه.

استجمع قواه على نحو ما، وغير بنطلونه الملطخ بالحساء، وقميصه الممزق حتى المرفق، ولكنه لانفعاله الشديد وعجالته، نسي أن يزرر بنطلونه. وسار ياكوف لوكيتش، وهو بهذا الشكل المعيب حتى كاد يصل الى ادارة الكولخوز، وهو مندهش في سره من تلك الابتسامات الغريبة التي كانت النسوة يجابهنه بها، حين يسلم عليهن، ويشحن بوجوههن عنه... وقد وضع حدا لدهشته هذه، وبلا كلفة، الجد شوكار الذي التقاه خفيف الخطى. فقد توقف وساله بتعاطف:

– اراك تشيخ، يا فتاي ياكوف لوكيتش؟

– وانت تعود الى الشباب؟ كل شيء مرتسم على وجهك! عيناك حمروان كعيني الأرنب، ودامعتان.

– عيناي تدمعان من القراءة في الليل. في شيخوختي اقرا واحصل على تعليم عال متنوع، ولكنني اراعي اللياقة مع نفسي، اما انت فصرت سرحان الذهن من الشيخوخة...

– وكيف صرت سرحان؟

– تنسى أن تسد باب زريبتك و تترك ماشيتك سارحة.

قال ياكوف لوكيتش ساهما:

– سيسده سيميون.

– لن يسد سيميون باب زريبتك...

انذهل ياكوف لوكيتش من هذا اللغز المزعج، انزل بصره الى الأسفل، وارسل آهة، وراح يعمل باصابعه بسرعة. واتماما لكل المصائب والمنغصات التي توالت على ياكوف لوكيتش في يومه المنحوس هذا وقعت قدمه، وهو في فناء الادارة، على بطاطة مرمية، فسحقها، وانزلق بها، و تمدد بكل قامته على الأرض.

أوه، هذا اكثر من اللازم، وينطوي على شيء غير اعتيادي! وكان ياكوف لوكيتش المؤمن بالخرافات، شديد الثقة بأن بلية كبيرة تترصده، دخل الى حجرة دافيدوف شاحبا مرتجف الشفتين:

– انا مريض، يا رفيق دافيدوف، فاعفني اليوم من العمل. سيتوب عني مأمور المستودعات.

قال دافيدوف بتجاوب:

– نعم، يبدو عليك التوعك، يا لوكيتش. اذهب واستلق. هل تذهب الى المطبب بنفسك ام نرسله لك الى البيت؟

هز ياكوف لوكيتش ذراعه بحركة يائسة:

– المطبب لايساعدني. سأنال راحتي بنفسي...

في البيت طلب اغلاق الصفاقات، وخلع ملابسه، واستلقى على سريره منتظرا، بصبر، البلية القادمة. وقال في سره: «كل ذلك بسبب هذه السلطة الملعونة. لا تتركك بسلام لابالليل ولا بالنهار. في الليل تحلم باحلام مزعجة لم تحلم بمثلها أبدا في العهد الماضي، وفي النهار تتعاقب سلسلة من المزعجات... لن اعيش في ظل هذه السلطة العمر الذي كتبه الرب لي! سأموت قبل ذلك!»

ولكن ياكوف لوكيتش لم يكن مصيبا في توقعاته المنذرة في هذا اليوم. فان البلية قد تلكأت في الطريق، ولم تصل اليه الا بعد يومين ومن أقل النواحي التي كان يتوقع ان تأتي منها...

قبيل النوم احتسى ياكوف لوكيتش قدحا من الفودكا لتقوية الاعصاب، ونام الليلة بهدوء، وبدون احلام، وفي الصباح تألق بشاشة، وفكر في فرح: «زالت الغمة!». وقضى نهاره في لغب العمل الاعتيادي، ولكنه في اليوم التالي، وكان يوم احد، لاحظ قبيل العشاء ان زوجته قلقة من شيء ما، فسألها:

– ماذا بك، يا أم، وكأنما لست في اطوارك؟ هل مرضت

البقرة؟ يوم أمس لاحظت انا ايضا انها كانت تبدو مهمومة لدى عودتها من القطيع.

استدارت الزوجة نحو ابنها:

– سيما، اخرج لساعة. يجب أن اتحدث مع ابيك.

كان سيميون يمشط امام المرآة فقال ساخطا:

– ما هي هذه الاسرار التي تتبادلانها دائما؟ في حجرة الضيوف صديقا ابي يتهامسان ليل نهار، وقد علقهما الشيطان على رقابنا. وانتما الآن... عن قريب سيستحيل العيش في البيت من هذه الأسرار. ليس هذا بيتا بل دير راهبات. لا شيء الا التهامس والوسوسة...

احتد ياكوف لوكيتش قائلا:

– اسكت، هذا أمر لايستوعبه عقلك، عقل العجل! قيل لك اخرج، يعني اخرج! صرت كثير الكلام هذه الأيام.. اياك، امسك لسانك، والا فسيفرك بسهولة.

اهتاج سيميون، وادار وجهه الى أبيه، وقال بصوت أجوف:

– وانت، يا بابا، قلل من تهديداتك! عائلتنا ليس فيها خائفون ولا صغار. والا فاذا اخذ أحدنا يهدد الآخر فان العاقبة ستكون سيئة على الجميع...

وخرج، وصفق الباب خلفه. صاح ياكوف لوكيتش بغضب:

– تفضلي، عايني الى ابنك! أي بطل صار، ابن الكلبة!

قالت الزوجة متحفظة، وهي التي لم تتعود الاعتراض عليه:

– نعم، يجب أن نفكر، يا لوكيتش. ضيفاك الطفيليان هذان لا يدخلان الفرحة الى القلب. نعيش معهم باحتراس شديد يكتم الانفاس! لست تعرف في اية لحظة تأتي السلطة في العزبة، وتفتش، وستكون النهاية! هذه ليست حياة، بل قلق دائم، خوف من كل همسة، من كل طرقة. عسى الله أن لا يكتب مثل هذه الحياة على واحد من عباده! تلفت نفسي خوفا عليك وعلى سيميون. حين سيكتشف الناس

امر نزيلينا، ويعتقلوتهما ياخذونكما انتما ايضا. وعندئذ ماذا ستفعل لوحدنا ونحن نسوة؟ تسير في الطرقات نشحذ؟

– كفى! – قاطعها ياكوف لوكيتش – اعرف ماذا افعل بدون معونة منك أو من سيميون. ماذا كنت تريدين ان تقولي لي؟ هيا، قولي!

اغلق كلا البابين باحكام، وجلس قرب زوجته. في البداية استمع اليها، دون ان يدع رهبته المستحوذة عليه تظهر الى الخارج، وقبل ختام الحديث، وقد سيطر على نفسه، نهض من المسطبة بحدة، وهرع الى المطبخ، وهو يهمس مذهولا:

– انتهينا! اهلكتنا امنا! قطعت راسي!

وبعد ان هدأ قليلا شرب قدحين كبيرين من الماء واحدا في اثر الآخر، واسقط جسمه على المسطبة وهو غارق في تفكير مرهق.

– ماذا ستفعل الآن، يا اب؟

لم يجب ياكوف لوكيتش على سؤال زوجته. فهو لم يسمعه.

لقد علم مما روته زوجته ان اربع عجائز جئن الى البيت قبل مدة قصيرة، وطالبن بالحاح ان يوصلن الى السيدين الضابطين. فقد كانت العجائز متلهفات الى ان يعرفن متى سيطيح هذان الضابطان بمساعدة ياكوف لوكيتش الذي يأويهما وبمعونة قوزاق غريمياتشي الآخرين بالسلطة السوفيتية الكافرة. وقد اكدت لهن زوجة ياكوف لوكيتش، ولكن بلا جدوى، بان اي ضابط لم يكن في بيتهم قط، ولن يكون. وردا على ذلك قالت لها لوشيلينا محتدة، وهي امراة محدودية لئيمة: «انت اصغر من ان تكذبي علي، يا أم! حماتك نفسها كانت تقول لنا ان هذين الضابطين يقيمان عندكم منذ الشتاء. نحن نعرف انهما عندكم، يختفيان عن الناس ولكننا لن نذكرهما لأحد. خذينا الى كبيرهما، المسمى الكسندر انيسيموفيتش!»

... بينما كان ياكوف لوكيتش يدخل الى بولوفتسيف

كان يحس بالرعدة التي صارت مالوفة له. كان يفكر بان بولوفتسيف سيثور، حين يسمع بما حصل، ويطلق العنان لقبضاته. كان لوكيتش ينتظر التنكيل بخنوع الكلب مرتعش الأوصال. ولكنه حين روى كل ما سمعه من زوجته دون ان يخفي شيئا متعثرا بالكلمات، متلعثما من الانفعال، اكتفى بولوفتسيف بابتسامة ساخرة، وقال:

– يا لروعتكم من متآمرين... ومع ذلك فقد كان هذا متوقعا. يعني خذلتك أمك، يا لوكيتش؟ ماذا ستفعل الآن، حسب رأيك؟

– يجب ان تغادروا بيتي، يا الكسندر انيسيموفيتش! – قال ياكوف لوكيتش بحزم، وقد شجعه حسن استقبال بولوفتسيف.

– متى؟

– كلما كان اقرب كان احسن. لا وقت للتروي وللتفكير.

– اعرف ذلك بدونك. ولكن الى اين؟

– لا اعرف. ولكن اين الرفيق... اعذرني، ارجوك على فلتة اللسان هذه! اين السيد فاتسلاف افغوستوفيتش؟

– غير موجود. سيأتي ليلا. وستلتقي به غدا عند الحديقة. واتامنتشوكوف ايضا يعيش في طرف العزبة؟ طيب، هناك سأقضي اياما معدودات. خذني اليه!

سارا متخفيين، وقبل ان يفترقا قال بولوفتسيف لياكوف لوكيتش:

– مع السلامة، يا لوكيتش! فكر، يا لوكيتش، بخصوص أمك... قد تقوض كل قضيتنا... فكر في هذا... استقبل لاتيوفسكي، واخبره بمكان اقامتي الحالية.

وعانق ياكوف لوكيتش، مس خده الخشن غير الحليق بشفتيه اليابستين وابتعد واختفى وكانه غاب في جدار البيت الذي لم يملط منذ زمن طويل.

عاد ياكوف لوكيتش الى بيته، واستلقى لينام، ودفع زوجته نحو الحائط بخشونة غير معتادة، وقال:

– اسمعي... لا تقدمي طعاما الى أمي منذ الآن... ولا تعطيها ماء... فانها، على اية حال، ستموت ان لم يكن اليوم فغدا.

كانت زوجة ياكوف لوكيتش قد عاشت معه حياة طويلة ليست بالهينة. فاكتفت بان ارسلت آهة:

– ياشا! لوكيتش! ولكنها امك!

واذا بياكوف لوكيتش، ولربما لأول مرة خلال حياتهما الزوجية المنسجمة، رفع يده عاليا وضرب بها زوجته الكهلة ضربة قوية، وقال بصوت مكبوت مبحوح:

– اسكتي! ستوقعنا في داهية! اسكتي. هل تريدين النفي؟

ونهض ياكوف لوكيتش ثقيلا، وتناول من الصندوق قفلا صغيرا، وسار في الرواق الداقي، بحذر، وقفل باب الحجرة التي كانت تعيش فيها أمه.

سمعت العجوز وقع الخطوات، وكانت منذ زمن بعيد جدا قد تعودت أن تتعرف عليه من خطواته... وكيف لها أن لاتتعلم أن تلتقط بسمعها خطوات ابنها، ولو من بعيد؟ قبل اكثر من خمسين عاما، حين كانت شابة فوزاقية جميلة، كانت تترك عمل البيت والطبخ، وتنصت بابتسامة بهيجة، الى قدمي ياشنكا الحافيتين وهما تدبان على ارض الحجرة المجاورة بخلخلة وتهيب، قدمي ابنها الحبيب، ابنها البكر، الذي اخذ يتعلم المشي لتوه بعد أن كان يزحف. وبعد ذلك سمعت قدمي ابنها الصغير ياشكا تدقان درجات مدخل البيت وكأنما تقفزان عليها وثبا، حين كان يعود من المدرسة. آنذاك كان مرحا خفيف الحركة، كالماعز الصغير. وهي لاتذكر في عمرها هذا انه كان يمشي في فترة من الفترات، بل كان يركض أبدا، وليس ركضا بسيطا، بل بوثبات كالماعز تماما... ومضت الحياة، كما هي مع الآخرين، الغنية مملوءة بالأحزان الطويلة، والفقيرة بالأفراح القصيرة، وحين صارت أما تخطت سن الشباب، كان يزعجها أن تسمع في الليالي مشية ياشا الخفيفة، وكأنها تنزلق انزلاقا، ياشا

الفتى المشوق النشيط، ابنها الذي تفخر به في سرها. حين كان يعود من الرقص في ساعة متأخرة من الليل كان خطوه الفتي خفيفا سريعا حتى لكأن حذاءه لايكاد يمس الأرضية. ولم تلحظ كيف صار ابنها راشدا، صاحب عائلة. اكتسبت مشيته ثقة هائلة. ومنذ زمن طويل وخطواته تردد في ارجاء البيت، خطوات رب عائلة، خطوات رجل تخطى سن الشباب، وكاد يصير كهلا، ولكنه بقي، بالنسبة لها، «ياشا الصغير» كما في السابق، وغالبا ما كانت تراه في أحلامها، غلاما صغيرا، أشقر الشعر، خفيف الحركة.

وها هي الآن أيضا، حين سمعت خطواته سألت بصوت كامد شائخ:

– أهذا أنت، يا ياشا؟

لم يرد عليها ابنها. وقف قليلا قرب الباب، وخرج الى الفناء، بحث خطاه لسبب غير معروف. وفكرت العجوز من خلال النعاس: «أنجبت وربيت فوزاقيا جيدا، ورب بيت طيبا، والحمدلله! الجميع نائمون، بينما هو خرج الى الفناء، ويهتم بشؤون البيت». ومست شفتيها اليابستين الخاليتين من الدم ابتسامة الأمومة الفخور مسا خفيفا.

ومنذ تلك الليلة ساءت الاحوال في البيت...

تشبثت العجوز، الهزيلة العاجزة، بأذيال الحياة، واخذت تتوسل أن تعطى كسرة خبز على الأقل أو جرعة ماء، وكان ياكوف لوكيتش، حين يمر في الرواق مختلس الخطى، يسمع همسها المخنوق غير المسموع تقريبا:

– ياشنكا، يا ولدي العزيز! على اي شيء هذا؟! اعطوني قليلا من الماء، على الأقل.

... كانت العائلة تتحاشى دائما البقاء داخل مبنى البيت الرحيب. كان سيميون وزوجته يقضيان نهارهما ويبيتان في الفناء. أما زوجة ياكوف لوكيتش فاذا اضطرتها احتياجات المنزل الى دخول البيت، فقد كانت تخرج والعبرات تهز جسدها. وحين جلست العائلة الى مائدة العشاء، في نهاية اليوم التالي، وقال ياكوف لوكيتش، بعد صمت طويل:

«دعونا في الوقت الحاضر ننتقل الى العيش هنا، في هذا الماوى الصيفي» ارتعد سيميون بكل جسده، ونهض من وراء المائدة، وانقذف وكانما بفعل قوة دافعة، وخرج...

...وفي اليوم الرابع خيم السكون على البيت. خلع ياكوف لوكيتش القفل باصابع مرتعشة، ودخل مع زوجته الحجرة التي كانت تعيش فيها امه. كانت العجوز راقدة على الارض قرب عتبة الباب، وقد علكت لثتها الدردار قفازا جلديا قديما كان قد نسي عرضا منذ ايام الشتاء. وكانت كل الدلائل تشير الى أنها كانت تحصل على بعض الماء من افريز النافذة، حيث كان المطر الخفيف يتساقط من خلال الصفاقة دون أن تراه عين أو تسمعه اذن، ولربما من قطرات الندى التي كانت تظهر في ذلك الصيف الضبابي...

غسلت صديقات الميتة جسدها الضاوي المتجعد، والبسنها ثيابها التي ستدفن بها، واعولن، ولكن أحدا لم يبك في العزاء بمرارة وانقطاع كما بكى ياكوف لوكيتش. فقد غص قلبه في ذلك اليوم بالألم والندم وقداحة الفجيعة واستقر هناك كثقل رهيب.

الفصل الثالث

كان الحنين الى العمل الجسماني يرهق دافيدوف. كانت كل عافيته، وجسده القوي يتحرقان ظمأ الى عمل يجعل عضلاته كلها تئن في المساء بتعب مثقل حتى اذا جن الليل، وجاءت الراحة المشتهاة اهدى له نوما سريعا خفيفا خاليا من الأحلام.

ذات مرة ذهب دافيدوف الى مشغل الحدادة ليتفقد مجرى اصلاح الحاصلات الكولخوزية. ارتعد جسده من الرائحة الحامضة المرة للحديد المحمى الى حد الأحمرار، والفحم المتقد، ورنين السندان الصداح، والتنهدات الشاكية المتحشرجة التي يرسلها النفاخ القديم. وقف بضع دقائق صامتا في المشغل الشاحب الظلمة، مغمضا عينيه بهناء،

يستنشق بتلذذ الروائح المألوفة له منذ الطفولة، المألوفة الى حد الألم. وبعد ذلك لم يقاوم الاغراء، فتناول المطرقة... اشتغل يومين من الشروق الى الغروب دون أن يترك المشغل. وكانت صاحبة البيت تجلب له غداءه. ولكن أي عمل لعين هذا حين يقطعونك عنه كل نصف ساعة والحديد المحمى يبرد، وهو في الكماشة، ويزرق والحداد العجوز سيدروفيتش يدمدم متذمرا، وصبي الكور يبتسم بسخرية صريحة، وهو ينظر الى يد دافيدوف المتعبة تسقط القلم على الأرض الترابية من حين لآخر، وترسم شريكة من الخطوط العويصة بدلا من الحروف المقروءة التي تكتب على ورقة رسمية عادة.

نفر دافيدوف من ظروف العمل هذه، وشتم في سره شتائمه القديمة كبحار، وغادر المشغل حتى لايعيق سيدروفيتش، وجلس في ادارة الكولخوز جهما محنقا.

في الحقيقة كان يقضي أياما كاملة في النظر في مسائل اعتيادية ولكنها مهمة تخص الكولخوز: ينظر في تدقيق الحسابات والاحصائيات العديدة التي كان يضعها كاتب الحسابات، في الاستماع الى تقارير رؤساء فرق العمل، في فحص عرائض الكولخوزيين المختلفة، في الاجتماعات الانتاجية، وباختصار في كل ما لاغنى عنه لقيام استثمارة كولخوزية كبيرة، وما لا يوفر الا أقل متعة لدافيدوف من بين كل الأعمال الأخرى.

صار نومه سيئا. وحين كان يستيقظ كان يشعر بالصداع يطوق راسه في كل صباح. وكان ياكل ما يقع بين يديه، ويظل حتى المساء يلازمه احساس باعياء غير مفهوم لم يعرفه من قبل. انحل دافيدوف قليلا، وبشكل لم يلحظه هو نفسه، وظهر في طبعه تهيج لم يكن من صفاته من قبل، كما ان مظهره لم يكن بذلك العنفوان والاكتناز اللذين كان عليهما في الأيام الأولى من قدومه الى غريمياتشي. وبالاضافة الى ذلك هناك لوشكا ناغولنوفا، وما يتوارد على

ذهنه دائما من مختلف الافكار فيها... لقد كانت ساعة نحس ساعة اعتراض هذه المرأة اللعينة لطريقه!

وذات مرة قال رازميوتنوف، وهو يحدق في وجه دافيدوف الناحل بعينين خاوصهما بسخرية:

— انت تنحل وتنحل، يا سيميون؟ تبدو الآن كثور عجوز بعد شتاء قاس. وقريبا ستنبطح، اثناء سيرك، صرت مقشرا ومهلوسا... تفقد رونقك؟ قلل من بصبصاتك على فتياتنا، ولاسيما على المطلقات. فذلك يضر بصحتك ضررا بالغا.

— الى الشيطان انت ونصائحك الحمقاء!

— لا تحتد! فانا انصحك عن حب.

— دائما تختلق مختلف السفاسف، حقيقة!

احمر دافيدوف ببطء، ولكنها حمرة قانية. لم يقو على كبح ارتباكه، فأخذ يتكلم بتفكك عن موضوع آخر. الا ان رازميوتنوف لم يتهادن:

— هل في الاسطول ام في المصنع، علموك ان تحمر بهذا الشكل، لا بوجهك وحده، بل وبرقبتك كلها؟ او ربما تحمر بكل جسدك! اخلع قميصك لأرى!

ولم يغير رازميوتنوف موضوع الحديث الا حين راى الشرر في عيني دافيدوف الكدرتين، فغير موضوع الحديث بحدة، متثائبا بضيق، واخذ يتكلم عن الحصاد، وينظر بتعاس مصطنع من تحت جفنين نصف مغمضين، وبابتسامة ماكرة لم يستطع او لم يرد ان يخفيها تحت شاربيه الأشقرين.

فهل كان رازميوتنوف يخمن مجرد تخمين ان لدافيدوف علاقة بلوشكا ام كان يعرف هذه العلاقة بالفعل؟ اغلب الظن انه كان يعرف بها. اي، نعم، كان يعرف بالطبع! وكيف يمكن التكتم على مثل هذه العلاقة اذا كانت لوشكا السليطة ليست فقط لا تريد التكتم عليها، بل وتتعمد ان تجعلها معروفة للجميع. والظاهر بأنها كانت تشبع غرورها الرخيص

بأن تكون، وهي الزوجة المنبوذة لسكرتير الخلية الحزبية، تحت كنف رئيس الكولخوز نفسه، لا كولخوزي اعتيادي، ولا تطرد منه.

كانت في بعض المرات تخرج من ادارة الكولخوز بصحبة دافيدوف، فتتأبط ذراعه مستهينة بعادات العزبة الصارمة، بل وكانت تضغط عليه بكتفها قليلا. وكان دافيدوف ينظر فيما حوله كالمقنوص، يخشى ان يرى ماكار، ولكنه لم يكن يسحب يده، ويساير لوشكا في فعلها، ويسير بخطوات قصيرة كالحصان المقيد، وكثيرا ما يتعثر في ارض منبسطة، لسبب ما... وكان صبيان العزبة الوقحون — سوط العشاق الذرب — يتراكضون وراءه، ويرسمون على وجوههم مختلف التعابير التمثيلية، ويتصايحون باصوات نحيلة:

حامض العجين
عند المخطوبين.

ويتفننون كثيرا، وينوعون قافيتهم السخيفة هذه بلانهاية، والى ان يقطع دافيدوف مع لوشكا زقاقين، وقد تسربل بالعرق، وهو يصب اللعنات في سره على الصبيان وعلى لوشكا وعلى ضعف عزيمته هو، يكون الصبيان قد نوعوا «حامض العجين» وجعلوه مدورا، وماسخا ومطعما، ومحلى، وغير ذلك من الصفات على التوالي. وفي آخر الأمر كان صبر دافيدوف ينفد، فيفك برفق اصابع لوشكا السمراء المتشبثة بقوة في مرفقه، ويقول: «اعذريني، ليس لدي وقت، يجب أن أسرع» ويسير الى الامام بخطى واسعة. ولكن لم يكن من السهل كثيرا التخلص من ملاحقة الصبيان اللجوجين. فقد كانوا ينقسمون الى جماعتين: واحدة تبقى لمعاكسة لوشكا، والاخرى تتعقب دافيدوف بعناد. ولم تكن هناك الا طريقة واحدة مضمونة للتخلص من الملاحقة. فقد كان دافيدوف يقترب من سياج اقرب البيوت اليه، ويتظاهر بانه يقطع عصا منه، فيفر الاولاد في الحال، وكان الريح

بددتهم. عند ذاك فقط كان رئيس الكولخوز يصير السلطان الأوحد في الشارع وما حوله...

قبل فترة ليست بالطويلة جدا التقى دافيدوف ولوشكا بعد منتصف الليل يحارس الطاحونة الهوائية وجها لوجه، في مكان بعيد في السهب خارج العزبة. كان الحارس – وهو الكولخوزي العجوز فرشينين – مستلقيا وراء اكمة لجحر مرموط قديم، وقد تغطى بقفطانه. رأى شخصين يسيران باتجاهه وفي خط مستقيم، فنهض فجأة بكل قامته، وصاح بحدة على طريقة العسكر:

– قف! من هناك؟ – وهيأ بندقيته القديمة، وغير المحشوة فضلا عن ذلك.

رد دافيدوف على مضض:

– من جماعتكم. هذا أنا، يا فرشينين!

واستدار الى الخلف استدارة حادة جاذبا لوشكا وراءه، ولكن فرشينين لحق بهما وهو يقول بتوسل:

– هل لديك شيء من التبغ، يا رفيق دافيدوف، على الاقل للف سيكارة واحدة؟ سأموت من دون تدخين، اذناي تورمتا.

لم تستدر لوشكا، ولم تبتعد ناحية، ولم تغط وجهها بمنديلها. راحت تنظر بهدوء الى دافيدوف وهو يصب التبغ من كيسه بعجالة، وقالت بهدوء ايضا:

– لنذهب، يا سيما. أما انت، يا عم نيكولاي، فالافضل ان تترصد اللصوص، لا الذين يرعون الحب في السهب. ليس اشرار الناس وحدهم يتجولون في الليل...

ارسل العم نيكولاي ضحكة مقتضبة، وربت على كتف لوشكا بالفة:

– ولكن احدا، يا عزيزتي لوشكا، لايستطيع ان يفرق في ظلام الليل بين من يرعى الحب في السهب، ومن يضع مال الاخرين في الجيب. مهمتي ان احرس، واوقف كل طارق، واحرس الطاحونة الهوائية. لأن فيها حبوب الكولخوز، وليس

اقراص جلة. طيب، شكرا على التبغ. ارجو لكما التوفيق والحظ السعيد!..

وحين بقيا لوحدهما قال دافيدوف بانزعاج مكشوف:

– اي شيطان وسوس لك لتخوضي في حديث معه؟ كان الاحرى بك ان تبتعدي، عندئذ كان من الممكن الا يتعرف عليك.

ردت لوشكا بجفاف:

– لست في السادسة عشرة، ولست بنتا حتى اخجل من اي احمق عجوز.

– وليكن...

– ماذا وليكن...

– لماذا تريدين دائما ان تقيمي استعراضا؟

– ولكن من هو بالنسبة لي، ابي ام زوج امي؟

– انا لا افهمك...

– اجهد نفسك قليلا، وستفهم.

لم ير دافيدوف في الظلام، ولكنه حدس من الصوت ان لوشكا تبتسم. امتاظ من استهانتها بسمعتها كامراة، واستهتارها التام بالتقاليد، فصرخ بحدة:

– ولكن افهمي، يا حمقاء، ان هذا من حرصي عليك!

اجابت لوشكا بجفاف اكثر:

– لا تتعب نفسك، سأدبر حالي، على نحو ما. احرص على نفسك انت.

– وعلى نفسي ايضا.

توقفت لوشكا على الفور، والتصقت بدافيدوف. وكان في صوتها شماتة ظافرة:

– كان عليك ان تبدأ بهذا، يا عزيزي! انت لا تحرص الا على نفسك، وقد انزعجت بالذات لأنك شوهدت مع امراة في السهب. ولكن العم نيكولاي لايهمه مع من تهيم في الليل.

احتد دافيدوف:

– ولم «تهيم» هذه؟

– واية كلمة اخرى؟ العم نيقولاي مجرب ويعرف انك

لم تأت معي الى هنا، لتجمع الشليك. وقد ارتعبت مما سيظن بك الطيبون في غريمياتشي، الكولخوزيون الشرفاء. اليس كذلك؟ ولا يهمك من امري شيء! كنت، على اية حال، ستتنزه خارج العزبة ان لم يكن معي، فمع امراة اخرى. ولكنك تحب ان تأثم، وان تظل في الطراوة والظل، حتى لايعرف احد شيئا عن مشاويرك. الى هذا الحد انت مخادع، كما يبدو! ولكن لا يمكن للمرء ان يحتمي طوال حياته في الطراوة. يا لك من بحار اخرق! فكيف يمكن ان يكون هذا معك؟ تخاف انت، وانا لا اخاف؟ يعني انا رجل، وانت امراة، ها؟

كانت لوشكا ميالة الى المزاح اكثر من المخاصمة، ولكن كل شيء كان يدل على انها كانت مستاءة من تصرف محبوبها. سكتت لحظة، وهي تحدجه من جانب بازدراء، واذا بها تخلع تنورتها الساتان السوداء بسرعة، وتقول بلهجة آمرة:

– اخلع!

– جننت! لأي شيء هذا؟

– البس تنورتي، وسالبس بنطلونك. وسيكون ذلك عدلا! فالناس يلبسون ما يصلح لهم من لباس. اوه، اسرع!

ضحك دافيدوف، رغم تكدره من كلمات لوشكا واقتراحها تبادل الملابس. قال بهدوء كابتا بكل قوته الضيق المتجمع في صدره:

– كفي عن الدلع، يا لوشكا! البسي، ولنذهب.

لبست لوشكا تنورتها وهي تتحرك بفتور وبلا رغبة، وعدلت شعرها الذي افلت من تحت المنديل، وفجاة قالت، وفي صوتها وحشة عميقة وغير متوقعة:

– انت تضجرني، ايها البحار الناشف!

وبعدها سارا حتى العزبة دون ان يتبادلا اية كلمة. وبصمت ايضا توادعا في الزقاق. انحنى دافيدوف انحناءة مقتضبة. وهزت لوشكا راسها هزة لاتكاد تلحظ، واختفت وراء باب الحديقة وكانما ذابت في الظل الكثيف لشجرة قيقب معمرة...

ولم يلتقيا لعدة ايام، وفي صباح احد الايام بعدها دخلت لوشكا ادارة الكولخوز، وانتظرت في الرواق بصبر ريثما يخرج آخر مراجع. اراد دافيدوف ان يغلق باب غرفته، الا ان بصره وقع على لوشكا. كانت جالسة على المسطبة فارجة ساقيها بسعة، كما يفعل الرجال، وقد لفت ركبتيها المدورتين بتنورتها باحكام، وراحت تقضم بذور عباد الشمس، وتبتسم بوداعة. وسالت بصوت واطيء ضاحك:

– هل تريد بعض البذور، يا رئيس؟ – وتحرك حاجباها الرقيقان قليلا، وتطلعت عيناها بخبائة صريحة.

– لماذا لم تذهبي لاجتثاث الاعشاب؟

– الآن ذاهبة. ها انت تراني لابسة ملابس العمل كلها. جئت لأقول لك... تعال اليوم الى المرعى حال هبوط الظلام. سانتظرك قرب سقيفة الدريس لال ليونوف. هل تعرف اين هي؟

– اعرف.

– هل ستاتي؟

هز دافيدوف راسه بصمت، وسد الباب باحكام.

ظل وقتا طويلا جالسا وراء مكتبة في سهوم كئيب، وقد اسند خديه على قبضتي يديه، وثبت بصره في نقطة واحدة. فقد كان له ما يشغل فكره!

وحتى قبل زعلهما الأول، كانت لوشكا قد زارته في مسكنه مرتين، حيث كانت تمكث قليلا، وتقول بصوت عال:

– اوصلني، ياسيما! الدنيا ظلام، واخاف من السير لوحدي. اخاف خوفا فظيعا. فانا منذ الطفولة شديدة الخوف، منذ الطفولة يرعبني الظلام.

ابدى دافيدوف وجها مكفهرا، وحول عينيه الى الحائط المصنوع من الواح الخشب والذي كانت صاحبة المنزل – وهي امراة عجوز متدينة – تموء خلفه كالقطة في حنق، وهي تطقطق بالأواني لتعد شيئا لعشاء زوجها ودافيدوف. كان سمع لوشكا المرهف المشدود يلتقط بوضوح همس صاحبة البيت الصافر:

– هي تخاف! انها ابليس وليست امراة! انها تتلمس طريقها في الظلام، الى اي شاب ولوكان في الجحيم، دون أن تنتظر ان يأتي هو اليها. عفوك، يارب، على كلامي الآثم! وتقول انها ترتعب! معلوم، يرعبك الظلام، أيتها الجنية الشريرة!

فما كان من لوشكا الا ان ابتسمت، وهي تسمع هذا الوصف الذميم لها، فهي ليست امراة تؤثر على مزاجها سخريات عجوز متدينة مثل صاحبة البيت هذه! ولا تعبأ بمرائية مرولة فقد صمدت لوشكا الشجاعة في حياتها الزوجية القصيرة أمام شجارات أفظع من هذه مع نساء غريمياتشي. كانت تسمع دمدمة ربة البيت بوضوح وراء الباب، رغم حفضها لصوتها حين كانت تصفها بالفسق والفجور. بينما كانت لوشكا تسمع وتتفوه هي الاخرى بكلمات افظع من هاتين الكلمتين الخفيفتين، في شجاراتها مع نساء غريمياتشي المتكدرات، حين كن يشتبكن بعراك، ويرمينها بشتائم استثنائية، وهن يتصورن، بسذاجة عمياء، انهن وحدهن المؤهلات لحب أزواجهن! وعلى اية حال كانت لوشكا قادرة على الدفاع عن نفسها، وكانت دائماً ترد على المخاصمات الرد اللائق. لم تكن تحرج قط، وفي كل الظروف، ولم تكن تعوزها الكلمة اللاذعة، فضلا عن أن العزبة كلها كانت تفتقر الى من تضارع لوشكا من النساء، ومن تستطيع أن تخجلها بسحب المنديل من راسها... ومع ذلك فقد قررت أن تلقن العجوز هذه، ببساطة وبالشكل فقط، مستجيبة الى القاعدة التي اتخذتها في حياتها: وهي أن تكون لها، للوشكا، الكلمة الأخيرة دائماً.

في زيارتها الثانية، توقفت لحظة في حجرة صاحب البيت الطرية، وتركت دافيدوف يسبقها. وحين خرج هذا الى الرواق، وركض نازلا درجات المدخل الصارفة، استدارت بوجهها الى صاحبة البيت بمظهر غاية في البراءة، واتضح أن تقدير لوشكا كان صائبا. بللت العجوز شفتيها المبللتين

اصلا، لعقتهما بلسانها بعجالة، وراحت تقول دون أن تتوقف لتلتقط انفاسها:

– لم ار لك، يا لوكيريا مثيلا في قلة الحياء، طوال حياتي!

غضت لوشكا بصرها بمنتهى التواضع، وتوقفت وسط الحجرة، وكأنما استسلمت لاستغراقة في الندم. كانت لها رموش طويلة جداً سوداء، وكأنما خطت خطا، وحين كانت تسبلها كان ظل كثيف يسقط على خديها الشاحبين.

انخدعت فيليمونوفا بهذه الوداعة المصطنعة، فهمست بلهجة اكثر تصالحا:

– فكري بنفسك، يا امراة، أيعقل منك وانت المتزوجة، ان كنت مطلقة، أن تأتي الى منزل رجل غريب، وفي جنح الظلام ايضا؟ كان يجب أن يكون لك حياء. ها؟ افيقي الى نفسك، واستحي قليلا، بحق المسيح!

فردت لوشكا ربة البيت بنفس لهجتها الهادئة العذبة:

– «الرب القدير على كل شيء، المنقذ حين...» – وصمتت بترقب، وبعد برهة قصيرة رفعت عينيها، اللامعتين في الظلام لمعاناً منحوساً.

سمعت ربة البيت التقية اسماء الرب الحسنى، فاحنت راسها بورع على الفور، واخذت ترسم علامة الصليب بعجالة، وعند ذاك فقط اكملت لوشكا ظافرة، ولكن بصوت رجولي خشن:

– الرب القدير على كل شيء، المنقذ، حين قسم الحياء بين الناس واعطى لكل واحد حصته، كنت متغيبة عن البيت كنت ارقص واغني مع الفتيان، والهو بالقبل والغزل. فلم يترك لي حصتي من هذا الحياء فهمت؟ مالك فتحت فمك، فلا تغلقينه؟ والآن اعهد اليك بهذه المهمة: صلي لنا، نحن الخاطئين، أيتها الفرس العجوز، اثناء غيابي مع نزيلك خارج البيت!

وخرجت لوشكا بعظمة، وحتى دون أن تلقي نظرة ازدراء

على ربة البيت التي صعقت وتسمرت وشعرت بالجهالة. كان دافيدوف ينتظر عند مدخل البيت، فسألها متوجسا:

– عم كنت تتحدثين معها، يا لوشكا؟

– عن التقوى في الغالب – اجابت لوشكا، وهي تضحك بخفوت، وتضغط جسدها على جسد دافيدوف وقد تعلمت من زوجها السابق طريقة التخلص بالنكتة من الحديث غير المرغوب.

– لا، اقول لك جادا، ماذا كنت تهمسين هناك؟ هل اهانتك؟

– ليس لها حتى امكانية اهانتي. ولكنها كانت تنش من الغيرة، تغار عليك مني، يا اثلم السن. – قالت لوشكا وهي تعود الى النكتة مرة أخرى.

فقال دافيدوف، وهو يهز رأسه في انسحاق:

– انها تشك فينا، حقيقة! ما كان عليك أن تاتي الى منزلي. وهذا كل ما في الأمر!

– هل خفت من عجوز؟

– وما يدعوني لذلك؟

– طيب، اذا كنت هذا الفتى الشجاع فلا حاجة حتى الى الاشارة الى ذلك؟

كان من الصعب اقناع لوشكا العنود الطائشة بشيء. وكان دافيدوف زائغ البصر من ذلك الهوى الشديد الذي تسلل اليه فجاة نحو لوشكا، الا انه فكر غير مرة وعن جد في توضيح الأمر مع ماكار، والزواج من لوشكا، ليخرج في آخر الامر من الوضع الذي وضع نفسه فيه، ويقطع بذلك دابر اي اقاويل يمكن ان تنشأ ضده. فكان يفكر بثقة بالغة: «ساعيد تربيتها! ولن تعبث معي وستتخلى عن كل نزواتها! ساجذبها الى العمل الجماعي، واقنعها او اجبرها على أن تنشغل في تثقيف نفسها. وستكون نافعة. هذه حقيقة! فهي ليست امراة بليدة. وستنتهي عرامتها. ساعلمها كيف تتخلص منها! فانا لست ماكار، كانت مع ماكار على طرفي نقيض، اما انا فليس لي طبعه، وساجد

طريقة أخرى في معالجتها». وكان في ذلك يبالغ في امكانياته وامكانيات لوشكا.

في اليوم الذي اتفقا فيه على الالتقاء عند سقيفة ليوتوف للدريس، كان دافيدوف قد بدأ منذ الغداء في النظر الى الساعة. وقد اندهش كثيرا، وتحولت دهشته الكبيرة هذه الى غيظ، حين سمع قبل ساعة من اللقاء المتفق عليه وعرف وقع خطوات لوشكا الخفيفة على مدخل البيت، ثم صوتها الصداح:

– هل الرفيق دافيدوف في حجرته؟

كانت ربة البيت وزوجها موجودين في ذلك الوقت في البيت، فلم يرد عليها أي منهما. اختطف دافيدوف طاقيته، واندفع نحو الباب، واصطدم بلوشكا الباسمة وجها لوجه. تنحت لوشكا وخرج الاثنان من باب الحديقة بصمت.

قال دافيدوف بفظاظة، بل وضم قبضتيه منقطع الانفاس من الغيظ:

– هذه الالاعيب لا تعجبني: لماذا جئت الى البيت؟ اين اتفقنا على اللقاء؟ اجيبي، عليك اللعنة!..

– ولماذا تصرخ علي؟ هل انا زوجتك ام سائق عربتك؟ – سالت لوشكا بدورها دون أن تفقد رباطة جاشها.

– دعك! انا لا اصرخ اطلاقا، بل اسال.

هزت لوشكا كتفيها، وقالت بهدوء هازئ:

– طيب، شيء آخر اذا سالت بدون صياح. استوحشت فجئت قبل الوقت. أظنك مسرورا ومرتاحا؟

– مرتاح واي راحة! الآن ستنتشر صاحبة البيت الأقاويل في طول العزبة وعرضها! ماذا قلت لها في المرة السابقة، بحيث انها لم تعد تنظر في وجهي، بل تدمدم وتقدم لي بدل الحساء، شيئا مقززا. تحدثتما عن التقوى؟ لا بد انه كان حديثا ممتعا عن التقوى، اذا كان مجرد ذكر اسمك يجعلها تصاب بالفواق، ويزرق وجهها كوجه غريق! هذا صحيح، اؤكد لك!

انفجرت لوشكا بضحك قتي قاهر حتى رق قلب دافيدوف

دون ارادته. ولكنه في هذه المرة لم يكن ذا رغبة في المرح، وحين راحت لوشكا تستعيده ناظرة اليه بعينيها الضاحكتين النديتين بالدموع:

– ما هذا الذي تقوله عن الفواق وازرقاق الوجه؟ هذا ما تستحقه! الورعة! دعها لاتحشر أنفها في شؤون الآخرين. تصورت انها نصبت من نفسها وصية على سلوكي!

قاطعها دافيدوف ببرود:

– انت لايهمك ماذا ستنشره علينا في العزبة؟

ردت لوشكا باستهانة:

– دعها تجد ما يشغل بالها.

– اذا كان هذا لايهمك، فهو يهمني حقا. كفاك تحامقا، واظهار علاقتنا على الناس. دعيني اتكلم مع ماكار غدا، فنحن اما أن نتزوج أو ننفصل كليا. أنا لا أستطيع العيش واصابع الناس تشير الي: ها هو الرئيس، عشيق لوشكا. فانت في سلوكك العلني تنسفين سمعتي من الجذور. أهذا مفهوم لك؟

احتدت لوشكا، ودفعت دافيدوف عنها بقوة، وراحت تتكلم كازة على اسنانها:

– اوه، عروس آخر زمان! اي حاجة لي بجبان مرول مثلك! وكانني ساقبلك زوجا لي! العشم! أنت تخجل من السير معي في العزبة، وفجأة «تعالي نتزوج!» يخاف من كل فرد، ويتطلع الى الجميع، ويرتجف كالمعتوه حتى من الأطفال الصغار. طيب، خذ مكانتك وامش، واستلق وحدك على العشب وراء سقيفة ليونوف، أيها الغريب التعيس! كنت أتصورك انسانا، فاذا انت لا تختلف عن ماكار في شيء. ذاك لايفكر الا في الثورة العالمية، وأنت في سمعتك. ثم أن كل امرأة ستموت من السام معكما!

صمتت لوشكا قليلا، ثم بادرته فجأة بصوت رقيق يخالجه الانفعال:

– وداعا، يا صاحبي سيما!

ووقفت بضع ثوان، كالمترددة، ثم استدارت بسرعة، وسارت في الزقاق بخطو سريع.

ناداها دافيدوف بصوت مكتوم:

– لوشا!

لمع منديل لوشكا الابيض وراء العطفة كالبرق، وانطفا في الظلام. وقف دافيدوف بلا حراك يمرر يده على وجهه الملتهب، ويفكر: «يا لها من فرصة لتطلب يدها! هلهولة لزواجك، يا عبيط، حقيقة!».

* * *

وتبين أن زعلهما ليس هينا. والحقيقة أن ذلك لم يكن زعلا، ولا حتى مشاجرة، بل ما يشبه القطيعة. كانت لوشكا تتحاشى الالتقاء بدافيدوف بعناد. وبعد وقت قصير غير دافيدوف محل سكناه، ولكن هذا التغيير، الذي عرفت به لوشكا بدون ريب، لم يدفعها الى المصالحة.

«طيب، وليكن، اذا كانت مجنونة بهذا الشكل!» فكر دافيدوف بغيظ، وقد فقد الأمل كليا في أن يرى محبوبته لوحدها في مكان ما. ولكن شيئا كان ينخر في قلبه بمرارة شديدة، وقد خيمت على نفسه كآبة، كتلك التي تثقل على النفس في يوم ماطر من أيام الخريف. والظاهر أن لوشكا استطاعت أن تجد في فترة قصيرة، الطريق الصائب الى قلب دافيدوف غير الملتوي وغير المحنك في تجارب الحب.

لقد كانت لهذه القطيعة، في الحقيقة، جوانبها الايجابية، فقد كانت أولا ستحرر دافيدوف من لزوم الذهاب الى ماكار ناغولنوف ومشقة توضيح موقفه، وكانت، ثانيا، ستقي سمعة دافيدوف الحديدية التي تضررت في الآونة الاخيرة بعض الشيء بتصرفه غير الاخلاقي. ومع ذلك فان كل هذه المحاجات الطيبة لم تجلب غير القليل جدا من السلوان لدافيدوف البائس. فما ان كان يخلو الى نفسه، حتى كان ينظر الى ما مضى بعينين غير مرئيتين، ودون أن يفطن الى ذلك، ويبتسم ابتسامة استغراق حزينة، وهو يسترجع

رائحة شفتي لوشكا الحبيبة الى قلبه، تينك الشفتين الجافتين دائما، ويتذكر عينيها اللاهبتين الرامشتين المتجددتين ابدا.

وكانت للوشكا ناغولنوفا عينان مذهلتان! وحين كانت تحدج قليلا من تحت جفنيها كان يشيع في نظرتها شيء مؤثر طفولي مستسلم تقريبا، وتصير هي، في تلك اللحظة، صبية مراهقة اكثر منها امراة مجربة في الحياة، وفي مسرات الحب. وبعد دقيقة تعدل بلمسة خفيفة، منديلها الناصع دائما والضارب الى الزرقة، وتدفع رأسها الى الخلف، وتطل من نظرتها سخرية متحدية، وعند ذلك تشع عيناها الخبيثتان الكامدتا البريق بالتهكم الصريح والدراية في امور الدنيا.

لم تكن هذه القابلية في التحول الخاطف لدى لوشكا نتيجة لتعلم واتقان في مدرسة الغنج الانثوي، بل هبة طبيعية، او هذا ما بدا لدافيدوف، على الأقل. فهو لم يلحظ، وقد غشى الحب على بصره، ان عشيقته كانت على ثقة خاصة بنفسها، او ربما اكثر مما يجب، وانها معجبة بنفسها، بالتاكيد. فقد كانت هناك اشياء كثيرة لم يكن دافيدوف يلحظها ولا يفطن اليها.

وذات مرة قال، وهو يقبل، في حميا الحب، وجنتي لوشكا المطليين بطلاء خفيف:

– يا عزيزتي لوشكا، انت عندي كالزهرة! يفوح الشذى حتى من نمشك، حقا! تعرفين اي شذى له؟

– اي شذى؟ – سالت لوشكا مستطلعة، ورفعت جسمها على مرفقها.

– شذى النضارة، او شيء من هذا القبيل... طيب، كزهور الثلج، لا تلفت النظر تقريبا، ولكنها لطيفة.

فقالت لوشكا بمهابة وجدية تامة:

– هذه هي انا وما يجب ان اكون!

صمت دافيدوف، وقد اعترته دهشة غير مريحة من هذا الاعتداد المفرط. وبعد قليل من الوقت سال:

– ولماذا هذه هي انت، وما يجب ان تكوني؟

– لانني جميلة.

– وهل جميع الجميلات في رايك يعبقن شذى؟

– لا استطيع ان احكم على الجميع، لا اعرف. فانا لا اتشممهن. كما لا يعنيني امرهن، ولكنني اتكلم عن نفسي؟ يا عجيب. ليست جميع الجميلات منمشات، والنمش يظهر في الربيع، فلابد ان يكون لوجهي شذى زهور الثلج.

قال دافيدوف مغتما:

– يا لك من عليمة، حقا! طيب، لعلمك، خداك لا يفوحان بشذى زهور الثلج، بل برائحة الفجل والبصل وزيت عباد الشمس.

– ولماذا تغمرني بالقبل، اذن؟

– انا احب الفجل والبصل...

قالت لوشكا مستاءة:

– انت تهذر، يا سيما، بكل ما يطرا على ذهنك من هراء، كالطفل تماما.

– الحليم يعامل بالحلم... اتعرفين؟

فردت عليه لوشكا:

– الحليم حليم حتى مع الأحمق. ولكن الأحمق مع الحليم احمق دائما.

وعندها تخاصما دون داع الى خصام، ولكنه كان خصاما عابرا، انتهى بعد بضع دقائق الى مصالحة تامة. اما الآن، فشيء آخر. ان كل ماجرى بينهما بدا الآن لدافيدوف ماضيا رائعا ولكنه ماض بعيد لا عودة له. وحين يئس من ان يراها على انفراد، ليوضح لها بشكل قاطع، العلاقات التي نشات بينهما على اساس جديد، غرق دافيدوف في وحشة جدية. عهد الى رازميوتنوف ان يدير شؤون الكولخوز كنائب له، وتهيا هو لأن يخرج لفترة غير محددة الى الفريق الثاني الذي كان يحرث الارض الربيعية البراح في قطاع من قطاعات الكولخوز النائية.

ولم يكن ذلك خروجا استدعته اعتبارات متعلقة بالعمل، بل هروب مشين لانسان كان يريد، ويخشى في الوقت ذاته، قطيعة في الحب آتية. وكان دافيدوف يفهم كل ذلك

جيدا، حين كان ينظر الى نفسه احيانا من ناحية، ولكنه في احباط تام، ولهذا فضل قرار الخروج من العزبة، كافضل حل له، على الأقل لأنه سينقطع هناك عن رؤية لوشكا، وعلى أمل أن يقضي بضعة أيام في هدوء نسبي.

الفصل الرابع

في بداية حزيران هطلت أمطار متتابعة غير مألوفة لفصل الصيف، أمطار هادئة كامطار الخريف، بلا رعود ولا رياح. وفي الصباحات كانت سحابة زرقاء رمادية تطلع من وراء التلال البعيدة، تكبر وتتسع، وتحتل نصف القبة السماوية – كانت حوافيها الداكنة توحي بالشؤم – ثم تنخفض بشدة حتى أن رقائقها الشفافة كالموسلين تتشربك على سطح الطاحونة الهوائية المقامة على ربوة في السهب، ويهزج الرعد في منطقة عالية بوداعة هزيجا لا يكاد يسمع، ويهطل المطر الواهب للخير.

كانت القطرات الدافئة كرشاش حليب حلب لتوه، تنزل بانحراف على الأرض الهاجعة في سكينة الضباب، وتتساقط فقاعات بيضاء على البرك المزبدة المتخلفة من الأمطار السابقة. كان هذا المطر الصيفي غير الكثيف هادئا وديعا حتى أن الزهور لم تكن تضطر الى حني رؤوسها، والدجاج السارح في الأفنية لا يحتمي منه بشيء. فينبش بجدية وانشغال بال قرب السقائف والأسيجة المضفورة الرطبة المسودة بحثا عن طعام، والديكة المبللة التي فقدت قيافتها المهيبة بعض الشيء تصيح على التوالي صياحا ممطوطا، غير عابئة بالمطر، فتندمج أصواتها النشطة بزقزقة العصافير السابحة في البرك بجسارة وبصداح الخطاطيف، المنقضة انقضاضا سريعا وكأنما تغويها الأرض الرقيقة برائحة المطر والغبار.

كانت الديكة في غريمياتشي لوغ نادرة ومدهشة في تنوع أصواتها. كان ديك آل ليوبشكين يستيقظ قبل

الديكة الأخرى، ويستهل صياح الديكة في منتصف الليل. وكان صياحه رقيقا مرح الصداح، كأنه أمر سرية فتى مجتهد في خدمته، فيرد عليه ديك من فناء اغافون دوبتسوف بصوت عقيد جهير رصين، وبعد خمس دقائق يرتفع فوق العزبة صياح متماسك موصول، وبعد الجميع يرفع ديك مايدانيكوف الأحمر الممتلىء، وهو أكبر ديكة العزبة قاطبة، صوته الجنرالي القوي المصم ببحته الآمرة صافقا جناحيه على مجثمه.

اذا استثنينا العشاق والمرضى امراضا شديدة، وكلتا الطائفتين عند ناغولنوف شيء واحد تقريبا، كان ماكار ناغولنوف نفسه آخر من يأوي الى النوم في العزبة كلها. كان مايزال على عهده مجتهدا في تعلم اللغة الانجليزية مستفيدا من اوقات فراغه في الليل. وفي حجرته تتدلى فوطة قطنية خشنة على ظهر مقعد، وفي الزاوية طاسة ماء بارد. وكان ماكار يجد عسرا في هضم اللغة! كان يجلس الى الطاولة وقد فتح ياقة قميصه، الأجعد المبلل بالعرق، قرب نافذة مفتوحة على مصراعيها، يمسح العرق من جبينه، ومن تحت ابطيه، ومن ظهره، ومن حين لآخر كان يدلي رأسه على اقريز النافذة، ويسكب الماء من الطاسة، ويحمحم من النشوة مكظوم العاطفة.

كان مصباح الغاز يضيء بشحوب في ظليلته المصنوعة من ورق الجرائد، وفراش الليل يخفق حوله، وصاحبة البيت العجوز تشخر وادعة وراء الجدار. بينما ماكار يكافح لتعلم هذه اللغة العسيرة عليه ويهضمها كلمة وراء كلمة... وذات مرة، بعد أن مضى من الليل نصفه، جلس الى رف النافذة ليستريح قليلا ويدخن، فاذا به يسمع لأول مرة صياح ديكة حقيقي. هتف ماكار الذاهل في نشوة، وهو يتسمع الى الصياح باهتمام: «كان ذلك استعراض حقيقي لفرقة! اعاجيب بعينها!..»

و منذ ذلك الحين صار ينتظر كل ليلة آذان الديك، ويصغي بتلذذ الى الأصوات الآمرة لمغني الليل هؤلاء،

مزدريا في نفسه تقاسيم الشحارير الغنائية. اعجبه بشكل خاص صياح ديك مايدانيكوف العالي النبرة الشبيه بصوت جنرال كان يبدو الضربة الاخيرة في جوقة اصوات الديكة. ولكن تسلسل الصيحات الذي قد تعود عليه ماكار، وارتضاه في دخيلة نفسه قد اختل ذات مرة باكثر الاشكال مفاجاة ووقاحة. بعد صيحة الديك الجهيرة صدرت من على مسافة قصيرة جدا، وراء السقيفة، ومن فناء اركاشكا البائع الشاري المجاور له صيحة خفيفة النبرة هزيلة طفولية رعناء اطلقها، كما يبدو، ديك من الديكة الغرة، اخذ بعد ذلك يقاقيء كدجاجة، ويحدث خربشات سمجة. وفي الصمت الذي اعقب ذلك سمع ماكار بوضوح كيف كان هذا الديك الهزيل يلبط ويخبط بجناحيه في الخن، خائفا، على ما يبدو، من ان يفقد توازنه ويقع من على المجثم اثر صياحه هو.

لقد كان ذلك خرقا صريحا للانضباط، واستهانة كلية لسلم المرؤوسية تشبه في تصور ماكار، والى حد معين، مالو ان أمرا غرا من الصفوف الخلفية تكلم فجاة بعد جنرال اصيل يصحح له قوله، ويتلعثم في الوقت ذاته. اضطرب ماكار من اعماق نفسه، ولم يستطع صبرا على هذه الوقاحة، فصرخ في الظلمة: «اسكت!..» وصفق النافذة بشراوة، وراح يشتم خفيض الصوت.

في الليلة الثانية تكرر هذا الحادث، وفي الليلة الثالثة ايضا. وصاح ماكار في الظلام مرتين اخريين «اسكت!» موقظا ومفزعا ربة بيته بصيحته هذه. لقد تحطم بشكل لاصلاح له، ذلك الايقاع الدقيق لتنادي الديكة الليلي، حيث الاصوات واوقات صدورها كانما قد فصلا حسب الرتب. وعند ذاك اخذ ماكار يأوي الى فراشه بعد منتصف الليل مباشرة... اذ لم يكن قادرا بعد ذلك على مواصلة الدراسة، وتذكر الكلمات الغريبة. فقد كانت افكاره تدور حول ذلك الديك، الوقح، فكان يفكر في حنق بان هذا الديك في الحياة ايضا فارغ وبليد مثل صاحبه دون شك. وكان ينعت في سره هذا الطائر البري، بالوغد وبالطفيلي، وبالدعي، واخيرا قهر ديك الجار

ماكار كليا بجسارته على كبت صوت ديك مايدانيكوف. فاخذ اجتهاد ماكار في تعلم اللغة الانجليزية ينحدر سريعا الى الأسفل، ويتعكر مزاجه من يوم لآخر... وحان وقت القضاء على مثل هذا التجاوز!

وفي صباح اليوم الرابع ذهب الى فناء اركاشكا البائع الشاري، وسلم عليه بجفاف، وساله:

– هيا، ارني ديكك.

– وما حاجتك اليه؟

– احب ان ارى مظهره.

– واية حاجتك لك في مظهره اللعين؟

فقال ماكار في غيظ:

– هيا، ارني! ليس لي الوقت للتردد عليك.

وبينما كان ماكار يلف سيكارة، اخرج اركاشكا، بمقشة وليس بدون عناء، جمعا من الدجاج الانيق متعدد الالوان، من تحت الشونة. وتاكد لماكار ما كان يتصوره بكل حذافيره! كان من بين دوزينة من الدجاجات الصارخة الالوان، العابثة المتفتحة ديك صغير رمادي مغبر دميم الشكل يتزلق بينها كالزئبق. فحصه ماكار بنظرة مفعمة بالازدراء الصريح، واشار ناصحا اركاشكا:

– اذبح هذا القزم!

– ولاي شيء اذبحه؟

رد ماكار باقتضاب:

– لحساء الدجاج!

– ولاي مناسبة؟ انه الوحيد عندي. ومولع بالدجاج.

ابتسم ماكار بسخرية وقد لوى شفتيه.

– اهذه منقبته الوحيدة، الولع بالدجاج؟ بالذلك من اهمية! هذا لايحتاج الى شطارة.

– ولكن هذه هي مهمته، ولا يطلب منه شيء آخر. لا أنوي ان أشده على محراث ليحرث حديقتي، كما انه لا يستطيع ان يجر اي محراث...

– دعك من المزاح! استطيع انا ايضا ان امزح، حين يقتضي المزاح...

سأل البائع الشاري في نفاد صبر اشد:

– بم ضايقك ديكي؟ وقف في طريقك ام ماذا؟

– ديكك ابله، لا يتقيد باي اصول.

– وما علاقة الاصول هنا؟ هل يطير الى فناء صاحبة منزلك؟

– لا يطير، ولكن بشكل عام...

وكان ماكار متحرجا من توضيح الأصول التي عناها في كلامه. وقف صامتا بعض دقيقة، وقد افرد رجليه على سعة، وراح يلقي على الديك نظرات ماحقة. وبعد ذلك طرأت في ذهنه فكرة. فقال لاركاشكا بحيوية:

– الاتريد، يا جاري، ان نتبادل الديكة؟

فسأل البائع الشاري مهتما:

– ومن اين يمكن أن يطلع لك ديك، وانت بلاحصان؟

– يوجد، وليس كديكك المنتوف الشعر؟!

– طيب، اجلبه، وسنتبادل، اذا كان ديكك مناسبا. لن اتمسك بديكي.

وبعد نصف ساعة اطل ماكار، وكأنما ذلك مصادفة على فناء اكيم بيسخليبنوف الذي كان يملك عددا جيدا من الدجاج. وبينما كان ماكار يتحدث معه عن هذا وذاك، كان يمعن النظر في الدجاج السارح في الفناء، ويتسمع الى أصوات الديكة. كانت ديكة بيسخليبنوف الخمسة كلها ممتلئة جذابة في الوانها، وكأنما اختيرت اختيارا، والأهم من ذلك انها كانت ذات اصوات عالية بشكل معتدل، ورصينة في مظهرها. وقبل ان يستأذن ماكار بالانصراف سأل:

– الا تبيع لي ديكا من ديكتك، يارب الدار؟

– تفضل، يا رفيق ناغولنوف. ولكن الدجاجة الذ في طبخ الحساء، فاختر اية دجاجة تريد، فان زوجتي تملك الكثير منها!

– لا، لا اريد الا ديكا. اعرني كيسا لبعض الوقت، حتى اخبئه فيه.

وبعد قليل كان ماكار واقفا في فناء اركاشكا البائع الشاري يفك الكيس. وكان اركاشكا المولع بالبيع والشراء، كما هو معروف، يفرك يديه متلذذا بترقب الصفقة الآتية، متمتما:

– ارني اية بضاعة عندك، والا فقد نطلب زيادة عليه. اسرع بفكه، ما هذا التراخي منك! سامسك ديكي حالا، ونجعلهما يتعاركان، وصاحب الديك المنتصر في العراك يستحق ان يقدمه له الآخر شرابا. نعم، والله، والا فلا أبادل! هل ترى اية طلعة لديكك؟ ضخامة، ها؟

غمغم ماكار باقتضاب، وهو يفك عقدة الكيس باسنانه:

– جبار!

اندفع اركاشكا يعدو الى خن الدجاج، وهو يمسك سرواله السارح اثناء عدوه. وبعد دقيقة صدرت من ذلك الاتجاه صيحات ديك وحشية. ولكنه حين عاد، وهو يضغط على صدره ديكا شديد الهلع متلاحقا الانفاس، كان ماكار يقف منحنيا على الكيس المحلول، ويهرش قفاه في سهوم، وكان «جبار» منطرحا في الكيس، وقد نشر جناحيه بثقل وراح يدحرج عينيه المدورتين البرتقاليتين في انهاك تام.

سأل اركاشكا ذاهلا:

– ماذا حصل له؟

– خطأ في التسديد!

– لعله مريضا؟

– قلت لك خطأ في التقدير.

– وكيف لديك ان يخطأ في التقدير؟ كلامك غريب!

– ليس خطأ الديك في التقدير، يا بليد، بل خطئي. انني حملته في كيس، فطرأ على ذهنه أن يحدث ضجة فيه، ويشينني امام الناس، فقد كان ذلك قرب ادارة الكولخوز، فلويت عنقه حبة... قليلا جدا، فاذا هذا الذي حصل... اسرع واجلب لي طبرا، والا فسيفطس بلا فائدة.

القى ماكار الديك المقطوع الراس عبر السياج، وصاح على صاحبة البيت التي كانت منشغلة عند مدخل البيت:

– هاي، يا ام! انتفيه، ما دام حارا، واصنعي منه حساء في الغد!

واتجه ثانية الى بيت بيسخليبنوف دون ان يقول لاركاشكا شيئا. في بادىء الأمر اعترض بيسخليبنوف قائلا: «بهذه الطريقة سترمل كل دجاجاتي!» ولكنه فيما بعد سلمه ديكا ثانيا، على اية حال. وجرى التبادل مع اركاشكا. وبعد بضع دقائق كان ديك اركاشكا قد طار عبر السياج مقطوع الراس، وفي اثره صاح ماكار على صاحبة بيته في ارتياح غامر:

– خذيه في الحال، يا ام! وانتفي هذا العفريت المخل بالانضباط، واسلقيه في القدر!

وخرج الى الشارع في هيئة رجل اتى عملا كبيرا ومهما. شيعته زوجة اركاشكا ببصرها في اسف حزين، وهي تهز رأسها، مندهشة تماما بما اوقعه ماكار بالديكة في فنائهم من فتك دام. وفي الرد على سؤالها الصامت اوضح اركاشكا سبابته على جبينه، وادارها من جانب الى آخر، وقال همسا:

– مسوس! رجل طيب، ولكنه مسوس. مختل العقل تماما، ولا شيء آخر. ومهما سهر هذا المسكين في الليالي! قضت عليه اللغات الانجليزية، الملعونة ثلاثا!

ومنذ ذلك الحين اخذ ماكار يستمع في الليالي الى اغاني الديكة دون اختلال، متحملا وحدته بشجاعة. كان يعمل النهارات بطولها في الحقل مستأصلا الاعشاب الضارة من بين السنابل الى جانب النساء والأولاد، وفي المساء يتناول عشاء من حساء الكرنب الخالي من اللحم، والحليب، ويكب على كتاب تعلم اللغة الانجليزية بلامدرس، ويتلهف لانتصاف الليل.

وبعد قليل انضم اليه الجد شوكار الذي طرق بابه طرقا خفيفا في احدى الامسيات، وسأل:

– هل تسمح لي بالدخول؟

– ادخل. ما الذي جاء بك؟

قابله ماكار بهذا السؤال بغير كثير من الترحيب.

– كيف يمكن أن اقول لك – وتلعثم الجد شوكار – ربما انا ايضا، استوحشت اليك، يا عزيزي ماكار. قلت لنفسي: اذا رأيت ضوءا في بيته، دخلت عليه لأتفقد احواله.

– وهل انت امرأة لتستوحش؟

– الشيخ العجوز يصير احيانا اكثر استيحاشا من المرأة. والعمل الذي اشتغل فيه جاف لاحنان فيه: الاهتمام بالحصان ولاغير. مللت كثيرا من هذا الحيوان الاعجم! فانت، مثلا، تخاطبه بالكلمة الطيبة بينما هو يقضم شعيره صامتا، ويهز ذيله. وما نفع هذا لي؟ ثم هذا الماعز الملعون ثلاثا! متى ينام، الحشرة هذا، يا ماكار العزيز؟ ما ان تغمض عينيك في الليل حتى يكون هذا العفريت جنبك. وكم من مرة داسني بظلفه وانا نائم! ويرعبني الى حد الموت، وعندها يجفوني النوم حتى ولو شددت عيني بمنديل! مثل هذه الحشرة المؤذية اللعينة تضايقني، وتنغص علي عيشي! طوال الليل يدب في الاسطبل وفي مستودع القش. دعنا نذبحه، يا ماكار، ها؟

– اف، اغرب انت واحاديثك هذه! لست مسؤولا عن معز الكولخوز. دافيدوف هو الآمر عليها، فاذهب اليه.

– حاشا لله، لم اجيء بسبب الماعز، بل لازورك. اعطني كتابا مشوقا، وساجلس وديعا الى جانبك، مثل فار في جحره. وسيكون ذلك ابهج لك ولي. لن اضيقك قدر شعرة!

فكر ماكار، ووافق. قال وهو يقدم لشوكار معجم اللغة الروسية:

– حسنا، اجلس معي، واقرأ، فقط ان تقرأ في سرك، وحتى شفتيك لاتحركهما، ولا تسعل ولا تعطس، وباختصار: لاتصدر اي صوت! وسندخن، بايعاز مني. هل المهمة واضحة؟

– موافق على كل شيء، ولكن العطس؟ قد يدغدغني الشيطان، فاعطس، فماذا سيكون عند ذاك؟ وظيفتي تجعل

دائما في أنفي بعض القش. وقد اعطس من هذا القش فجأة. فماذا سيكون حينها؟

– حينها اخرج الى الرواق كالطلقة!

– آه، يا عزيزي ماكار، واين الطلقة مني، انا العجوز الصدى». حين اكون في الرواق ساعطس عشر مرات واتمخط، علاوة على ذلك.

– عليك أن تستعجل، اذن، يا شيخ!

– استعجلت احدى الفتيات على الزواج، ولكنها لم تجد عريسا. فساعدها رجل طيب في محنتها. فهل تعرف ماذا حصل لهذه الفتاة وبدون زواج؟ صارت امرأة لها ماض! وهذا ما سيحصل معي. استعجل، واقترف اثما في استعجالي، مادمت ستطردني. هذا مؤكد!

ضحك ماكار وقال:

– كن على حذر في استعجالك. لاتجوز المجازفة بسمعتك. وباختصار، الزم الصمت، ولا تقطع علي شغلي، اقرأ واجعل من نفسك شيخا مثقفا.

– عندي سؤال آخر، ممكن؟ ولكن لا تعبس، يا ماكار، انه سؤالي الأخير.

– ما هو؟ اسرع!

عدل الجد شوكار جلسته على المسطبة مرتبكا، وتمتم:

– ليست المسألة بالشكل الذي... ولكن زوجتي العجوز متكدرة علي منها، تقول: «لا تدعني أنام!». طيب، ما علاقتي أنا هنا؟

– ادخل في الموضوع.

– انا اتحدث في الموضوع... بسبب الفتق الذي عندي، او ربما بسبب مرض آخر، يحدث في بطني هدير فظيع، كما تهدر العاصفة الرعدية تماما! فكيف سنتعامل مع هذا؟ فهو ايضا سيصرفك عن الدرس؟

– تخرج الى الرواق، فلا اسمع منه رعدا ولابرقا. هل المهمة واضحة؟

هز شوكار رأسه صامتا، وزفر زفرة عميقة، وفتح

المعجم. وفي منتصف الليل، وتحت اشراف ماكار، وبالافادة من شروحه، سمع أصوات الديكة لأول مرة كما تقتضي الاصول، وبعد ثلاثة أيام كانا يستمعان سوية مستلقيين كتفا الى كتف، متكئين على رف النافذة، بينما كان الجد شوكار يهمس بطرب:

– يا الهي، يا الهي! طوال حياتي كنت أدوس على ذيول هؤلاء الديكة، وأعيش مع الدجاج منذ نعومة أظفاري، ولم استطع أن التقط هذا الجمال في صداح الديكة. ولكنني الآن ادركت. اي صوت ضخم هو صوت ديك مايدانيكوف، ياماكار؟ كصوت الجنرال بروسيلوف تماما، بدون نقصان ولا زيادة.

تعبس ماكار، ولكنه اجاب بهمس مكتوم:

– مجرد تصور! ليتك، يا جد، سمعت جنرالاتنا. تلك هي أصواتنا الحقيقية! واي شيء صاحبك بروسيلوف! اولا انه جنرال قيصري سابق، يعني شخصية مشبوهة بالنسبة لي، وثانيا انه مثقف بنظارات. وصوته أيضا كان يشبه، على ما أظن، صوت المرحوم ديك اركاشكا الذي أكلناه. الأصوات أيضا يجب فهمها من وجهة النظر السياسية. فمثلا كان عندنا في الفرقة صوت جهوري، اكثر جهورية من كل صوت في الجيش. ولكن تبين أنه وغد. انتقل الى صفوف الأعداء. وهل تتصور أنه بقي جهوريا عندي لحد الآن؟ عليه اللعنة! انه عندي الآن زائف في علو الصوت ومباغ، وليس حقيقيا!

سأل الجد شوكار بتهيب:

– ولكن لا علاقة للديكة بالسياسة، يا ماكار؟

– حتى الديكة لها علاقة! ولو لم يكن ديك مايدانيكوف بل ديك احد الكولاك، لما اصغيت اليه، اللعين، طوال حياتي! فاي شأن لي بديك كولاكي متغطرس!.. طيب، كفى كلاما! اجلس انت الى كتابك، وساجلس انا الى كتابي، ولا تضايقني باسئلتك الحمقاء من شتى الأشكال. والا فسأطردك بدون رحمة!

وصار الجد شوكار هاويا غيورا ومقيما لصياح الديكة. وهو الذي اقنع ماكار بالذهاب لرؤية ديك مايدانيكوف. وذهبا الى فناء مايدانيكوف، وكانا لعمل من الأعمال. وكان كوندرات خارجا الى الحقل لحراثة الحقول الربيعية. تحدث ماكار قليلا الى زوجته، وسالها، وكان ذلك عرضا، لماذا لم تخرج لاجتثاث الاعشاب الضارة، بينما راح يشمل ببصره المتاني الديك السارح في الفناء بعظمة. وكان هذا ديكا قويا مهيب الطلعة، اصهب الريش، كثيفه. ورضي ماكار بما رأى. وحين خرج من الدار لكز شوكار الصامت بكوعه، وسأل:

– ما رأيك؟

– هذا رئيس اساقفة، وليس ديكا، كما يدل صوته وقيافته!

لم يعجب هذا التشبيه ماكار كثيرا، ولكنه صمت. وكادا يصلان الى ادارة الكولخوز، حين بحلق شوكار عينيه مرعوبا، وامسك ماكار من كم قميصه:

– ماكار، ربما سيذبحونه؟

– من؟

– لست انا الذي سيذبح، حاشالله، بل الديك!

قد يذبحونه بكل سرورا اه، سيذبحونه!

– ولماذا يذبحونه؟ لأي سبب؟ لا افهم هذا الذي تثرثر به!

– واي شيء غير مفهوم هنا؟ فهو عجوز أقدم من الروث المجفف، يساويني في العمر، ولربما اكبر. فانا اذكر هذا الديك منذ طفولتي.

– لاتكذب، يا جدا الديكة لاتعيش سبعين عاما، وقوانين الطبيعة لاتذكر ذلك. فهمت؟

رد الجد شو كار باحتدام:

– انه عجوز على اية حال، وريش ذقنه اشيب كله، ام انت لم تلحظ ذلك؟

استدار ماكار على كعبيه، وسار بخطو سريع واسع

جعل الجد شوكار يتحول الى الركض من حين لآخر، حتى يلحق به. وبعد بضع دقائق كانا في فناء مايدانيكوف مرة أخرى. مسح ماكار العرق من جبينه بمنديل نسائي مؤطر بمخرمات بقي عنده ذكرى من لوشكا. كان الجد شوكار فاغرالفم، يتنفس ككلب صيد بعد مطاردة طويلة للثعالب. وكان اللعاب الزلالي ينزل قطرات صغيرة من لسانه الوردي على لحيته.

اقتربت زوجة كوندرات منهما، وابتسمت بترحيب.

– هل نسيتما شيئا؟

– نسيت أن اقول لك، يا بروخوروفنا. لا يصح أن تذبحي ديكك.

أحنى الجد شوكار جذعه كعلامة الاستفهام، ومد ذراعه الى الأمام، وهمهم بصعوبة، ثقيل الانفاس وهو يهز سبابته القذرة:

– حفظك الله!..

حدجه ماكار بنظرة ضيق، ومضى يقول:

– نريد أن نشتريه منكم للكولخوز أو نبادله لتحسين النسل، لأن فروة ريشه تدل على انه من نسل أصيل، بل ولعل أسلافه جلبوا من انجلترا او من هولنده، لتلقيح نسل جديد عندنا. الديوك الهولندية لها عجرة على اتوقها، اليس كذلك؟ نعم، وقد يكون هذا الديك من الأمة الهولندية، وانت لا تعرفين؟ وانا أيضا لا اعرف، يعني لايجوز ذبحه، في كل الاحوال.

– ولكن لا يصلح للانجاب، فهو عجوز جدا، وكنا نريد ان نذبحه في عيد العنصرة، ونحصل لنا على ديك أصغر منه سنا.

في هذه المرة كان الجد شوكار هو الذي لكز ماكار بكوعه، وكانما يقول له: ماذا قلت لك، من قبل؟ ولكن ماكار مضى يقنع ربة البيت، دون أن يعيره التفاتا:

– الهرم ليس عيبا، وسيعمل عندنا في الانجاب، سنطعمه حسب الاصول بالقمح المنقوع بالفودكا، فياخذ

بتجميش الدجاج، كفعل حقيقي! وباختصار لايجوز القضاء على هذا الديك الدرة. هل المهمة واضحة لك؟ حسنا، اذن! واليوم سيحصل لك الجد شوكار على ديك فتي.

في ذلك اليوم اشترى ماكار من زوجة ديمكا اوشاكوف الديك الزائد في بيتهما بسعر مناسب، وارسله مع الجد شوكار الى زوجة مايدانيكوف.

وبدا وكان آخر عقبة قد ذللت، ولكن شائعة عابثة سرت في ارجاء العزبة تزعم أن ماكار ناغولنوف يشتري، لأغراض خفية، مختلف الديكة، بالمفرد وبالجملة، ويدفع عنها نقودا مغرية. فكيف يمكن لرازميوتنوف الولوع بكل مزحة عابثة ان لايتاثر لهذا الحادث؟ سمع بنزوة صديقه الغريبة هذه، فعزم على التاكد منها بنفسه، فجاء الى منزل ناغولنوف في ساعة متأخرة من المساء.

كان ماكار والجد شوكار جالسين الى الطاولة، وقد انكبا على كتابين سميكين. وكان الدخان يتصاعد من مصباح رفعت فتيلته الى اقصى حد. مزق السخام السود تحوم في الحجرة، ورائحة الورق المشتعل تتصاعد من الظليلة الورقية المسفوعة، وقد البست على زجاج المصباح مباشرة وفي الجو صمت غير مألوف الا في حجرة الصف الأول من المدرسة الأولية، اثناء درس الكتابة. دخل رازميوتنوف دون أن يطرق الباب، وسعل، واقفا على العتبة، ولم يلتفت احد المنكبين اليه. عند ذلك سأل بصوت عال، وهو يكبت ابتسامة:

— أهذا مسكن الرفيق ناغولنوف؟

رفع ماكار راسه، وتمعن في وجه رازميوتنوف. وتيقن أن ضيفه الليلي لم يكن سكران، ولكن شفتيه ترتجفان من الرغبة المكبوتة في الانفجار بالضحك. لمعت عينا ماكار لمعانا باهتا، وتقلصتا. قال بهدوء:

— اذهب، يا اندريه، وجالس الفتيات، فها انت ترى انني لا املك من الوقت ما اضيعه معك.

ولما رأى رازميوتنوف أن ماكار أبعد من أن يطارحه

مزاجه المرح، قال بجد هذه المرة، وهو جالس على المسطبة يدخن سيكارة:

— ولكن قل لي، بصراحة، لماذا اشتريتها؟

— لأطبخ منها حساء وغيره. أم تصورت انت انني اشتريتها لأصنع منها دندرمة، وأولم به فتيات العزبة؟

— لم اتصور الدندرمة، بالطبع. ولكنني مندهش جدا، اسائل نفسي ما حاجته الى هذه الكثرة من الديكة، ولماذا الديكة بالذات؟

ابتسم ماكار:

— احترم اعراف الديكة في الحساء، وهذا كل ما في الأمر. واذا كنت تتساءل مندهشا من ديكتي، فانا ايضا اتساءل مندهشا: لماذا لاتخرج مع الخارجات لاجتثاث الاعشاب الضارة؟

— وماذا افعل هناك؟ اراقب عمل النسوة؟ هناك رؤساء عمل يراقبونهن.

— لا تراقب، بل تشتغل أيضا.

لوح رازميوتنوف بذراعيه، ضاحكا بمرح.

— تقصد اجتث الاعشاب الضارة مثلهن؟ اوه، يا أخ، عفوك! ليس هذا من عمل الرجال، ثم انني رئيس سوفيت العزبة، على اية حال.

— علو ولكنه ليس رفيعا. يمكن القول علو على أرض مستوية! لماذا انا اشاركهن في اجتثاث الاعشاب، الضارة، وانت لا تقدر؟

هز رازميوتنوف كتفيه.

— لست لا اقدر، بل لا أريد أن اشين نفسي امام الفوزاق.

— دافيدوف لايستنكف من العمل، وكذلك انا، فلماذا تميل انت طاقيتك جانبا، وتقضي اياما كاملة في الجلوس في مقر سوفيتك، او تتابط محفظتك الورقية القذرة، وتتجول في العزبة كالهائم؟ يعني الا يستطيع سكرتيرك أن يحرر شهادة عن الوضع العائلي؟ اترك هذه الألاعيب،

يا اندريه! وانضم غدا الى الفريق الأول، وار النساء كيف يستطيع ابطال الحرب الأهلية ان يعملوا!

– هل انت تمزح ام فقدت عقلك؟ لن اذهب حتى لو ستقتلني الآن! – ورمى رازميوتنوف عقب السيكارة في غضب، وقفز من المسطبة – لا اريد ان اكون اضحوكة! اجتثاث الأعشاب الضارة ليس من عمل الرجال! او لعلك ستقول لي ايضا اذهب، واقتلع البطاطس؟

قال ماكار، وهو يدق الطاولة في هدوء بقية من قلم:

– اي عمل ينتدب اليه الحزب هو عمل الرجال. لو يقولون لي، مثلا، اذهب، يا ناغولنوف، واقطع رؤوس اعداء الثورة، فساذهب بسرور! ولو يقولون اذهب واقتلع البطاطس، فساذهب، ولكن ليس بسرور. لو يقولون اذهب واحلب الأبقار، فساكز على اسناني ولكنني ساذهب! ساجر ضروع البقرة بهذه الجهة وتلك، ولكنني ساحلبها قدر مستطاعي، عليها اللعنة!

هدأ رازميوتنوف بعض الشيء وبدا عليه المرح:

– نعم، براثنك بالفعل صالحة لحلب البقرة، تماما، ولكنك ستجعلها تسقط.

– وليكن، ولكنني سانهضها من جديد، واحلبها حتى النهاية المظفرة، حتى استخلص آخر قطرة حليب منها. مفهوم؟ – ومضى مفكرا دون ان ينتظر الرد: – فكر في هذا الأمر، يا اندريه، ولا تكثر من الاعتزاز برجولتك وقوزاقيتك. فان شرفنا الحزبي لايتمثل في هذا، هذه طريقتي في الفهم. قبل ايام وانا ذاهب الى مركز المنطقة، لأقابل السكرتير الحزبي الجديد، التقيت في طريقي بفيلونوف سكرتير الخلية الحزبية في توبيانسكوي، ويسالني هذا: «العلك ذاهب الى مركز المنطقة؟» فاقول له: «نعم، الى مركز المنطقة» فيسال: «الى السكرتير الجديد؟» فاجيب بنعم. فيقول: «طيب، حول طريقك الى حقل العشب، فهو هناك، عندنا» ويشير بسوطه الى يسار الطريق.

فانظر، وارى الحصاد يجري في كل مكان، حيث تعمل ست حاصدات. فاسأله: ما هذا الجنون لتحصدوا العشب في هذا الوقت المبكر؟ فيقول: ليس هذا عشبا بل مختلف الأعشاب الغثة، فقررنا حصدها لتستخدم في العلف. فاسأله: «انتم الذين قررتم؟» فيجيبني: «لا، بل جاء السكرتير يوم امس، والقى نظرة على حقولنا، وحين لاحظ هذه الاعشاب الغثة، سألنا: ماذا ستفعلون بها؟ قلنا: سنحرث عليها، فاذا به يضحك ويقول: الحراثة عليها لاتقتضي فنا، ولكن الأذكى من ذلك ان تحصد للعلف».

صمت ماكار، محدقا في رازميوتنوف بعناية.

فسال رازميوتنوف بنفاد صبر:

– هل رايته؟

– بالطبع! انعطفت، وسرت حوالى كيلومترين. فرايت امامي عربتين. كان هناك رجل كهل يطبخ عصيدة على نار، وشاب عريض الوجه ضخم كالثور يضطجع تحت عربة، يحك عقبيه، ويهش الذباب بغصن. ليس له شبه بالسكرتير. يرقد حافي القدمين، ووجهه مدور كالمنخل. سالت عن السكرتير، فيجيب هذا الشاب بابتسامة ساخرة: «انه منذ الصباح صعد على حاصدتي يطارد بها في السهب». ترجلت، وربطت حصاني الى العربة، واتوجه الى الحاصدات. مرت الحاصدة الأولى يقودها رجل عجوز في قبعة من القش، وقميص ممزق متهرىء من العرق، وسروال من الخيش ملطخ بالزيت. واضح انه ليس السكرتير الحزبي. والحاصدة الثانية يقودها شاب حليق الشعر، بلا قميص. يبدو من عرقه كانما صب عليه زيت، ويلمع في الشمس كالسيف. فاقول لنفسي: واضح انه ليس السكرتير! والسكرتير لا يمكن ان يسوق الحاصدة بلا قميص. وانظر في الصف. فارى الآخرين ايضا بلا قمصان! والآن تعال، اعرف من هذه اللعبة ايهم هو السكرتير! واقول لنفسي من جديد: ساعرفه من مظهره الدال على الثقافة، وامرر الجميع، ولا اعرف السكرتير منهم، علي اللعنة! فالجميع عراة الى النصف، والجميع متشابهون

كقطع نقود معدنية من فئة واحدة، وليس مكتوبا على جبين احدهم انه السكرتير. هذا هو المظهر الثقافي الذي كنت استهدي به! وتبين انهم جميعا مثقفون. احلق شعر قس طويل الشعر تماما، واطلقه في الحمام الذي يستحم فيه الجنود الحليقو الرؤوس، فهل ستعثر بينهم على القس هذا؟ هكذا كانت الحال.

رجا الجد شوكار في تهيب، وكان حتى ذلك الحين يلتزم الصمت المطبق:

– لا تمس رجال الدين، يا عزيزي ماكار. فهذا اثم!

القى ماكار نحوه نظرة نارية، ومضى يقول:

– عدت الى العربتين، وأسال الشاب: من هو السكرتير من بين هؤلاء الحاصدين؟ فيقول هذا الأبله ذو الوجه الضخم: السكرتير هو الذي بلا قميص. فاقول له: امسح عينيك من خيوط العنكبوت، والذين على الحاصدات بلاقمصان جميعا، ماعدا العجوز. خرج الشاب من تحت العربة، ومسح عينيه وانفجر ضاحكا! نظرت أنا وضحكت ايضا، فان العجوز حين عدت الى العربة كان قد خلع قميصه ايضا والقبعة، وانطلق امام الجميع بسرواله فقط، لامع الصلعة، والريح تدفع لحيته الشائبة وراء ظهره. تماما كالغرنوق المنساب في السهب. فاقول لنفسي: هذا هي البدعة! سكرتير لجنة المنطقة جلب لهم موضة من المدينة: الركض عراة في السهب، وحتى العجوز الهرم انساق وراء هذه البدعة غير المحتشمة. ساقني ذو الوجه الضخم اليهم، وأشار الى السكرتير. واتوجه اليه من جنب الحاصدة، واقدم نفسي له، واقول انني خرجت الى مركز المنطقة للتعرف عليه، فيضحك، ويوقف الحصانين، ويقول: «اجلس، وسق الحصانين، وستحصد، وخلال ذلك نتعارف، يا رفيق ناغولنوف». انزلت الشاب الذي كان يسوق الحصانين من على مقعده، وصعدت أنا الى مكانه، وحركت الحصانين... حسنا، وخلال اربع دورات تم تعارفنا... انه شاب عالمي! مثل هؤلاء السكرتاريين لم يكونوا عندنا من قبل. ويقول:

«ساريك كيف يعملون في ستافروبولشينا! عندكم يضعون الأشرطة على دروز البناطيل، ولكن عندنا يحصدون أجود». ويضحك. فاقول له: سنرى فيما بعد من اكثر حنكة: ساعة الهزل هزل، وساعة الجد جد. وسأل عن كل شيء قليلا، ويقول بعد ذلك: «عد الى عزبتك، يا رفيق ناغولنوف. سأزوركم عما قريب».

سأل رازميوتنوف باهتمام:

– وماذا قال أيضا؟

– لا شيء على وجه الخصوص. نعم، وسأل ايضا عن خوبروف. وهل كان من النشطاء أم لا؟ فاقول له: اي نشيط هو، لخمة ولانشاط.

– فماذا قال؟

– فيسأل: ولأي شيء قتلوه، ومع زوجته ايضا؟ فاقول له: الكولاك يقتلون على كل شيء. لم يرق لهم فقتلوه.

– فماذا قال؟

تلمص، وكأنما اكل تفاحة حامضة، وقال ما بين السعال والحمحمة: «احم احم». ولكن لم ينطق بأية عبارة.

– ومن أين سمع بخبر خوبروف وزوجته؟

– الشيطان يعرف. لا بد أنه ابلغوه في اللجنة المنطقية لأمن الدولة.

دخن رازميوتنوف سيكارة اخرى صامتا. وكان فكره مركزا في التفكير بشيء ما، حتى انه نسي الغرض الذي جاء من أجله الى ناغولنوف. وقال عند الوداع محدقا في عيني ماكار بابتسامة:

– كل شيء استقر في مكانه في ذهني! غدا ساخرج الى الفريق الأول حالما يظر الفجر. يمكنك أن تطمئن، ياماكار، لن ادخر وسعا في اجتثاث الاعشاب الضارة. ولكن عليك أن تجلب لي زجاجة من الفودكا يوم الأحد. وليكن ذلك في علمك!

– سأجلبها، ونشربها سوية، اذا كنت ستعمل في اجتثاث الأعشاب بشكل جيد. شرط ان تخرج غدا في ابكر

وقت، وأر النسوان كيف يجب الخروج الى العمل. طيب، ارجو لك التوفيق!

قال ماكار متمنيا، انغمر في القراءة من جديد.

وحوالى منتصف الليل استمع والجد شوكار في الصمت المطبق على العربة صياح الديكة الأولى بمهابة، واستمتع كل واحد منهما على طريقته الخاصة بصداها اللذيذ. فهمس شوكار بورع متمطقا من امتلائه بالعاطفة:

– كما في جوقة كاتدرائية!

وقال ماكار، وهو يحدق حالما في زجاجة المصباح المسخمة:

– كما في كوكبة خيالة!

وعلى هذا النحو نشأ هذا الهيام العجيب الفذ، الذي كاد يكلف ماكار حياته.

الفصل الخامس

لم يخرج لتوديع دافيدوف من بين اعضاء الفريق غير رازميوتنوف. وكانت ثمة عربة في طريقها الى الخروج لتأخذ الأطعمة من مخزن الكولخوز الى الحراث، مع البياضات والملابس الأخرى التي ارسلتها عواللهم اليهم.

جلس دافيدوف على جانب العربة مدليا ساقيه بحذائيهما الطويلين المخدشين التاصلين بلونهما، محدودب الظهر كالشيوخ، يحدق فيما حوله بلا عاطفة. وكان عظما كتفيه ناتئين من تحت سترته المترهلة عليه، وقد مضى وقت طويل دون أن يحلق شعره، فكانت خصلات شعره الأسود السميكة تفلت من تحت طاقيته المالة على علبائه، لتصل الى رقبته العريضة السمراء، والى ياقة سترته المتسخة. وكان في مظهره كله يشيع شيء مقبض وبائس.

فكر رازميوتنوف، وهو ينظر اليه لاويا سحنته، وكأنما من الم: «روضته لوشكا! اللعنة على تلك المرأة! حطمته،

واى شاب حطمت! لم تبق منه شيئا! هذا هو الحب يفعل هذا الفعل بالرجل. رجلا كان، وصار خرقة!».

ومن أدرى بـ «فعل الحب» اكثر من رازميوتنوف! تذكر مارينا بياركوفا، وهذا وذاك مما مر عليه، فتنهد بحزن، ولكنه ابتسم بمرح، وذهب ليرى ماذا في سوفيت القرية. وفي منتصف الطريق التقاه ماكار ناغولنوف. كان كالعادة جافا مرفوع القامة، متباهيا قليلا بقيافته العسكرية التامة، مد الى رازميوتنوف يده صامتا، واشار بهزة من راسه الى العربة المبتعدة في الشارع:

– هل رايت كيف صار الرفيق دافيدوف؟

رد رازميوتنوف بمراوغة:

– نحل قليلا.

– عندما كنت في حالته كنت أنحل أيضا من يوم لآخر. اما هو فهزيل حقا! رجل هنا ورجل على حافة القبر! كان يعيش عندي في بيتي، راى اية آفة هي، وكيف كنت اكافح هذه المعادية للثورة داخل بيتي، وها هو الآن يقع في المصيدة! واي وقوع! صدقني حين انظر اليه اليوم أشعر بان قلبي ينزف دما. اراه نحيلا شاعرا بالذنب، يتلفت فيما حوله، وبنطلونه لا يكاد يمسكه شيء تحته! ارى امامي شابا يتفتت. كان يجب ان تعتبر زوجتي السابقة منذ الشتاء الماضي كعنصر ضالع مع الكولاك، وتقصى مع صاحبها تيموشكا الأشرم الى الاصقاع الباردة. على الأقل حتى تبرد قليلا من عرامتها.

– كنت أتصور أنك لا تعرف...

– هاه! «لا تعرف!» الجميع يعرفون، وأنا لا اعرف! اغمضت عيني؟ ما كان سيهمني مع من تمشى، هذه اللعينة، لو لم تمس دافيدوف، وتهلك برفيقي العزيز! هذه هي النقطة في اللحظة الراهنة!

– كان الاحرى بك ان تحذره. فلماذا سكت؟

– كان يعز على ان احذره! فقد كان من الممكن ان يظن بي الظنون، فيتصور انني عن غيرة اصرفه عنها، او

ما الى ذلك. ولكن انت، باعتبارك شخصا حياديا في هذا الموضوع، لماذا سكت؟ لماذا لم تصدر تحذيرا شديدا ضده؟

– مع التوبيخ؟ – وابتسم رازميوتنوف.

– سيحصل على توبيخ في مكان آخر، اذا تمادى فيما هو فيه. ولكن علينا، انا وانت، يا اندريه، ان ننبهه بشكل رفاقي، ولا يمكن الانتظار اكثر. لوشكا افعى لايمكن معها ليس فقط ان يشهد الثورة العالمية، بل وسيغادر الدنيا الى الأبد. أو يصاب بالسل الذي لاشفاء منه، أو يلتقط سفلسا أو شيئا من هذا القبيل. منذ ان تخلصت منها صرت وكأنني ولدت من جديد: لم أخف اي مرض من الامراض الزهرية، وانا أتعلم اللغة الانجليزية بشكل ممتاز، وحصلت في ذلك الكثير بقابليتي الخاصة، وبدون اي معلم، والأمور الحزبية اسيرها على مايرام، ولا انفصل من اي عمل آخر. وباختصار اشعر، وانا اعزب، بان يدي ورجلي حرة، ورأسي صاف. بينما في حياتي معها كنت لا اشرب الفودكا، ولكنني في كل يوم كنت كالمصاب بالخمار. النسوان بالنسبة لنا، نحن الثوريين، افيون صاف للشعب، يا اخي! بودي لو ادخل هذه الحكمة في النظام الداخلي بالبنط العريض، ليقرأها كل حزبي، كل شيوعي حقيقي ومؤازر ثلاث مرات كل يوم قبيل النوم، وفي الصباح على الريق. وعند ذلك لن يسقط أحد في هذه الهوة التي يسقط فيها رفيقنا العزيز دافيدوف الآن. نعم، تذكر، يا اندريه، كم من الرفاق الجيدين تعذبوا في حياتهم من نسل النساء اللعين هذا! بلا حصر! كم من الهدر بسببهن، وكم خلقن من السكارى المدمنين، وكم من التوبيخات الحزبية صدرت في حق الشغيلة الحزبيين من جرائهن، وكم من الناس يحشرون في السجون من أجلهن. هذا كابوس حقيقي!

غرق رازميوتنوف في تفكير. سارا بعض الوقت صامتين، مستسلمين لذكريات الماضي البعيد والقريب، والنساء اللواتي التقياهن في طريق حياتهما. نفخ ناغولنوف منخريه، واطبق شفتيه الرقيقتين، وكأنه في صف عسكري،

وقد عدل كتفيه، وسار بخطوات متساوقة. وكان رازميو تنوف في سيره يبتسم تارة، ويلوح بذراعه في يأس تارة اخرى، أو يفتل شاربه الفاتح اللون الأجعد، ويغمض عينيه كقط شبع، واحيانا كان يحمحم فقط، مسترجعا، على ما يبدو، ذكرى وضاءة عن هذه المرأة أوتلك، وكأنما يحتسي قدحا كبيرا من الفودكا، وعندها كان يهتف، ما بين وقفة طويلة وأخرى بعبارات ملتبسة:

– اي نعم! آه، امرأة! هكذا هو! اوه، يا ملعونة!

* * *

بقيت غريمياتشي لوغ الى الخلف، واختفت وراء الرابية، وغيب السهب العريض دافيدوف على امتداد البصر. ظل دافيدوف وقتا طويلا ينظر الى السلسلة البعيدة لأكام القبور القديمة، مالئا صدره كله بالروائح المسكرة التي يرسلها العشب والأرض السوداء، التي لم تجف بعد. لقد كانت هذه الأكام المزرورقة في البعيد تذكره بأمواج البلطيق المستثارة بالعاصفة، فلم يستطع أن يغلب ما فاض على قلبه فجأة من حزن عذب، فزفر زفرة عميقة، وسحب بصره من ذلك الاغواء المباغت... وبعد ذلك التقط بصره السارح نقطة لاتكاد تبين في السماء. كان نسر اسود من نسور السهوب، – قاطن آكام القبور – يحوم في السماء الباردة مهيبا بوحدته، ويتلاشى في الأعالي ببطء، ولا يكاد يلحظ. كان جناحاه العريضان المبسوطان بلاحركة والمثلومان عند الطرفين يحملانه الى ما وراء السحب بيسر، والريح الهابة عليه تغمر وتضغط ريشه الكابي على جسده العظمي الجبار. وحين كان ينساب منطلقا نحو الشرق جانحا قليلا في الانعطافات، كانت اشعة الشمس تضيئه من أسفل ومن قدام، وعندئذ كان يبدو لدافيدوف أن شررا ابيض ينطلق من قفا جناحيه الأبيض، ويضيء لمحة ثم ينطفىء.

... السهب بلا نهاية ولاحد. الآكام القديمة، والنسر

الأسود في السماء. والحفيف الخفيف للعشب المطروح بالريح... وشعر دافيدوف بأنه صغير وضائع في هذه الرحاب الشاسعة، وهو يجيل بصره باسى في السهب المضني باتساعه اللانهائي. وبدا له صغيرا وتافها في هذه اللحظات حبه للوشكا، ومرارة الفراق، ورغبته المحبطة في الالتقاء بها... كان الشعور بالوحدة والانفصال عن العالم الحي بأسره يثقل عليه كثيرا. وكان يعاني ما يشبه هذا الاحساس منذ زمن بعيد، حين كان عليه أن يقف في الليالي «ناظورا» على سطح باخرة. ولكن ما أبعد هذا عنه الآن! كما في حلم قديم نصف منسي...

كان دفء الشمس يشيع في الجو، والريح الجنوبية اشد هبوبا من ذي قبل. احنى دافيدوف رأسه دون أن يدري، وهوم ناعسا، متمايلا قليلا على التعاريج والمطبات في هذا الطريق السهبي المهمل.

كان الحصانان اللذان اعطيا له هزيلين، والسائق كولخوزيا متقدما في السن، هو ايفان ارجانوف الصموت، والمختل العقل قليلا، حسب الراي الشائع في العزبة. فكان يشفق كثيرا على الحصانين اللذين سلما له قبل وقت قصير، ولهذا تركهما معظم الطريق الى مخيم الفريق في الحقل يجرجران نفسيهما بخطو هادئ، تعب، حتى أن دافيدوف استيقظ من غفوته في منتصف الطريق، ولم يصطبر فسال بحدة:

– اتحسب انك تحمل مزهريات الى السوق، يا عم ايفان؟ وتخاف أن تكسرها؟ لماذا تسير على مهل. طوال الوقت؟

اشاح ارجانوف وجهه، وصمت وقتا طويلا، ثم اجاب بصوت متحشرج:

– انا اعرف اية «مزهرية» احمل، ولكن لن تستطيع أن تجعلني اسرع بلا موجب وتتعسف، يا اخ، رغم انك رئيس الكولخوز!

– ومن قال «بلا موجب»؟ على الأقل لو جعلتهما ينزلان

المنحدر عدوا. ليست عندك حمولة، والحقيقة أن عربتك فارغة!

وبعد صمت قصير قال ارجانوف في غير ما رغبة:

– الخيول تعرف بنفسها، متى تسير على مهل، ومتى تعدو.

أخذ دافيدوف يغضب عن جد. صاح دون أن يخفي استياءه:

– يا للعجب! وانت ما شغلك؟ لماذا وضع العنان في يديك؟ ولماذا تجلس في مقعد السائق؟ هات، هات العنان!

فاجاب ارجانوف بسلاسة اكثر هذه المرة:

– وضع العنان في يدى لأسوق الخيول، لتسير في الاتجاه المطلوب، وليس الى حيث لايجب. واذا كان لايروق لك أن اجلس الى جانبك، واشغل المكان، ففي وسعي أن انزل من العربة، واسير ماشيا الى جانبها، ولكن لن اسلم العنان لك، كفاك، يا اخ!

– ولماذا لا تسلمه لي؟ – سأل دافيدوف، محاولا عبثا أن ينظر في وجه السائق الذي لايريد بعناد أن ينظر اليه.

– وهل ستسلمني أنت عنانك؟

– اي عنان؟ – سأل دافيدوف دون أن يفهم المقصود راسا.

– العنان اياه! فانت تمسك عنان الكولخوز كله في يديك، لأن الناس عهدوا اليك بكل ادارة الكولخوز. فهل ستعطيني هذا العنان؟ لن تفعل، واظنك ستقول: «الزم مكانك، يا عم!» وهذا ما افعله انا ايضا. انا لن اطلب منك عنانك؟ فلا تطلب عناني!

حمحم دافيدوف بمرح. ولم يبق أي اثر لغضبه قبل لحظات. وسأل منتظرا الجواب باهتمام:

– طيب، لنفرض ان حريقا شب في العزبة، فهل ستسير ببراميل الماء بهذه الخطوات المشينة؟

– لن يرسلوا من امثالي لجلب براميل الماء لاطفاء الحريق...

وفي هذه اللحظة رأى دافيدوف، وهو ينظر الى ارجانوف من جانب، تغضنات صغيرة لابتسامة مكبوتة الى الأسفل من وجنته الملوحة المقشرة.

– ومن يرسلون، في رأيك؟

– يرسلون من أمثال ماكار ناغولنوف.

– ولم ذاك؟

– لأنكما وحدكما في العربة تحبان اطلاق العنان أثناء الركوب وفي الحياة ايضا...

ضحك دافيدوف من كل قلبه، ضاربا ركبتيه بكفيه، دافعا رأسه الى الخلف. وقبل ان يلتقط انفاسه من اثر الضحك سأل:

– يعني اذا شب حريق بالفعل فان علينا أنا وماكار وحدنا أن نطفئه؟

– لا، قطعا! بل ستجلب أنت وماكار الماء، فقط، وتنطلقان على الخيول بكل سرعتها حتى تتطاير اردية الرغوة منها في كل الجهات، ولكننا نحن الكولخوزيين سنطفيء الحريق، منا من يحمل السطل، ومن يحمل الكلاب، أو الفاس... ورازميوتنوف لاغيره سيشرف على اطفاء الحريق...

وفكر دافيدوف مع نفسه في دهشة صادقة: «ويقولون انه مختل العقل!». وسأل بعد برهة من الصمت:

– ولماذا جعلت رازميوتنوف بالذات رئيسا للاطفائية؟

اجاب ارجانوف ضاحكا على المكشوف هذه المرة:

– أنت شاب ذكي، ولكنك لست بالفطن. وظيفة المرء تحدد في الاطفاء من الطريقة التي يعيش فيها، باختصار، حسب خلقه. وانت وماكار تعيشان بانطلاق، لا راحة لكما لا في الليل ولا في النهار، ولا تتركان هذه الراحة للآخرين ايضا يعني انكما تصلحان فقط لجلب الماء باعتباركما أخف وأسرع الجميع. والحريق لا يطفىء بدون ماء. اليس كلامي صحيحا؟ واندريه رازميوتنوف يعيش بالوثيرة المطلوبة، لايريد ان يسابق ولا أن يسبق حتى يساط... يعني ماذا

يتبقى عليه أن يفعل، وهو في مقامه كقائد؟ لا شيء الا أن يتخوصر ويصدر الاوامر، ويهرج، ويثير الضجيج، ويتعثر عند اقدام الناس. ونحن، اقصد الناس، نعيش الآن بهدوء، ونسير على مهل، اذ لا حاجة لنا الى الضجيج، ونقوم بواجبنا، اقصد اطفاء الحريق بلا استعجال، ودون لغط زائد.

طبطب دافيدوف على ظهر ارجانوف بكفه، وأداره نحوه، ورأى عن قرب عينيه الباسمتين بمكر، ووجهه الطيب الملتحي. وقال، وهو يبتسم بتكتم:

– اما انت، يا عم ايفان، فيبدو انك مخاتل!

فرد ارجانوف بمرح:

– وانت ايضا، يا دافيدوف، لا تخلو من ذلك.

وظلا على سيرهما المتباطىء. ولكن دافيدوف ما عاد يستعجل ارجانوف، وقد اقتنع ان كل محاولاته لاتجدي فتيلا.

فكان تارة يقفز من العربة ويمشي الى جانبها، ثم يعود فيركب فيها. ومن الحديث عن شؤون الكولخوز، وعن كل شيء حبة صار دافيدوف يقتنع اكثر فاكثر بان سائقه ليس مختل العقل على الاطلاق. فقد كان يناظر في كل شيء بدراية وحذق، الا أن له في كل ظاهرة وتقييم منحاه الخاص غير المعتاد.

وكان المخيم الزراعي يلوح من بعيد، وقد تلوى الى جانبه خط رقيق من الدخان خارج من مطبخ الفريق، حين سأل دافيدوف:

– طيب، خبرني الآن عن جد، يا عم ايفان، هل طوال حياتك وانت تسوق الخيول بهذا البطء؟

– نعم.

– ولماذا لم تنبهني من قبل الى هذا التصرف الغريب؟ ما كنت سأخرج معك، حقيقة!

– ولماذا اعلن عن نفسي سلفا؟ ها انت قد رأيت بنفسك الآن، كيف اسير. تخرج معي مرة، ولا تحب ان تعيد ذلك.

فسأل دافيدوف بتكشيرة ساخرة:

– ما الذي جعلك ضجرا الى هذا الحد؟

وبدلا من أن يرد ارجانوف قال مراوغا:

– كان لي في العهد الماضي جار هو نجار، وغاوى شرب. يداه من ذهب، ولكنه يهوى الخمرة. اراه يمتنع عنها ويمتنع، ولكن حالما يشم رائحتها في الكاس الأولى، حتى يستمر يعاقرها شهرا كاملا! وكان، أيها العزيز، يبيع كل شيء عنده الى الآخر ليشرب به الخمرة!

– طيب؟

– طيب، بينما ابنه لا يضعها في فمه ابدا.

– كفاك من الحكايات الرمزية، وتكلم ببساطة اكثر.

– لا اكثر من هذه البساطة، أيها العزيز. كان والدي المرحوم صيادا متدفعا، ولكنه اكثر اندفاعا في ركوب الخيل. وكان في اثناء خدمته في الجيش العامل يحصل دائما على الجوائز الأولى في فوجه سواء في القفز او في الطعان، او في الفروسية. وحين عاد من الخدمة الفعلية كان يربح الجوائز كل عام في سباق الخيل في الدسكرة. ولكنه كان رجلا مؤذيا، عليه الرحمة، اقول ذلك ولوكان ابي! لقد كان هواشا، قوزاقيا متباهيا... وكان في كل صباح يحمي مسمارا على النار في الموقد، ويلف شاربيه على هذا المسمار. وكان يحب الغطرسة امام الناس، ولاسيما النساء... اما في ركوب الخيل فحدث ولاحرج! ما ان يصير له شغل في الدسكرة، مثلا، حتى يخرج من الاسطبل فرسه الذي كان يركبه اثناء الخدمة، ويسرجه، وينطلق به لا يلوى على شيء! يختطف به الفناء، ويقفز به السياج، ولا يترك غير الغبار الذي يخلفه وراءه. لم يعرف الخيب ولا الخطو، حين يركب حصانه. والمسافة الى الدسكرة اربعة وعشرون فرسخا يقطعها عدوا سريعا بالرواح والمجيء. وكان من جراته يحب اقتناص الأرانب البرية وهو منطلق في اقصى سرعته! كان يهش الارنب المسكين من احراش العشب، ويبعده عنه، ويطارده حتى يقرعه بسوطه أو يدعسه حصانه. وكم من مرة كان يسقط وهو منطلق في اقصى سرعته،

فيصاب باذى شديد، ولكنه لم يكن يترك طريدته. وكم كلفنا من خسارة في الخيول التي يحولها الى الحمولة أو الاشتغال في الحقل. دمر ستة خيول على ما اتذكر، اما بان ينطلق بها حتى يودي بها، او يخلفها عرجاء. حتى خربنا تماما انا وامي! في شتاء واحد قتل حصانين. كان يكبو في ذروة عدوه، ويرتطم في الأرض المثلجة، ويموت الحصان تحته! وتنظر فنرى ابي ماشيا، والسرج على كتفه. وكانت امي تعول وتنتحب على الحصان الميت، بينما ابي لا يهمه شيء! يرقد يومين او ثلاثة، وقبل ان تخف الكدمات الزرق من جسده، يستعد مرة اخرى للخروج الى الصيد...

– طيب، كان يهلك الخيول من تحته، ولكن كيف سلم هو؟

– الحصان حيوان ثقيل. وحين يسقط اثناء عدوه، ينقلب على راسه مرتين او ثلاثة، حتى يستقر على الأرض. أما ابي فماذا به؟ يفك رجليه من الركاب، ويطير منه كالسنونو. طيب، يمكن ان يرتطم، ويفقد وعيه حتى يفيق، ثم ينهض، ويتوجه الى بيته ماشيا. كان هذا الشيطان رجلا جسورا! وعظامه كأنها من حديد، مبرشم.

قال دافيدوف باعجاب:

– كان فتى قويا!

– نعم، ولكن قوة الآخرين تغلبت عليه.

– وكيف؟

– قتله قوزاق العزبة.

فسال دافيدوف مهتما، وهو يشعل سيكارة:

– ولأي سبب؟

– قدم سيكارة لي ايضا، ايها الرجل الطيب.

– ولكنك لا تدخن، يا عم ايفان؟

– اذا اردت الحق لا أدخن، ولكن اسمح لنفسي احيانا. والآن تذكرت واقعة قديمة فجف حلقي ولعابي... انت تسال: لأي سبب قتلوه؟ يعني استحق القتل...

– ولكن كيف، على كل حال؟

– قتلوه بسبب امراة، عشيقته. كانت متزوجة. فعرف

زوجها بعلاقته معها. وكان هذا يخشى الالتقاء بابي على انفراد. لم يكن ابي بالفارع، ولكنه قوي بشكل مخيف. وعندئذ تواطأ زوج عشيقة ابي مع اثنين من اشقائه. وقد حدثت الواقعة في يوم من أيام المرافع. فقد ختل هؤلاء الثلاثة لأبي ليلا عند النهر. يا الهي الرحيم كيف اوقعوا به ضربا! ضربوه بالهراوات وبشيء من حديد... وحين حملوا ابي في الصباح الى البيت كان ما يزال فاقد الوعي مسودا كله كالحديدة. فقد قضى الليل كله راقدا على الجليد. لابد انه عانى الأمرين، ها؟ على الجليد، تصور! وبعد اسبوع اخذ ينطق، وبدأ يفهم ما يقال له. عاد الى نفسه، باختصار. ولازم الفراش شهرين، يبصق دما، ويتكلم بصوت واهن. كل احشائه قد مزقت. وكان اصدقاؤه يأتون لزيارته، ويسألونه: «من ضربك، فيدور؟ قل، ونحن س...» ولكنه كان يلزم الصمت، ويبتسم ابتسامة باهتة، ويقلب عينيه، وحين تخرج امي يقول هامسا: «لا اتذكر، يا اخوان. انا مذنب في حق ازواج كثيرين».

وكم مرة ركعت أمي على ركبتيها امامه ترجوه: «يا عزيزي فيديوشكا، على الأقل قل لي من اصابك. قل لي، بحق المسيح، لأعرف على من ادعو الله بهلاكه!» ولكن ابي يضع يده على رأسها، مثلما يضعها على رأس طفلة، ويمسد شعرها، ويقول: «لا أعرف من. منعني الظلام من رؤيته. ضربت على راسي من الخلف، فوقعت ارضا، ولم الحق ان اتبين من كان يضربني على الجليد...» أو يبتسم نفس الابتسامة الباهتة، ويقول لها: «هل أنت مولعة، يا عزيزتي، بذكر ما مضى وانقضى؟ ذنبي وتلقيت جزائي عليه...» واستدعي القس ليتلقى اعترافه، ولكنه لم يقل شيئا حتى للقس. لقد كان ابي رجلا متصلبا بشكل فظيع!

– ومن أين عرفت انه لم يقل شيئا للقس؟

– كنت أختبيء تحت السرير، واتسمع. اجبرتني امي على ذلك قائلة: «انسل تحت السرير، يا فانياتكا، واستمع، فلربما يسمي للقس قاتليه». ولكن ابي لم يذكر عنهم شيئا

ظل خمس مرات يجيب على اسئلة القس: «مذنب، يا أبانا» وبعد ذلك يسأل: «هل توجد خيول في الآخرة، يا أب ميتري؟» وارتعب القس، على ما يبدو، فراح يكرر: «ما هذا منك، يا فيدور، يا عبدالرب! أية خيول يمكن أن تكون هناك! فكر في خلاص روحك!». وظل ينصح ابي ويستميله وقتا طويلا، بينما ظل أبي صامتا، ثم قال: «تقول: لا توجد خيول؟ مؤسف! والا لحصلت على عمل راعي خيول هناك... والا فليس لي ما اعمله في الآخرة. ولهذا لا أنوي أن أموت. هذه كل الحكاية!» ناوله القس القربان المقدس على عجل، وخرج ممتعضا جدا، ومحنقا جدا. وقص على امي كل ما سمعه، فانفجرت امي باكية، وقالت: «معيلنا عاش خاطئا، وسيموت على خطيئته!»

في الربيع، وكان الثلج قد ذاب، نهض ابي، وظل يومين يسير في ارجاء البيت، وفي اليوم الثالث أبصرته يرتدي سترته المبطنة وقبعته القوزاقية، ويقول لي: «اخرج، فانياتكا، واسرج مهري». وفي ذلك الحين لم يبق عندنا غير مهر في سن الثالثة. سمعت أمي ما قاله، فانفجرت دموعها: «كيف يمكنك أن تركب حصانا الآن، يا فيديا؟ وانت لا تستطيع الوقوف على قدميك! اذا كنت لا تشفق على نفسك فاشفق علي وعلى الأطفال!». فيضحك ابي ويقول: «ولكنني، يا ام، في حياتي كلها لم اركب حصانا يمشي بخطواته. فدعيني قبل موتي على الأقل، أن اركب الحصان مرة واحدة، واتركه يمشي في الفناء بخطواته. سأدور به مرتين في الفناء واعود الى البيت».

خرجت، واسرجت المهر، وسقته الى مدخل البيت، اخرجت أمي الوالد وهي تسنده من يده. وكان قد ترك حلاقة وجهه شهرين، وفي ظلام بيتنا لم يظهر كيف تغير مظهره... وقد نظرت اليه في ضوء الشمس، وأصبت بغصة مريرة! قبل شهرين كان ابي أسود كالغراب، أما الآن فقد نمت له لحية غشى الشيب نصفها مثلما غشى شاربيه، والشعر على صدغيه قد ابيض تماما كالثلج. ولو لم يبتسم

تلك الابتسامة المعذبة لما بكيت ولكنني رايت تلك الابتسامة، فلم استطع السيطرة على نفسي... تناول المقود مني، وتشبث بعرف المهر، ولكن يده اليسرى كانت مكسورة، ولم يندمل كسرها الا قبل حين. أردت أن اسنده، ولكنه لم يطاوعني. لقد كان انوفا الى حد كبير! يخجل حتى من ضعفه. مفهوم أنه كان يريد أن يثب الى السرج كالطائر، كما كان يفعل من قبل ولكنه لم يقدر... وضع رجله على الركاب، ولكن يده اليسرى خانته، وارتخت اصابعه، وانطرح بظهره على الأرض... حملته وامي الى البيت. واذا كان الدم من قبل يخرج مبصوقا من فمه، فقد خرج الآن نفاثا من حنجرته. ظلت امي تلازم الطشت حتى المساء، لاتجد الوقت لتغسل المناشف الحمراء من الدم. استدعينا القس. في الليل كان يدلكه بالزيت المبارك. ولكن اية قوة هائلة كانت لهذا الرجل. في اليوم الثالث فقط بعد التدليك المبارك تململ ابي قبيل المساء، وتقلب في السرير، ثم وثب، ونظر الى امي بعينين كدرتين، ولكنهما بهيجتان، ويقول: «يقولون بعد التدليك بالزيت المبارك لايجوز الوقوف على الأرض بقدمين حافيتين، ولكن ساقف، ولو قليلا... لقد سرت في هذا الأرض ماشيا او راكبا زمنا طويلا، ويعز علي ان افارقها، على كل حال... هاتي يا أم، يدك التي عملت كثيرا في هذه الحياة...»

تقدمت امي، واخذت بيده. استلقى على ظهره، وصمت برهة، وبعد ذلك قال همسا تقريبا: «والتي مسحت غير قليل من الدموع بسببي...» وأدار وجهه الى الحائط ومات، انتقل الى ذلك العالم يحرس للولي فلاس رعال خيوله...

وصمت ارجانوف وقتا طويلا تحت وطأة الذكريات كما يبدو. سعل دافيدوف وسأل:

– اسمع، يا عم ايفان، من اين تعرف ان الذي قتل اباك هو زوج... تلك المراة اياها، باختصار... وشقيقا الزوج؟ ام تلك فرضياتك لاغير؟ حدوسك؟

– واي حدوس هنا؟ ابي نفسه قال لي قبل وفاته بيوم،

اندهش دافيدوف، حتى أنه رفع جسمه قليلا على العربة:

– ما هذا، قال؟

– هكذا، ببساطة. في الصباح خرجت امي لتحلب البقرة، وجلست انا الى الطاولة احضر الواجبات المدرسية، فاسمع ابي يهمس: «يا فانياتكا، تعال الي». تقدمت منه، فهو يهمس: «انحن علي». فانحيت. فاذا به يقول بصوت خفيض: «ها انت تدنو من الثالثة عشرة، يا ولدي، وستصير بعدي ربا لهذا البيت، فتذكر ان الذي ضربني هو افريان ارخيبوف، واخواه افاناسي وسيرغي الأحول، ولو قتلوني في الحال لما حقدت عليهم. وقد رجوتهم ان يفعلوا ذلك هناك، على النهر، قبل أن افقد الوعي. ولكن افريان قال لي: «لن ندعك تموت موتا سهلا، ايها الوغد! فعش مقعدا بعض الوقت، وابتلع دمك حتى تشبع، وبعد ذلك مت وانفق!» ولأجل هذا احقد على افريان. الموت مسلط علي، ومع ذلك احقد عليه وانت الآن صغير، ولكنك ستكبر، فتذكر عذاباتي، واقتل افريان! ولا تبح لأحد بما قلت لك، لا لأمك ولا لأي انسان في العالم. اقسم بالله على أنك لا تبوح! اقسمت، وكانت عيناي جافتين، وقبلت الصليب الذي كان يتدلى من رقبة أبي.

هتف دافيدوف وقد تاثر بحكاية ارجانوف:

–فوه! كانه اخذ الثار عند الشراكسة في الزمن القديم!

– للشراكسة قلوب، لكن للروس حجارة بدلا من القلوب، ام كيف؟ الناس، ايها الرجل الطيب، سواسية.

سال دافيدوف بنفاد صبر:

– وماذا حصل بعد؟

– دفنا ابي. وعدت انا من المقبرة، ووقفت في حجرة الجلوس مديرا ظهري الى الحائط، وخططت فوق راسي خطا بالقلم. وكنت في كل شهر اقيس طولي بهذا الشكل واعلمه. فقد كنت استعجل الكبر لأقتل افريان... وها انا قد صرت

رب البيت، بينما لم اكن الا في الثانية عشرة، وكان لأمي ما عداي سبعة اطفال آخرين أحدهم اصغر من الآخر. وبعد موت ابي صارت امي كثيرا ما تمرض، وكم مررنا بضائقات واتراح، آوه، ياربي! فان أبي مهما كانت شقاوته، كان قادرا على العمل مثلما هو قادر على العبث. كان عند بعض الناس شخصا فاسدا، بينما كان لنا نحن الأطفال ولأمي أبا ومعيلا. كان يطعمنا ويكسينا، ومن اجلنا كان يحني ظهره في الحقل من الربيع حتى الخريف... كانت كتفاي آنذاك ضيقتين قليلا، وظهري ليس بالقوي، ومع ذلك فقد كان علي ان اضع على عاتقي كل شؤون البيت، واعمل كقوزاقي راشد. عندما كان ابي حيا كنا نحن الأربعة نذهب الى المدرسة، فاضطررنا بعد موته ان نترك المدرسة كلنا. جعلت اختي نيوركا – كانت في العاشرة تطبخ وتحلب البقرة بدلا من امي، وصار اخواني الصغار يساعدونني في شؤون البيت. ولكنني لم انس أن اعلم طولي على الحائط كل شهر. الا انني كنت اكبر ببطء في ذلك العام فقد اعاق الكرب والحاجة نموي بشكل طبيعي. وغير انني رحت اترصد افريان مثلما يترصد ذئب صغير طائرا من حرج قصب. كنت اعرف كل خطوة من خطواته والى اين يذهب ماشيا او راكبا، كنت اعرف كل شيء...

كان لداتي ينظمون العابا مختلفة في ايام الآحاد، بينما لا اجد انا وقتا لذلك، فانا رأس العائلة. وفي ايام الاسبوع الاعتيادية كانوا يذهبون الى المدرسة، بينما انا انظف الماشية في زريبتها... كنت احس بكدر شديد الى حد ذرف الدموع المريرة على حياتي المرة هذه! وصرت اتحاشى الأولاد من مثل عمري شيئا فشيئا، وصرت اعتزل الناس، واصمت كالحجر، ولاأريد ان اختلط بالبشر... وعندئذ اخذ الناس يتقولون في العزبة عني زاعمين أن ايفان ارجانوف الصغير عنده لوثة، يعني ممسوس العقل. كنت افكر: «يا ملاعين، ليتكم تكونون في مثل وضعي! ربما ستجعلكم الحياة التي اعيشها اكثر ذكاء مما انتم الآن!» وصرت اكره

اهل عزبتي تماما، لا اطيق ان انظر الى أحد منهم!.. اعطني، ايها الرجل الطيب، سيكارة اخرى.

واخذ ارجانوف سيكارة بطريقة غير لبقة. فقد كانت اصابعه ترتعش بشكل ملحوظ. وراح يمتص سيكارة دافيدوف وقتا طويلا مغلقا عينيه، ماطا شفتيه بشكل مضحك ومتمطقا بصوت عال.

– وماذا حصل لافريان؟

– افريان ذاك؟ عاش ما شاء له ان يعيش. لم يستطع ان يسامح زوجته على حبها لأبي، صار يضربها ضربا مبرحا حتى اودى بها الى القبر بعد عام. وفي الخريف التالي تزوج اخرى، فتاة شابة من عزبتنا ذاتها. ففكرت حينذاك «طيب، يا افريان، لن تعيش طويلا مع زوجتك الشابة...»

وخفية عن امي اخذت أدخر الفلوس، وفي الخريف بدلا من ان اذهب الى أقرب مخزن لخزن الحبوب، ذهبت لوحدي الى كالاج، وبعت فيها حمولتي من الحبوب، واشتريت بندقية وعشر طلقات لها من بائع عابر. وفي طريق العودة جربت البندقية، وصرفت ثلاث طلقات. لقد كانت البندقية زائفة، فقد كانت ابرة الزناد لا تقدح الكبسولة راسا، فلم يطلق من الرصاصات الثلاث غير رصاصة واحدة، كما يجب. خبأت هذه البندقية في البيت، تحت سقف الزريبة، وكتمت شروتي هذه عن الجميع. واخذت اتربص لأفريان... وبقيت طويلا لا اظفر بطائل. فاما ان يعيقني الناس، واما لسبب ما يمنعني عن ضربه... ولكنني ظفرت ببغيتي على اية حال! الشيء الاساسي انني لم ارد ان اقتله في العزبة. هذه هي المشكلة! في اليوم الأول من عيد الشفيع غادر ليشهد السوق الريفية في الدسكرة، غادر وحده، دون زوجته. وقد علمت أنه سافر وحده، فرسمت علامة الصليب، والا لكنت قتلته هو وزوجته. يوما ونصف اليوم لم آكل ولم اشرب، ولم انم، فقد كنت أكمن له في الوهدة قرب الطريق. صليت بحرارة في تلك الوهدة، ودعوت الله ان يعود افريان من الدسكرة لوحده، وليس مع صحبة من اهل العزبة. واستجاب

الرحمان لدعائي الصبوي! فقبيل المساء من اليوم التالي رأيت افريان يسير وحده. وكم فوت من عربات، وكم هبط قلبي في صدري حتى بدا من بعيد أن الخيول التي تخب في الطريق هي خيول افريان. حاذاني بعربته، فقفزت من الوهدة، وقلت: «انزل، يا عم افريان، وصل للرب!» ابيض افريان حتى صار بلون الحائط، واوقف خيوله. كان قوزاقيا ضخما ومعافى، ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل معي؟ وفي يدي بندقية. صاح بي: «ما هذا الذي نويته ايها الصل؟» فاقول له: «انزل واركع على ركبتيك! ستعرف حالا ماذا نويت». كان اللعين شجاعا! قفز من العربة، واندفع نحوي بيدين فارغتين... تركته يقترب، حتى صار قريبا مني اقرب من ذلك العشب. واطلقت عليه النار مواجهة.

– وماذا لو اخطأت؟

ابتسم ارجانوف.

– حينها سيرسلني الى ابي لأساعده في رعاية الخيول في العالم الآخر.

– طيب، وماذا جرى بعد؟

– ذعرت الخيول من الطلقة فركضت، بينما أنا لم اتحرك من مكاني. ورجلاي فقدتا القدرة على الحركة، وصرت ارتجف كالورقة في مهب الريح. وافريان ينطرح على مقربة، ولكنني لا أستطيع ان اتقدم منه خطوة. ارفع رجلا، ثم انزلها خوفا من السقوط. واصابتني رعدة فظيعة! ولكنني جمعت شتات نفسي على نحو ما، وخطوت نحوه، وبصقت على وجهه، واخذت اقلب جيوب بنطلونه وسترته. واخرجت محفظته. وكانت تحتوي على ثمانية وعشرين روبلا من العملة الورقية، وقطعة ذهبية، من فئة خمسة روبلات وروبلين او ثلاثة من الخردة النقدية المعدنية. وقد عددت ذلك في البيت، فيما بعد. والظاهر أنه قد أنفق بقية نقوده في شراء هدايا لزوجته الشابة... والقيت المحفظة الفارغة في البقعة نفسها من الطريق، وخرجت من الوهدة، وسرت في طريقي! كان ذلك منذ زمن بعيد، ولكنني اتذكر كل شيء بوضوح، وكأنما وقع

لي بالأمس فقط. دفنت البندقية والخراطيش في الوهدة. في نزلة الثلج الأولى اخرجت ملكي هذا في الليل، وجلبته الى العزبة، وحفظت البندقية في تجويف شجرة صفصاف عجوز في فناء احد البيوت.

سأله دافيدوف بحدة وغيظ:

– ولم اخذت فلوسه؟

– ماذا؟

– اسالك: لماذا اخذت فلوسه؟

اجاب ارجانوف ببساطة:

– كنت بحاجة اليها. كان الفقر في ذلك الوقت يقضم بنا اكثر مما يفعل القمل.

قفز دافيدوف من العربة، وظل يسير صامتا لوقت طويل. وصمت ارجانوف ايضا. فسأله دافيدوف:

– أهذا كل شيء؟

– لا، ليس كل شيء، ايها العزيز. جاء رجال التحقيق، ونبشوا ونقبوا... ولكنهم عادوا بلا نتيجة. فمن كان في وسعه أن يشك في؟ وبعد وقت قصير اصابت نزلة برد سيرغي الاحول، أخا افريان، ولزمه المرض ومات – بالتهاب الرئتين. وانا ايضا اخذت اقلق مفكرا ماذا لو مات أفاناسي أيضا ميتة طبيعية، فلا تضرب يدي التي باركها أبي لتعاقب الاعداء. فأخذت الوب...

قاطعه دافيدوف:

– انتظر. لقد كان ابوك يتكلم عن افريان وحده، بينما انت شملت الجميع؟

– لا يهم ما قال ابي... كانت له مشيئته، ولي مشيئتي ايضا. اذن، فقد اخذت الوب آنذاك... وقد قتلت افاناسي من خلال الشباك حين كان يتعشى. في تلك الليلة علمت على الحائط لآخر مرة، وبعد ذلك مسحت كل العلامات بخرقة. واغرقت البندقية والخراطيش في النهر، اذ لم اعد بحاجة الى كل هذه. لقد حققت مشيئة ابي، وبعد فترة قصيرة دبرت أمي حالها لتموت. استدعتني ليلا اليها، وسألتني: «هل

انت الذي قتلتهم، يا فانياتكا؟» اعترفت قائلا: «أنا، يا ماما» لم تقل لي شيئا، سوى انها تناولت يمناي، ووضعتها على قلبها...

جذب ارجانوف الأعنة، فاسرعت الخيول في مشيها، وعندها سأل ارجانوف، وهو ينظر الى دافيدوف بعينين رماديتين وضاحتين على نحو طفولي:

– والآن لن تسأل بعد هذا لماذا لا أجعل الخيول تخب مسرعة؟

اجاب دافيدوف:

– كل شيء مفهوم. كان عليك أن تحمل الماء على عربة تسوقها ثيران. هذه حقيقة.

– طلبت ذلك عدة مرات من ياكوف لوكيتش، ولكنه لم يوافق. يريد أن يضحك مني الى الآخر...

– لماذا؟

– عندما كنت صغيرا، عملت عنده اجيرا زراعيا عاما ونصف العام.

– هكذا اذن!

– نعم، أيها العزيز. وانت الم تكن تعرف أن اوستروفتوف كان يستاجر اجراء زراعيين طوال حياته ليعملوا له؟ – وقلص ارجانوف عينيه بمكر – كان، أيها العزيز، كان... ولم يهدأ الا قبل ما يقرب من اربعة أعوام، حين اخذوا يضيقون عليه بالضرائب فالتف على نفسه كالافعى قبل الوثوب. ولولا الكولخوزات الآن ولو كانت الضرائب أقل لبان عن حقيقة نفسه تماما! انه أشرس كولاكي، بينما انت اخذت هذا الافعى ووضعته في زيقك لتدفئه...

بعد صمت طويل قال دافيدوف:

– سنسوي الأمر، حين نستقصي قضية اوستروفتوف كما ينبغي، وعلى اية حال، يا عم ايفان، انت صاحب فلتات.

ابتسم ارجانوف. وهو يحدق في البعيد باستغراق.

– فلتات كيف اقول لك... لناخذ شجرة كرز لها العديد من الاغصان.. فاعمد أنا، واقطع غصنا منها اصنع منه مقبض سوط ففصن شجرة الكرز يصلح لأن يكون مقبض سوط امتن من غيره. ولكن هذا الغصن اللطيف هو ايضا فلتة بعساليجه واوراقه، بجماله. ولكنني اذا نحته يصير هكذا – واخرج ارجانوف سوطا من تحت مقعده، وكشف لدافيدوف عن مقبض سوط من غصن كرزبني ذي قشرة يابسة ذات عقد..هذا هو! لايسر النظر أبدا! وهكذا الانسان، فهو اذا لم تكن له فلتة، أجرد بائس مثل هذا المقبض. ها هو ناغولنوف يتعلم لغة اجنبية، يعني فلتة، انت تعاشر لوشكا ناغولنوفا يعني فلتة، والجد كرامسكوف يجمع مختلف علب الكبريت منذ عشرين عاما، يعني فلتة. والسكران السائر في الشارع فيعثر، ويؤذي ظهره بأحد الأسيجة، هو ايضا فلتة. طيب، يا عزيزي، يا رئيس، جرد كل واحد من فلتاته، وسيكون أجرد بائس مثل مقبض السوط. هذا.

ومد ارجانوف السوط الى دافيدوف، وهو مايزال يبتسم ابتسامته الاستغراقية:

– امسكه بيديك، وفكر فقد يتوضح لك الأمر اكثر.

دفع دافيدوف يد ارجانوف بغضب:

– اذهب الى الشيطان! بدون ذلك استطيع أن افكر وافهم كل شيء!

وبعد هذا ظلا صامتين حتى وصلا الى المخيم...

الفصل السادس

كان اعضاء الفريق يتناولون غداءهم. وكانت المنضدة الطويلة المصنوعة على عجل تضم الحراث والسائقين يزحم بعضهم بعضا. كانوا ياكلون، ويلقون من حين الى آخر، نكات رجالية مالحة، ويتبادلون الملاحظات بجدية عن نوعية طبخ العصيدة.

– انها دائما تضع ملحا قليلا! هذا ليس طبخا بل بلية

– لا ضير عليك من قلة الملح، خذ وملحه.

– ولكنني وفاسكا ناكل من قصعة واحدة، وهو يحب

الطعام المملح قليلا، بينما انا احبه مملحاً كثيراً. فكيف نتقاسمه في قصعة واحدة؟ ارشدنا، اذا كنت بهذا الذكاء!

– غداً سنضفر سياجاً من الاغصان، ونقسم به قصعتكما هذا هو الحل. آه، يا قاصر العقل! هذه المسألة البسيطة ولا تستطيع أن تحلها!

– آوه، يا اخ، لك عقل الثور الذي يجر محراثك، ولا ذرة اكبر.

وكانوا سيمضون وقتاً اطول في المماحكة وتبادل النكات لو لم يلحظوا من بعيد عربة. وضع الحارث بريانيشنيكوف، وهو احدهم بصراً، كفه ظليلة على جبينه، وصفر صفيراً خافتاً:

– هذا فانكا ارجانوف القاصر العقل قادم بعربته ومعه دافيدوف.

القيت الملاعق على الطاولة محدثة اصواتاً مختلفة، واتجهت جميع الأنظار لهفى الى حيث اختفت العربة لبرهة في منخفض من الارض.

– هذا ما وصلنا اليه! ها هوقادم مرة اخرى ليقطرنا – قال اغافون دوبتسوف باستياء متحفظ – استخفاف! يكفيني هذا! الان سترمشون باعينكم، بينما تعبت انا من الرمش، لا احب حتى النظر اليه من الخجل!

جفل قلب دافيدوف مسرة، حين رأى الجميع ينهضون سوية من وراء الطاولة يحيونه. سار بخطى عريضة، وامتدت الايدي نحوه، واضاءت البسمات وجوه الرجال المسودة من لفح الشمس، ووجوه الفتيات والنساء السمراء الملوحة قليلا بحرارة الشمس. وهؤلاء النسوة لم تكن الشمس قد لوحتهن كما يجب، لانهن كن يلففن رؤوسهن في مناديل راس بيضاء ولا يبقين الا شريطا ضيقا مكشوفا لعيونهن. كان دافيدوف يبتسم، وهو ينظر في سيره الى الوجوه المالوفة له. فقد تيسر لهم الوقت الكافي في معايشته عن كثب، فكانوا فرحين حقا بمجيئه. استقبلوه كشخص قريب اليهم. وخلال برهة وعى دافيدوف كل ذلك، فمس قلبه فرح قوي، جعل صوته يتهدج، ويبح قليلا:

– مرحبا، ايها الكادحون المتخلفون! هل ستطعمون قادما اليكم؟

– نطعم من يطيل البقاء بيننا، أما من يأتي لزيارتنا لمدة ساعة فلا نطعمه، بل نودعه بالانحناءات الشديدة. اليس كذلك، يا رئيس فريقنا؟ – قال بريانيشنيكوف وسط ضحك الجميع.

– اظنني سابقى معكم طويلا. – ابتسم دافيدوف.

فزعق دوبتسوف بصوته الضخم المصم:

– يامسجل! سجله بتقويت كامل منذ هذا اليوم، وانت، يا طباخة، صبي له ما يملأ بطنه من العصيدة!

دار دافيدوف حول الطاولة، وصافح الجميع. وتبادل الرجال معه بمصافحة قوية معهودة، اما النساء فقد ارتبكن، وهن ينظرن اليه، ومددن اليه ايديهن ملتصقات الاصابع، فان رجالهن المحليين لم يكونوا يدللونهن كثيرا بهذه اللفتة، ولم يكونوا يتنازلون في اي مناسبة تقريبا في ان يمدوا الى اي امراة ايديهم عند اللقاء بمثل هذه المساواة.

اجلس دوبتسوف دافيدوف الى جانبه، ووضع على ركبته كفه الثقيلة الحارة.

– نحن مسرورون بك، يا محبوبنا دافيدوف!

– ارى ذلك. شكرا!

– فقط ان لا تبدأ بالشتائم فورا...

– ولكنني لا انوي أن أشتم على الاطلاق.

– لا اظنك ستصطبر، بالطبع، اذ لا مناص لك من ذلك، كما أن الكلام الشديد ينفعنا. ولكن اسكت الآن. ولاحاجة الى سد شهية الناس، ما داموا ياكلون.

قال دافيدوف بابتسامة تهكمية:

– يمكن الانتظار ايضا. لا مفر لنا من الحديث الطيب، ولكننا لن نبدأه على المائدة. سنصبر على نحو ما، ها؟

– لازم ان نصبر! – أعلن دوبتسوف بتصميم وسط ضحك الجميع وكان اول من تناول الملعقة.

اكل دافيدوف منغمرا صامتا، دون ان يرفع راسه عن

قصعته: لايكاد يستمع الى اصوات الحراث المكتومة، وهم يتناولون غذاءهم، ولكنه كان يشعر طوال الوقت بنظرة واحد منهم مثبتة على وجهه. اتم دافيدوف التهام عصيدته، وتنفس الصعداء، فمنذ وقت بعيد لم يشبع هذا الشبع الحقيقي. لعق الملعقة الخشبية كالاطفال، ورفع راسه. كانت عينا فتاة رماديتان تحدقان به عبر المائدة مفعمتين بحب حار مخفي، وبترقب وامل وخضوع حتى ان دافيدوف احس بالارتباك لبرهة من الزمن. وكان من قبل ايضا يلتقي احيانا في العزبة – في اجتماع او مرورا في الشارع – بهذه الفتاة الكبيرة اليدين، الضليعة، الجميلة، وهي في السابعة عشرة من عمرها، وعندما كانا يلتقيان كانت تبتسم له بارتباك ورفة، فيغشى الذهول وجهها الملتهب فجاة، ولكن نظرتها الآن كانت تنطوي على شيء آخر جدي ومن شأن الكبار... فراح دافيدوف يفكر، وهو ينظر بذهول الى وجهها المتورد:

«أي ريح تحملك الي، وماحاجتي اليك، ايتها الفتاة اللطيفة؟ وما حاجتك بي؟ فكم من الفتيان الشبان يحومون حولك، بينما تحدقين انت بي، آه، يا عمياء! فانا اكبر منك مرتين، مقرح، ودميم، وادرد، وانت لا ترين شيئا... لا، لا حاجة لي بك، يا فاريوخا الصغيرة! اكبري بدوني، يا عزيزة...

اشاحت وجهها قليلا، وغضت بصرها حين التقت عيناها بعيني دافيدوف، وكانت رموشها ترف، واصابعها الكبيرة المتقسية ترتعش بشكل ملحوظ، وهي تعدل طيات بلوزتها القديمة الوسخة. لقد كانت بهذا القدر ساذجة ومكشوفة في عاطفتها حتى انها في بساطتها الطفولية لم تقدر وماكان في وسعها ان تخفي ما يستطيع حتى الاعمى ان يلحظه.

ضحك كوندرات مايدانيكوف، وهو يقول لدافيدوف:

– آوه، لا تنظر الى فاركا، والا فان وجهها كله سيمتلىء دما! اذهبي، يا فاركا، واغتسلي، فقد تستريحين قليلا. ولكن كيف ستذهب؟ رجلاها الآن مرتخيتان... انها تعمل سائقة في فريقي، وهي طوال الوقت لاتتركني وشاني، تسال

دائما، متى سيأتي دافيدوف، فاقول لها: «ومن اين اعرف متى يأتي؟ اتركيني» – ولكنها تلح علي بهذه الاسئلة وتلح من الصباح حتى المساء، مثلما يلح نقار الخشب على خشبة يابسة.

وكان فاريا خارلاموفا أرادت ان تنفي هذا الزعم بارتخاء رجليها، فاستدارت جانبا، وطوت رجليها قليلا من الركبتين، وبوثبة واحدة قفزت من المسطبة التي كانت جالسة عليها، وسارت الى الكشك وهي تتلفت غضبى الى مايدانيكوف، وتتمتم بشفتيها الممتقعتين. ولم تتوقف الا عند الكشك، واستدارت نحو الطاولة، وصاحت بصوت زاعق:

– انت، يا عم كوندرات... انت، يا عم... لست صادقاً في قولك!

جوبهت بضحك جماعي في الرد عليها. وقال دوبتسوف ضاحكاً:

– تنكر من بعيد. الانكار من هناك افضل.

قال دافيدوف في غير ارتياح:

– لماذا ازعجت البنت؟ غير لطيف!

اجاب مايدانيكوف متلطفا:

– انت لا تعرفها بعد. انها بحضورك وادعة، ولكنها في غيابك تقلع سن اي واحد منا، دون ان تبالي. بنت مقلاعة! خناقة، وليست بنتاً! هل رايت كيف وثبت من مكانها؟ كالعنزة البرية!..

ولكن حب هذه الفتاة هذا لم يثر غرور دافيدوف كرجل، وكان الفريق كله يعرف بهذا الحب منذ وقت بعيد، ولكن دافيدوف سمع وعرف به الآن، ولأول مرة. شيء آخر لو ان عينين اخريين نظرتا اليه ولو مرة واحدة بهذا الاخلاص المتفاني.

قال دافيدوف بمزاح، وهو يحاول ان يغير الحديث:

– طيب، شكرا للطباخة وللملعقة الخشبية! اشبعتموني.

– قدم شكرك، يارئيس، ليدك اليمنى ولفمك على نشاطهما العظيم، وليس للطباخة والملعقة. ربما نصب لك

كمية اخرى؟ – قالت الطباخة وهي تنهض من وراء الطاولة ضخمة سمينة بشكل غير اعتيادي.

تفحص دافيدوف بشيء من الذهول ابعادها الجبارة، وكتفيها العريضتين، وقامتها السميكة. وسأل دوبتسوف بصوت خافض:

– من اين اخذتم مثل هذه؟

رد المسجل، وهو شاب رخي الحركات:

– خصصوها لنا بناء على طلب خاص منا.

قال دافيدوف، وهو ما يزال في دهشته:

– كيف لم ارك من قبل؟ أنت بمثل هذه الضخامة والجسامة وتغيبين عن بصري، يا ماما!

حمحمت الطباخة:

– طلع لي ابن! اي ام انا لك، اذا كان عمري لا يزيد عن سبعة واربعين عاما؟ انت لم ترني، لانني في الشتاء، لا اغادر بيتي، لا اصلح للسير على الثلج وانا بهذه السمنة والرجلين القصيرتين، قد انزرع في الثلج من خطوة لاخرى. في الشتاء، الزم البيت ولا اطلع منه، اغزل الصوف، واحوك المناديل، وباختصار اعيش نفسي بشكل او بآخر. كما انني لااصلح لسير في الوحل، مثل البعير اخشى ان انزلق واسلخ جلدي، ولكن حين يجف الجو اطلع واشتغل طباخة. وانا لست اما لك مطلقا، يا رفيق رئيس! اذا تريد أن تعيش معي بسلام فسمني داريا كوبريانوفنا، وعند ذاك لن تكون جوعان في الفريق أبداً!

– متفق تماما ان اعيش معك بسلام، يا داريا كوبريانوفنا، – قال دافيدوف باسماً، ونهض، وانحنى لها بجدية تامة.

فقالت الطباخة، وقد ارتاحت كليا للطف دافيدوف:

– سيكون ذلك افضل لي ولك. والآن هات طاستك، وساصب لك لبنا تختم به غداءك.

واغدقت عليه بان صبت في طاسته كيلوغراما كاملا من اللبن الحامز الخاثر، وقدمته له بانحناءة كبيرة.

سأل دافيدوف:

– ولماذا تشتغلين طباخة، ولا تشاركين في اعمال الحقل؟ بوزنك الثقيل هذا حالما تضغطين على المحراث تنغرز سكته في الارض نصف متر، حقيقة!

– لانني مريضة في القلب! شخص الاطباء عندي تشحماً في نشاط القلب. وحتى الطبخ يصعب علي، ما ان ارفع الاواني، حتى اشعر قلبي يدق في بلعومي. لا، يا رفيق دافيدوف، انا لا اصلح للحراثة. هذا رقص لا يناسب موسيقى قلبي.

قال دوبتسوف:

– تشكو من قلبها دائما، بينما دفنت ثلاثة ازواج. عايشت ثلاثة رجال قوزاق، ماتوا وبقيت هي. وها هي تبحث الآن عن رابع، ولكنها لسبب ما لا تجد راغبين، يخشون أن يتزوجوها، فيموتون تحت ثقلها.

– ايها الكذاب النمش! – صاحت الطباخة منزعجة عن جد – ما ذنبي اذا لم يكن اي واحد من القوزاق الثلاثة قويا، كلهم ما بين ضعيف البنية او شبه مريض؟ الله لم يمد بعمرهم، افهل هذا ذنبي؟

فاصر دوبتسوف على رايه:

– انت ساعدت في موتهم.

– بم ساعدت؟

– معروف بم...

– تكلم بعقل.

– كل شيء واضح لي هكذا...

– لا، تكلم بعقل، ولا تحرك لسانك على الفارغ!

قال دوبتسوف بحذر، وضحك:

– معروف بم ساعدت: بحبك طبعاً.

– أحمق مبقع! – صاحت الطباخة بضراوة مغطية بصوتها الضحك الذي انفجر حولها، وجزفت بحركة من ذراعها نصف الاواني عن المائدة في حضنها.

ولكن لم يكن من السهل كثيرا انزال دوبتسوف الصعب

المراس عن بغلته. شرب بقية اللبن على مهل، ومسح شاربيه بكفه، وقال:

– بالطبع قد اكون احمق، ومبقعا. ولكنني في هذه الامور افهم حتى الدقائق، يا فتاة.

وفي تلك اللحظة خاطبت الطباخة دوبتسوف بقارص الكلام مما جعل الجالسين الى المائدة يهدرون بضحك لامثيل له من قبل، وجعل دافيدوف المحمر من الضحك والارتباك يقول بعد جهد:

– ما هذا، يا اخوان! حتى في الاسطول لم اسمع بهذا!

الا ان دوبتسوف الذي احتفظ بالجدية الكاملة، وبالانفعال المتعمد صرخ:

– استطيع ان احلف! احلف بالمسيح! ولكنني اصر على رايي، يا داشكا. من حبك وحل ازواجك الثلاثة جميعا الى العالم الاخر! ثلاثة ازواج، هل يخطر ذلك بعقل... في العام الماضي لماذا مات فولودكا غراتشيف؟ كان يتردد عليك...

ولم يتم جملته، وطوى جذعه بسرعة، فقد طارت مغرفة خشبية ثقيلة فوق راسه محدثة صفيرا كشظية قنبلة. تخطى دوبتسوف المسطبة بخفة الشباب، وصار على بعد عشرة امتار من المائدة، ولكنه قفز فجاة منتحيا، واستدار، واذا بطاسة معدنية تمر به شاخبة مطرطشة اللبن في كل الجهات، وتسقط بعيدا في السهب بعد ان ترسم خطا منحنيا. باعد دوبتسوف بين رجليه، وصاح مهددا بقبضته:

– حذار، يا داريا، اقذفي اي شيء غير الطاسات الفخارية! سيخصم ثمن الاواني المكسورة من اجرك. اذهبي، مثل فاركا، وراء الكشك، فسيكون اسهل عليك تبرير نفسك من هناك!.. ومع ذلك اصر على رايي. قتل ازواجك، وانت الان تصبين غيظك علي...

استطاع دافيدوف اعادة النظام بعد جهد، وجلسوا يدخنون غير بعيد عن الكشك. وقال كوندرات مايدانيكوف وهو يغص بالضحك:

– كل يوم لنا هذه التمثيلية سواء على الغداء او على العشاء. ظل اغافون اسبوعا يحمل كدمة زرقاء تحت عينيه وتملا خده كله بسبب ضربة من قبضة داريا، ومع ذلك لا يترك التهكم منها. لن تذهب الى بيتك بعد الحراثة بدون حادثة، فاما ان تقلع عينيك او تدير لك كعب رجلك الى الامام. مزاحك هذا لن ينتهي بالحسنى...

– انها تراكتور «فيردزون» وليس امراة! – قال دوبتسوف معجبا، وهو ينظر خلسة الى الطباخة المارة به.

وتظاهر انه لا يلحظها، فعاد يقول بصوت اعلى:

– لا، يا اخوان، ولماذا اخفي عليكم، كنت ساتزوج داريا، لو لم اكن متزوجا. ولكن كنت ساتزوجها اسبوعا فقط، وبعد ذلك اهرب. لا اصبر اكثر من اسبوع، بكل ما لدي من طاقة. كما انني لا اريد ان اموت الآن. فاي فرحة من تعريض نفسي للموت؟ خضت الحرب الاهلية بطولها، وبعد ذلك اهنا ومت بسبب امراة... لا، فانا شديد المكر، ولو كنت ابله مبقعا! يمكن ان امضي مع داريا اسبوعا، على نحو ما، ثم انزل ليلا من السرير خفية، وازحف على بطني حتى الباب، وبعد ذلك الى الفناء، ثم كالطلقة الى البيت. صدقني، يا دافيدوف والرب الحقيقي لا اكذب، وبريانيشنيكوف ايضا، – هذا هو – لا يدع لي مجالا للكذب: فقد نوينا انا وهو ان نعانق داريا، على حسن طعامها، فاقبل هو من امام، وانا من الخلف، واشبكنا ايدينا، ولكنها لم تنشبك لتطوق داريا، الى هذا الحد الكبير من العرض داريا هذه! ونادينا المسجل، وهو شاب وجبان بعض الشيء، فخاف ان يقترب من داريا. وهكذا في الحقيقة بقيت داريا دون معانقة الى الابد...

– لا تصدق بهذا الملعون، يارفيق دافيدوف – قالت الطباخة ضاحكة بلا ضغينة هذه المرة – واذا كان اليوم لا يكذب بهذا الشكل، فانه سيفطس غدا من الضجر. يكذب في كل خطوة. هذه طبيعته!

بعد ان فرغوا من التدخين سال دافيدوف:

– كم بقي من الارض لم يحرث؟

اجاب دوبتسوف بمضض:

– كثير جداً. اكثر من مائة وخمسين هكتاراً. يوم امس كان قد بقي مائة وثمانية وخمسون هكتاراً.

– عمل رائع، حقيقة! – قال دافيدوف ببرود – ماذا كنتم تفعلون هنا؟ تقيمون العروض التمثيلية مع الطباخة كوبريانوفنا؟

– آوه، لا يحق أن تقول كل هذا!

– فلماذا اذن انهى الفريق الأول والثالث الحراثة منذ زمان، بينما انتم تجرجرون؟

فاقترح دوبتسوف قائلا:

– تعال نجتمع، يا دافيدوف، في المساء جميعاً، ونتحدث من القلب للقلب. اما الان فسنذهب للحرث.

وكان هذا اقتراحاً معقولا، وافق عليه دافيدوف بعد قليل من التفكير.

– اي ثيران ستعطونني؟

فنصحه كوندرات مايدانيكوف قائلا:

– احرث على ثيراني. فانها قد تعودت على العمل، وفي حالة جيدة. عندنا زوجان من الثيران في الاستجمام.

فقال دافيدوف مندهشا:

– واي منتجع هنا؟

اوضح دوبتسوف باسماً:

– يقصد انها ضعاف ترقد في الاخدود. وقد فككناها واطلقناها لترعى كما تشاء قرب البركة. فالعشب هناك جيد ومغذ، ولتعد اليها صحتها، فلا نفع منها الآن على اية حال. فقد خرجت من فصل الشتاء نحيلة جداً، بينما راحت تعمل كل يوم، فتداعت، ولم تعد تقدر على جر المحراث. وهذا كل شيء. حاولنا أن نزاوج بينها وبين الثيران الكبيرة في السن، فنشرك كل واحد منها في محراث ولكننا لم نحصل على جدوى. أحرث على ثوري كوندرات، فان نصيحته لك صحيحة.

– وهو ماذا سيفعل؟

– نجيزه يومين ليكون في بيته. فقد مرضت زوجته ولزمت الفراش، لم ترسل له حتى تبديلة ثياب داخلية مع فانيا ارجانوف، وطلبت أن ياتي الى البيت.

– هذا شيء آخر، اذن. والا فقد تصورت أنك سترسله ايضا للاستجمام في منتجع. عندكم هنا، كما ارى، مزاج استجمامي...

غمز دوبتسوف للآخرين دون أن يلحظ دافيدوف، ونهض الجميع، وراحوا يشدون الثيران على المحاريث.

الفصل السابع

عند غروب الشمس فك دافيدوف ثوريه في نهاية قطعة الارض المحروثة، واطلقهما يرعيان. وجلس على العشب قرب اخدود احدثه المحراث ومسح العرق من جبينه بكم سترته، واخذ يلف سيكارة بيدين مرتجفتين، وعند ذاك فقط شعر بشدة تعبه. كان ظهره ينئن، وبعض العروق تختلج قرب ركبتيه، ويداه ترتعشان كيدي عجوز هرم. سأل فاريا:

– هل سنجد الثورين في الفجر؟

كانت تقف قبالته على الارض المحروثة. وقدماها الصغيرتان في حذائيهما الكبيرين المهترئين تكادان تغوصان في الارض الرخوة التي قلبت بالمحراث لتوها. قالت الفتاة، وقد دفعت عن وجهها المنديل الذي اربد من الغبار:

– سنجدهما. فهما لا يبعدان كثيرا في الليل.

اغمض دافيدوف عينيه، ومص سيكارته بشراهة، لم يرد أن ينظر الى الفتاة. قالت بصوت خافت وهي تشع بكليتها بابتسامة هانئة سعيدة متعبة:

– عذبتني مثلما عذبت الثورين. وانت تستريح نادراً جداً.

قال دافيدوف مقطبا:

– انا نفسي تعذبت الى حد لعين.

– يجب ان تستريح اكثر. العم كوندرات كانه يستريح اكثر، ويدع الثيران تتنفس، ولكنه يحرث دائما اكثر من الآخرين بينما انت تتهافت من عدم التعود...

وأرادت ان تضيف «يا عزيزي» ولكنها ذعرت واطبقت شفتيها بشدة.

وافق دافيدوف قائلا:

– هذا صحيح، لم أتعود بعد.

ونهض من الارض بصعوبة، وبنفس الصعوبة سار بمحاذاة الاخدود الى المخيم منقلا قدميه المتقسيتين وسارت فاريا وراءه، ثم حاذته، وسارت الى جانبه. كان دافيدوف يحمل في يده اليسرى قميصاً بحارياً مهلهلا ناصل اللون. في ظهر ذلك اليوم شربك الباقة باحد المقابض، حين كان ينحني ليعد المحراث، وحين انتصب بقامته شق القميص الى نصفين، كان النهار حارا بمافيه الكفاية، وكان من الممكن ان يستغني عنه، ولكن كان يستحيل عليه تماما أن يسير وراء المحراث عاريا الى الحزام بحضور الفتاة. لم شقي هذا اللباس البحاري مرتبكا، وسالها عما اذا كان لديها دبوس. اجابت لا، مع الاسف. نظر دافيدوف بجزع باتجاه المخيم. المسافة اليه لا تقل عن كيلومترين. ففكر دافيدوف «يتعين علي أن اسير، على اية حال»، وشتم بصوت خافت محمحما من الضيق، وقال:

– اسمعي، يا فاريوخا! انتظريني هنا، بينما سأذهب انا الى المخيم؟

– ولم؟

– لاخلع هذا القميص الممزق، وارتدي سترة.

– ستتشعر بالحر، وانت فيها.

قال دافيدوف بعناد:

– على كل حال، سأذهب.

اللعنة! لم يكن في مقدوره حقيقة ان يتخلى عن القميص! لم يبق الا ان ترى هذه الفتاة اللطيفة البريئة ما رسم على صدره وبطنه. في الحقيقة ان الوشم على شقي صدر دافيدوف

متواضع، بل وحتى عاطفي نوعا ما، فان الرسام رسم بيده حمامتين باتقان، وما ان يتحرك دافيدوف حتى تتحرك الحمامتان الزرقاوان على صدره. اما حين يهز كتفيه فان الحمامتين تتماسسان بمنقاريهما، وكان احداهما تقبل الاخرى. وهذا كل شيء. ولكن الوشم على البطن... ذلك الرسم الصغير كان موضوع عذابات دافيدوف الخلقية القديمة. ذات مرة في سنوات الحرب الاهلية سكر دافيدوف البحار الشاب في العشرين من عمره سكرة مميتة. وفي الطابق الاسفل من المدمرة جلب له قدح آخر من الكحول، كان يرقد فاقد الوعي في التخت الاسفل وليس عليه غير سروال قصير، فانكب عليه صديقان مخموران من كاسحة الغام مجاورة – استاذان في الوشم – واصلين بخيالهما المخمور الجامح الى البذاءة. وبعد ذلك كف دافيدوف عن الدخول الى الحمام العمومي. وكان عند الفحص الطبي يطلب بالحاح أن يفحصه اطباء رجال فقط.

وحتى بعد التسريح، وفي العام الاول من اشتغاله في المصنع جمع دافيدوف شتات شجاعته ذات مرة، وذهب الى حمام عمومي. غطى بطنه بيديه، ووجد اجانة فارغة، وصوبن راسه بكثافة، واذا به يسمع، لفوره تقريبا، ضحكة عادئة صدرت في الأسفل من احد على مقربة منه. غسل دافيدوف وجهه، ورأى مواطنا كهلا اصلع أسند يديه على المسطبة، وانحنى، وراح يحدق مباشرة ودون خجل في الرسم على بطن دافيدوف، ويضحك بخفوت شرقا من شدة الفرح. سكب دافيدوف الماء ببطء من الاجانة الثقيلة من خشب البلوط، وضرب بها صلعة هذا المواطن المتطلع اكثر من اللزوم. فانغمض هذا عينيه قبل أن يتم تحديقته في الرسم، وانطرح على الارض بهدوء. وبنفس القدر من البطء اغتسل دافيدوف، وسكب على الاصلع ملء اجانة من الماء المثلج، وعندما رمش الرجل بعينيه، وذهب الى غرفة الملابس. ومنذ ذلك الحين ودع دافيدوف الى الابد متعة الاغتسال في حمام بخاري حقيقي على الطريقة الروسية مفضلا الاغتسال في البيت.

ما ان يخطر في بال دافيدوف أن فاريا يمكن ان ترى بطنه الموشوم ولو خطفا، حتى يشعر بالحرارة تلهبه، فكان يزيد من احكام شقي القميص عليه. قال بزفرة:

– حلي الثورين، واتركيهما يرعيان، فانا ذاهب، – فقد كان لا يؤمل، على الاطلاق، أن يقطع الارض المحروثة او يتعثر ثلاثة كيلومترات بالاخاديد، وكل ذلك بسبب هذه المصادفة الحمقاء.

ولكن فاريا قيمت مشاعر دافيدوف بطريقتها الخاصة، واستقر رأيها على أن «محبوبي يستحي ان يعمل قربي بلا قميص» وشكرته في قلبها على اظهار الشعور بحماية تواضعها العذري، فخلعت الحذاء من رجليها بحزم.

– سأسرع في الركض.

ولم يلحق دافيدوف ان ينطق بكلمة، حتى رآها تنطلق كالطائر الى المخيم. وعلى الارض المحروثة السوداء ومضت قدماها السريعتان كشرر اسمر، ولاح طرفا منديلها الابيض الذي تشد به راسها ابيضين على ظهرها، في مهب الريح. كانت تركض دافعة قامتها قليلا الى الامام، ضاغطة يديها المضمومتين الى نهدها المشدود، ولا تفكر الا بشيء واحد: «اسرع، واجلب له السترة. اركض مسرعة، واكون نافعة له، فينظر الي برقة ولو مرة واحدة طوال هذا الوقت، ولربما يقول ايضا: «شكرا، يا فاريا».

شيعها دافيدوف ببصره طويلا، ثم فك الثورين من المحراث، وخرج من الارض المحروثة. وعلى مسافة غير بعيدة وجد نباتا معرشا مشربكا مع عشب العام الماضي، نظفه من اوراقه، وشد بخيطه اللدن شقي قميصه باحكام، واستلقى على ظهره، وغفا على الفور، وكانما ارتخى على شيء اسود ناعم فيه رائحة الارض...

واستيقظ حين احس بان شيئا يدب على جبينه. ربما هو عنكبوت او دودة. عكنن وجهه، ومرر يده على وجهه، وهوم في اغفاءة مرة اخرى، واذا بشيء يتزلق ثانية على خده، ويدب على شفته العليا، ويدغدغ انفه. عطس

دافيدوف وفتح عينيه، فراى فاريا تقرفص امامه، وهي ترتعش من الضحك الذي لاتكاد تتغلب عليه. كانت تمرر على وجه دافيدوف اثناء نومه نصل عشب جافا، وفتح دافيدوف عينيه قبل ان تلحق لتسحب يدها. امسكها من كفها النحيلة، ولكنها لم تعمد الى فك يدها، وركعت على ركبة واحدة، وصار وجهها الضاحك في لحظة واحدة مذعورا مترقبا خاضعا.

همست همسا لايكاد يسمع، وهي تبدي محاولة واهنة لتفك يدها.

– جلبت لك السترة، فانهض.

فك دافيدوف اصابعه فسقطت يدها الكبيرة والملوحة على ركبتها. واغمضت فاريا عينيها وسمعت دقات قلبها الرتانة المتتابعة. وكانت حتى تلك اللحظة تنتظر شيئا، وتأمل في شيء... ولكن دافيدوف لزم الصمت. كان صدره يتنفس بهدوء واتساق، وما من عضلة تهتز في كل وجهه. وبعد ذلك رفع جسمه، وجلس راسخا على الارض، وقد طوى تحته رجله اليمنى، وادخل يده في جيبه بحركة وانية، متلمسا فيه كيس تبغه. والان صار راساهما متماسين تقريبا. حرك دافيدوف منخريه، والتقط رائحة شعرها الخفيفة والعذبة قليلا. نعم، وهي بكليتها تعبق بشمس الظهيرة، والعشب الذي احماه الحر، وبتلك الرائحة الفريدة الغضة، الفاتنة لصبا لم يستطع ولم يقدر احد بعد على وصفه...

وفكر دافيدوف: «اية فتاة عذبة!» وزفر. نهضا على قدميهما في وقت واحد تقريبا، ولبضع ثوان نظر احدهما في عيني الآخر، ثم اخذ دافيدوف سترته من يدها، وابتسم ابتسامة رقيقة بعينيه فقط:

– شكرا، فاريا!

هكذا قال: «فاريا» دون ان يذكر كنيتها «فاريوخا – فاريوخا»*. اذن، فقد تحقق آخر الأمر ما كانت تفكر فيه،

* معنى فاريوخا – الخدوم.

حين كانت تركض لتجلب سترته. ولكن لماذا عادت الدموع الى عينيها الرماديتين، ولماذا ارتعشت قليلا رموشها السود الكثيفة، حين حاولت ان تبقيها في مآقيها؟ لماذا انت تبكين، ايتها البنت الحلوة؟ ولكنها كانت تبكي بلاصوت، بعجز طفولي وديع، وقد احنت رأسها كثيرا. غير أن دافيدوف لم ير شيئا من هذا. كان يلف سيكارة باهتمام، محاولا الا ينثر أو يضيع اي ذرة من التبغ. سكائره نفدت عنده، والتبغ في طريقه الى النفاد، فكان يقتصد، ويلف لفائف صغيرة متقنة لا تكفي الا لأربع الى ست مصات معتبرة.

لبثت واقفة بعض الوقت، تحاول بلا جدوى أن تهدىء نفسها، ولكنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها، فاستدارت على كعبيها استدارة حادة، وسارت نحو الثورين، وقالت عرضاً، اثناء سيرها:

– ذاهبة لأسوق الثورين.

ومع ذلك فان دافيدوف حتى هنا لم يسمع نبرة القلق القاسي في صوتها المرتجف، هز راسه بصمت، واشعل سيكارته، مركزا تفكيره في عدد الايام التي سيتعين على الفريق انفاقها في العمل ليحرث كل منطقة الزرع الربيعي بما لديه من قوى، وهل من الافضل ان يرسل الى هنا بعض المحاريث من الفريق الثالث الاكثر ضلاعة.

كان يريحها أن تبكي، حين لم يكن دافيدوف يراها، فكانت تبكي بتلذذ، وكانت الدموع تتحدر على خديها الاسمرين، فكانت تمسحها باطراف منديلها اثناء سيرها...

ان حبها الأول الصافي، حب العذراء، قد اصطدم بلامبالاة دافيدوف. ولكنه الى جانب ذلك كان غير متبصر بأمور الحب، والكثير من الاشياء تغيب عن ادراكه، وحتى اذا وصلت الى ادراكه، فانها تصل دائما متاخرة كثيرا، واحيانا بتأخر لاصلاح وراءه...

حين كان دافيدوف يشد الثورين راى على وجه فاريا الخطوط الرمادية التي خلفتها الدموع المسكوبة قبل حين، والتي لم يلحظها، وكان في صوته تانيب:

– اي، فاريوخا – غاريوخا! يظهر انك لم تغتسلي اليوم؟

– لماذا يظهر؟

– وجهك مخطط. يجب أن تغتسلي كل يوم. – قال ذلك بلهجة تعليمية.

...غربت الشمس، وهما ما يزالان يسيران نحو المخيم متعبين. كان ظلام الغروب يخيم على السهب، ووهدة البرقوق الشائك مغلفة بالضباب. وكانت السحب الزرقاء الداكنة، السوداء تقريبا تغير لونها ببطء في جهة الغرب، في البداية تغطت بطانتها الخلفية بحمرة كامدة، ثم خرقتها حمرة قانية بلون الدم، وصعدت في اديمها الى فوق بسرعة شديدة، وغمرت السماء شملة عريضة. وفكرت فاريا بلوعة، وهي تزم شفتيها الممتلئة بأسى: «انه لا يحبني...» بينما كان دافيدوف يفكر في ضيق، وهو يحدق في الغسق الملتهب: «غدا ستهب ريح شديدة، وتجف الارض خلال اليوم، وعندئذ سيتعسر العمل على الثيران».

كانت فاريا تحاول، طوال الوقت، ان تقول شيئا، ولكن قوة خفية كانت تعيقها عن ذلك. وحين لم تبق غير مسافة قصيرة للوصول الى المخيم، جمعت شتات عزمها، وسالت بخلوت:

– اعطني قميصك – ثم اضافت ضارعة، وهي تخاف ان يرفض – اعطني، ارجوك!

قال دافيدوف متدهشا:

– ولم؟

– ساخيطه، اخيطه بعناية، بحيث لاتستطيع ان تلحظ الدرز، واغسله.

ضحك دافيدوف.

– تنقع كله بالعرق. لا يوجد فيه محل لغرز الابرة، كما يقولون. لا، يا عزيزتي فاريوخا – غاريوخا، لقد خدم هذا القميص ما اعد له من العمر. سيكون خرقة لكوبريانوفنا تغسل بها الكشك.

فالحت الفتاة في طلبها:

– دعني اخيطه، واحاول، وسترى.

فوافق دافيدوف قائلا:

– تفضلي، سوى ان جهودك ستذهب عبثا.

وخجلت ان تظهر في المخيم، وفي يدها قميص دافيدوف، فان ذلك سيثير احاديث كثيرة ونكات عابثة عنها. رمقت دافيدوف من مؤخر عينها، باختلاس، وجنحت كتفها، واخفت لمة القميص الدافئة الصغيرة وراء شيال الصدر.

وخامرها احساس غريب مؤثر لم تالفه من قبل، حين مس قميص دافيدوف المترب صدرها العاري، وكان كل الدف، الساخن لجسد رجل قوي انصب فيها، وملاها الى الآخر... جفت شفتاها فجاة، وتفصدت حبات كقطرات الندى على جبينها الضيق، وحتى مشيتها صارت فجاة متوجسة غير واثقة.

بينما لم يلحظ دافيدوف شيئا، ولم يبصر شيئا. وبعد دقيقة كان قد نسي انه دس قميصه القذر في يدها، وهتف يخاطبها بمرح:

– انظري كيف يكرمون المنتصرين، يا فاريوخا! هذا المسجل يلوح لنا بطاقيته. يعني انا وانت عملنا بما يرضي الضمير، حقيقة!

* * *

– بعد العشاء، وعلى مسافة غير بعيدة من الكشك، اوقد الرجال نارا، وجلسوا حولها يدخنون، سال دافيدوف:

– طيب، دعونا الآن نتحدث حديث القلب للقلب: لماذا لم تعملوا بشكل جيد؟ لماذا تاخرتم في الحراثة بهذا الشكل؟

رد بيسخليبنوف الاصغر:

– لدى الفريقين الآخرين ثيران اكثر.

– كم اكثر؟

– وانت لا تعرف؟ في الفريق الثالث ثمانية ازواج

اكثر، وهنه، مهما تكن، فهي اربعة محاريث! وفي الفريق الأول محراثان اكثر ايضا، ومعنى لذلك انه اقوى منا ايضا.

وقال بريانيشنيكوف:

– وخطتنا اكبر.

ضحك دافيدوف ضحكة مقتضبة.

– اكبر كثيرا؟

– على الأقل بثلاثين هكتارا، ان لم يكن اكثر. ولن نستطيع ان نحرثها باصابعنا.

– ولكنكم وافقتم على الخطة في آذار؟ فما الداعي الى البكاء الآن؟ في تقسيم الارض انطلقنا من مساحة الارض الموجودة في فرق العمل. اليس كذلك؟

قال دوبتسوف بتحفظ:

– ولكن لا احد يبكي، يا دافيدوف، وليس هذا الموضوع. لقد خرجت ثيراننا من فصل الشتاء هزيلة. وحين عممنا الماشية والعلف تبين ان حصتنا من العلف والتبن اقل. بل وانت تعرف ذلك معرفة ممتازة، ولاحاجة الى القاء اللوم علينا. نعم، تاخرنا ان معظم ثيران فريقنا ضعيفة، كما تبين، ولكن كان يجب تقسيم العلف، كما ينبغي، لا كما طرا على بالكما انت واستروفنوف. أي اطعموا الماشية بما يتفضل به الفلاحون الافراد. ولهذا حصلت هذه النتيجة الآن: الذين انهوا الحراثة يعدون الماشية لحصاد العلف، بينما نحن ما نزال نحرث.

اقترح دافيدوف قائلا:

– دعونا نساعدكم. ليوبشكين يساعدكم.

– ونحن لا نرفض – قال دوبتسوف مؤيدا بموافقة صامتة من الجميع – لسنا متكبرين.

– واضح – قال دافيدوف باستغراق – شيء واحد واضح وهو ان الادارة ونحن جميعا مسؤولين عن هذا التهاون. وزعنا العلف في الشتاء، على اساس الموقع، وهذا خطأ، ولم نحسن توزيع القوى العاملة وحيوانات الجر، وهذا خطأ آخر! وأي شيطان آخر غيرنا مسؤول عن ذلك؟ نحن الذين

اخطانا ونحن الذين سنصلح الأمر. من حيث المردود، وأنا اعني المردود اليومي حققتم ارقاما ليست سيئة، ولكن النتيجة من حيث العموم تافهة. فكروا كم محراثا اضافيا تحتاجون للخروج من هذا الطريق المسدود فعليا، تعالوا نحسب ونضع كل شيء على الورق، وعند حصاد العشب سنأخذ اخطاءنا بعين الاعتبار، ونوزع بطريقة اخرى. فكم يمكن ان نتمادى في الخطأ بهذا الشكل؟

جلسوا حول النار حوالي ساعتين يتناقشون ويحسبون ويتشاتمون. ولعل اتامنتشوكوف كان انشطهم في الكلام. كان يتكلم بحماس، ويقدم المقترحات الجدية، ولكن دافيدوف صادف وان وقع بصره، حين كان بيسخليبنوف يتهكم بلذاعة على دوبتسوف، فرأى في عيني اتامنتشوكوف حقداً مجمداً جعله يرفع حاجبيه اندهاشا. خفض اتامنتشوكوف بصره بسرعة، ومس باصابعه نتوء بلعومه المغطى بشعر كستناني خشن، وحين نظر الى دافيدوف مرة اخرى بعد دقيقة، والتقت نظرتاهما كانت تتضوأ في عينيه حفاوة لا حدود لها، وقد امتلأ كل غضن في وجهه بخلو بال لطيف وفكر دافيدوف: «ممثل! ولكنه لماذا نظر الي هذه النظرة اللعينة؟ العله متكدر لأنني اخرجته من الكولخوز في الربيع؟»

ولم يدر دافيدوف، وما كان في وسعه ان يدري ان بولوفتسيف، حين علم في الربيع بطرد اتامنتشوكوف من الكولخوز استدعاه ليلا الى حجرته، وقال من خلال اسنانه، وقد صك فكيه الضخمين: «ما هذا الذي تفعله، يا اخرق؟ انا بحاجة اليك ككولخوزي نموذجي، وليس كاخرق مكعب، يمكن ان ينكشف بنفسه باقعاله الخرقاء، وان يكشف عند الاستجواب في لجنة امن الدولة جميع الآخرين، والقضية كلها. يمكنك ان تركع على ركبتيك في اجتماع الكولخوز العام، يا ابن الكلب، من اجل ان لايوافق الاجتماع على قرار فريق العمل. مادمنا لم نبدأ بعد يجب ان لا يقع أي ظل للشك على رجالنا».

ولم يضطر اتامنتشوكوف على الركوع على ركبتيه، فبناء على امر بولوفتسيف وقف ياكوف لوكيتش وجميع المشتركين معه وقفة واحدة في الدفاع عن اتامنتشوكوف في الاجتماع، ولم يوافق الاجتماع على قرار الفريق، ونجا اتامنتشوكوف من التوبيخ العلني. ومنذ ذلك الحين هدأ، وراح يعمل باستقامة، بل وصار مثلا للموقف الواعي من العمل بالنسبة للذين يعملون بتكاسل. ولكنه لم يستطع ان يخفي عداءه لدافيدوف وللنظام الكولخوزي بطريقة مستورة ومأمونة، فكان هذا العداء احيانا، ورغم ارادته، يفلت منه اما بكلمة يقولها هفوا، او بابتسامة متشككة، او ينفجر كالوهج الناري، وينطفىء في الحال في عينيه الزرقاوين الداكنتين كالفولاذ المصقول.

في منتصف الليل فقط حددوا بالضبط حجوم المعونة المطلوبة، ومواعيد انتهاء الحراثة. وعلى نفس النار كتب دافيدوف مذكرة الى رازميوتنوف بينما تبرع دوبتسوف بالذهاب الى العزبة الآن حالا ودون انتظار حلول الفجر حتى يأتي ظهرا بالثيران والمحاريث من الفريق الثالث، ويختار هو وليوبشكين أفضل الحراث للشغيلين. واشعل الرجال سكائر اخرى عند النار الهامدة، ودخنوها بصمت، وذهبوا ليناموا.

في هذه الأثناء جرى قرب الكشك حديث آخر. كانت فاريا تغسل بعناية قميص دافيدوف في طشت حديدي بسيط، وكانت الطباخة واقفة الى جانبها تقول بصوت واطيء رجولي تقريبا:

– لماذا تبكين، يا حمقاء؟

– رائحة قميصه قوية...

– وماذا يعني؟ كل الذين يشتغلون تفوح قمصانهم الداخلية برائحة العرق القوية لا بالعطور والصابون المعطر. فلماذا تنتحبين؟ هل كدرك بشيء؟

– لا، لا، يا عمة!

– فلماذا تسكبين الدموع، يا حمقاء؟

– لأنني لا اغسل قميص غريب، بل قميص عزيز اليف– قالت الفتاة ذلك، وهي تحني راسها على الطشت وتكبت عبرة مخنوقة.

بعد فترة صمت طويلة تخوصرت الطباخة، وصاحت بغضب:

– اوه، هذا يكفيني! فاريا، ارفعي راسك فورا!

سائقة تيران المسكينة، الصغيرة، في السابعة عشرة من عمرها! رفعت راسها، ورمقت الطباخة عينان دامعتان، ولكنهما سعيدتان لصبا لم يذق طعم القبل بعد.

– حتى الملح في قميصه عزيز علي...

اهتز صدر داريا كوبريانوفنا الجبار هادرا بضحكة.

– الآن عرفت انك، يا فاريا، صرت فتاة حقيقية.

– وماذا كنت من قبل؟ غير حقيقية؟

– من قبل؟ من قبل كنت قبض ريح، وصرت الآن فتاة، مادام الفتى لايضرب فتى آخر على الفتاة التي يحبها، فهو ليس فتى، بل صبيا بسروال قصير. ومادامت الفتاة تكشر عن اسنانها وتقلب عينيها لا غير فهي ليست فتاة بعد، بل قبض ريح في تنورة. ولكن حين تدمع عيناها من الحب، وحين لاتجف مخدتها من الدمع في الليل تصير فتاة حقيقية افهمت، ايتها الحمقاء الصغيرة؟

كان دافيدوف مستلقيا في الكشك، وقد ألقى يديه وراء راسه، ولكن النوم لم يأته. فكر في نفسه بانسحاق: «انا لا اعرف الناس في الكولخوز، لا اعرف مايدور في خلدهم. في البداية مصادرة املاك الكولاك، بعدها تاسيس الكولخوز، تلا ذلك الاشغال الزراعية، ولكن لم يكن لي الوقت للتمعن في الناس، ومعرفتهم عن قرب. فاي رئيس انا، اذا كنت لا اعرف الناس، ولم يتسن لي الوقت لمعرفتهم؟ بينما يجب ان أعرف الجميع، وليس هم بتلك الكثرة، وليس ذلك بالبساطة التي يبدو فيها... انظر الى ارجانوف، اي شخص طلع. بينما الجميع يعتبرونه بسيطاً، أما هو فليس بتلك البساطة، آوه، ليس بتلك البساطة! الشيطان نفسه لايستطيع ان يحزر

راسا هذا العفريت الملتحي. فهو منذ الطفولة اندس في قوقعته، وانغلق فيها من الداخل، فحاول ان تنفذ اليه، لن يتركك تفعل! وياكوف لوكيتش ايضا قفل مغلق على سره يجب ان يكمش، ويروى فيه، كما يجب. صحيح انه كان كولاكيا في الماضي، ولكنه الآن يعمل باخلاص، واغلب الظن انه يتوجس من ماضيه. ...ومع ذلك يجب اقصاؤه من مامورية الكولخوز، وليعمل كولخوزيا عاديا. واتامنتشوكوف غير مفهوم أيضا، ينظر الي مثل نظرة الجلاد الى مدان. فما السبب؟ انه فلاح متوسط الحال نموذجي، وليكن انه كان مع البيض، واي منهم لم يكن مع البيض؟ ليس هذا جواباً. يجب ان افكر كثيراً في كل شيء، وكفاني توجيه الأمور بالتلمس، دون ان اعرف على من اعتمد اعتمادا حقيقيا، وبمن يمكن ان اثق ثقة حقيقية. ايه، بحار، يا بحار! لوان زملاءك في الورشة يعرفون كيف تدير الكولخوز لعرقوا لحمك من عظمك!».

وقرب الكشك، وتحت السماء المكشوفة، رقدت للنوم سائقات الثيران. وكان دافيدوف يسمع، من خلال النعاس، صوت فاريا النحيل، وصوت كوبريانوفنا الخشن. كانت الطباخة تقول، وهي تضحك، متقطعة الانفاس:

– لماذا تنحشرين في كما تنحشر العجلة في جسم البقرة؟ كفاك احتضانا، هل تسمعين، يا فاركا؟ ابتعدي، بحق المسيح، الحرارة تشع منك، كما تشع من موقد! هل تسمعين ما اقول لك؟ مصيبة ان انام جنبك... ساخنة انت كثيرا، فهل تمرضت؟

كان ضحك فاريا الهادىء مثل قرقرة اليمامة.

وتصور دافيدوف المراتين، وهو يبتسم في نومه، مستلقيتين جنباً الى جنب، وفكر وهو ينحدر في اغفاءة: «اية بنت حلوة هذه، كبيرة الآن، مهيأة للخطوبة، ولكنها طفلة بعقلها ارجو لك السعادة، يا فاريوخا – فاريوخا!»

استيقظ حين كان الفجر قد تنور. كان الكشك خاليا،

ولم تصدر من الخارج اصوات رجالية. لقد كان الحراث جميعا في ارض الحراثة، ودافيدوف وحده قد تاخر في رقاده على التخت العريض. رفع جسمه بخفة، ولبس لفة الساقين والحذاء الطويل، وفي تلك اللحظة وقع بصره قرب راسه على قميصه البحري، مغسولا ومخاطا بدرز دقيق وبشكل حاذق، وعلى قميص قطني نظيف. وتحير دافيدوف متسائلا مع نفسه: «من أين يمكن ان يأتي هذا القميص؟ لقد جئت الى هنا وليس معي اي شيء. هذا ما اتذكره حقا. فكيف جاء هذا القميص الى هنا؟ يا للدهشة!» ولكي يتاكد تماما من انه لا يحلم مس بيده القماش القطني البارد.

وحين لبس قميصه البحري، وترك الكشك، عند ذاك فقط اصبح شيء مفهوما له. فقد راى فاريا في كنزة زرقاء انيقة، وتنورة سوداء مكواة بعناية تغسل قدميها قرب الكشك، غضة كهذا الصباح الباكر، تبتسم له بشفتيها المتوردتين، كما كانت من قبل، وعيناها الرماديتان المتباعدتان تشرقان بفرح فياض.

سالت بصوت عال ضاحك:

– أتعبك يوم امس، يارئيس؟ تاخرت في النوم؟

– اين كنت ليلا؟

– ذهبت الى العزبة.

– ومتى عدت؟

– قبل حين.

– هل انت التي جلبت لي القميص؟

هزت راسها صامتة، وتبدى فزع في عينيها.

– ربما اخطات في شيء؟ ربما ماكان علي ان اذهب الى مسكنك؟ ولكنني فكرت في ان القميص المقلم غير مامون...

– شاطرة، يا فاريوخا! شكرا لك على كل شيء دفعة واحدة. ولكن لاي مناسبة تانقت بهذا الشكل؟ يا قديسون! وتضع خاتما في اصبعها!

غمغمت وهي تدير في ارتباك الخاتم الفضي البسيط في اصبعها الوسطى:

– كان كل شيء البسه وسخا جدا. وقد ذهبت لزيارة امي، وغيرت ملابسي... – وفجاة تغلبت على ارتباكها، ولمعت عيناها بمعابثة – اردت ان البس حذاء جيدا ايضا، لتنظر الي مرة في اليوم على الاقل، ولكن الحذاء الجيد لاينفع طويلا في السير وراء الثيران على الارض المحروثة.

ضحك دافيدوف:

– الآن لن اصرف بصري عنك، يا غزالتي السريعة! اذهبي الآن، وشدي الثورين، ساغتسل فقط، واجيء.

في ذلك اليوم لم يلحق دافيدوف ان يشتغل. ما ان اغتسل حتى جاء كوندرات مايدانيكوف. فساله دافيدوف مبتسما:

– طلبت يومين اجازة، فلماذا عدت بهذه السرعة؟

هز كوندرات ذراعه:

– ملل هناك. وزوجتي غادرت الفراش. كانت الحمى تهزها. طيب. وماذا افعل انا؟ عدت الى هنا. اين فاريوخا؟

– ذهبت لتشد الثورين.

– اذن، ساذهب واحرث. اما انت فانتظر الضيوف. ليوبشكين نفسه يسير بثمانية محاريث، وقد سبقتهم في منتصف الطريق. واغاقون مثل القائد كوتوزوف، يسير في مقدمة الجميع على فرس ابيض. ثم هناك خبر آخر. في مساء الامس، عند حلول الظلام، اطلقت النار على ناغولنوف.

– كيف اطلقت النار؟

– بشكل اعتيادي، من بندقية. اطلقها ملعون. كان ناغولنوف جالسا عند الشباك المفتوح، والمصباح موقد، فصوبت النار عليه. مرت الرصاصة قرب صدغه، فسودت الجلد فقط. ولكن راسه يرتج، اما من الرجة العصبية، او من شدة الحنق، ولكنه حي سليم. جاءوا من ميليشيا مركز المنطقة، وهم يطوقون، ويتشممون، سوى ان المسالة لا فائدة منها.

فقال دافيدوف عازما امره:

– غدا ساضطر الى تركك، واذهب الى العزبة. هل العدو يرفع راسه يا كوندرات؟

– دعه يرفع راسه، فهذا شيء جيد. فالراس المرفوع اسهل على القطع. – قال كوندرات بهدوء وبدأ يغير حذاءه.

الفصل الثامن

بعد منتصف الليل مرت في السماء المنجمة سحب كثيفة متماسكة متكاثفة، ونزل مطر دقيق مضجر كما يحدث في الخريف، وسرعان ما تلبدت الظلمة الشديدة في السهب، واشتدت البرودة وعم هدوء يشبه الهدوء في قبو عميق رطب.

وقبل الفجر بساعة هبت ريح، زادت السحب من سرعتها متزاحمة، وانحرف المطر الذي كان يتساقط عموديا، ومال نحو الشرق، من حافة السحب حتى الارض نفسها، ثم انقطع بنفس الفجاءة التي جاء فيها.

قبيل طلوع الشمس تقدم فارس من كشك الفريق. وترجل على مهل، وشد مقود فرسه الى أجمة زعرور برى كانت على مقربة، وبنفس الطريقة المتماهلة تقدم منبسطا في مشيته، نحو الطباخة، التي كانت منشغلة في موقد صغير محفور في الارض، وحياها بصوت واطيء. لم ترد كوبريانوفنا على تحيته. كانت راكعة على ركبتيها، تستند على الارض بكوعيها وصدرها الضخم، وتميل راسها جانبا، وتنفخ بكل قوتها على الجذامات المتفحمة محاولة جهدها اشعال النار. لم تشتعل الجذامات التي ترطبت بالمطر وقطرات الندى، وكان الدخان يضرب بسحائبه وجه المراة الاحمر المتوتر، والرماد يتطاير ندفا رمادية.

صاحت الطباخة المستشاطة غيظا، وهي مختنقة من السعال والدخان:

– تفو! اية طباخة لعينة انت!

ودفعت جسمها الى الوراء، ورفعت راسها ويديها لتعدل

الشعر الذي سرح من تحت منديلها، وعند ذلك فقط رات الفارس امامها.

– كان يجب ان تحملي الجذامات الى الكشك في الليل، ايتها الطباخة! لن يكفي ما في صدرك من هواء لتشعلي حطبا رطبا! طيب، دعيني اساعدك. – قال الفارس، ونحى المراة برفق.

فقالت كوبريانوفنا مدمدمة:

– انتم، الناصحين، تجوبون السهب بكثرة. خذ وحاول ان تشعل النار، وسارى كم في صدرك من هواء كثير. – وتنحت بنفسها راضية، وصارت تتمعن في الرجل الغريب.

كان القادم رجلا ربع القامة، لايلفت النظر في مظهره. كانت سترته المستهلكة، المحكمة الشد في الوسط بحزام الجنود، تناسب جسمه. وكان بنطاله الكاكي المرقو بعناية، والمبقع، وحذاؤه الطويل المغطى حتى العنق بطبقة رمادية من الطين هما الآخران قد خدما كثيرا، على ما يبدو وفي النقيض غير المتوقع تماما من لباسه البائس تبدو قبعته الكوبانية الانيقة ذات الحافة من فراء الاستراخان الفضي، وقد دفعها الى حاجبيه تماما، بطريقة موحشة. ولكن وجه القادم الاسمر كان ينم عن طيبة، وكان انفه القصير يتغضن بشكل فكه، حين كان الغريب يبتسم، وعيناه البنيتان تطلان على العالم بطيف سخرية متلطفة ذكية.

قرفص الرجل، واخرج من جيب سترته الداخلي قداحة، وقارورة مسطحة كبيرة بسدادة زجاجية. وبعد دقيقة كان الحطب الصغير يحترق بمرح وحرارة بعد أن صب عليه البنزين بسخاء.

قال القادم، وهو يربت بمزاح على كتف الطباخة الممتلىء:

– هكذا يجب ان تفعلي، يا طباخة! وهذه القارورة كما هي، اهديها لك للذكرى. وحالما يرطب الحطب اسكبي قليلا منها على الجذامات، وسيكون كل شيء على مايرام.

تفضلي تسلمي الهدية، وحالما تطبخين العصيدة ضيفيني عليها! قصعة كاملة منها، لذيذة وكثيفة!

شكرته كوبريانوفنا برقة في منتهى الحلاوة، وهي تخبئ القارورة وراء قميصها.

– شكراً لك على هذه الهدية ايها الرجل الطيب! سابذل كل جهدي لارضائك. ولكن لماذا تحمل هذه القارورة معك؟ هل انت من البياطرة؟ تداوي البقر؟

اجاب القادم بمراوغة:

– لا، لست طبيب ابقار. ولكن اين الحراث؟ معقول انهم مايزالون نائمين؟

– بعضهم ذهب الى البركة لجلب الثيران، وبعضهم يكدح في ارض الحراثة البعيدة.

– وداڤيدوف هنا؟

– في الكشك. يستريح، المسكين. بالامس انهك نفسه خلال اليوم. فهو شديد في العمل، ومع ذلك فقد نام في وقت متاخر.

– وماذا كان يفعل حتى ذلك الوقت المتاخر؟

– الشيطان يعلم. جاء من الحراث في وقت متاخر، ثم كان عليه ان يطلع ويلقي نظرة على قمح الشتاء. قطع الطريق كله الى قمة الوهدة.

– ومن يتفقد القمح في الظلام؟

وابتسم الغريب مغضنا انفه، متمعنا في وجه الطباخة المدور اللامع.

– أظنه حين وصل الى هناك كانت الدنيا قد تنورت، ولكنه عاد في وقت متاخر. والشيطان يعرف لم تاخر. ربما استمتع بصداح البلابل. وما يفعله هؤلاء البلابل عندنا في الوهدة لا يدخل في العقل! تترنم وتصدح على مختلف الالحان، حتى لاتتركنا ننام! هذه الطيور اللعينة تمزق قلوبنا! احيانا استلقي لانام فتسح دموعي سحا...

– ولم ذاك؟

– كيف «لم» هذه؟ تتذكر الشباب، وكل الاشياء التي

يفيض بها الشباب... لاتحتاج المرأة الى الكثير لتذرف دموعها، أيها العزيز.

– وداڤيدوف يذهب وحده لتفقد القمح؟

– هو لا يزال لايحتاج الى دليل، والحمدلله، وليس هو بالاعمى ولكن من انت؟ بأي مهمة جئت؟ – تنبهت كوبريانوفنا فجأة، وضمت شفتيها بصرامة.

ومرة اخرى اجاب القادم بمراوغة:

– عندي قضية مع الرفيق داڤيدوف. ولكنني لست مستعجلا، وسانتظر حتى يستيقظ. فلينعم الشغول بنومه حتى يشبع. والى ان يشتعل الحطب سنجلس سوية قليلا، ونتحدث عن هذا او ذاك.

فسالت كوبريانوفنا:

– ومتى ساقشر البطاطس لرهطي العديد اذا كنت ساتركز معك؟

ولكن الغريب الحاضر البديهة وجد جوابا لهذا السؤال ايضا. اخرج من جيبه سكينا مطواة، وجرب حدها على أظفر ابهامه.

– هاتي البطاطس الى هنا، وساساعدك في تقشيرها. انا مستعد ان اكون طوال حياتي مساعدا لامرأة جذابة مثلك، فقط ان تبتسم لي في الليالي... على الاقل مثلما تفعل الآن.

احمرت كوبريانوفنا اكثر من الارتياح، وهزت راسها بغنوط مفتعل:

– خفيف انت، يا صاحبي البائس! وقامتك خفيفة علي... ربما سابتسم لك في ليلة من الليالي، ولكنك لن تبصر بسمتي في الظلام، ولا تتبينها...

قعد القادم على قرمة البلوط في وضع أروح، وقلص عينيه محدقا في الطباخة الضاحكة:

– انا ابصر في الليالي كالعقاب.

– ليست المسالة في البصر، ولكن عينيك ستكون ممتلئتين بالدموع...

– هكذا اذن انت بليه! – وضحك القادم بخفوت – ربما ستكونين انت اول من تمتلىء عيناه بالدموع، ياسمينة! انا في النهار فقط طيب القلب، ولكنني في الليل لا ارحم مثلك من السمينات، مهما تضرعت وبكيت!

حمحمت كوبريانوفنا، ولكنها نظرت الى محدثها الشجاع بمصادقة متحفظة.

– اسمع، يا عزيزي، المباهاة بسيطة، ولكن بعدها تاتي الندامة.

– سنعرف، حين يحين الصباح: من النادم، ومن سينام الى الضحى قرير العين، هاتي البطاطس، يا ثرثارة، لا حاجة لتضييع الوقت!

جلبت كوبريانوفنا من وراء الكشك جردلا مملوءا بالبطاطس، وهي تسير مترنحة، وجلست، وهي ماتزال تضحك على مقعد واطىء، قبالة القادم. نظرت الى قشور البطاطس الرقيقة تخرج لوالب من تحت اصابع الغريب السمراء النشيطة فقالت راضية:

– انت شاطر ليس في اللسان فقط، بل وفي العمل ايضا. انت نعم المساعد لي!

راح القادم يعمل بسكينه بسرعة، ولزم الصمت، وبعد بضع دقائق فقط سأل:

– وكيف دافيدوف؟ هل راق للقوزاق ام لا؟

– راق، بالطبع. انه فتى بطولي، وبسيط مثلك. وقومنا يروق لهم مثل هؤلاء الذين لا يتبجحون.

– تقولين بسيط؟

– جدا.

– يعني فيه شيء من البلاهة؟

ونظر القادم من تحت قبعته بمكر. فسالته كوبريانوفنا في غل:

– وانت هل تعتبر نفسك ابله؟

– لا أظن...

– طيب، ولماذا تجعل دافيدوف ابله؟ هناك اشياء كثيرة متشابهة بينك وبينه...

ولزم القادم الصمت مرة اخرى مبتسما في سره، ونادرا ما ينظر الى الطباخة المحبة الكلام.

في الشرق صار الشريط الاحمر للشمس الطالعة يتسع محفوفا بالسحب. والريح المجنحة التي كانت هاجعة في الليل حملت من الوهدة دفقات قوية من صداح البلابل. وحين مسح القادم حد سكينه في بنطلونه، سأل:

– اذهبي، وايقظي دافيدوف. في الشتاء سيشبع نوما.

خرج دافيدوف من الكشك حافي القدمين. كان ناعسا ومقطب الحاجبين. سأل بصوت مبحوح، وقد القى نظرة خاطفة على القادم:

– هل جئت برسالة من مركز المنطقة؟ هاتها.

– بلا رسالة، ولكن من مركز المنطقة. البس حذاءك يا رفيق دافيدوف، يجب أن نتحدث قليلا.

نظر دافيدوف الى القادم بتلطف، وهو يحك صدره الموشوم:

– قلبي يشعرني انك مفوض من مركز المنطقة... سأتي حالا، يا رفيق!

ولبس بسرعة، وادخل حذاءيه الطويلين في قدميه، وبلل وجهه في عجالة بالماء الفواح برائحة برميل بلوط، وانحنى انحناءة صغيرة وقدم نفسه بطريقة رسمية:

– سيميون دافيدوف رئيس كولخوز غريمياتشي.

تقدم القادم من دافيدوف تماما، وطوق ظهره العريض:

– بهذا الشكل الرسمي تقدم نفسك! اما أنا فسكرتير اللجنة المنطقية للحزب ايفان نيسترينكو. وهكذا تعارفنا. والآن لنذهب، ونتحدث من القلب للقلب ايها الرفيق رئيس الكولخوز. طيب، كم بقي، الكثير من الارض لم يحرث بعد؟

– قدر لايستهان به...

– يعني أن الرئيس لم يتعلم تماما بعد؟

امسك نيسترينكو ذراع دافيدوف، وتوجه به بهدوء نحو ارض الحراثة. قال دافيدوف باقتضاب، وهو ينظر اليه من مؤخر عينه:

– اخطات – ثم احتدم فجأة دون ان يتوقع هو نفسه، وقال – ولكن افهمني، يا عزيزي السكرتير، انني في شؤون الزراعة عجل صغير. انا لا اريد تبرير نفسي، ولكن لم اخطأ انا وحدي... المسالة جديدة.

– ارى ذلك وافهم فتعال نتكلم بهدوء اكثر.

– لم اخطأ وحدي، بل جميع الذين اعتمد عليهم يتحملون جزءا من هذا الخطأ. لم اوزع القوى بالشكل الصحيح. تفهم؟

– افهم، وليس هناك اشياء كثيرة مرعبة في هذا الامر. ويمكنك اصلاح الأمر اثناء العمل. هل حصلتم على التعزيزات من الرجال وحيوانات الجر؟ حسنا. اما ما يخص توزيع القوى، التوزيع الموزون للقوى على فرق العمل، فيمكنك أن تأخذ به في المستقبل، على الاقل اثناء حش العلف، وبشكل خاص عند حصاد الحبوب. يجب التفكير في كل شيء مسبقا، وكما ينبغي.

– واضح، حقيقة!

– طيب، والآن لنذهب لتريني اين حرثت، اين قطعتك اريد ان ارى كيف تدير الطبقة العاملة اللينينغرادية الأمور في ارض الدون... ربما لا اضطر الى الكتابة الى سكرتير اللجنة الحزبية في مصنع بوتيلوفسكي اتشكى من اهمالك. ها؟

– ستحكم انت بنفسك.

شدد نيسترينكو الضغط بيده القوية على مرفق دافيدوف. وفجأة شعر دافيدوف، وهو ينظر من جانب الى وجه السكرتير البسيط المكشوف بانه طليق وخفيف، حتى ان بسمة مست شفتيه الصلبتين دون ان يدري. منذ زمن بعيد لم يتحدث معه احد من الرؤوساء الحزبيين بهذه البساطة الودية، وبهذه الطريقة اللطيفة بين انسان وانسان.

– هل تريد ان تفحص النوعية، يا رفيق نيسترينكو؟ اهذا عن جد؟

– كيف هذا منك، كيف؟ فقط ان انظر واتمتع برؤية ما تقدر عليه الطبقة العاملة، حين لاتكون على دكة العمل، وراء المخرطة، بل في الارض. واذا تحب ان تعرف فانا مزارع عريق من ستافروبول، ويلذ لي ان ارى ماذا علمك القوزاق. او ربما علمتك قوزاقية ان تحرث، او تفوت في الاخاديد؟ حذار ان تخضع لتاثير قوزاقيات غريمياتشي الشامت! بينهن نساء يمكن ان يعلمنك انت، البحار السابق، ما لا يعرفه الا الشيطان... يستطعن بسهولة ان يضللنك سواء السبيل! ام اضلتك واحدة منهن بالفعل؟

كان نيسترينكو يتحدث بعفوية مرحة، وكان الكلمات تنطلق من لسانه بلا اختيار، ولكن دافيدوف شعر في الحال بشيء من التلميح المغلف بالمزاح، وتوتر كل ما في داخله. «هل يعرف شيئا عن لوشكا او يلقي شصه ليصطاد شيئا؟» فكر دافيدوف بذلك دون ان يخلو من فزع. ومع ذلك حافظ على لهجة الحديث المازحة.

– اذا اضلت امراة السبيل او تاهت، صاحت «الحقوني!»، اما الرجل، الرجل الحقيقي، فانه يبحث عن طريقه صامتا، حقيقة!

– وانت رجل حقيقي، كما يبدو!

– وماذا تظن انت، ايها الرفيق السكرتير؟

– اظن هكذا: الرجل الحقيقي اقرب الى نفسي من الزاعقين، واذا ضللت انت، يا دافيدوف، عن الطريق، فاهمس باذني، دون ان تثير ضجة. وساساعدك على نحو ما في الخروج الى الطريق... اتفقنا؟

– شكرا على الكلام الطيب. – قال دافيدوف بجد هذه المرة. وفكر مع نفسه: «اوه، الشيطان!.. تشمم كل شيء»، ولكي لا يشدد على جدية جملته الاخيرة اضاف – عندنا سكرتير مدهش في طيبته، نادر تماما!

توقف نيسترينكو عن السير، وادار وجهه الى دافيدوف، ودفع قبعته الكوبانية المترقة على علبائه، وظهرت تجعيدة على انفه، حين ابتسم وقال:

– طيب، لأنني في شبابي لم أسر دائماً في الطريق المستقيم... احياناً يسير المرء ويسير باستقامة، وكأنه في استعراض، وبعد ذلك تزل قدماه، ويضل الى ما لا يعرفه الا الشيطان، وباختصار، يسير منحرفا ويتعثر في الاشواك، حتى يأتي الطيبون ويعيدوا هذا الشاب الابله الى الطريق. هل فهمت، ايها البحار، من اين جاءتني الطيبة؟ ولكنني لست طيبا نحو الجميع بلا تعيين...

فقال دافيدوف بحذر:

– يقولون ان الحصان يكبو، ولو ان له اربع قوائم.

ولكن نيسترينكو نظر اليه ببرود:

– اذا كبا الحصان الجيد مرة او مرتين يمكن ان يعذر، ولكن هناك خيولا تكبو في كل خطوة. ومهما دربتها، ومهما تسعى الى ان تحصي كل نتوء بانفها. فلأي شيء يرعى مثل هذا العاطل في الاسطبل؟ ابعدوه!

صمت دافيدوف، وهو يضحك ضحكة ساخرة غير ملحوظة. لقد كان اللبز من الوضوح بحيث لم يكن بحاجة الى أي توضيح...

سار نحو حقل الحراثة ببطء، وبنفس البطء نهضت الشمس وراء سحابة ليلقية خلفهما.

– هذه قطعتي – واشار دافيدوف باهمال مقصود الى قطعة ارض محروثة مستقيمة تمتد بعيدا عنهما.

انزل نيسترينكو قبعته الكوبانية الى حاجبيه بحركة من رأسه لاتلحظ، وسار في عرض الحراثة الرطبة مترنحا. وتبعه دافيدوف على مسافة، ورأى السكرتير يقيس اكثر من مرة عمق الاخدود، متظاهرا بانه يرفع نصل مقطوع علق في راس حذائه. لم يصطبر دافيدوف وقال:

– قس بدون تغطية! لماذا تسلك سلوكا دبلوماسيا معي؟

تمتم نيسترينكو اثناء سيره:

– تظاهر بانك لاترى.

توقف في الطرف الآخر من القطعة المحروثة، وقال بتلطف مكلوم:

– لا بأس عموما، ولكن الحراثة غير مستوية، وكان غلاماً هو الذي حرثها. الحز في بعض الاماكن اعمق، وفي البعض الآخر اقل عمقا، وفي اماكن اخرى عميق للغاية. وذلك في اغلب الظن من عدم المهارة في العمل، او ربما لان الحارث مارس هذا العمل، وهو في حالة نفسية غير مؤاتية. ولكن ليكن في علمك، يا دافيدوف، ان الذي يستولي عليه الغضب لاينفع الا في الحرب، فان شدة الغضب تساعد على القتال، بينما في الحراثة يجب ان يكون الحارث في مزاج رائق، لان الارض تحب الموقف السوي الرقيق منها. هذا ما كان يقوله لي ابي الراحل في حياته... طيب، ماذا يدور في ذهن البحار البري الآن؟! – صاح نيسترينكو بتحمس، ودفع دافيدوف بكتفه بقوة.

فترنح هذا، ولم يفهم في البداية انه يدعى للمصارعة. ولكن حين دفعه نيسترينكو مرة أخرى بقوة، أفرج دافيدوف رجليه، ومال الى الامام قليلا.

وتماسكا، واحدهما يبحث عن حزام الآخر. وسأل نيسترينكو، وهو يمسك انفاسه:

– بالاحزمة أم كيف؟

– كما تشاء، ولكن بلا سفاسف، ولا تبييت قدم.

– ولا رمية من وراء الراس. – لهث نيسترينكو وهو يجاهد صرع منافسه.

وضع دافيدوف ذراعيه حول جسم خصمه المشدود العضلي، وادرك على الفور، ومن تثبيت الرجلين أنه يشتبك مع مصارع حقيقي مجرب. ولربما كان دافيدوف اقوى من نيسترينكو، ولكن هذا تفوق عليه بقدرته على الحركة وبمهارته. ولمرتين، حين كادا يتماسان بالوجه، رأى دافيدوف خداً مفعماً بسمرة وردية، وعيناً تبرق همة، وسمع همساً مكتوماً: «هيا، هيا، يا طبقة عاملة! لماذا تراوح في مكان واحد؟»

تصارعا زهاء ثماني دقائق في حقل الحرائة الرطب. وبعدها قال دافيدوف بصوت مبحوح، وقد أنهك كلياً:

– لنطلع الى العشب. والا فسنسلم الروح الى ربها في هذه البقعة...

همس نيسترينكو ثقيل الانفاس:

– في المكان الذي بدأنا فيه ننتهي.

جمع دافيدوف آخر قواه، واخرج منافسه الى الارض الصلبة، وهنا وصلت المصارعة الى نهايتها: سقط الاثنان سوية، ولكن دافيدوف استطاع اثناء السقوط ان يدير نيسترينكو، ويصير فوقه. بسط رجليه، وراح يضغط على الارض بكل وزن جسمه، ويلهث، ويقول بالكاد:

– كيف الآن، يا سكرتير؟

– اعترف، ولا شك... قوي أنت، يا طبقة عاملة... صرعي ليس بالامر الهين، وانا الهو بذلك منذ الطفولة.

نهض دافيدوف، ومد يده الى المهزوم بشهامة، ولكن هذا قفز على قدميه، مثل لولب ينفك، وادار ظهره:

– انفض الوحل عني...

وبقدر رفيع من الدف، والرقة نظف دافيدوف بيديه الكبيرتين وبحذر كتل الوحل وهشيم عشب العام الفائت من ظهر نيسترينكو. ثم التقت عيناهما مرة اخرى، فضحك كلاهما.

– على الاقل لو جاملتني على منصبي الحزبي، وانبطحت لي! ماذا كان سيكلفك هذا؟ آه منك، أيها الدب من لينينغراد! ليست عندك أية لياقة، اي خضوع للرتبة... ولكن لك ابتسامة! ابتسامة حتى الاذن، ابتسامة الرضى بالنفس، كالعريس الجديد!

وبالفعل كان دافيدوف يبتسم ابتسامة عريضة:

– سآخذ ذلك بعين الاعتبار في المرة القادمة، حقيقة! ولكن قلل من مقاومتك، فقد غصت في الارض الى الركبة، ولا تريد ان تسلم. آه يالك، نيسترينكو، نيسترينكو! انت فلاح متوسط سيىء الحظ من ستافروبول،

ومالك صغير، كما يقول صاحبنا ماكار ناغولنوف. يجب عليك – كسكرتير – أن تفهم الطبقة العاملة يجب ان تكون لها اليد العليا في كل شيء. وهذا موثق تاريخيا، حقيقة!

صفر نيسترينكو بسخرية، وهز راسه، فانزلقت قبعته الكوبانية على علباله، وبقيت هناك وكأنما بمعجزة. قال ضاحكا:

– في المرة القادمة سابطحك حتما! وسنجد باي اساس ماركسي ستتحجج عندها! المشكلة ان الطباخة راتنا تتباطح كالاطفال، فماذا ستقول عنا؟ اغلب الظن انها ستقول هذان الرجلان فقدا عقليهما...

هز دافيدوف ذراعه باستهانة:

– سنستشهد بشبابنا، وستفهم وتسامح... طيب، يا رفيق نيسترينكو تعال نتحدث، فان الوقت ينقضي، حقيقة!

– اختر موضعا اجف من غيره لنجلس.

وجلسا على اكمة طينية صغيرة، هي وجار مرموط مهمل، واخذ نيسترينكو يتحدث على مهل:

– قبل مجيء الى هنا كنت في غريمياتشي، وتعرفت برازميوتنوف، وبكل النشطاء الذين كانوا موجودين في العزبة. اما ناغولنوف فاعرفه من قبل، فقد التقيت به قبل مجيء الى العزبة اذ كان عندنا في لجنة المنطقة. وقد قلت له ولرازميوتنوف، واكرره لك: ان عملكم سيىء في جذب الكولخوزيين الجيدين، الناس المخلصين لقضيتنا، الى الحزب. سيىء جداً! بينما هناك فتيان جيدون في الكولخوز، الا توافق؟

– صحيح!

– فما المسالة اذن؟

– وحتى الجيدون ينتظرون.

– ماذا ينتظرون؟

– كيف ستجري الأمور مع الكولخوز... وهم مشغولون في استثماراتهم البيتية في الوقت الحاضر.

– يجب تحريكهم، وايقاظهم من كسل التفكير!
– نحن نحركهم قليلا، ولكن الجدوى قليلة. اظن ان الخلية ستنمو حتى الخريف حقيقة!
– وحتى الخريف ستقعدون مكتوفي الايدي؟
– لا، بالطبع، سنتحرك، ولكن لن نضغط.
– ولكنني لا اشير الى اي ضغط. فقط ان لا تضيع اية فرصة ان تكسب لك هذا او ذاك الشغيل من الاعتياديين، وتوضح له سياسة الحزب بلغة سهلة على الفهم.

تاكد له دافيدوف قائلا:

– وهذا ما نفعله، يا رفيق نيسترينكو.
– تفعلون، ولكن الخلية الحزبية لاتنمو. وهذا اقرب الى الخمول منه الى الفعال... طيب، سننتظر، ونرى كيف تسير الامور عندكم فيما بعد. والآن، لنتحدث عن شيء آخر. اريد ان انبهك الى نقائص من نوع آخر. لقد جئت الى هنا لاتعرف عليك، واتشمم، كما يقال، واتحدث حديث القلب للقلب. انت شاب متعلم، ولا يمكن، اذا اردت الجد، ان تستشهد بشبابك، فقد انقضى شبابك، ومضى بحيث لا تستطيع اللحاق به! ولا تنتظر مني تسامحا على اصلك البروليتاري، وعلى عدم خبرتك، وما الى ذلك. ولكن لا تنتظر في الوقت ذاته صرامة مخصوصة لاتقهر، تلك التي يحب التباهي فيها بعض المسؤولين الحزبيين – ومضى نيسترينكو وقد نشط قليلا – لقد تجذرت عندنا في التداول الحزبي افعال يعوزها الذكاء، في رايي، والتعابير المناسبة لها من مثل «قشره»، «نعمه»، «اصقله» وما الى ذلك، وكاننا لانتعامل مع انسان، بل مع قطعة حديد صدئة. اي شيء هذا في واقع الامر؟ لاحظ ايضا ان هذه التعابير تجرى في الغالب الاعم على السنة الذين لم يقشروا طوال حياته معدنا ولا خشبة، ولا اظنهم امسكوا بايديهم المسحاج مرة. بينما الانسان كائن رقيق، ويجب التعامل معه بطريقة معتنى بها للغاية!

سأحدثك عن قصة. في عام ١٩١٨ كان عندنا في الفصيلة نظام وانضباط ولا اسوا منهما. وكانها لم تكن فصيلة من الحرس الاحمر، بل شرذمة من عصابة ماخنو، واقول ذلك بكلمة شرف: وفي بداية عام ١٩١٩، ارسلوا لنا مفوضاً شيوعياً من عمال المناجم في كوبان. كان رجلا محدودب الظهر قليلا، قد تخطى سن الشباب، له شاربان اسودان متدليان مثل شاربي تاراس شيفتشنكو. وبمجيئه تغير كل شيء عندنا. وكانت الفصيلة في ذلك الوقت قد حولت الى فوج في الجيش الاحمر. ونفس رجال الفصيلة صاروا رجال الفوج، ولكنهم في نفس الوقت ليسوا كما كانوا، وكانهم ولدوا من جديد. ولم يقع اي اجراء انضباطي، ودع عنك التقديم الى محكمة عسكرية ثورية، وكل ذلك بعد شهر فقط من وصول القوميسار الى الفوج. بم اثر فيهم؟ بروحه اثر فيهم ذلك الشيطان الداهية! يتحدث مع كل جندي، ويجد الكلمة اللطيفة لكل جندي. والذي يجبن قبيل المعركة كان يبعث الهمة في نفسه بمواجهة شخصية، والطائش يوقفه عند حده، حتى ان هذا لا يستطيع ان يحتج بكلمة، او يزعل. يسر له في اذنه: «لا ترفع راسك، يا ابله! فانك ستقتل، وعند ذلك ماذا ستفعل؟» لانه بدونك ستهلك الحضيرة كلها وحتى السرية كلها لقاء لا شيء» وبالطبع ان هذا البطل يغريه ان يكون للآمر هذا الرأي فيه، فيعمد الى ان يحارب بتعقل، وليس بشكل اهوج... ولم يكن لآمرنا غير نقيصة واحدة. حين يستولي على قرية كبيرة او دسكرة قوزاق ياخذ بالخلخلة...

ومن شدة المفاجاة التفت دافيدوف الى نيسترينكو بحدة شديدة، حتى كاد ينقلب جانبا من اكمة المرموط التي حفرتها الرياح بشدة. وهتف وهو ينزلق ويتشبث باصابع يده اليسرى المنشورة في الطين الرطب:

– كيف تخلخل؟ ما هذا الذي تثرثر به؟

ضحك نيسترينكو بخفوت:

– لم اوفق في استخدام الكلمة! لا يتخلخل، بل ينبش

في مكتبات التجار الاغنياء ومالكي الاراضي، وباختصار، كل من كان في وسعه في ذلك الوقت ان يقتني الكتب. فكان يختار الكتب الضرورية له، ويصادرها، دون اخذ او ردا ربما لا تصدق، ولكنه حمل خلفه اربع عربات من الكتب، مكتبة كاملة تسير على عجلات. وكان يهتم بهذه الكتب، كما يهتم بالذخيرة تماما. غلف كل عربة بمشمع، وصفت الكتب كعبا لكعب، بل ونثرت طبقة من التبن تحتها. وكان اثناء التوقف في الليل، او عند الاستراحة، او في الفترة بين معركة واخرى، وفي كل لحظة فراغ متاحة، كان يعطي الكتب للمقاتلين بعد تنظيفهم لسلاحهم وتناولهم لطعامهم، يامر بأن يقرؤها، وبعد ذلك يتاكد مما اذا كان قد قراوا الكتاب بالفعل ام لا.

حينذاك كنت، لشبابي، اهتم بالفتيات اكثر، فكنت، واعترف بذلك، اتكاسل عن القراءة... وكنت اميا تقريبا وبليدا تماما. وذات مرة اكتشف انني لم اقرا الكتاب الذي اعطاه لي. وانا لا ازال اذكر مؤلف الكتاب وعنوانه... وبعد يومين اخذ يسالني عن محتوى الكتاب، وانا لا افقه شيئا، ويقول ـ وكان يقول حين لا يوجد شهود، حتى لا يشين الغرباء الشخص الذي يتحدث معه ـ يقول لي: «ماذا تظن، هل ستعيش في الدنيا مثل ايفان الأبله في الحكايات الشعبية؟ لقد رايتك مساء الامس تتلوى قرب فتاة. فليكن في علمك الى الأبد ان أية فتاة متعلمة ليست بحاجة حتى الى ان تقرب منك، وانت احمق جاهل. انها ستضجر منك بعد خمس دقائق. اما الجاهلة فليست بحاجة لك اطلاقا، فانها لن تتعلم منك عقلا، لانك نفسك لا تملك هذا العقل، وليس لك من العمر ما يذكر. اما بما يخص جميع فضائل الرجل الاخرى، فان الناس سواء اكانوا حاصلين على قدر معين من التعليم او اميين، ولذا فالامتياز في جانب الانسان المتعلم. هل تفهم ايها الشاب البليد؟»

طيب، وماذا بوسعي ان اجيبه على هذا؟..

وخلال اسبوعين ظل يضايقني في كل وسيلة، ويهزا

مني، حتى كاد يفجر الدموع في عيني، الا انه علمني على القراءة، وفيما بعد صرت بنفسي مولعا بالكتب، انكب عليها فلا تستطيع ان تنتزعني منها. وحتى اليوم احمد له ذكرى طيبة، واقول لك بصراحة، لا اعرف لمن انا مدين بمعارفي وتعليمي. للمرحوم والدي ام له، لآمري هذا.

وصمت نيسترينكو قليلا مفكرا في شيء ما. وقد غشيته غاشية من الحزن، على ما يبدو، ولكنه بعد دقيقة راح يمطر دافيدوف بالاسئلة، وهو لا يكاد يحبس ابتسامته الماكرة:

– وانت ماذا تقرا في اوقات الفراغ؟ اظنك لا تطالع غير الجرائد؟ ثم ان اوقات الفراغ قليلة، ها؟ بالمناسبة هل توجد في غرفة المطالعة عندكم كتب ممتعة؟ ...لا تعرف؟! اوه، يا اخي، عيب عليك! طيب، هل زرت غرفة المطالعة، ولو مرة واحدة؟... مرتين فقط؟ لا، يا عزيزي، هذا لا ينفع اطلاقا! كان لي فيك رأي افضل، ممثل الطبقة العاملة اللينينغرادية! لدي ما استطيع ان اكتبه لمصنعك هناك! ولكن لا تخف. ساكتب باسمي: «دافيدوف العامل السابق في مصنعكم، ورئيس كولخوز غريمياتشي حاليا، والكولخوزيون الذين يراسهم في امس الحاجة الى الكتب. وهم بحاجة قصوى الى الادبيات الشعبية السياسية والاقتصادية، والى كتب في الهندسة الزراعية، وتربية المواشي، وفي الزراعة بشكل عام. ومن المرغوب فيه ايضا ارسال مختارات من الادب الفني، الكلاسيكي منه والمعاصر. وارجو، كنوع من المساعدة، ان ترسلوا مكتبة صغيرة مجانا فيها نحو ثلثمائة كتاب، على العنوان التالي» مقبول؟ هل اكتب؟ لا تريد؟ صواب انك لا تريد! اذن، فاسمع انت، باموال الكولخوز إقتناء مكتبة فيها ما لا يقل عن مائتين الى ثلثمائة كتاب. لعلك ستقول: ليست لنا نقود؟ هراء! ستجدها! بع زوجا من الثيران الشائخة، فلن يخربكم هذا. لا عليكم اللعنة! وستكون لك مكتبة، ومكتبة جيدة! يوم امس احصيت في ادارة الكولخوز، فتبين ان لكم فائضا من

حيوانات الجر، اذا قيست بمساحة الارض. فلما تصرفون العلف عليها عبثا؟ تخلصوا منها. هل تعرف كم لديكم من الثيران التي تجاوزت سن العاشرة؟.. لا تعرف؟ مؤسف انك لا تعرف، ولكنني استطيع ان اساعدك في هذه الضائقة. عندكم تسعة ازواج من الثيران الشائخة في سن العاشرة فما فوق. والمزارع الجيد لا يبقي مثل هذه الحيوانات الهزيلة في زرائبه، بل يغذيها، ويبيعها، مفهوم؟

– مفهوم، بالطبع، ولكننا قررنا ان نبيع في الخريف كل الماشية الشائخة والعاطلة، ومن بينها هذا النوع من الثيران. هذا ما نصحني به المزارعون المجربون.

– وهذه الماشية تسرح في المرعى؟

– لا، على الاقل الثيران الشائخة تعمل. هذا ما اعرفه بالضبط.

– ومن ذاك المزارع المجرب الذي نصحك ببيع الماشية في الخريف؟

– اوستروفنوف مدير شؤون الاقتصاد للكولخوز، وشخص آخر لا اتذكره.

– احم، طريف. مدير شؤون الاقتصاد للكولخوز كان كولاكياً الى خمس دقائق قبل اعلان الكلخزة، يعني كان مزارعاً عارفاً فكيف امكن ان ينصحك بهذه السخافة؟ ان تبيع الثيران في الخريف، ولا ترفع منها النير حتى الآن؟ طيب، ستبيع جلداً على عظم. اما انا فكنت سانصحك بشيء مغاير: ان تطلق الآن جميع الماشية المعدة للبيع، لترعى، ثم غذها تغذية جيدة من العلف المركز، وبعها صيفاً، حين تكون الماشية في السوق قليلة، واللحم اغلى. اما في الخريف فاللحوم متوفرة كثيراً بدون ماشيتك، والاثمان ارخص. وعندكم فائض من الحبوب. فماذا تنتظرون؟ على العموم، لكم الراي، ولا اريد ان اتدخل في شؤونكم. ومع ذلك يجب ان تفكر في هذا... في كل الأحوال يمكن تغذية ثورين عجوزين وبيعهما الآن. فان ثمنهما لن يذهب عبثاً، بل لشراء الكتب! وباختصار، لكي تكون لديكم

مكتبة خلال شهرين. هذه نقطة! انقل غرفة المطالعة حالا من ذلك الكوخ المتداعي الى واحد من بيوت الكولاك الجيدة، انقلها الى احسن هذه البيوت، ولن تخطا في ذلك. هذه النقطة الثانية! سارسل اليكم امين المكتبة، وهو شاب مدبر، واعطيه امراً بان ينظم كل مساء مطالعة بصوت عال، هذه النقطة الثالثة!

– تريث في وضع النقاط! – قال دافيدوف محمراً من الارتباك – اقول لك باللغة الروسية ستكون هناك مكتبة، فارفع نقطة، وسانقل غرفة المطالعة غداً الى بيت جيد، فارفع النقطة الثانية! اما النقطة الثالثة ففيها نظر... عندي امين مكتبة جاهز في ذهني، شاب ممتاز، وداعية لا يشق له غبار! ولكنه يعمل في الانتاج. وهنا وجه الصعوبة... واظن لجنة كومسومول الاقليم ستسعفنا، ولكني ارشح هذا الشاب!

اصغى نيسترينكو اليه باهتمام، هازاً راسه بغموض، ضاحكاً بعينيه فقط.

– اموت حباً بالقائد الحيوي الذي يفهم الحل السريع بسرعة... ولكن دعني اكمل ما يخص غرفة المطالعة عندكم. لمس كنت هناك. واقول لك بصراحة ليس المكان مما ترتاح له النفس... خواء، واهمال تام. والنوافذ عليها الغبار، والارض لم تمس منذ ايام نوح، تفوح بالعطن وبما لا يعرفه الا الشيطان. كانها قبر، والله! والشيء الأساسي ان الكتب قليلة، وكلها قديمة. وقد عثرت على احد الرفوف ملصقاً ملفوفاً مصفراً من القدم، وافتحه، وارى رسوماً، واقرا.

البنات ينظرن الى صفنا باعجاب
والعجائز يدردن
والآباء يقولون بحفاوة
– يا فتياتنا الشجعان!
اوجعوا الاعداء ضرباً من الراس والذيل!
ويا ايها الحارث ليكن في علمك،

ان عملك
تحرسه صفوف الشغيلة جمعاء.

واقول لنفسي: انا اعرف هذا من قبل! لقد قرأت هذا الملصق - وما ازال اتذكر - في عام ١٩٢٠ في الجبهة لمقاتلة فرانغل! وكلمات ديميان بيدني هذا جيدة حتى الآن، ولكن ستوافقني اذا قلت: نحن في عام ١٩٣٠ نحتاج الى شيء اكثر جدة له علاقة بايامنا الحاضرة، طيب، على الاقل، بالكلخوز...

- انت رجل حاد البصر، ومدقق. - قال دافيدوف اقرب الى الاستحسان منه الى عدم الرضى، وهو ما يزال غير متمالك نفسه من الارتباك.

- يتعين علي ان ارى واساعد على تصحيح النواقص في العمل، وهذا ما افعله مع مودتي الشديدة له. ولكن كل ذلك مقدمات، اما الموضوع فما يزال امامنا... طيب، ها انت، قد جئت الى الفريق، وتركت الكولخوز، واوكلت رازميوتنوف بكل شؤون الكولخوز... ولكنك تعرف ان من الصعب على رازميوتنوف ان يضطلع وحده بالامر في مثل هذا الوقت. تعرف؟ ومع ذلك اقدمت على ذلك!

- ولكنك نفسك كنت تسوق حاصدة في حقول توبيانسكوي! ام تريد ان تنكر قوة المثل؟

فصرف نيسترينكو هذه الفكرة في بعض الضيق:

- ولكنني عملت في توبيانسكوي بضع ساعات فقط، لاتعرف على الناس، وهذا شيء آخر، اما انت فقد انضممت الى الفريق بسبب خلخلة في حياتك الشخصية. اليس هناك فرق؟ يبدو لي أنك هربت من لوشكا ناغولنوفا... ربما انا مخطيء؟

غاض الدم من وجه دافيدوف. فاشاح وجهه، وحرك اصابعه على العشب بلا غاية، وقال بصوت لا رنين فيه:

- انا سامع...

فوضع نيسترينكو يده على كتفه بحذر ورقة، وجذبه نحوه قليلا، وسأل:

- فقط ان لا تتكدر! هل تصورت انني قست عمق جراحتك بلا هدف! كانت في بعض الاماكن اعمق مما يجرثه جرار! يعني صببت حمم غيظك على الارض، ورميت اذيتك النفسية على الثيران... ومن كلام الذين تعرفهم يبدو ان علاقتك بلوشكا في طريقها الى الانتهاء. اصحيح ذاك؟

- نعم.

- طيب، هذا مايسر القلب. فقط ان تنهي المسألة في اسرع وقت، يا عزيزي سيميون! الناس يودونك، ولكن السيء انهم يشفقون عليك. افهم انهم يشفقون بالذات - بسبب هذه العلاقة المريبة. وحين يشفق الناس، حسب العادة الروسية، على مختلف انواع التعساء والمساكين فذلك طبيعة الاشياء، ولكنهم حين يأخذون بالاشفاق على شاب ذكي، ورئيس علاوة على ذلك فأي شيء يمكن ان يكون اكثر فظاعة وعاراً على مثل هذا الرجل؟ والشيء المهم ان هواك الاحمق لامرأة عاطلة كانت من قبل، فضلا عن ذلك، زوجة رفيق عقبة في سبيل كل شيء! والا فكيف تفسر الاخفاقات التي لا تغتفر في عملك، وفي عمل ناغولنوف؟ لقد ربطتما انفسكما بهذه الرابطة الشيطانية، فاذا لم تحلاها انتما، فان لجنة المنطقة ستضطر الى ان تقطعها بشدة. فليكن هذا في علمك!

سأل دافيدوف في غير حزم:

- ربما من الافضل لي ان اترك غريمياتشي؟

قاطعه نيسترينكو بحدة:

- لاتقل سفاسف! اذا كنت قد تلوثت، فيجب ان تغتسل انت اولا، وبعد ذلك تحدث عن الخروج. خير لك ان تخبرني بما يلي: هل تعرف الرفيقة يغوروفا المعلمة الكومسومولية؟

- اعرفها. التقيت بها. - وفجأة ابتسم دافيدوف في موضع غير مناسب للابتسام، وقد تذكر لقاءه الاول في

الشتاء، اثناء مصادرة املاك الكولاك، بمعلمة شابة خجولة الى اقصى حد.

عند التعارف مدت له بطريقة مرتبكة يدها الباردة العرقة المضمومة الاصابع، واحمرت احمرارا شديدا، الى حد انبجاس الدموع، وهي لا تكاد تنطق: «المعلمة ليودا يفوروفا» عند ذاك اقترح دافيدوف على ناغولنوف قائلا: «ضمها معلمة كومسومولية الى فريقك. ولتر الشابة اي شيء هو الصراع الطبقي» الا ان ناغولنوف اجاب، وهو يتملى جهما يديه السمراوين الطويلتين «ضمها انت الى فريقك. فلست بحاجة اليها في مثل هذا العمل! فهي ستدرس الفصول الاولى، وحين يحصل احد تلامذتها على درجة رسوب ستبكي هي وهو سوية. من قبل هذه البنت الصغيرة في الكومسومول؟ هل معقول انها كومسومولية؟ طفلة مرولة في تنورة فتاة!»

ولاول مرة يقطب نيسترينكو حاجبيه، وينظر الى دافيدوف بادانة:

– ما لي اراك تبتسم؟ اي مرح وجدت في سؤالي؟

ابدى دافيدوف محاولة هوجاء لايضاح سبب مرحه الناشز:

– لا شيء، مجرد انني تذكرت شيئا صغيرا عن هذه المعلمة... انها خجول جدا..

– تتذكر الاشياء الصغيرة! وجد ما يتفكه به! – صاح نيسترينكو بانزعاج مكشوف – كان من الافضل ان تتذكر ان هذه المعلمة الخجول هي عضو الكومسومول الوحيدة عندكم في العزبة! مثل هذه العزبة الكبيرة وليس فيها خلية كومسومولية. هذا ليس بالصغير! ومن يجب ان يسال عن ذلك؟ ناغولنوف بالدرجة الاولى، وانت، وانا معكما. وتبتسم علاوة على ذلك.. هذه ابتسامة مقبضة، ياسيميون دافيدوف! لا تتحجج بالاعمال الملحة! كل الاعمال التي اوكلها لنا الحزب هي اعمال ملحة. ومسالة اخرى كيف نستطيع ان نتحرك.

اخذ الغضب يعتمل في نفس دافيدوف قليلا، ولكنه سيطر على نفسه وقال:

– يا رفيق نيسترينكو، مكثت يوما واحدا في غريميياتشي لوغ ولحقت ان تكتشف كل هذا القدر من المآخذ والنواقص في عملنا، كما لم يفتك سلوكي... فماذا لو عشت هنا منذ شهر كانون الثاني؟ كان سيستغرق الاستماع الى ملاحظاتك اسبوعا، حقيقة!

اشاعت عبارة دافيدوف بعض المرح في نيسترينكو. فلص عينيه بمكر، ولكز دافيدوف بكوعه:

– وانت، يا سيميون، الا تفترض انني لو لم «امكث» في غريميياتشي، بل عملت جنبا الى جنب معكم فمن الممكن ان تكون المآخذ اقل؟

– اقل، حقيقة، ولكنها ستكون على اية حال. ستخطا انت ايضا، حقيقة! ليكن في علمك انني ارى الكثير من مآخذي، ولكن لا استطيع ان اصلحها كلها ودفعة واحدة. وهذه مصيبتي، حقيقة! ذات مرة في الربيع خرج التلاميذ ومعهم مدير المدرسة شبين الى الحقل لاصطياد السوالق وقد مررت بهم، دون ان اتوقف، ولم اتكلم ولم اعرف، ولحد الآن لا اعرف كيف يعيش هذا المعلم العجوز... واقول لك ما هو اسوأ. في الشتاء ارسل لي هذا المعلم رسالة يطلب فيها عربة لجلب بعض الحطب. هل تظن انني ارسلت له ما يريد؟ لقد نسيت؟ لقد كانت هناك اشياء اخرى تاخذ مني وقتي، واهتمامي بالعجوز... ولحد الآن يتملكني الخجل حين اتذكر ذلك! وما يخص الكومسومول صحيح ايضا. قد اهملنا قضية مهمة، وانا في هذا الموضوع ايضا اتحمل ذنبا كبيرا، حقيقة!

ولكن نيسترينكو لم يكن يلين ببساطة بتصريحات نادمة.

– كل هذا لطيف، ان تعترف باخطائك ان يكون لك فضلة من حياء لم تفقده لحد الآن، على ما يبدو، ومع ذلك فان هذا كله لم يخلق لنا كومسومولية واحدا، ولم يقدم

حطبا للمعلم... يجب العمل، يا عزيزي سيميون، وليس ابداء الندم فقط! – حضه نيستريتكو على ذلك بالحاح.

– سيصلح كل شيء وينجز، خذها كلمة شرف! ولكن ساعدونا في تنظيم خلية الكومسومول، اقصد ان ترسل لنا لجنة المنطقة شابا او شابين وفتاة كومسومولية على الاقل للعمل مؤقتا. أما يفوروفا، فاقول لك بجد، انها لا تصلح أن تكون منظمة، انها تخجل من السير على الارض، فكيف ستعمل مع الشبان، ولاسيما مثل شبابنا؟

عند ذاك فقط خال نيستريتكو راضيا:

– هذا حديث آخر الآن! سنساعدكم في قضية الكومسومول، واعدك بذلك، والآن اسمح لي أن اضيف لك شيئا آخر عن تصريحك فيما يخص نقدك الذاتي. قبيل اول ايار طلب منك مدير مخزننا التعاوني أن ترسل عربتين الى الدسكرة لجلب البضائع. ها؟

– نعم.

– ولم تلب طلبه، ها؟

– لم أتمكن. كنا آنذاك نحرث ونبذر، في آن واحد. ولم يكن لنا وقت للتفكير في بيع او شراء.

– يعني كان من المستحيل التساهل في عربتين؟ هراء! سخافة! كان من الممكن ودون الحاق ضرر ذي بال في اعمال الحقل. ولكنك لم تستطع، لم ترد، لم تفكر: «كيف سيؤثر هذا على مزاج الكولخوزيين؟» وبنتيجة ذلك جاءت نسوة غريمياتشي الى الدسكرة مشيا على الاقدام للحصول على اكثر الحاجات ضرورية، على الصابون، على الملح، على علب الكبريت، على الكيروسين ذلك في عشية العيد علاوة على ذلك. فماذا سيقلن بينهن بعد هذا عن السلطة السوفيتية؟ ام انت لاتكترث بذلك، ام لعلنا حاربنا، انت وانا، لكي تشتم سلطتنا العزيزة، لا، قطعا!– صاح نيستريتكو بصوت نحيل غير متوقع. ولكنه ختم كلامه همسا – هل معقول أن حقيقة بسيطة كهذه لا تستطيع

استيعابها، يا سيميون؟ افق على نفسك، يا رفيقي العزيز، واصح!..

سحق دافيدوف في اصابعه عقب سيكارته المنطفيء، وحدق في الارض، وصمت طويلا. كان طوال حياته مقتصدا قدر الامكان في اظهار العواطف التي تنازعه، من الممكن أن يلام على هذا او ذاك ولكن ليس على عاطفيته، في تلك اللحظة دفعته قوة غير مرئية، فطوق نيستريتكو بقوة، بل ومس خد السكرتير غير الحليق مسا خفيفا بشفتيه الصلبتين. وصار صوته يرتجف انفعالا حين اخذ يتكلم:

– شكرا لك، يا عزيزي نيستريتكو! شكرا جزيلا! انك فتى ماجد، وسيكون العمل معك سهلا، وليس كالحال مع كورتشجينسكي. لقد قلت لي كلمات مرة، ولكنها صحيحة تماما، حقيقة! فقط لا تظن، بحق الرب، انني انسان ميئوس منه! سافعل ما يجب، ونحن جميعا سنسعى ونفعل ما يجب، وسنعيد النظر في الكثير من الاشياء، وعندي الآن ما يكفيني للتفكير فيه... صدقني، يا رفيق نيستريتكو!

لم يكن نيستريتكو اقل انفعالا من دافيدوف، ولكنه لم يبد انفعاله، تنحنح مقلصا عينيه البنيتين اللتين زايلهما المرح الآن. وبعد برهة من الصمت انكمش مقشعرا، وقال بهدوء:

– اصدق بك وبالآخرين من صحبك، وانا معتمد عليكم اعتمادي على نفسي. فتذكر ذلك جيدا، يا سيميون دافيدوف! فلا تخذل لجنة المنطقة الحزبية ولا تخذلني، ولا تجرؤ على الخذلان! لاننا نحن، الشيوعيين، مثل جنود فصيل واحد، لا يجب أن نضيع الشعور بالتكاتف في كل الظروف! وانت نفسك تعرف ذلك معرفة ممتازة. فعسى أن لا تنشا بيننا احاديث منغصة بعد الآن، سحقا لها! انا لا احب مثل هذه الاحاديث، رغم أن اجراءها ضروري في بعض الأحيان. فانت تتحدث وتتنابح مع صاحب من مثلك، وبعد ذلك تقضي ليلة مؤرقة، وقلبك موجع...

شد دافيدوف على يد نيسترينكو الحارة بقوة، وحدق في وجهه، واخذه العجب. فقد وجد امامه كهلا متعبا، لا ذلك المتحدث المرح السابق، ولا الفتى الانيس المستعد للمزاح والمصارعة. لاح الهرم على عيني نيسترينكو، وارتمت غضون عميقة على طرفي فمه، وحتى التورد الأسمر الذي كان يشيع في خديه بدا وكانه قد نصل واصفر. وبدا وكان نيسترينكو قد تغير بكليته خلال دقائق.

قال، وهو ينهض ثقيلا من الاكمة:

– حان وقت انصرافي. لقد طال مقامي عندك.

فسأل دافيدوف بفزع:

– اتحب أن تمرض؟ لقد تغيرت سحنتك فورا.

قال نيسترينكو في غير ما مرح:

– حدست، نوبة من الملاريا في طريقها الي. اصبت بها منذ زمان، في آسيا الوسطى، ولا استطيع ان اتخلص من هذه اللعونة!

– ماذا كنت تفعل في آسيا الوسطى؟ اي حاجة دفعتك الى هناك؟

– اتحسب انني ذهبت هناك من أجل خوخ آسيا الوسطى؟ كنا نحارب للقضاء على اعداء الثورة هناك، وها انا حتى الآن لا استطيع القضاء على عدوتي الخاصة الملاريا. سحبها الاطباء الى كبدي، ولحد الآن اتعذب منها. ولكن هذا موضوع آخر. ولكنني في النهاية اريد ان اقول لك: ان اعداء الثورة اخذوا يتململون في اقليمنا، وفي مقاطعة ستاليتغراد المجاورة. انهم يعولون على شيء، هؤلاء الحمقى المجانين! او كيف تقول الاغنية: «ارادوا ضربنا، حاولوا...»

فاكمل دافيدوف بيت الاغنية قائلا:

– «ونحن أيضا لم نقعد منتظرين رحمة من السماء!».

– نعم، كذلك، ولكن يجب ان نكون آذانا مرهفة. وحك نيسترينكو حاجبه بسهوم، وحمحم في غضب – لا بأس، لابد من ذلك، يقتضي التخلي عن شيء عزيز... وما دمنا قد

وطدنا أواصر الصداقة، تقبل مني هذه اللعبة هدية، تنفع عند الضائقة. تلقى ناغولنوف تحذيرا، فاحذر انت ايضا، والا فقد يحصل ما هو أسوأ...

واخرج من جيب سترته مسدس... «براونينغ» رقم ٣ كامد اللمعان، ووضعه في كف دافيدوف.

– هذه آلة صغيرة للدفاع، أظنها اكثر اشعارا بالامان من آلة سمكرية.

شد دافيدوف على يد نيسترينكو بقوة، وتمتم بتأثر وخلخلة:

– شكرا على هذا... كيف اقول، حقيقة، على هذا الاهتمام الرفاقي الودي! شكراً جزيلا.

فقال نيسترينكو مازحاً:

– احمله بالعافية واياك أن تفقده! فان المقاتلين القدامى يصيرون ساهين مع الزمن...

فاكد له دافيدوف:

– لن يضيع مادمت حيا، فاذا اضعته فساضيع رأسي معه.

وخبأ المسدس في جيب بنطاله الخلفي. ولكنه عاد فاخرجه على الفور، وحدق ذاهلا في المسدس اولا، ثم في نيسترينكو:

– اشعر بحراجة من ذلك... كيف ستبقى بدون سلاح؟ خذه، لست بحاجة اليه.

دفع نيسترينكو يد دافيدوف الممدودة دفعة خفيفة.

– لا تقلق، عندي مسدس ثان للاحتياط. هذا كان للاستعمال الدائم. اما ذاك فاحتفظ به احتفاظي بحدقة عيني، فهو هدية نقش عليها اسمي. وهل تظنني خدمت في الجيش وقاتلت خمس سنوات عبثا؟ – وغمز نيسترينكو، بل وحاول أن يبتسم، ولكن ابتسامته خرجت مريضة مؤلمة:

وانكمش مقشعرا من جديد، وحرك كتفيه محاولا التغلب على الرجفة، وتكلم بتقطع:

– امس، افتخر شالي بهديتك. زرته، فضيفني على شاي مع قرص عسل، وتناقشنا في الحياة، فاذا به يخرج

من الصندوق ادوات السمكرة التي قدمتها له هدية، ويقول: «في حياتي كلها تلقيت هديتين: كيس تبغ من زوجتي العجوز، حين كانت فتاة وترمقني، وانا حداد شاب، وهذه الادوات قدمها لي الرفيق دافيدوف بنفسه على عملي الطليعي في الحدادة. هديتان على مدى عمري الطويل! وكم قلبت من حديد في يدي خلال هذه الحياة المتشحة بالدخان! ولهذا فان موضع هاتين الهديتين ليس في الصندوق، بل في قلبي!» عجوز لطيف! عاش حياة كدح جميلة، وكما يقول الناس، عسى الله أن يكتب لكل واحد أن يجلب من المنافع للناس، ما جلبه هذا الحداد العجوز بيديه. وهكذا ترى أن هديتك أثمن بكثير من هديتي.

سارا الى كشك الفريق بخطو سريع. وكانت رجفة قوية تجتاح جسد ليسترينكو.

ومن جديد اخذ المطر يجيء من الغرب. وجاءت علائم سوء الطقس – مزق السحاب – تسرى واطئة. وفاحت مخمرة رائحة العشب الفتي والتربة السوداء الرطبة. الشمس التي اطلت وقتا قصيرا اختفت وراء السحب. وحلق نسران من نسور السهوب عالياً في الفضاء يلتقطان الريح الطرية باجنحتهما. وانسدل على السهب سكون يبشر بالمطر كقماش ناعم، ولم تبق الا السوالق وحدها تصفر باصواتها النافذة المذعورة تنذر بمطر طويل.

تصحه دافيدوف ملحاً:

– اضطجع قليلا في كشكنا، وبعد ذلك غادر. سيدركك المطر في الطريق، وستتبلل، وتنهار كليا.

الا أن ليسترينكو رفض كلياً:

– لا استطيع. مكتبنا سينعقد في الثالثة. والمطر لا يلحق بي. تحتي حصان جيد!

وحين كان يفك مقود الحصان، ويشد سير السرج كانت يداه ترتجفان مثل يد عجوز هرم. عانق دافيدوف بعجالة وقفز بخفة غير متوقعة على حصانه الحرك، وهتف:

– سأتدفأ اثناء السير! – وانطلق من مكانه بعدو سريع.

وعندما سمعت كوبريانوفنا كركبة حوافر الحصان الناعمة طلعت من الكشك، كما يطلع العجين من الاجانة، حين يختمر. ضربت كفاً بكف بحزن، وقالت:

– غادر؟! وكيف ذلك بلافطور؟!

– اصابته وعكة. – قال دافيدوف، وهو يشيع السكرتير بنظرة طويلة.

قالت كوبريانوفنا متوجعة:

– اي حمقاء انا! مثل هذا الرجل الطيب جدا، ولم نطعمه! مع أنه من الموظفين، ولكنه لم يستنكف من تقشير البطاطس معي، بينما أنت، الرئيس، كنت غاطا في النوم. وهو ليس مثل رجالنا القوزاق، ليس له نظير بينهم! لن تجد عونا من اصحابنا! لا يعرفون غير أن ياكلوا بشراهة، ويستلقوا متطلعين الى القمر. أما مساعدة الطباخة فلا! ثم اية كلمات لطيفة قال لي هذا الرجل الغريب! وحتى الحنون من بين جماعتنا لا تخطر بباله مثل هذه الكلمات اللطيفة – تباهت كوبريانوفنا، وهي تمط شفتيها متصنعة وتحدج دافيدوف بمؤخر عينيها لتعرف الوقع الذي يتركه عليه كلامها.

كان هذا لا يستمع اليها مقلبا في ذاكرته حديثه مع ليسترينكو قبل حين. الا أن كوبريانوفنا قد اخذها الحديث فكانت تجد صعوبة في التوقف رأسا، ولهذا واصلت قولها:

– وانت ايضا، يا دافيدوف، تخطفك الطاعون، على الاقل لو قلت لي ان الشخص يهم بالانصراف. وأنا ايضا بلهاء لم الحظه، مع الأسف! اظنه سيتصور أن الطباخة بقيت في الكشك عمدا لتختبىء عنه، بينما روحي كلها معه...

ظل دافيدوف على صمته، بينما ظلت كوبريانوفنا تنفث ما في صدرها بلا عانق:

– انظر كيف صعد على الفرس! وكانما ولد تحت حصان، وترعرع على ظهر حصان! ولا يتحلحل ولا يميل على

السرج، صقري هذا! قوزاقي أصيل، ومن أصل قديم ايضاً – كانت تقول متهللة، دون أن تصرف عينيها المسحورتين عن الفارس المبتعد.

– إنه ليس قوزاقيا، بل اوكراني، – قال دافيدوف بسهوم، وتنهد. فقد احس بشيء من الغم بعد انصراف نيستر ينكو.

وانفجرت كوبريانوفنا من كلامه انفجار بارود جاف:

– حدث بهذه الحكاية جدتك، وليس انا! انا اقول لك صدقا انه قوزاقي حقيقي! وهل خانك بصرك حتى لا ترى؟ من ركوبه الفرس تحدس ذلك من بعيد أما حين يقترب فتعرف من مظهره، من قيافته، كما ترى من معاملته للمرأة انه قوزاقي شجاع، وليس من الخرعين.

ختمت كوبريانوفنا كلامها بدلالة كبيرة. فقال دافيدوف موافقا:

– وليكن قوزاقيا عندك، فهذا لا يؤخر عندي ولا يقدم. ولكنه رجل طيب؟ كيف بدا لك؟ اغلب الظن انك اطنبت في الحديث معه، قبل ان توقظيني؟

جاء الآن دور كوبريانوفنا لتتنهد، فتنهدت بكل صدرها الجبار، وبهمة شديدة حتى ان الدرز الطويل في بلوزتها القديمة قد تفتق تحت الابط.

– هذا نادر المثال! – اجابت كوبريانوفنا بعاطفة عميقة، بعد صمت قصير، وفجأة راحت، دون سابق انذار، تطقطق بالاواني، وهي تصفها على الطاولة بدون هدف، والاصح لم تصفها، بل القتها كيما اتفق.

الفصل التاسع

سار دافيدوف بخطوات متمهلة، ولكنها عريضة. فصعد على الاكمة، وتوقف، ونظر الى مخيم الفريق الخالي في مثل هذه الساعة من النهار، والى الحقل المحروث المنبسط في المنحدر المقابل حتى الافق تقريبا. ومهما

يكن من شيء فقد كدح هذه الايام بكل ماله من قوة، رغم شدة الضنك التي سببها لسائقة ثيرانه فاريوخا، ولثيران كوندرات نفسها. وفي تشرين الاول سيكون النظر الى هذا المنبسط الفسيح رائعا. اذ ستغطيه الخضرة الكثيفة للحنطة الشتوية في اغلب الظن، وتفضضه بالجمد فترات الصقيع في الصباحات، اما عند الظهر، حين تدفيء الشمس السارية على انخفاض في الزرقة الشاحبة، كما هو الحال غب مطر مدرار، فسيتوهج بكل الوان قوس قزح، وستعكس كل قطرة فيه سماء الخريف الباردة، والغيوم البيض الزيداء، والشمس الكامدة.

من بعيد كانت الارض المحروثة المطوقة بخضرة الاعشاب تبدو مثل قطعة من المخمل الأسود مفروشة بكل عرضها. وعلى حافتها القصوى فقط، عند المنحدر الاعلى، حيث كان الطفال الرملي يخرج قريبا من السطح تمتد حاشية متضرسة صهباء مرقطة بنقاط بنية. وعلى طول الاخاديد كانت الكتل المقلوبة من التربة السوداء تلمع كامدة، وقد قلبتها اسنة المحاريث، وغربان القيظ تحوم فوقها، وعلى الارض المحروثة السوداء تلوح بقعة زرقاء كزهرة الثلج، هي فاريا خارلاموفا وقد تركت العمل الذي فقد اية متعة عندها، فاطرقت برأسها، وسارت نحو المخيم ببطء بينما كان كوندرات مايدانيكوف يجلس جامدا على اخدود يدخن. فماذا تبقى له ان يفعل بدون سائق يوجه الثورين، حيث تحوم فوقهما سحائب من ذباب الخيل؟

توقفت فاريا ايضا، حين رأت دافيدوف يتوقف في القمة، وخلعت منديلها من رأسها بخفة، ولوحت به قليلا. فانتزع هذا النداء الصامت الخفر بسمة من دافيدوف. فلوح بطاقيته ردا عليه، وسار دون أن يتلفت.

«اية فتاة متحكمة! لطيفة جدا في طبيعتها، ولكنها مدللة في الواقع ومتحكمة. ولكن هل هناك فتيات بلا دلال؟ دون ان يبدين اي غنج؟ لم أر ذلك في حياتي، لا في الحلم ولا في اليقظة... ما ان تبلغ اية حسناء، مهنن السادسة

عشرة او السابعة عشرة، حتى تبدا بالتزوق وتجميل نفسها بكل طريقة، يجربن قوتهن وسلطانهن على امثالنا دون ان ندري، حقيقة! – كان دافيدوف يفكر في ذلك اثناء سيره – ها هي فاريوخا – غاريوخا تجاهد ان تروضني، وتريني طبعها. ولكنها لن تظفر بطائل. فنحن رجال البلطيق اناس اقوياء الشكيمة! ولكنها لماذا تتجه نحو الكشك؟ تمشي متماهلة مبطبطة، يعني انها ليست مرسلة من قبل كوندرات لشان من الشؤون، بل برغبتها، لنزوة في نفسها الصبوية المتقلبة. ربما لأنني تركت الفريق؟ اذن ستكون هذه قلة ادب في الحقيقة، وخرقا تاما للانضباط في العمل! اذا كانت منطلقة لسبب وجيه، فلتتفضل، ولتذهب مع السلامة، واذا كان ذلك نزوة فستوبخ عليها في اول اجتماع دون ان يتشفع لها شبابها ولا جمالها! الحرائة ليست لعبة متى تشاء تنصرف عنها، بل يجب ان تمضي بها، كما يتوجب» – انتهى دافيدوف في تفكيره شاعرا بالضيق.

وكان في تلك اللحظة يعاني شعورا غريبا في الازدواجية، فهو من ناحية كان يحنق على فاريا بسبب تساهلها مع نفسها، وهو من ناحية ثانية يشعر بعزة نفسه كرجل حين يتصور ان الفتاة تركت العمل لبعض الوقت بسببه.

وتذكر كيف ان احدا من اصحابه الليننغراديين، وهو بحار سابق ايضا، حين اخذ يغازل احدى الفتيات، نحاه جانبا وهمس بلهجة متآمرة، وهو يحاول ان يكون جديا: «سيميون، انا اقترب من العدو، فاذا بدر اضطراب من ناحيتي، استدني من الجناحين، واذا ضربت ارجو ان تحمي تراجعي المشين». تذكر ذلك، وابتسم للماضي القديم، وفكر على الفور: «لا، يجوز لي «الاقتراب من العدو» من فاريوخا. فهي لا تناسب سني، وليست من طاقمي... ثم ما ان الاحقها حتى يتصور الكولخوزيون على الفور بان لي غواية في ملاحقة النساء، وأي زير نساء انا، حين لا اعرف كيف احل نفسي عن لوشكا هذه. لا، ان فاريوخا العزيزة لا تحب الا عن جد، وضميري لا يسمح لي بان اتعابث معها

فقط، ها هي طاهرة كشروق الشمس في يوم صحو، ثم بأي عينين طاهرتين تنظر الي... طيب، واذا كنت لم تتعلم بعد ان تحب بجد، ولم تدرك هذا الامر فلا حاجة بك الى تعكير صفو الفتاة. فاقلع، يا دافيدوف البحار، من رصيفها، واستعجل!.. وعلى العموم يجب أن ابتعد عنها قدر الامكان. ويجب التزام الحذر في الكلام معها، حتى لا تتكدر، وابتعد!» – وعلى هذا عزم دافيدوف زافرا من صدره.

ومرة اخرى عاد بذهنه الى لوشكا، وهو يفكر في حياته التي لم تستقر بشكل مريح في غريمياتشي لوغ، وفي المهمات التي وضعها امامه السكرتير الجديد: «كيف احل هذه العقدة البحرية بدون الم؟ اظن ماكار على حق في قوله: العقدة التي لا تستطيع ان تحلها بيديك ولاباسنانك يجب ان تقطعها بحد السكين! أية طامة هذه! سيصعب علي كثيرا ان افارقها الى الابد. ولكن لماذا؟ لماذا استطاع ماكار ان يفعل ذلك بسهولة، بينما يصعب علي انا؟ يعني تعوزني صلابة النفس؟ اوه، ما كنت اتصور انني بهذا الشكل! او لعل ماكار ايضا وجد صعوبة في الانفصال، الا انه اخفى ذلك؟ هذا ما كان في اغلب الظن. قدر ماكار ان يخفي معاناته، بينما انا لا اقدر، لا استطيع. هذه هي الحقيقة، على ما يبدو!»

قطع دافيدوف مسافة لا يستهان بها دون ان يدري، حتى استلقى ليستريح ويدخن في مكان ظليل قرب اجمة على جانب الطريق، وراح يقلب في ذهنه طويلا من يمكن ان يطلق النار على ناغولنوف، ثم القى عن ذهنه كل الاحتمالات في ضيق: «معروف حتى بدون اطلاق نار، ان احد الاوغاد لقي في العزبة بعد مصادرة املاك الكولاك. سأتحدث مع ماكار، والم بكل الملابسات، وعند ذاك يمكن ان يتوضح شيء ما، ولا حاجة لتعب الدماغ بدون فائدة».

مال عن الطريق ليقصر المسافة، وسار في خط مستقيم، عبر ارض بكر، ولكن ما ان قطع نصف كيلومتر، حتى بدا وكأنه اجتاز تخما آخر غير منظور، وصار في عالم

آخر. فلم يعد يسمع هسيس العشب الثري لدى ارتطامه بعنق حذائه، ولا يرى الزهور الزاهية حوله واختفت الروائح العذبة للاعشاب الزاهرة الكثيفة، وامتد امامه سهب أجرد رمادي كئيب الى مدى بعيد.

كانت هذه الارض التي بدت وكأن حريقا قد شب فيها منذ زمن قليل واقفرها تبدو للعيان شديدة الكآبة، حتى ان دافيدوف احس بغمة في نفسه. اجال بصره فيما حوله، وادرك انه طلع الى قمة وهدة «بيريوتشيا»، الى الارض البكر المهملة التي قال عنها ياكوف لوكيتش ذات مرة في اجتماع ادارة الكولخوز: «السيد الرب لسبب ما خلق في ارض القفقاس هذه الجبال، ورفع هذه الروابى البلهاء على الارض فلا طريق اليها ولا درب. ولكن لا ادري لأي سبب زعل علينا، نحن قوزاق غريمياتشي، فنتر الملح على رؤوسنا خمسمائة هكتار من ارضنا الطيبة، حتى يتعذر الى الأبد ان تحرث او يبذر فيها. وفي الربيع تخضر قليلا، ولكن ليس طويلا، ثم يزور البصر عن هذه الارض الملعونة حتى الربيع المقبل. ولا فائدة منها غير توفير بعض العلف الذي لا يغني لخراف العزبة، ولنصف شهر فقط، وبعد ذلك لا تكون لنا الا في السجلات أرضا متروكة تسرح فيها مختلف المخلوقات الخبيثة – افاعي الارض والعظايا، وتتخذها جحوراً».

ايطا دافيدوف خطوة، ملتقا حول السبخات العريضة، طافرا على الحفر العميقة المدورة، التي دقتها حوافر البقر والغنم، وعلقتها السنتها الخشنة. كانت التربة المالحة المرة في هذه الحفر مثل مرمر رمادي ذي عروق.

كان هذا السهب المقبض يمتد نحو خمسة كيلومترات حتى الوهدة الرطبة، يبقعه بالابيض نجيل السهوب السلطاني ورقع الملح اليابسة المتشققة من الحر، ويسري فيه قبظ الظهيرة لهبا رجراجا دافقا. ولكن الحياة التي لاتنطفئ، لها جذوة كانت تزهر هنا ايضا، في التربة الشحيحة. فقد كانت الجنادب الحمر الاجنحة تطلع من تحت قدمي دافيدوف

من حين لآخر مخشخشة، والعظايا تنزلق خافتة الوقع رمادية بلون الارض، والسوالق تصفر مذعورة، والصقر ينساب على انخفاض فوق السهب، مندمجا مع نجيل السهوب، مترنحا في الانعطافات، والقبرات الواثقة تترك دافيدوف يقترب منها تماما، وكأنما تتكاسل عن الطيران، ثم تحلق عاليا وتغرق في الغبش الحليبي الازرق للسماء الصافية، حين تتردد من هناك صيحاتها المستديمة باختناق اشد، ولكن بعذوبة اكثر.

وفي بواكير الربيع، حالما تظهر بقع الارض الاولى عند ذوبان الثلج، كانت هذه القبرات تعود الى هذه البقعة الموحشة من الارض، والمحبوبة اليها لسبب ما، حيث تبني اعشاشها من عشب العام الفائت الهش، وتفرخ، وتظل حتى اعماق الخريف تبهج السهب بغنائها غير الصادح، وان كان اليفا الى اذن الانسان منذ الطفولة. كاد دافيدوف يدوس على واحد من هذه الاعشاش المبني باتقان في حفرة تركها حافر حصان هنا ذات مرة. جذب دافيدوف قدمه فزعا، واحنى قامته. كان هذا العش القديم مهجورا. وبالقرب منه لزق بعد المطر ريش دقيق، وقطع صغيرة من قشرة بيض.

وفكر دافيدوف مع نفسه: «أخذت الام صغارها. لطيف لو ارى القبرات الصغيرات! لا أتذكر أنني رأيتها في طفولتي» وابتسم ابتسامة مقتضبة حزينة: «وحتى كل الطيور الصغيرة تبني اعشاشها، وتخلف ذرية، بينما انا اقزل وحيدا نحو الاربعين، ولحد الآن لا ادري هل سيكتب لي ان ارى صغاري... يعني اتزوج، وانا في هذه السن المتقدمة؟»

وضحك دافيدوف بصوت عال، وقد تصور نفسه، للحظة، رجلا رزينا متزوجا بامرأة ضخمة مثل كوبريانوفنا، وله اولاد باعمار مختلفة وكان قد راى مثل هذه الصور العائلية غير مرة في واجهات استوديوهات التصوير في مدن الاقاليم. حتى بدت تلك الفكرة التي عنت له فجأة عن

الزواج مضحكة وسخيفة، حتى انه طردها عن ذهنه بهزة من ذراعه، وسار نحو العزبة اكثر مرحا.

اتجه قدما الى ادارة الكولخوز دون ان يعرج على مسكنه. فقد كان يتلهف للاستفسار عن كل ما حصل لناغولنوف.

كان فناء ادارة الكولخوز الرحيب المكسو بنابت العشب خالياً، الا من دجاجات الجيران تنبش في الروث بكسل قرب الاسطبل، والا من التيس الذى أطلق عليه اسم تروفيم لسبب ما، يقف في استغراق الشيوخ العميق تحت ظليلة السقيفة. دبت الحركة في التيس حين رأى دافيدوف وهز ذقنه معابثة، وطبطب في مكانه، وانطلق في خب سريع ليهاجم دافيدوف. ولكنه احنى رأسه في منتصف الطريق، وشال ذيله المبتور الاشعث معاركا، وتحول الى العدو السريع. وكانت نواياه من الصراحة، بحيث ان دافيدوف توقف مبتسما، متهيئا ليتصدى لهجوم هذا المعارك أبي ذقن.

– بهذا الشكل تحيي رئيس الكولخوز؟ ساضربك بقدمي كالكرة، أيها العفريت العجوز – قال دافيدوف ذلك ضاحكا، وتحايل حتى امسك بقرنه المضلع الملتوى – والآن، تعال الى الادارة لتصفية الحساب، يا صاحب شوكار، أيها العاطل المتكاسل.

ابدى تروفيم وداعة تامة، واستجاب لدافيدوف، وسار الى جانبه، هازا رأسه من حين لآخر، محاولا اطلاق قرنه بأدب. ولكنه ابدى مقاومة مفاجئة على الدرجة الاولى من مدخل الادارة، وتشبث باظلافه الاربعة، وحين توقف دافيدوف، دنا منه واثقا، وتشمم جيبه، محركا شفتيه الرماديتين بشكل مضحك.

هزأه دافيدوق مقرعا اياه بحركة من رأسه، محاولا ان يضفي على صوته اكثر ما يمكن من التأثر:

– ايه، يا تروفيم، تروفيم! ولكنك الآن عجوز، متقاعد كولخوزى، اذا صح القول، فلا تبد حماقة، وتشتبك مع

الجميع في عراك، حين لا تحصل على طائل تأخذ باستجداء خبز. هذا غير لطيف منك، بل ومخجل، حقيقة! ماذا تشممت في جيبي؟

تلمس دافيدوف في جيبه قطعة خبز يابسة تحت كيس التبغ وعلبة الكبريت، وأخرجها، ونظفها جيدا من بتور التبغ، وتشممها بنفسه، لسبب ما، قبل ان يقدمها على كفه الى التيس. احنى التيس رأسه بتودد وتوسل، وينظر الى دافيدوف من عينين ناعستين كعيني حيوان خرافي عجوز، ولكنه ما كاد يتشمم هذه القطعة، حتى حمحم بازدراء، وابتعد عن مدخل البيت بوقار. فقال دافيدوف دون ان يخفي ضيقه:

– لست جائعاً جداً. انت لم تخدم في صف الجنود، أيها العفريت الزائف، والا لكنت ستاكلها بكل سرور! تعوفها، لأن فيها شيئا من رائحة التبغ، فيالك من متكبر! اظن دم الاشراف يجري في شرايينك، أيها العاطل، انت شديد التدقيق، في الحقيقة!

رمى دافيدوف قطعة الخبز اليابس، ودخل الرواق البارد، وغرف من الطنجرة قدح ماء، عبه بعطش. والآن فقط شعر بشدة تعبه من الحر والطريق.

لم يكن في الادارة غير رازميوتنوف والمحاسب. ابتسم رازميوتنوف حين رأى دافيدوف...

– حضرت، أيها المجند؟ انزاح العبء عني الآن! ادارة الكولخوز هذه ازعاج، عفا الله عنها! اما لا يوجد فحم عند الحداد، واما ان تنكسر المضخة في المزرعة، واما ان يأتي اليك من يحتاج الى شيء، او يجرجر آخر نفسه... مثل هذا العمل المثير للاعصاب لايناسب طبعي ابداً. ولو مكثت هنا اسبوعاً آخر لاصابتني نوبات لا تحمد عقباها!

– كيف ماكار؟

– حي.

– اعرف انه حي، ولكن كيف رجته العصبية؟

تعبس رازميوتنوف:

– وما علاقة الرجة العصبية برصاصة؟ انه لم يضرب بعيار كبير. اهتز رأسه قليلا، وبلل الشدغ بالفودكا، وشرب ما بقي من نصف الزجاجة بعد التبليل، وهذا كل ما في الامر.

– أين هو الآن؟

– خرج الى قريته.

– وكيف حدث هذا كله؟

– ابسط من البسيط: كان ماكار في الليل جالساً عند نافذة مفتوحة، وعلامتنا الجديد، الجد شوكار، جالس في الجانب الآخر من الطاولة. وفي تلك اللحظة اطلقت النار على ماكار من بندقية. والليل الداجي وحده يعرف من اطلق النار. الشيء الواضح الوحيد هو أن الذي اطلق النار كان أبله.

– ولماذا واضح؟

ارتفع حاجبا رازميوتنوف دهشة:

– كيف «لماذا؟» فهل ستخطىء الهدف حين تصوب من بندقية من بعد ثلاثين خطوة؟ في الصباح وجدنا البقعة التي اطلقت منها النار. من الخرطوشة التي بقيت هناك، قست بنفسي ثماني وعشرون خطوة من السياج حتى جدار البيت.

– في الليل من الممكن أن تخطىء حتى من بعد ثلاثين خطوة.

فاعترض رازميوتنوف قائلا:

– لا، غير ممكن! ما كنت ساخطأ! وتعال نجرب، اذا كنت تريد. اجلس ليلا في المكان الذي كان ماكار يجلس فيه، واعطني بندقية، بطلقة واحدة يمكن ان اجعل لك ثقبا بين حاجبيك بالتمام. يعني واضح أن الذي اطلق النار لم يكن بالجندي الحقيقي.

– قدم لي تفاصيل اكثر.

– ساخبرك بكل شيء بالترتيب. حوالى منتصف الليل اسمع اطلاق نار في العزبة. طلقة واحدة من بندقية، ثم

طلقتين اكثر اختناقا، صادرتين من مسدس على ما يبدو، ثم طلقة اخرى حادة من بندقية، كان يمكن تحديدها من الصوت. اختطفت مسدسي الناغان من تحت المخدة، ولبست بنطالي اثناء سيري، وانزلقت الى الشارع. واركض نحو مسكن ماكار. فقد كانت الطلقات تبدو وكأنها تتردد من هناك. وتصورت آنئذ أن ماكار يبيت شيئا...

انطلقت كالبرق. واطرق الباب. كان مغلقا، واسمع شخصاً يئن متوجعا داخل البيت. دفعت الباب بكتفي دفعتين أو اكثر، كما ينبغي، وكسرت مزلاج الباب، واندفعت في البيت، واشعلت عود ثقاب. في المطبخ رأيت رجلين تبرزان من تحت السرير. أمسكت بهما، وجررتهما. ويا اولياء! سمعت شخصا يزعق من تحت السرير زعيق خنوص! واعترتني رعدة، ولكنني مضيت في سحب الرجلين بنفس الهمة واكثر. حتى جررت الشخص الى وسط المطبخ، فتبين انه ليس شخصا على الاطلاق، اقصد ليس رجلا، بل ربة البيت العجوز نفسها. واسألها اين ماكار، ولكن لسانها لم ينطق بحرف من شدة الذعر.

اندفعت الى حجرة ماكار، وتعثرت بشيء لين، ووقعت، ونهضت على قدمي. واذا بفكرة لاذعة تلسعني، اذ افكر: «يعني، قتلوا ماكار، وها هو ممدد». واشعل عود ثقاب، على عجل، فارى الجد شوكار ممددا على الارض ينظر الي بعين واحدة. والعين الثانية مغمضة. والدم على جبين الجد وخده. واسأله: «هل انت حي؟ واين ماكار؟» فيسألني بدوره: «اندريوشا، قل لي بحق الرب، هل انا حي ام لا؟» وصوته رقيق نحيل وكان العجوز يلفظ انفاسه الأخيرة حقاً... فاهدئه، واقول: «عادمت تحرك لسانك فانت ما تزال حياً لحد الآن. ولكن رائحة الموت تفوح منك...» فبكى بمرارة، وقال: «هذه روحي تطلع من جسدي، هي مصدر هذه الرائحة الثقيلة. ربما ما ازال حياً، ولكنني سأموت قريباً، بالتأكيد. لأن رصاصة تستقر في رأسي».

قاطعه دافيدوف بنفاد صبر:

– ما هذه الشربكة؟ من اين جاء الدم على وجهه؟ انا لا افهم شيئاً! هل هو مجروح ايضا؟

تابع رازميوتنوف ضاحكاً:

– لم يجرح احد، وانجلى الموقف عن لاشيء. طيب، دخلت، واغلقت صفاقة النافذة تحسبا لأي طارىء، واشعلت المصباح. ظل شوكار راقداً على ظهره، كما كان، الا انه اغمض عينه الثانية، وشبك يديه على بطنه. ويرقد وكانه في تابوت، لا يتحرك، كالميت تماما بتمام. ويطلب الي بصوت واهن مؤدب: «اذهب، واستدع زوجتي العجوز بحق الرب. اريد ان اودعها قبل ان اموت».

انحنيت عليه، واضئته بالمصباح – وحمحم رازميوتنوف، وحبس بصعوبة ضحكة توشك ان تفلت – فأرى في ضوء المصباح شظية صنوبر عالقة في جبينه، اقصد في جبين شوكار... والظاهر ان الرصاصة خلعت شظية من اطار النافذة، فطارت الشظية، وارتطمت في جبين شوكار، وخرقت الجلد، فتصور، من حماقته، انها رصاصة فانبطح ارضاً. والعجوز يحتضر امام بصري، والموت بعيد عنه، وانا لا اكاد انتصب بقامتي من شدة الضحك. طرحت هذه الشظية طبعا، واقول للجد: «اخرجت رصاصتك، فانهض الآن، ولا حاجة الى الانبطاح. ولكن قل لي فقط: أين ذهب ماكار؟

وأرى المرح يدب في صاحبي الجد شوكار، ولكنه يخجل، لسبب ما، من النهوض من الأرض امام بصري، فهو يتمرغ على الارض، ولا ينهض. ولكن هذا الشيطان يتعبني بهذره حتى وهو منبطح على الارض اذ يقول لي: «حين اطلق الاعداء علي النار، اصابت الرصاصة جبيني، ووقعت كالشجرة المقطوعة، وفقدت وعي، وفي تلك اللحظة اطفا ماكار المصباح، وانحنى على النافذة، وانسل الى حيث لا ادري. هذه هي صداقتنا، فتفضل. أنا ارقد جريحاً اشرف على الموت، بينما هو يهجرني ليقطعني الاعداء ارباً، ويختفي من

شدة الفزع. ارني، يا اندريوشا، الرصاصة التي كادت تقتلني. واذا كتب الرب لي الحياة فسأحفظها عند زوجتي تحت الايقونة ذكرى خالدة!».

فاقول له: «لا استطيع ان اريك الرصاصة، فهي مغلفة بالدم، وقد تفقد الوعي مرة اخرى، حين تراها. سنرسل هذه الرصاصة الشهيرة الى روستوف لتحفظ في المتحف». فابتهج العجوز اكثر، وانقلب الى جنبه، ويسأل: «طيب، يا اندريوشا، ربما ساحصل على ميدالية من الرؤساء الكبار على جرحي البطولي، وعلى تحملي هجوم الاعداء». وهنا استولى علي الضيق، فاضع شظية الخشب في يده، وأقول: «هذه رصاصتك» وهي لاتصلح للعرض في المتحف. ضعها تحت الايقونة، واحتفظ بها، اما الآن فاذهب الى البئر، واغسل بطولتك، واصلح قيافتك، والا فان رائحتك مثل رائحة قطيسة».

وخرج شوكار الى الفناء، وماكدت اتبعه حتى ظهر ماكار، وله انفاس حصان لاهث، وجلس الى الطاولة، وغرق في صمت. وحين التقط انفاسه قال: «لم اصب الوغد! اطلقت الرصاص مرتين. ظلام، فلم ار الهدف، فصوبت على جذع الشجرة، واخطأت. وقد توقف، وصوب علي النار مرة اخرى. واحسست وكان احدا جذبني من قميصي». وجذب ماكار ذيل قميصه، وبالفعل كان هناك ثقب رصاصة على الجانب الايمن من قميصه فوق الحزام. سالته: الم تحدس من هو الفاعل؟ فيضحك بسخرية، ويقول: «ليست لي عينا البومة، اعرف فقط انه شاب، لانه حرك جداً! فالرجل الذي تجاوز سن الشباب لا يركض بهذا الشكل. لقد طاردته، ولكن لم الحق به. لن تحلق به، ولو على فرس. واقول له: «فكيف تتصرف بهذا الشكل المجازف؟ تنطلق في مطاردة، وانت لا تعرف كم عدد من تطارد؟ فماذا لو كان ثمة شابان آخران مثله في انتظارك وراء السياج؟ وحتى هو وحده، يمكن ان يتركك تقترب، ويطلق عليك النار مواجهة». ولكن هل يعقل انك تستطيع اقناع ماكار؟ فهو يقول لي: «وماذا تريدني ان

افعل، حسب رأيك؟ اطفىء المصباح، واختبىء تحت السرير؟». وهذا كل ما كان. لم يبق لدى ماكار من هذه الطلقة غير الزكام.

– وما علاقة الزكام هنا؟

– ومن يدري، هذا ما قاله لي، وأنا نفسي مندهش. ولكن لماذا تضحك؟ بالفعل اصيب بالزكام بعد هذه الطلقة أنفه يسيل، وهو يعطس عطسات متتابعة، كصليات مدفع رشاش.

– جهل مطبق – قال المحاسب متذمراً، وهو قوزاقي كهل من كتاب الفوج السابقين. رفع الى جبينه، نظارته باطارها الفضي الكاعد من القدم، وكرر بجفاف – الرفيق ناغولنوف يظهر جهله، وهذا كل ما في الأمر.

– الآن يتعين على الجهال أن يتحملوا مسؤولية اكثر – وضحك رازميوتنوف بسخرية – ها أنت متعلم جداً تطقطق بالحاسبة، وتمشق كل حرف تكتبه، ولكنهم لم يطلقوا النار عليك، بل على ناغولنوف – ومضى، مخاطباً دافيدوف – في الصباح الباكر زرته فاجده قد اشتبك في نقاش شديد مع الطبيب لا أول له ولا آخر! الطبيب يقول ان سبب الزكام لدى ناغولنوف أنه أخذ برداً حين كان جالساً الى النافذة المفتوحة في الليل مقابل التيار، بينما يصر ناغولنوف على أن الزكام جاء بسبب مس الطلقة لعصب الأنف. ويسأل الطبيب: «كيف يمكن أن تمس الطلقة عصب الأنف، بينما هي قد مرت اعلى من الأذن، واحرقت الصدغ؟» فيرد عليه ماكار قائلاً: «ليس شغلك كيف مست العصب بينما الحقيقة انها مسته. ولكن شغلك ان تعالج زكام العصب، ولا تناقش فيما لا تعرف».

وماكار عنود كالشيطان نفسه، والطبيب العجوز أسوأ من هذا. فهو يقول: «لا تملأ دماغي بسفاسفك. حين تصاب اعصاب الانسان يرف جفن واحد منه لا جفنان، وخد واحد لا خدان. فلماذا في حالتك هذه لا يرشح منخر واحد من انفك، بل المنخران كلاهما؟ السبب واضح، هو الزكام».

ويصمت ناغولنوف أصغر برهة من الصمت، ثم يسأل: «طبب، يا طبيب الفوج، الم تضرب على اذنك ذات مرة؟»

وللاحتياط اقتربت من ماكار، لامسك يده في اللحظة المناسبة، بينما الطبيب يفعل العكس تماماً، يبتعد عنه قدر الامكان، حتى راح يتلفت نحو الباب، ويقول باصرار: «لا، والحمد لله، لم أضرب. ولماذا تستفسر عن ذلك؟»

ويعود ماكار الى سؤاله: «يعني اذا ضربتك بقبضتي على اذنك اليسرى، فهل تتصور أن الاذن اليسرى وحدها ستصفر؟ كن مطمئناً، فان الاذنين كلتيهما ستصفران، كما في عيد الفصح!»

نهض الطبيب من مقعده، وأخذ ينسل نحو الباب بجنبه، وماكار يقول: «ولكن لا تحتد، واجلس على مقعدك، فانا لا أنوي ضربك اطلاقاً، ولكنني أشرح لك بالمثل، أهذا واضح؟»

ولكن ما الذي جعل هذا الطبيب يحتج؟ فهو على سبيل التحوط اندفع الى الباب، ولكنه بعد كلام ماكار جلس على حافة المقعد تماماً، الا انه ظل يرمق الباب من آونة لأخرى... شد ماكار قبضة يده، وعاينه من مختلف الجهات، وكأنما يراه لاول مرة في حياته، ويعود يسأل: «واذا اهديت لك هذه القبضة للمرة الثانية فماذا سيكون؟» وينهض الطبيب من جديد، ويتراجع الى الباب، ويمسك بمقبض الباب، ويقول: «انت تختلق سخافات. قبضاتك ليست لها أية علاقة بالطب ولا بالاعصاب!» فيعترض ماكار على ذلك قائلاً: «بل لها علاقة كبيرة» ويطلب اليه أن يجلس من جديد، ويجلسه على الكرسي بأدب. ولكن الطبيب في هذه اللحظة يتصبب عرقاً شديداً دون سبب، ويعلن أنه لا وقت له قطعاً، وعليه أن ينصرف فوراً لاستقبال المرضى. الا ان ماكار يقول بصورة قاطعة ان المرضى يمكن أن ينتظروا بضع دقائق، وان النقاش في موضوع الطب مستمر، وأنه، أي ماكار، يأمل بأن يسجل له في المستقبل درجة كاملة في هذا العلم.

ابتسم دافيدوف ابتسامة متعبة، وضحك المحاسب

ضحكة نحيلة شائخة مغطيا فمه بكفه، ولكن رازميوتنوف مضى في كلامه محتفظا بالجدية التامة:

– ويقول ماكار: «اذن، اذا ضربتك للمرة الثانية في هذا الموضع، فلا تتصور ان الدموع ستطفر من عينك اليسرى وحدها، بل ستطفر من كلتا العينين، كما يطفر العصير من طماطة ناضجة، وانا اتكفل بذلك! وكذلك الزكام العصبي. اذا سال المخاط من المنخر الايسر وجب ان يسيل من المنخر الايمن ايضا». واضح: «ولكن الطبيب واتته الشجاعة ليقول: «لاتماحك ارجوك، اذا كنت لا تفقه شيئا في الطب، وتعالج بالقطرات التي اكتبها لك». واذا بماكار يقفز قفزة هائلة! حتى يكاد يصل برأسه الى السقف، ويصرخ وقد تغير صوته: «انا الذي لا افقه في الطب؟! آه، ايها الحقنة القديمة! في الحرب مع الالمان جرحت اربع مرات، واصبت برجتين عصبيتين، وتسممت بالغازات مرة واحدة، وفي الحرب الاهلية جرحت ثلاث مرات، ودخلت ثلاثين مستشفى عسكريا وغيره، ولا افقه شيئا في الطب؟! ولكن هل تعرف، ايها المسهل، اي اطباء وبروفيسورات عالجوني؟ لن تحلم بهم، ايها الابله العجوز، حتى في النوم!» وهنا احتد الطبيب – لا ادري من اين جاءته الجرأة – ويزعق على ماكار قائلا: «وحتى اذا عالجك اناس علماء، فمع ذلك فانت في الطب لاشيء، يا محترم!» فيرد عليه ماكار: «وانت في الطب ثقب فارغ! تستطيع فقط ان تقطع الحبل السري لوليد، وتعدل للشيوخ فتوقهم، بينما معرفتك في الاعصاب معرفة الخروف بالكتاب المقدس! مازلت لم تبلغ في علم الاعصاب اي شأو!».

وتهاوشا على هذا الشكل كلمة تجر كلمة، وخرج الطبيب من حجرة ماكار كبكرة خيوط، وفتر ماكار بعض الشيء، فيقول لي: «اذهب الى الادارة، وساعالج انا نفسي قليلا باشياء بسيطة، واقرك انفي بالسمنة، وآتي حالا». لينك نظرت، يا دافيدوف، باي وجه جاء الى الادارة بعد ساعة! صار انفه ضخما ازرق، كالباذنجان، يتدلى منحرفا الى

جانب. فلا بد انه زله عن موضعه حين كان يدلكه. وسمنة الضان تفوح من ماكار، اقصد من انفه، في كل الادارة. بهذا الشكل ذلك ماكار انفه... وانظر اليه، فياخذني الضحك، صدقني. ان هذا الشاب شوه نفسه تماما! اردت ان اساله ماذا فعل بنفسه، ولكن الضحك يمنعني عن الكلام. ويحتد هو كثيرا، ويسالني: «لماذا تضحك، ايها الابله الاحمق، هل عثرت على زر لامع في الطريق ام ماذا؟ ما الذي افرحك، يا ابن تروفيم؟ ان عقلك مثل عقل تيسنا تروفيم، وبهذا تضحك على الناس المعتبرين!»

وخرج الى الاسطبل، فاتبعه، فاراه ينزل سرجا، ويضعه على الحصان الاصهب، ويخرجه من الاسطبل، وكل ذلك دون ان يقول كلمة. يعني انه غاضب على ضحكي. اساله: «الى اين تنوي؟» فيجيب متجهما: «الى حيث اجد عسلوجا اقطعه واضربك به!». فاساله: «على اي شيء؟». يسكت وسرت لاودعه. وصمتنا حتى وصلنا الى مسكنه. وعند البيت يلقى الي بالمقود، ويدخل البيت لوحده. وبعد برهة اراه خارجا، وقد علق مسدس الناغان على كتفه بالقراب والسير، كما ينبغي، وفي يده قوطة.

قال دافيدوف باندهاش:

– قوطة؟ ولم القوطة؟

– لقد قلت لك ان زكامه شديد لاينفع معه اي منديل وهو يخجل ان يتمخط على الارض على طريقتنا البسيطة، حتى ولو كان في السهب – وابتسم رازميوتنوف ابتسامة خفيفة – انت لا تستطيع ان تستهين به، فهو على كل حال، يتعلم اللغة الانجليزية، ولا يجوز ان يظهر جهالة في الاصول من جانبه... ولهذا اخذ معه قوطة بدلا من المنديل. واقول له: «ضمد راسك يا ماكار، وغط جرحك». فيحتدم هو ويصيح «اي جرح هذا، عليك اللعنة! هل غشيت عيناك فلا ترى ان هذا خدش وليس جرحا؟! انا لا اطيق هذه العواطف النسائية الرقيقة! ساركب حصاني، واذهب الى الفريق، فتجفف الريح الخدش، ويتناثر عليه الغبار، فيندمل، كما يندمل على كلب

عجوز. فلا تحشر نفسك في شؤون الآخرين، واغرب عن هنا بنصائحك البلهاء.

وارى انه قد صار بعد اشتباكه مع الطبيب، وبعد ضحكي متعكر المزاج كثيراً، فنصحته بحذر ان يخفي الناغان ولايظهره للناس. ولكن بلا فائدة! فقد شتمني وقال: «سيطلق علي النار كل من هب ودب، فهل علي ان احمل مقلاع اطفال؟ حملت الناغان في جيبي ثماني سنين، حتى ثقب لي من الجيوب ما لا يحصى، والآن يكفي هذا! منذ هذا اليوم سأحمله علناً فهو ليس مسدساً مسروقاً، بل دفعت من دمي ثمناً له. فهل قدموه لي مجاناً باسم الرفيق العزيز فرونزه، وعلى مقبضه رقعة فضية بالاسم؟ لا، هذا لا يجدي، يا اخ، وتعود تدخل انفك بامور الآخرين». وبعد هذه الكلمات امتطى صهوة حصانه، وانصرف. والى ان غادر العزبة كان مخاطه في الفوطة يسمع كنفخ في بوق. تكلم معه، ياسيميون، حول الناغان. اظهاره غير لطيف امام الناس، على كل حال. وهو يسمع كلامك.

لم تعد كلمات رازميوتنوف تصل الى وعي دافيدوف. فقد اسند هذا خديه على راحتيه، وارتفق بكوعيه، وراح ينظر الى الواح المنضدة المخدشة المغطاة ببقع الحبر، ويتذكر حكاية ارجانوف ويفكر: «طيب، لنفرض ان ياكوف لوكيتش كولاكي، ولكن لم اوجه شكي اليه بالذات؟ انه لا يعمد الى استخدام بندقية، فهو عجوز جداً وذكي، وماكار يقول ان الذي كان يهرب منه شاب، خفيف الرجلين. فماذا لوكان ابن لوكيتش مشتركا مع ابيه في هذا الأمر؟ ومع ذلك لا يجوز خلع ياكوف لوكيتش من وظيفته في الكولخوز بدون ادلة ثابتة. فانا بهذا اخوفه فقط، واذا كان مشتركا في مؤامرة، فانه سيحذر الآخرين. ولكن لوكيتش لن يقوم لوحده على هذا الأمر. فهو شيطان ذكي، ولن يجازف لوحده في مثل هذه الفعلة. يعني يجب الاستمرار معه كالسابق دون اي تلميح للشك فيه، والا يمكن ان يهدم القضية كلها. اللعبة اخذت تكشف اوراقها. ويجب السفر سريعاً الى مركز

المنطقة، والتحدث مع سكرتير لجنة الحزب المنطقية ورئيس لجنة أمن الدولة هناك. لجنتنا تصفق يديها، بينما عندنا اخذوا يصفقون بالبنادق في الليل. اليوم صوبوا على ماكار، غدا يستهدفونني او رازميوتنوف. لا، هذا لا ينفع. واذا لم نتخذ اجراء، فان احد الاوغاد يمكن أن يصفينا في ثلاثة ايام... ومع ذلك فمن المستبعد أن يتورط لوكيتش بلعبة معاداة الثورة. فهو شديد الاحتراس حقيقة! ثم ماذا سيكسب من هذه الفعلة؟ فهو يعمل مديراً لشؤون الاقتصاد، وعضواً في ادارته، ويعيش بشكل جيد، وفي كفاية. شيء يجعلني لا اصدق بانه حن الى العهد القديم. اذ لا عودة الى العهد القديم، ولابد ان يكون مدركا لذلك. شيء آخر لو كنا نحارب الآن احد جيراننا، عندئذ يمكن ان ينشط، اما الآن فلا اصدق بانه فعال الآن».

قطع رازميوتنوف تأملات دافيدوف. فقد ظل ينظر بصمت وقتاً طويلا في وجه صديقه الناحل، وبعد ذلك سأل بطريقة عملية:

– هل فطرت اليوم؟

– فطرت؟ ولم؟ – اجاب دافيدوف ذاهلا.

– انت نحيف، ونحيف جداً! ليس غير عظمي الوجنتين بارزين وحتى هاذان محروقان من الشمس.

– عدت الى القديم؟

– لا، ابداً. بل اقول جاداً، صدقني!

– لم افطر. لانه لم يكن لي وقت، كما ليست لي شهية. انظر اي حر شديد منذ الصباح.

فاقترح رازميوتنوف:

– ولكنني اشعر بجوع. تعال معي، يا سيميون، نتناول شيئاً قليلا من الطعام.

وافق دافيدوف في غير ما رغبة.

خرجا الى الفناء سوية، فاستقبلتهما ريح من السهب لافحة جافة حارة مشبعة بالافسنتين.

توقف دافيدوف قرب باب السياج، وسأل:

– بمن تشك، يا اندريه؟

رفع رازميوتنوف كتفيه، وبسط ذراعيه ببطء.

– الطاعون يعرف بم اشك! كم مرة فكرت في الأمر، ولم اهتد الى احد. استرجعت في ذهني كل القوزاق في العزبة، فلم اظفر بجدوى. قذفنا شيطان بلغز، والآن أجهد مخك لتحله. جاء رفيق من لجنة الأمن في المنطقة، وراح يحوم حول منزل ماكار، يسأل ماكار ويستجوب الجد شوكار، وربة البيت الذي يسكنه ماكار، ويستجوبني، ويفحص الخرطوشة التي وجدناها، ولكنها بلا علامة... فانصرف كما جاء. ويقول: «لابد أن عدوا تسلل اليكم» فيسأله ماكار: «وهل حدث أن أطلق اصدقاء النار عليك، يا ذكي؟ انصرف الى حيث! فنحن نستطيع ان نعقب الأمر بدونك». فصمت هذا الرجل العجيب، ونخر من انفه فقط، وركب حصانه وانصرف.

سأل دافيدوف باحتراس:

– ما رأيك، الا تظن أن اوستروفتوف يمكن ان يقدم على هذه الفعلة؟

الا ان رازميوتنوف الذي كان يهم برفع مزلاج الباب ارخى يده بدهشة، وضحك:

– هل فقدت عقلك؟ ياكوف لوكيتش؟ واي وسواس خناس يجعله يقدم على هذه الفعلة؟ ثم انه يخاف حتى من صريف عجلة، بينما أنت تلفق له هذا الهراء! يقطع رأسي اذا يقدم على هذه الفعلة... كل شخص الا هو.

– وابنه؟

– اخطات التصويب ايضا. وعلى هذا يمكنك ان تشير باصبعك الي ايضا. لا، اللغز أصعب من هذا... لغز وراءه سر.

اخرج رازميوتنوف علبة تبغه، ولف سيكارة، ولكنه دعك اللفافة، حين تذكر انه قبل يومين اصدر توجيها يمنع على ربات البيوت تدفئة المواقد نهارا، وعلى الرجال التدخين

في الشارع. وحين راى نظرة دافيدوف المتحيرة اجاب بسهوم، وكانما يقول لنفسه، عن شيء خارجي:

– تصدر توجيهات حمقاء مختلفة! لا يجوز التدخين في الفناء، تعال الى بيتي لندخن.

* * *

قدمت والدة رازميوتنوف العجوز للقطور عصيدة القمح الخفيفة الطعم قليلا بسلاء الخنزير على طريقة المعوزين، وكان دافيدوف قد زهد فيها، ولكنها حين حملت من حديقة الخضروات طاسة من الخيار الطازج التهش دافيدوف. اكل بتلذذ خيارتين فواحتين بالارض والشمس، وشرب شراب الفاكهة المسلوقة، ونهض من وراء المائدة:

– شكرا، يا ام، على اشباعي. وعلى الخيار بشكل خاص. لاول مرة في هذا العام أتذوق الخيار الطازج. جيد بلا شك، حقيقة!

اسندت العجوز خدها على كفها بحزن، وكانت في العادة رقيقة فياضة في الحديث.

– ومن أين تتوقع الخيار، يا صاحبي؟ أنت غير متزوج؟

– لم اتاهل بعد لا وقت لي، – ابتسم دافيدوف.

– ومادام ليس لك الوقت لتحصل على زوجة، فلا تتوقع الحصول على خيار طازج، فليس شغلك أن تزرع ونهتم بالزرع؟ ها هو ابني اندريوشا بقي بلا زوجة. ولو لم تكن له ام ترعاه لتضور جوعا. ولكن امه تطعمه بشكل من الاشكال. حين انظر اليكم تاخذني الحسرة. اندريه يركب زلاجة العزاب وماكار وانت ايضا. كيف لا تستحون، انتم الثلاثة؟ ثلاثة ثيران اصحاء تسيرون في العزبة ولا توفقون في ايجاد زوجة. هل معقول ان اي واحد منكم لا يريد أن يتزوج؟ هذا عيب، وخزي!

– مازح رازميوتنوف امه ضاحكا.

– لا تقبل بنا امراة، يا أم.

– ولن تقبل بكم، اذا ظللتم عزابا بهذا الشكل خمس

سنوات اخر. ثم اي نفع لاية امراة بكم اذا شختم، ودع عنكم الفتيات، فقد فات الاوان عليكم لخطوبتهن!

– الفتيات لا يقبلن بنا، لاننا شختا، كما تقولين، والارامل لسنا بحاجة اليهن. لنطعم اطفال الآخرين؟ ليس منهم غير التعب.

كان هذا الحديث، على ما يبدو، غير جديد عليه، الا ان دافيدوف اعتصم بالصمت، واحس بشيء من الحراجة.

استاذن دافيدوف من اهل البيت المرحين وشكرهم، وخرج الى محل الحدادة. فقد كان يريد قبل وصول اللجنة، ان يتفقد بنفسه، وكما ينبغي، الحاصدات التي اصلحت لحش العشب، ومدمة الخيول، لاسيما وان جزيئة من جهده قد وضع في هذا العمل.

الفصل العاشر

استقبله محل الحداد القديم الواقع عند طرق العزبة بروائحه واصواته المالوفة. كانت المطرقة، كالعادة، تطرق وترن في يدي ايبوليت سيدروفيتش، مستجيبة لكل حركة من حركاته. سمع دافيدوف، وهو ما يزال بعيداً، غرغرات المنفاخ الهرم، يؤدي آخر ما تبقى له من مهمة، وتسللت كالسابق، من الباب المفتوح على مصراعيه الرائحة المرة للفحم المحروق، وتلك الرائحة الاخرى العجيبة العالقة في الذهن، والمنبعثة من سقط الحديد الفاتر.

كان محل الحداد المنعزل في وسط خلاء مقفر. وكانت رائحة غبار ساخن ونبات رجل الوز، تفوح من الطريق المطروق على مقربة. وكان الهلب البري والاعشاب تطلع من الحث المدكوك المتماسك على سطح الحدادة المصنوع من الاغصان المضفورة الهابطة. تنبش فيه عصافير جمة تعيش دائما تحت روافد هذا المحل القديم، حتى في الشتاء، وكانت زغردتها المستديمة تبدو، وكأنها ترديد لطرق المطرقة الحي الرنان، ولرنين السندان.

استقبل شالي الحداد دافيدوف كصاحب قديم. وكان يحس بالوحشة من قضاء أيام كاملة لايرى غير مساعده الصبي، فلاح السرور واضحاً بمجيء دافيدوف. قال مرحاً بصوته العالي النبرة، ومد له يده القاسية الصلبة كالحديد:

– منذ زمان لم تاتنا، يا رئيس! تنسى البروليتاريا، ولا تاتي لزيارتها. صرت متكبراً، يا فتى، على ما يبدو. ماذا وراءك، هل جئت للزيارة؟ لا أظن! جئت لترى الحاصدات، انا اعرفك، يا فتى! طيب، لنذهب حتى تلقى نظرة. صفقتها، وكانها في عرض، مثل القوزاق اثناء التفتيش. لنذهب، لنذهب، شرط الا تماحك. من قبل كنت تعمل مساعداً عندي، والآن انت صاحب الامر والنهي.

تفحص دافيدوف كل حاصدة بعناية ولوقت طويل. ومهما كان مدققاً في فحصه، لم يجد مآخذاً، ما عدا اثنين او ثلاثة من النواقص الطفيفة. ومع ذلك فقد كدر الحداد العجوز تكديراً غير قليلا. كان هذا ينتقل من حاصدة الى اخرى وراء دافيدوف، ويمسح بمئزره الجلدي العرق من وجهه المحمر، ويقول متذمراً:

– صرت صاحب امر متشدداً جداً. كما أن غمزاتك لا معنى لها... طيب، ماذا تتشمم هنا؟ وهل انا عندك غجري؟ طرق بمطرقته وطبطب حسبما اتفق، ثم صعد الى هودجه، وحرك حصانه ومع السلامة. ومنذ ذلك الحين لم يعثر له على اثر؟ لا، يافتى، كل شيء صنعته انا بنزاهة، وكانه لنفسي، ولا حاجة الى تلمس السقطات هنا، واختلاق العثرات.

– انا لا اختلق العثرات لك، يا سيدروفيتش. فما هذا الذي تقوله؟

– لو كنت تتفقد بلا مماحكات، لانتهيت من التفقد منذ زمان. بينما اراك تحوم حول كل حاصدة، تتشمم كل شيء، وتتلمس كل شيء...

فرد دافيدوف مازحاً:

– شعاري كالآتي: صدق بعينيك، وتلمس بيديك.

الا انه حين صار يعاين بتدقيق شديد حاصدة قديمة كسيحة كانت قيل ضمها الى الكولخوز، تعود الى انتيب غراب القيظ، شاع المرح في الحداد شالي، وزال التذمر عنه، بلمح البصر امسك لحيته بقبضته، وغمز لشخص غير معلوم، وقال بتهكم باسماً بسمة ساخرة: – انبطح، انبطح على الارض، يا دافيدوف! لماذا تدور حولها كالديك؟ انبطح على بطنك، جرب العارضة الحديدية بسنك. فلماذا تتلمسها كما تتلمس فتاة؟ جربها بسنك! كل هذا وتحسب نفسك حداداً! معقول انك لا تحدس عملك؟ هذه الحاصدة صلحتها انت بنفسك! وأقول لك بصدق، يا فتى، هذا عملك حقاً، وانت لا تستطيع أن تتبينه وتحدسه. بهذا الشكل، يا عم، اذا تتزوج في المساء، لن تعرف زوجتك العروس في صباح اليوم التالي...

ارتاح شالي لنكتته فارسل ضحكة مصمة، وتنحنح، وهز ذراعيه، الا ان دافيدوف لم يتكدر قط وأجاب:

– عبث ضحكك هذا، يا سيدروفيتش. فقد عرفت في الحال هذه الحاصدة الهزيلة المتوسطة، وعملي فيها ايضا وانا اتفحصها بكل دقة، حتى لا تخذلنا عند الحصاد. فلا تحصل حادثة لهذه الحاصدة الكسيحة، وستكون اول من يقول: «ها انا وثقت بدافيدوف فاعطيته المطرقة والكلابتين، فانظروا ماذا فعل» الا تقول ذلك؟

– نعم، بالطبع. وكيف خلافه؟ كل شخص مسؤول عن عمله.

– وانت تقول: «لم تحدس». لقد حدستها، ولكن الانسان يتشدد في عمله اكثر.

– يعني انت نفسك لاتثق بنفسك؟

– يحدث احياناً...

– وهذا افضل، يا فتاي – وافق الحداد وقد اكتسى جدية فجاة – عملنا في الحديد ذو مسؤولية. ولا تستطيع أن تكسب المهارة فيه حالا، لا، ابداً. ولا عجب ان يتردد هذا المثل بيننا نحن الحدادين «ثق بسندانك، وبيدك وبمطرقتك، ولكن لا تثق بعقلك وتدبيرك، منذ صباك». ولا

فرق في ذلك بين مصنع كبير وورشة حدادة صغيرة. كل عمل ذو مسؤولية، وانا اقول لك ذلك بصورة قاطعة. في العام الماضي آويت في بيتي مدير تموين الجلود للمقاطعة، حين عينوه ممثلا لها في عزبتنا. وقد استقبلناه انا وزوجتي استقبالا جيداً، كابن لنا، الا انه لم يبادلني ولم يبادل زوجتي كلمة واحدة. فقد اعتبرنا أحط منه. فكان يجلس الى المائدة في صمت، وينهض من وراء المائدة في صمت... ويأتي من متوفيت القرية صامتاً، ويخرج صامتاً. وكلما سألته بالسياسة أو الزراعة دمدم قائلا: «ليس شأنك، يا عجوز» فينتهي حديثنا الى هذا الحد. ومكث نزيلنا عندنا ثلاثة أيام هادئا وديعاً صموتاً. وفي اليوم الرابع انتبا يتحدث... في الصباح يعلن لي بكبرياء عظيمة: «اخبر امراتك العجوز ان تجلب البطاطس لي على صحن، وليس على المقلاة، وان تضع منديل طعام على المائدة وليس ممسحة صحون. فانا رجل متعلم، ومسؤول في المنطقة، ولا احب المعاملة المنحطة».

اغتظت منه اغتياظاً تاماً، فاقول له: «انت قملة منتنة وليس انساناً متعلماً! فاذا كنت متعلماً فكل في الاناء الذي يقدم لك، وامسح بوزك بما يقدم لك، ومناديل المائدة لم تدخل هذا البيت منذ ولادتنا، اما الصحون فقد كسرتها العجوز كلها مع الاستعمال. وانا لا آخذ منك فلساً واحداً. وزوجتي لا تعرف كيف ترضيك، اين تجلسك، واي فراش وثير توفر لك في الليل. بينما انت ترفع علينا انفك اعلى من السقف. «انا صاحب مسؤولية!» فاساله: «اي صاحب مسؤولية انت؟ شغلك في جلود الأرانب والسوالق فقط، وهذه هي مسؤوليتك. لست صاحب مسؤولية، بل انا صاحب مسؤولية، عامل كادح! انا الشخصية الاولى في العزبة بعد رئيس الكولخوز وسكرتير الخلية الحزبية، لانه لا غنى عني في حراثة أو حصاد. لانني اتعامل مع الحديد، بينما انت تتعامل مع الجلود، فأينا اكبر شاناً؟ انت تعتبر نفسك مستخدماً مسؤولا، وانا ايضاً. فكيف نتعايش، ونحن

مسؤولان، تحت سقف واحد؟ لا نتعايش! فخذ محفظتك، يا عزيزي، وارحل الى حيث تشاء، فانا لست بحاجة قطعاً الى رجل متكبر مثلك».

قلص دافيدوف عينيه، حتى كادت مقلتاه تختفيان وراء الشقين الضيقين. وسأل بهدوء، وصوته يهتز من الضحك:

– وطردته؟

– كلياً! وفي الحال! انصرف، ولم يقل شكراً على الملح والخبز، هذا المسؤول ابن الكلبة.

– هذا حزم منك، يا سيدروفيتش!

– ليس في هذا حزم كثير، ولكن كنت اشعر بالاهانة من تحمل هذا النزيل.

وبعد استراحة قصيرة واصل دافيدوف تفقد الآلات الزراعية، ولم يفرغ منها الا بعد الظهر. ولدى توديعه لشالي شكره بشعور غامر على عمله المخلص، واستفهم:

– كم سجلوا لك من ايام عمل على التصليح؟

تعبس الحداد العجوز، وادار عنه وجهه:

– وكان ياكوف لوكيتش يغدق في التسجيل.

– وما علاقة لوكيتش في هذا الأمر؟

– هو الذي يضع معاييره لمسجل اوقات العمل، فيسجل هذا ما يقوله ذاك.

– ولكن كم، على اية حال؟

– لا شيء تقريباً، يا فتاي... اقل من القليل.

– وكيف هذا؟ لماذا؟

ان الحداد السمح في العادة كان يبدو في هذه المرة حانقاً، وكأنما لا يواجه دافيدوف، بل ياكوف لوكيتش نفسه.

– لانهم لا يريدون ان يأخذوا عملي بالحسبان. فاذا قضيت يوماً في محل الحدادة سجلوا لي يوم عمل واحداً، سواء لديهم ان اعمل هناك ام ادخن السكائر. من الممكن ان اقوم من التصليح خلال يوم ما يساوي خمسة أيام عمل، ولكنهم يسجلون يوم عمل واحداً. وعسى ان تقصف ظهرك امام السندان ولكن لن تحصل الا على يوم عمل واحد. وهكذا

يا فتاي لن يستطيع الانسان، باجرة يومه، ان يحظى بشبع البطن ويعيش، ولا يميل نفسه الى الزواج!

قال دافيدوف بحدة:

– هذه ليست أجرتي! هذه ليست اجرة كولخوزية! ولماذا لم تخبرني من قبل عن هذه القباحة؟

تخلخل شالي، واجاب بعدم رغبة ظاهرة:

– كيف اقول لك، يا فتاي، يبدو انني كنت اخجل. يبدو كنت استحي. فكرت في ان اشكو اليك كلياً، ولكنني فيما بعد فكرت انك ستقول: «انظروا اي بشع هو، لايرضى باي شيء...» ولهذا سكت. ولكنني الآن اتكلم واقول اكثر. انهم حسب هواهم لا يسجلون الا العمل الذي يظهر امام العين، مثال ذلك اصلاح المحاريث، والمعازق وباختصار الآلات المنظورة، ولكن حين يتعلق بالاشياء الصغيرة، مثل تنعيل حصان، او صنع حدوات للخيول او سلاسل، وسقاطة لباب الشونة، فانهم لايسجلونها، ولا يحبون ان يسمعوا عنها. وانا اعتبر ذلك غير صحيح، لأن مثل هذه الاشياء الصغيرة تستغرق وقتاً طويلاً.

– مرة أخرى تقول «هم». من «هم» هؤلاء؟ المسجل وحده يسجل أيام العمل، وهو في ذلك مسؤول امام الادارة، – قال دافيدوف ذلك في ضيق.

– المسجل يسجل الارقام، ولوكيتش يعدل فيها. انت تحكي لي كيف ينبغي ان يكون التسجيل، بينما انا اصفه كما هو في واقع الامر.

– سيبي، جداً، لو كانت كذلك في واقع الأمر.

– هذا ليس ذنبي، يا فتى، بل ذنبك.

– انا اعرف، بدوني، انها ذنبي. يجب اصلاح الأمر، وباسرع وقت، غداً سادعو لاجتماع الادارة، وسنستفسر عن ذلك من ياكوف لوكيتش... سأتحدث معه كما يجب ان يكون الحديث!

قال دافيدوف ذلك بحزم. ولكن شالي اكتفى بان ابتسم ابتسامة ساخرة في لحيته:

– وليس هو الشخص الذي يجب ان تتحدث معه...
– مع من، في رايك؟ مع المسجل؟
– معك.
– معي؟ احم، طيب، تعال.
نظر شالي الى دافيدوف من قدميه الى رأسه، وكأنما يحاول ان يزن قوة صاحبه، وقال ببطء:
– تماسك، يا فتى! اريد ان اقول لك كلمات تكدرك... وماكنت اريد ذلك، ولكن يجب. اخاف ان لا يجرأ آخرون ان يقولوها لك.
– هات، هات – شجعه دافيدوف وهو في الوقت ذاته يحس في سره بأن الحديث لن يكون من الاحاديث اللطيفة له، والاكثر من ذلك كان يخشى أن يتطرق شالي في كلامه الى علاقته بلوشكا.
ولكن شالي، خلافا لتوقعات دافيدوف، بدأ حديثه عن شيء آخر:
– من حيث المظهر يراك الناظر اليك رئيساً حقيقياً ولكن اذا تعمق النظر اكثر لايجدك رئيساً للكولخوز بل تابعاً، اذا صح القول.
هتف دافيدوف بمرح متصنع بعض الشيء:
– هذا شيء لطيف.
– ليس لطيفاً جداً – مضى شالي يقول بخشونة – لا شيء من اللطف قطعاً، وانا اقول ذلك قطعاً. ها انت تزحف تحت الحاصدات، وتتفقدها كأحسن ما ينتظر من صاحب عمل جيد، وتعيش في الحقل، وتحرث بنفسك، أما مايجري عندك في الادارة فلا ترى اي جزء ضئيل منه، ولا تعرف. الاحرى بك ان تقلل من بقائك في الحقل، وتكثر من وجودك هنا، في العزبة، عندئذ ستتسير الأمور سيراً احسن. والا فانت حارث، وحداد، وباختصار، كما في الاغنية: «سبع صنائع...» بينما اوستروفنوف يدير امر الكولخوز كله بدلا منك. اوقعت عصا السلطة من يدك فالتقطها اوستروفنوف...
قال دافيدوف بجفاف:

– استمر في كلامك، استمر ولا تخجل!
– اقدر ان اواصل. – وافق شالي برضى. واستقر في جلسته على خشبة حاصدة، وأومأ الى دافيدوف يدعوه الى الجلوس الى جانبه، وحين لاحظ صبي الكور من باب محل الحدادة يتسمع الى حديثهما، طبطب بقدمه، وصاح بضراوة: – اخرج من هنا، يا عفريت! الا تجد لك ما تفعله؟ يجب ان تستمع الى كل شيء، يا ابن الخنزير. ساخلع حزامي واسوطك به، واضربك على اذنك، اذن الماعز، وعندئذ ستعرف! ساطبق اذنيك الاثنتين في الحال. قل لي بحق الرب الى اي حد عاطل هذا الولد!
وثب صبي ملطخ الوجه كالفار الى اعماق محل الحداد المظلم، وعيناه الصغيرتان الضاحكتان تبرقان، وتردد هناك في الحال حسيس المنفاخ المبحوح، ولمع اللهب الاحمر طالعا من عنق الموقد. وعاد شالي يبتسم بطيبة قلب ويقول:
– انه يتيم أعلمه فن الحدادة. ما من واحد من الشبان الكبار الملاعين يقبل على الحدادة. اطلقت السلطة السوفيتية الحبل على غاربهم تماما! كل واحد يحلم بان يكون طبيبا او مهندسا زراعيا او في اية حرفة هندسية اخرى. ولكن ماذا يحدث لو متنا جميعا، نحن الشيوخ؟ من سيصنع للناس الاحذية، ويخيط الثياب، وينعل الخيول؟ وانا ايضا ليس لي بديل في الحدادة، الجميع يفرون من دخان الحدادة كما تفر الشياطين من البخور. فاضطررت ان آخذ فانياتكا هذا. ان هذا العفريت مقتدر حقا، وقد تحملت منه من الطغيان ما لا يعد ولا يحصى! مرة ينسل الى حديقة آخرين صيفاً، فاتحمل انا جريرته، ومرة يترك الفرن، ويلعب مع العاطلين، ومرة يصنع مالا فائدة منه لشيء. وكانت عمته التي يعيش عندها لاتستطيع كبح جماحه، فكان علي ان اتحمل طغيانه واصطبر عليه. واكتفي بتقريعه وتوبيخه، فان يدي لاتطاوعني لارفعها على يتيم. هذه هي المسالة، يافتى، وهي مسالة صعبة، صعبة ان تعلم اطفال الآخرين، لاسيما اذا كانوا يتامى. ولكنني، خلال حياتي، جعلت حوالى عشرة منهم حدادين

حقيقيين تماماً! والآن تجد تلامذتي في توبيانسكوي وفويسكوفوي، وفي عزب أخر يعملون في مشاغل الحدادة هناك بل أن أحدهم يعمل في مصنع في روستوف. وهذا ليس بالأمر الهين، يا صاحبي، فانت نفسك كنت تعمل في مصنع، وتعرف من الذي ياخذون للعمل هناك، ومن الذي لا ياخذون. وما يجعلني فخوراً رغم أن حياتي في آخرها، أن تلامذة حرفتي اكثر من عشرة في هذا العالم، اصحيح ما افكر فيه؟

– تعال نفكر في الموضوع. واية نواقص اخرى تجدها في عملي؟

– عندك نقيصة واحدة: أنت رئيس في اجتماعات الكولخوز فقط والرئيس في العمل اليومي هو اوستروفنوف. وهذه المصيبة في كل شيء. انا افهم بالشكل الآتي، منذ الربيع كان عليك أن تعيش مع الحراث، وتضرب لهم المثل كيف يجب العمل في الاستثمارة الجماعية، وأن تتعلم انت الحراثة، فهو شيء لايضر برئيس الكولخوز. ولكن لماذا تضيع وقتك الآن هناك، في الحقل، انا لا افهم ذلك اطلاقاً. هل المعقول أن مدير المصنع الذي كنت تعمل فيه يقف أياما كاملة وراء المخرطة؟ لا اراني قادراً على التصديق بذلك.

وتحدث شالي طويلا عن متاعب الكولخوز، وعن اشياء لم تعد منظورة بالنسبة لدافيدوف، وعن اخرى يخفيها عنه ياكوف لوكيتش والمسجل ومسؤول المخازن بعناية بما يبدونه من اهتمامات. ولكن القصة وكل ما فيها كانت تدل على أن العقل المدبر لكل هذه الامور المريبة منذ بداية تاسيس الكولخوز كان ويظل حتى يومنا هذا هو ياكوف لوكيتش الهادىء في مظهره.

– ولماذا لم تتكلم مرة واحدة في الاجتماع؟ معقول ان قضية الكولخوز ليست عزيزة عليك؟ وتقول: «انا بروليتاري!» واي بروليتاري أنت، اذا كنت تكتفي بالهمس ولا ترفع صوتك، وفي الاجتماعات لايستطيع احد أن يبحث عنك الا بمصباح؟

احنى شالي رأسه، وصمت طويلا، وادار نصل عنب

مقطوع، فبدا غريباً جداً هشاً خفيفاً – في أصابعه الضخمة السوداء غير المعكوفة تقريباً حتى وجد دافيدوف نفسه يبتسم دون ارادته. تفرس شالي في شيء تحت قدميه، وكان جوابه كان متوقفا على تفرسه هذا. وبعد صمت طويل سأل:

– في الربيع طرحت في الاجتماع فصل اتامنتشوكوف من الكولخوز.

– لقد طرحت هذه المسالة. ثم ماذا؟

– وهل فصل؟

– لا. ومع الأسف. كان يجب ان يفصل.

– دع الأسف جانباً. فليس في ذلك جوهر الأمر...

– فيم اذن؟

– وهل تتذكر من وقف ضد ذلك؟ لا تتذكر؟ اذن، سأذكرك. وقف اوستروفنوف وافونكا امين المخزن، وليوشنيا وحوالى عشرين شخصاً آخر. هم الذين ابعدوا نصيحتك الجيدة، وحولوا الناس ضدك. يعني أن اوستروفنوف ليس وحده الذي يعمل. اهذا مفهوم لك؟

– واصل.

– ويمكن أن اواصل. اذن، انت تسال لماذا لا اتكلم أنا في الاجتماعات؟ اتكلم مرة ومرتين وفي المرة الثالثة لا الحق أن اتكلم. سأقتل في ورشة الحدادة هذه، وبنفس قطعة الحديد التي كنت احميها على النار، واطرقها بين يدي، وبذلك تنتهي خطاباتي. لا، يا فتى، شخت على الخطابة، فاخطبوا انتم وحدكم، فانا ما ازال احب أن أشم رائحة الحديد المحمي في الفرن.

– انت يا اب، تبالغ في الخطر، حقيقة! – قال دافيدوف في غير وثوق، وهو ما يزال كلياً تحت تاثير ما حكاه الحداد.

الا أن الحداد أمعن النظر في دافيدوف بعينيه السوداوين الجاحظتين، وقلصهما بطريقة ساخرة.

– بسبب شيخوختي وضعف بصري يمكن ان ابالغ، كما تقول، ولكن انت، يا فتاي، لا ترى اخطارهم بالمرة.

مشاويرك الشبابية اغشت على بصرك تماماً. وما اقوله لك صدق وحق.

لزم دافيدوف الصمت. لقد جاء الآن دوره ليفكر، وفكر طويلا، ومثلما كان شالي يدير في يديه قبل هذا عشباً، صار دافيدوف أيضاً يدير في يديه لا عشباً هشاً، بل قالوطا صدئاً التقطه من الأرض. والكثيرون في لحظات التفكير يشعرون بهذا الدافع غير المفسر لأن يديروا او يعبثوا بأول شيء تقع عليه ابصارهم...

كانت الشمس قد نزلت من سمت الظهيرة منذ وقت طويل. وتناوبت الظلال، وكانت اشعة الشمس الحارة المائلة تسفع ساخنة سطح ورشة الحدادة المغطى بالروث وعثب البراري المخسوف، والحاصدات الواقفة على مقربة، والعشب المترب قرب الطريق. كان سكون الظهر الجامد يخيم على غريمياتشي لوغ، وكانت صفاقات البيوت مغلقة، والشوارع مقفرة، وحتى العجول التي كانت منذ الصباح تتجول في الازقة بكسل، انحدرت نحو النهر، وتوارت في الظل الكثيف لأشجار الصفصاف. بينما ظل دافيدوف وشالي في مجلسهما الأول في الشمس.

– لندخل الى الورشة، فهناك الجو ابرد، فانا لست متعوداً على مثل هذه الشمس – قال شالي ماسحاً العرق من وجهه وصلعته، ولم يتحمل الحر – الحداد العجوز كالسيدة العجوز. لا احد منهما يحب الشمس. كل حياتهما يقضيانه في الطراوة، كل يترطب على طريقته.

انتقلا الى الظل. جلسا على الارض الدافئة من الجهة الشمالية للورشة. اقترب شالي من دافيدوف تماماً، وظن طنين نحلة تشربكت في لبلاب.

– الم يقتلوا خوبروف مع زوجته؟ قتلوهما، ولأي شيء قتلوهما؟ بسبب عربدة سكر؟ لا، يافتى، لا، على الاطلاق... ان وراء ذلك لسراً. فالانسان لايقتل بدون سبب. وانا بعقلي العجوز الأحمق أتصور كالآتي: لو كان غير ملائم للسلطة السوفيتية لاعتقل واعدم بناء على حكم صادر،

وليس خفية، واذا كان قد قتل خفية، خلسة، في جنح الليل، ومع زوجته علاوة على ذلك، فمعنى ذلك انه غير ملائم لاعداء السلطة السوفيتية، ولا تخريج آخر للمسالة! اسالك لماذا قتلوا زوجته؟ حتى لا تشي بهؤلاء القتلة الى السلطة السوفيتية، فقد كانت تعرفهم بالوجه! والموتى لاينطقون، ويقتلهم اطمئنان اكثر، يا فتى... ولا يمكن أن يكون تخريج آخر، وانا اقول لك عن صدق وحق.

– لنفرض اننا بدونك نعرف كل شيء عن هذا، ونحدسه، طيب من القاتل؟ لا احد يعرف اذا اردت الحقيقة. – وصمت دافيدوف قليلا، وقام بحركة ماكرة، واضاف: – ولن يعرفها أحد ابداً.

بدا شالي وكأنه لم يسمع جملته الأخيرة. قبض في يده على لحيته الكثيفة الشائبة، وابتسم ابتسامة عريضة:

– ما الطف الجلوس هنا في الطراوة. في زماني القديم حصل لي هذا الحادث، يا فتى. قبيل الحصاد صفحت باطواق الحديد، العجلات الاربع لعربة رجل غني من القرم. وقد جاء لياخذ العجلات في يوم من ايام العمل الاسبوعية، وكان يوم صيام، على ما أتذكر، اما يوم اربعاء او جمعة. وقد دفع اجرتي، واثنى على عملي، وطلب أن نحتسي قدحاً، دعا الذين كانوا يسوقون خيوله ليشربوا ايضا، وشربنا. ثم دعوتهم انا للشرب. فشربوا أيضا. كان رجلا غنياً اوكرانياً، ولكنه في طيبة النفس ندرة من بين الاغنياء من امثاله. وطرا في ذهنه أن يجعل يومه يوم خمر. بينما انا مشغول بعملي، في اشد اوقاته حدة، لدى شتى انواع الطلبات. فاقول له: «تروفيم دينسوفيتش، اشرب مع شغيلتك، واستمر فيما انت فيه، واعفني انا، يا رجل، فالعمل كثير ولا استطيع». يوافق على ذلك. واستمروا في احتساء الفودكا، وذهبت انا الى ورشة الحدادة. ورأسي يطن، ولكنني اقف على قدمي بصلابة، كما ان الصلابة لم تخن ساعدي ايضاً، ومع ذلك فقد كنت سكران تماماً، بصراحة. وفي تلك اللحظة المنحوسة تتوقف عند الورشة عربة ترويكا ذات اجراس. اتطلع فارى

سيليفانوف مالك الاراضي المعروف في منطقتنا كلها جالساً في حوضها المضفور تحت المظلة. انه متكبر رهيب، وكلب لم تشهد له الارض مثيلا... وحوذيه – ابيض كالجص، ويداه ترتجفان – يفك المشدات من الحصان الايسر ولم ياخذ للامر اهبته فانخلع نعل الحصان في الطريق. فيصرخ سيده به: «انت يا ابن كيت وكيت. سأطردك. ساسجنك. ستجعلني افوت موعد قطاري» وما الى ذلك ولكن قوزاقنا في الدون في عهد القياصرة لم يكونوا يحنون ظهورهم كثيراً، امام اصحاب الأراضي، يا فتى. وامام سيليفانوف هذا لم اكن اعبأ بشيء، رغم انه كان اغنى صاحب اراض. طيب، خرجت، لاتطلع، والفودكا تشيع المرح في صدري، واقف عند الباب، واسمعه يقذف حوذيه باقذع الشتائم. ويأخذني الغيظ منه تماماً، حتى توهجت. ويراني سيليفانوف ويصيح بي: «هاي، يا حداد، تعال هنا!» اردت ان اقول له: «انت الذي تريدني، فتعال انت» ولكنني نويت على شيء آخر: ان اذهب اليه، وابتسم، كما ابتسم لأخ حميم. فتقدمت من العربة، وامد يدي، واقول: «مرحباً، يا أخ! كيف الصحة والأحوال؟» واذا من شدة دهشته تقع نظارته الذهبية من انفه، ولو لم تكن مربوطة بخيط اسود لتهشمت حتماً ويعيد هذه النظارة على انفه، بينما اظل على حالي مبسوط اليد، ويدي سوداء، كالسخام، أوسخ من الوساخة. أما هو فيتظاهر بانه لا يرى يدي، وقد تعبس وجهه، وكأنما اكل شيئاً مرا، ويثرثر من خلال أسنانه: «هل انت سكران؟ الى من تمد طلفك، ايها البوز القذر؟» فاقول: «وكيف لا اعرف؟ انا اعرف جيداً. فانا وانت، على حد القول القائل، شقيقان، انت تحتمي تحت المظلة عن الشمس، وانا في ورشة الحدادة، تحت السقف الترابي. وملاحظتك صحيحة: انا اشرب في يوم عمل، اما انت فلا اظنك تشرب في ايام الأحاد فقط كالعامل الكادح، فان انفك احمر من ادمان الخمر... ويعني هذا انا وانت من سلالة اشراف، وليس كالآخرين. واذا كنت تستنكف من أن تأخذ يدي لتصافحها، لأنها سوداء

ويدك بيضاء، فان ذلك راجع الى ضميرك. ستموت وستصير عظامنا كلينا بيضاء».

ويسكت سيليفانوف، سوى انه يقضم شفتيه ووجهه تتبدل الوانه. وأساله: «هل تريد ان أنعل فرسك؟ سنفعل ذلك فوراً. اما حوذيك فعبثا ان تشتمه. فهو، كما ترى، اخرس. الأفضل أن تشتمني انا. تعال معي، يا اخ، الى الورشة، ونسد الباب باحكام، وحاول هناك ان تشتمني. فانا احب المجازفين من الناس».

ويصمت سيليفانوف، ووجهه يتلوى اكثر فاكثر، مرة الى هذا الجانب ومرة الى ذلك. ويصير ابيض تارة، واحمر اخرى، ولكنه يظل على صمته. انعلت حصانه، واقترب من العربة. ويتظاهر بانه لايراني، ويقدم للحوذي روبلا فضياً، ويقول له: «اعطه لذلك الجلف» اخذت الروبل من الحوذي، ورميته عند قدم سيليفانوف في حوض العربة، وابتسم لنفسي، وكانني مندهش، واقول: «ما هذا منك، يا اخ، هل معقول أن يأخذ أخ من أخيه ثمناً لمثل هذا العمل البسيط؟» البرع به لك على فقري، فاذهب الى حانة، واشرب في صحتي!» وهنا لم يعد وجه صاحبي مالك الأراضي هذا ابيض ولا احمر، بل ازرق ويزعق علي بصوته النحيل: «في صحتك؟.. عليك بالموت، يا وغد، يا جلف، يا يشتراكي، يا كيت و يا كيت. ساشتكي للاتمان! وسيسجنك!»

وضحك دافيدوف ضحكاً عالياً يصم الاذن حتى ان سرباً من العصافير انطلقت مذعورة من سطح ورشة الحدادة. واخذ شالي يلف سيكارة، وهو يضحك في لحيته.

سال دافيدوف، وهو لا يكاد يلفظ الكلمات:

– يعني لم «تتصاف» مع اخيك؟

– لم نتصاف.

– والروبل؟ هل رماه من العربة؟

– لو فعل لرميته منها... انصرف مع روبله. ليست القضية قضية فلوس، يا فتى...

– بل اي شيء؟

ضحك دافيدوف بفتوة وعفوية حتى جعل شالي أيضا يبتهج. كان يضحك مشمرا ذراعه:

– تحاهقت قليلا...

– تكلم، سيدروفيتش، لماذا تجرجر؟ – قال دافيدوف، وهو يتفرس في عيني شالي الندييتين بالدموع.

أما هذا فراح يشمر ذراعه، ويفتح شدقه الملثم عريضاً، ويضحك ضحكاً عالياً هادراً.

– تكلم، ولا تتعبني! – توسل اليه دافيدوف لاحقا في تلك اللحظة الحديث الجدي الذي جرى بينهما قبل حين، مستسلماً كلياً الى تسلية عابرة قاهرة.

– ولكن ماذا اقول... وماذا هناك! لقد ذكرت لك يا فتاي، انه وصفني بالجلف، وبالعاطل، وبكل صفة، واخيراً شرق بكلماته تماماً، وراح يضرب قاع العربة بقدميه ويصيح: «يشتراكي، يا كيت وكيت! سارسلك الى السجن!» وفي ذلك الوقت لم اكن اعرف ما يعني يشتراكي... كنت اعرف ما معنى الثورة، ولكن... اليشتراكي «لم اكن اعرف معناها. فتصورت أنها أكبر شتيمة واقذعها... فارد عليه قائلا: «أنت نفسك يشتراكي، يا ابن الكلب انصرف من هنا، قبل أن اصرفك أنا!»

واستغرقت دافيدوف نوبة من الضحك جعلته ينطرح ارضاً، وبعد أن جعله شالي يشبع من الضحك ختم قوله:

– وبعد يوم استدعوني الى الأتمان المحلي. استفسر مني كيف حصل الأمر، وضحك مثلك، وافرج عني دون حكم. وكان هذا نفسه ضابطاً من عائلة فقيرة، وقد ارضى غروره ان استطاع حداد بسيط أن يقف في وجه صاحب أراض غني. الا أنه قال لي عندما اطلق سراحي: «كن حذراً، يا قوزاقي، ولا تسرف في تحريك لسانك، والا فنحن الآن في زمن قد تدق اليوم فيه حدوة لحصان، وغداً يدقون لك حدوة على اطرافك الاربعة، ليسفروك الى سيبيريا فلا تزلق. هل فهمت؟» قلت: «فهمت، يا صاحب اللياقة» فقال: «طيب.

اذهب بلمح البصر. وساخبر سيليفانوف بأنني جلدتك حتى عرات جلدك». مثل هذه الأمور كانت، يا فتاي.

نهض دافيدوف ليتوادع مع الحداد اللبق، الا أن هذا جذبه من كم قميصه، واجلسه الى جانبه مرة اخرى، وسأل نجاد:

– يعني تقول الناس لن يعرفوا من قتل خوبروف زوجه يا رفيق؟ هذا خطؤك، يا فتاي. الناس سيعرفون، وسيعرفون بالتاكيد، اعطهم مهلة.

والظاهر ان هذا العجوز كان يعرف شيئا، فعزم دافيدوف على الصراحة، وسأل مباشرة، وهو يحدق مدققا في عيني شالي السوداوين المحمرتي البياض كعيني الثور:

– وانت بمن تشتبه، يا سيدروفيتش؟

القى هذا نظرة خاطفة عليه، وأجاب بمراوغة:

– الخطأ هنا يسير جداً، يا فتاي.

– طيب وعلى كل حال؟

كف شالي عن تردده، ووضع يده على كتف دافيدوف وقال:

– دعنا نتفق، يا صديقي: لا تستشهد بي، اذا دعت الحاجة. هل توافق؟

– اوافق.

– لوكيتش ضلع في هذه المسالة. وانا اقول لك هذا عن صدق وحق.

– أوه، يا أخ... – دمدم دافيدوف خائب الأمل.

– لقد كنت انا لسيليفانوف «اخا»، أما لك فاكون انا – قال شالي في ضيق – انا لم اقل لك ان ياكوف لوكيتش نفسه قتل خوبروف وزوجته، بل قلت ان له ضلعا في هذه المسالة. ويجب أن تفهم ذلك، يافتى، اذا كان الرب لم يخل عليك بالعقل.

– والادلة؟

سأل شالي مازحا:

– وهل صرت محققا؟

– لا تنكت، يا سيدروفيتش، مادام الحديث قد جرى، واخبرني بكل ما تعرف. ولا حاجة لنا للعب الغماية.

– بئس المحقق انت، يا فتى – قال شالي بوثوق – فقط ان لاتتسرع، وامسك نفسك، وسأسرد لك كل شيء تماماً، وستجد نفسك تسرع في فرك عينيك... اي شيطان سول لك لأن تقيم علاقة مع لوشكا؟ وهذا غير ملائم تماماً. الم تقدر ان تجد لنفسك احسن من هذه المرأة السليطة؟

رد عليه دافيدوف:

– هذا ليس شانك.

– لا، يا فتى، هذا شاني، وشان الكولخوز كله.

– وكيف هذا؟

– لأنك تعلقت بهذه الساقطة، وساء عملك. واصابك عمى الليل... بينما انت تقول: ليس شانك. هذه ليست بليتك، يا فتى، بل بليتنا، بلية الكولخوز. اظنك تتصور ان غرامياتك مع لوشكا خافية مخفية، لا، بل العزبة كلها تعرف بكل التفاصيل. وحتى نحن الشيوخ، نجتمع فيما بيننا احياناً، ونتحدث كيف نخلصك من لوشكا المرأة القبيحة. لم؟ لان النساء، مثل لوشكا لا يحثثن الرجال على العمل، بل يبعدنهم عنه. وهذا سبب قلقنا... انت شاب حسن، وديع، لاتشرب الخمرة، وباختصار: لست نزقاً جداً، بينما هي، الوضيعة، تنتفع من ذلك. ركبت على ظهرك وانطلقت بك. وانت تعرف الى اين تنطلق بك، وعلاوة على ذلك، تتباهى امام الناس، وكأنها تقول: «انظروا اي ظهر امتطي!» آه، دافيدوف، دافيدوف ليست هذه المرأة التي تليق بك. ذات مرة، كنا، نحن الشيوخ، جالسين يوم الأحد على السطبة عند بيت بيسخليبنوف، ومررت انت بنا، نظر الجد بيسخليبنوف في اثرك وقال: «كان يجب ان نضع رئيسنا دافيدوف في الميزان، لنعرف كم كان يزن قبل لوشكا. وكم يزن الآن. احسب انها افقدته نصف وزنه، ونخلته نخلا. هذا لايصح، يا شيوخنا: تأخذ هي الدقيق المنخول، وترمي لنا النخالة...»

تأكد، يا فتى، انني خجلت عليك من هذه الكلمات! خجلت، ولتقل ما تقول. لوكنت مساعداً لي في الورشة لما قال احد من اهل العزبة «اف». ولكنك رئيس تعاونيتنا الكولخوزية كلها. والرئاسة شيء عظيم. وليس بدون داع ان يقول الناس في الاجتماعات في العهود الماضية، حين يجلد قوزاقي لجرم ارتكبه: «لا بأس ان تكون عجيزته حمراء، اذا كان راسه صافياً». وها هو راس كولخوزنا ليس صافياً كثيراً، بل مشوش قليلا. سلخ هذا الراس عند لوشكا، وطلى بالقطران... فاختر لك فتاة اصيلة، او ارملة، ولن يتفوه عنك احد بكلمة. آه، يا دافيدوف، دافيدوف، زاغت عيناك. انا لا اظنك قد نحفت لغرامك بلوشكا، بل من تقريع الضمير. ضميرك يقرعك، وقولي صحيح تماماً.

نظر دافيدوف في الطريق الممتد بحذاء ورشة الحدادة، والى العصافير تنبش في التراب. وقد غمشى وجهه شحوب ملحوظ، ولاحت بقع زرق على وجنتيه المسلوختين.

– طيب، لنترك هذا الموضوع! – قال بخفوت، واستدار نحو شالي – **بدونك اشعر بالقرف**، يا شيخ.

قال شالي وكأنه يلقي الجملة عابرة:

– حين يقرف الانسان من الخمرة تتحسن حالته.

بعد ان تغلب دافيدوف على الارتباك والحرج قليلا بادر يقول بجفاف:

– هات ادلتك على ان لاوسترونوف ضلعاً. فبدون الاثباتات والحقائق يبدو ذلك كالافتراء. اوسترونوف كدرك في شيء، وانت الآن تضغن عليه، حقيقة! طيب، ما هي ادلتك؟ تكلم!

– هراء، ما تثرثر به، يا فتى – اجاب شالي بصرامة – اية ضغينة لي على لوكيتش؟ على حساب ايام العمل! في كل الاحوال لن افرط في يوم عمل واحد لي، سآخذ حقي. ولكن لا ادلة لي، فلم اكن مستلقيا تحت سرير خوبروف، حين قتل وزوجته ابنة عمي.

تسمع العجوز الى همهمة وراء الحائط، فرفع عن

الارض بخفة غير متوقعة جسده الضخم الركين. ووقف لحظة، يرهف السمع، وبعدها خلع عن رأسه طاقيته الجلدية القذرة بحركة واثقة، وقال:

– تعال، يا فتى، الى بيتي لنشرب كل واحد منا قدحاً من الحليب البارد، وهناك في الطراوة، ونتم حديثنا. اقول لك سراً... – وانحنى نحو دافيدوف. ولعل همسه الصادح كان مسموعاً في بيوت العزبة المجاورة – ان مساعدي العفريت الصغير لابد ان يتسمع... انه يتسمع من كل ثقب، وما ان تتكلم مع شخص حتى يرهف اذنيه. أوه، يا الهي، كم تحملت من المظالم منه، بلا عدولا حصراً بينما هو غير مطيع، وكسول، وفاسد حتى النخاع، ولكنه شاطر في الحدادة يعني الى اقصى حد! ما ان يمسك عملا حتى يحسن صنعه، العفريت! ثم أنه يتيم. ومن أجل هذا أتحمل كل مظالمه، اريد ان اصنع منه رجلا، ليكون وريث مهارتي.

سار شالي في الورشة، والقى مئزره على منصة سوداء من السخام، وقال لدافيدوف: «لنذهب!» وسار نحو البيت.

كان دافيدوف يود ان يخلو الى نفسه في اقرب وقت ممكن، ليتأمل في كل ما سمعه من شالي، ولكن الحديث المتعلق بمقتل خوبروف وزوجته لم ينته بعد، فسار يتبع الحداد الذي كان يمشي مترنحاً كمشية الدب.

لم ير دافيدوف من المناسب أن يصمت طوال الطريق ولهذا سأل:

– كم عدد افراد عائلتك، يا سيدروفيتش؟

– أنا وزوجتي العجوز ولا أحد غيرنا.

– الم ترزقا بأطفال؟

– كان لنا في شبابنا طفلان، ولكنهما لم يعيشا في هذه الدنيا. والطفل الثالث ولدته زوجتي ميتاً، ومنذ ذلك الحين لم تعد تلد. كانت شابة، معافاة، ولكن شيئا اعاقها عن الولادة، وانتهى عهد الانجاب! وكم حاولنا وجاهدنا، ولكن بلا فائدة. في تلك السنين ذهبت زوجتي ماشية الى الدير في كييف تدعو الرب يرزقها بطفل. ومع ذلك لم يستجب

لدعائها. وقبل ذهابها قلت لها: «على الاقل لو تجلبي طفلا اوكرانياً من هناك» – وضحك شالي ضحكة مقتضبة مكتومة وختم كلامه قائلا: «وصفتني بالاحمق الادهم، وصلت عند الايقونة وانصرفت. كانت تذهب من الربيع حتى الخريف، ولكن بلا نفع. ومنذ ذلك الحين اخذت اتبنى مختلف الايتام، واعلمهم حرفة الحدادة. انا مغرم بالاطفال، ولكن الرب لم يكتب لي أن افرح بذريتي. وقد يحصل هذا، يا فتى...

كانت حجرة الجلوس المرتبة شبه مظلمة، وهادئة، وطرية الهواء. وكان ضوء اصفر يتسرب من خصاص الصفائح المغلقة اتقاء الشمس. كانت الارضية المغسولة منذ وقت قريب تفوح برائحة الزعتر البري، وبنفحة أخف من الافسنتين. جلب شالي بنفسه من السرداب جرة مبردة من الحليب، ووضع على الطاولة قدحين، وزفر:

– ربة بيتي تشتغل في حديقة الخضروات. وشدة الحر لاتضايق هذه العفريتة... انت تسال ما هي ادلتي؟ واقول لك بصدق: في صباح اليوم الذي قتلوا فيه خوبروف وزوجته، ذهبت لأرى القتيلين، فان زوجة خوبروف هي احدى اقربائي على اية حال. ولكن الدخول الى بيتهما كان ممنوعا. فقد كان احد رجال المليشيا واقفاً في الباب، ينتظر وصول المحقق. فوقفت قليلا عند مدخل البيت. وبينما كنت اعاين رأيت اثر قدم معروفا لي. درجات المدخل عليها آثار اقدام كثيرة، الا اثر واحد... في ناحية... قرب الدرابزين.

سأل دافيدوف بحماس، وقد بدا عليه الاهتمام:

– باي شيء عرفت هذا الأثر؟

– الكعب له حدوة حديدية. والأثر جديد، طبع في الليلة الماضية مختوم ختماً. والحدوة معروفة... لا اظن احداً في العزبة يستعملها في حذائه ما عدا شخصاً واحداً. ولا يمكن ان اخطأ بها، لأنها حدواتي...

وضع دافيدوف قدح الحليب ببطء، دون أن يتمه.

– أنا لا أفهم. تكلم اوضح.

– لا صعوبة في فهم ذلك، يا فتى. منذ سنتين، وقبل

تاسيس الكولخوز جاءني ياكوف لوكيتش الى ورشتي في اوائل الربيع، وطلب مني ان اطوق عجلات عربته باطواق الحديد، قلت له: «اجلبها، مادام العمل قليلا عندي الآن». وجاء بها، وجلس معي في الورشة زهاء نصف ساعة متحدثا عن هذا وذاك. ونهض لينصرف، ووقف قرب القرن، عند تل من خردة الحديد، راح يتفحصها، وينبش فيها، وفيها مختلف العاديات القديمة. ووجد حدوتين قديمتين من حذاء انجليزي تشملان الكعب كله، وكانتا مرميتين منذ الحرب الاهلية، ويقول: «سيدروفيتش،» سآخذ هاتين الحدوتين، واضعهما على حذائي الطويل. الظاهر انني صرت عجوزاً، وادوس بكعبي الارض اكثر، ما ان البس حذاء طويلا، حتى يتآكل كعبه ويميل الى جانب» فاقول له: «خذهما. لا ابخل بسقط متاع على انسان طيب، يا لوكيتش، وهما من فولاذ، وستظل تستخدمهما الى آخر عمرك، اذا كنت لا تضيعهما» فوضعهما في جيبه، وانصرف. وقد نسي هذا الامر بالطبع، بينما انا ما ازال اذكرها. هذه الحدوة نفسها انطبع اثرها، فلاحظته... وانتابتني الشكوك، فاقول لنفسي: كيف وجد هذا الاثر طريقه الى هنا؟

استعجل دافيدوف الراوي المتمهل:

– طيب، وبعدين؟

– وبعدين افكر: «لالتق بلوكيتش، وارى الاثر الذي يتركه كعباه». وبحثت عنه عمداً، متذرعاً بطلب بعض الحديد لشفرات المحاريث، وانظر الى قدميه، واراه في حذاء لبادي! كانت الايام زمهريرية حينذاك. وسالته، وكان ذلك عرضاً: «هل رأيت القتيلين، يالوكيتش؟» فيقول: «لا، لا اطيق رؤية الموتى، ولاسيما القتلى. فان قلبي ضعيف ازاء هذا. ولكن لابد ان اذهب، والقى نظرة» ثم اساله في عرض الحديث: «منذ زمان لم تلتق بالقتيل؟» فيقول: «نعم، منذ زمان، منذ الاسبوع الماضي. انظر اي وحوش يعيشون بيننا! قضوا على عملاق كهذا، ولأي شيء؟ غير معروف. كان

انساناً وديعاً، لم يؤذ احداً قط. عسى ان تتيبس ايدي الذين قتلوه!»

وشعرت بلسعة تلذع كياني كله! انه يتفوه بكلمات يهودا هذه، فتصطك لها ركبتاي، واقول في سري: «ايها الكلب انت الذي كنت في تلك الليلة هناك، واذا لم تكن الذي قتلت خوبروف، فقد جلبت معك من اطاعته يده ليفعل ذلك». ولكنني لم ابد له اي شيء، وهكذا افترقنا. ولكن فكرة التاكد من آثار اقدامه انحشرت في راسي كحصاة في حدوة حصان. هل اضاع الحدوتين اللتين اهديتهما له من حذائه ام لا؟ انتظرت اسبوعاً حتى استبدل الحذاء اللبادي بحذائه الطويل ذاك، وكان الجو قد دفيء قليلا، وذاب الثلج. تركت العمل في الورشة، وذهبت عمداً الى الادارة. فوجدت لوكيتش هناك وفي حذائه الطويل وبعد قليل خرج الى الفناء، فلحقت به. تحول عن الدرب، وذهب الى الشونة. وانا انظر في آثار قدميه، فارى حدوتي تتركان اثرهما على الارض، يعني لم تنخلعا طيلة السنتين!

– ولماذا لم تقل شيئاً آنذاك، ايها العجوز الملعون؟ ولماذا لم تخبر المرجع المختص؟ – وقد اندفع الدم كله الى وجه دافيدوف، وضرب الطاولة بقبضة يده ضيقاً وضراوة.

ولكن شالي هداه بنظرة ليست رقيقة جداً. وسال:

– هل تبحث عمن هو اكثر حمقاً منك؟ لقد فكرت بذلك قبلك... يعني كنت سأبلغ المحقق بعد اسبوع من القتل، ولكن اين ذلك الاثر على مدخل البيت؟ سأطلع احمق عند ذاك.

– كان عليك ان تقول ذلك في نفس اليوم! انت جبان اجرب. مجرد انك خفت من اوستروفنوف. حقيقة!

وافق شالي عن طيب خاطر:

– نعم، كان ذلك! التهاون عن اوستروفنوف امر خطير، يا فتى... قبل حوالى عشر سنين، حين كان اصغر سناً، اختلف مع انتيب غراب القيظ على الحصاد، وتعاركا، ولقنه انتيب بشكل جيد في العراك. وبعد شهر احترق

المطبخ الصيفي ليلا عند انتيب. وكان المطبخ قد اقيم بالقرب من البيت، وكانت الريح في تلك الليلة ملائمة اذ كانت تهب من المطبخ الى البيت، فاندلعت النار في البيت ايضا. واحترقت زريبة الماشية كلها بنار حامية، والشونة لم تسلم ايضا. كان لانتيب في الماضي بيت معتبر كامل المرافق، أما اليوم فيعيش في خص من الطين والروث. هذه نتيجة الاشتباك مع لوكيتش. انه لن يغضي حتى عن الحرازات القديمة، ودع عنك الحالية. ولكن ليست هذه هي المسالة، يا فتى. لم اعزم على ان افضي لرجل المليشيا بشكوكي في الحال، فقد تخوفت، ولكنني لم اكن على ثقة تامة في ان ياكوف لوكيتش وحده يلبس مثل هذه الحدوات. وكان علي ان اتاكد، لان نصف اهل عزبتنا كانوا يلبسون الاحذية الانجليزية في الحرب الاهلية. وبعد ساعة كان مدخل بيت خوبروف مملوءا جداً بالآثار على ما اعتقد بحيث لاتستطيع ان تميز اثر خف البعير من اثر حافر حصان. هكذا كان الأمر صعباً، يا فتاي، وليس سهلا كثيراً ان تقلب في ذهنك كل شيء، كما ينبغي. واليوم دعوتك الى هنا لا لنتفرج على الحاصدات، بل لنتحدث بصراحة.

قال دافيدوف لائماً:

– جاءتك الفكرة متاخرة، يا بطيء التفكير.

– لم يفت الوقت بعد. ولكن اذا لم ترفع الغشاوة عن عينيك سريعاً، فان الوقت سيفوت. وانا اقول لك دائما صادقاً.

تربث دافيدوف، وأجاب منتقيا الكلمات بحرص:

– بخصوصي، وبخصوص عملي قلت انت الكثير من الاشياء الصائبة، يا سيدروفيتش. وانا اشكرك على هذا. يجب ان اعدل عملي، حقاً! ولكن اذا كان العمل جديداً عليك يصعب ان تعرفه في الحال!

وافقه شالي قائلا:

– هذا صحيح.

– اما بخصوص تقدير الحصص في عملك فسنعيد

النظر في الأمر ونصححه. والآن يجب أن يغيب اوستروفنوف عن ابصارنا، مادمنا لم نمسكه متلبساً في الحال، وهذا يحتاج الى وقت. ولكن حذار أن تقول لأحد كلمة واحدة عن حديثنا. تسمع؟

– سأصمت صمت القبور! – أكد شالي قائلا.

– ربما لديك شيء آخر تقوله لي؟ والا فسأذهب الى المدرسة الآن، فعندي شغل مع مديرها.

– عندي ما اقوله: اترك لوشكا نهائياً! انها، يا فتى، ستوقعك في داهية...

– أوه، اللعنة عليك! – هتف دافيدوف في ضيق – تحدثنا عنها، وكفى. كنت اتصور انك ستقول شيئاً حصيفا في الوداع، فاذا بك تعود الى ما تحدثت به من قبل...

– ولكن لا تحتد، واسمع بارهاف ما يقوله شيخ عجوز. انا لا اقول لك جزافا. فاعلم أنها في الآونة الأخيرة لا تعاشرك وحدك. فاترك هذه الكلبة كلياً ان كنت لا تريد أن تتلقى رصاصة في جبهتك!

– وممن يمكن ان أتلقى هذه الرصاصة؟

ومست شفتي دافيدوف القاسيتين ابتسامة خفيفة مرتابة، ولكن شالي لاحظها، وهدر:

– ما لك تكشر؟ احمد الرب على انك ما تزال تسير على الأرض حياً، ايها الرجل الاعمى! انا لا افهم: لماذا اطلق النار على ماكار، لا عليك؟

– من هذا الذي تعنيه؟

– أعني تيموشكا الاشرم! لا افهم اي شيطان وسوس له ليضرب ماكار. وقد دعوتك انا لاحذرك. بينما انت تكشر أسوا من تكشيرة فانياتكا.

وضع دافيدوف يده في جيبه بحركة غير طوعية، وحط صدره على الطاولة.

– تيموشكا؟ من أين جاء؟

– جاء هارباً، والا كيف؟

– وهل رايته؟ – سأل دافيدوف بخفوت يقرب من الهمس.

– هل اليوم اربعاء؟

– اربعاء.

– طيب، رايته في السبت ليلا مع صاحبتك لوشكا. في تلك الليلة لم تات بقرتنا من القطيع، فخرجت ابحث عنها، الملعونة. وقد جئت بها بعد منتصف الليل الى البيت، فصادفتهما قرب البيت.

– ربما خيل اليك ذلك؟

– هل تحسبني لا افرق بينك وبين تيموشكا؟ – وابتسم شالي بسخرية – لا، يا فتى، عيناي حادتان، ولو كنت عجوزاً. ربما تصورا ان الدابة وحدها تسير في الظلام، بينما كنت اسير وراءها، فلم يلحظاني رأساً. وتقول لوشكا: «تفو، الملعونة، هذه بقرة، يا تيموشا، بينما تصورتها انساناً». وبعدها جئت. وهي اول من وثب، ونهض تيموشكا في الحال. واسمعه يدفع ترباس بندقيته، ويظل صامتاً. فاقول لهما بخفوت: «اجلسا، اجلسا، يا طيبان! انا لا اضايقكما، بل اسوق هذه البقرة التي خرجت عن القطيع...»

– طيب، الآن كل شيء واضح. – قال دافيدوف مخاطبا نفسه اكثر من مخاطبته لشالي، ونهض من المسطبة ثقيلا.

طوق الحداد بذراعه اليسرى، وضغط باليمنى على مرفقه.

– شكراً لك على كل شيء، يا عزيزي ايبوليت سيدروفيتش!

وفي المساء، ابلغ ناغولنوف ورازميوتنوف عن حديثه مع شالي، واقترح ابلاغ فرع المنطقة من لجنة أمن الدولة على الفور بظهور تيموفي الاشرم في العزبة. الا ان ناغولنوف الذي استقبل هذا الخبر بهدوء شهم اعترض قائلا.

– لا حاجة الى ابلاغ أية جهة. فهم لا يفعلون الا ان يفسدوا المسألة كلها. تيموشكا ليس أحمق، ولن يسكن في

العزبة، وما ان يظهر ولو واحد من اولئك الرجال، حتى يعرف على الفور، ويختفي من هنا.

سأل رازميوتنوف:

– وكيف سيعرف، اذا كان رجال أمن الدولة سيأتون سيراً في الليل.

نظر ناغولنوف اليه بسخرية غير خبيثة:

– عقلك عقل الطفل، يا اندريه. الذئب دائما أول من يرى الصياد، وبعد ذلك يراه الصياد.

فسأل دافيدوف:

– وماذا تقترح انت!

– اعطوني مهلة خمسة أو ستة أيام، وساجيء بتيموشكا اليكما حياً او ميتا. الزما الحذر، انت واندريه، في الليل على كل حال، ولا تخرجا من البيت في ساعة متاخرة، ولا تشعلا ضوءا. وهذا كل ما يتطلب منكما. والبقية علي.

وامتنع ناغولنوف كلياً عن التحدث بالتفاصيل عن خططه. فقال دافيدوف موافقا:

– طيب، اذن، اعمل. ولكن حذار أن يفلت منك تيموفي، فانه سيختفي بشكل لن تستطيع اكتشافه مطلقاً.

– كن مطمئناً انه لن يفلت – قال ناغولنوف، وهو يبتسم بهدوء، واسبل جفنيه الاسودين، واطفأ الشرر الذي ومض لحظة في عينيه.

الفصل الحادي عشر

كانت لوشكا تعيش عند عمتها كالسابق. وكان كوخ العمة ذو السقف من سيقان الاسل يقع عند حافة شاطىء النهر العالي تماماً، بصفاقات نوافذه المائلة، وجدرانه المتفرسة في الارض، والمائلة من الهرم. وفناؤه الصغير مفعم بالعشب والحشائش الطفيلية. ولم تكن استثمارة الكسيبيفنا، عمة لوشكا، تضم غير بقرة وحديقة خضروات صغيرة. وكان للسياج الواطىء من الاغصان المضفورة

المحيط بالفناء مرقى من جهة النهر، كانت ربة البيت العجوز تستخدمه عند النزول الى النهر لاستقاء الماء. وكانت تزرع في حديقتها الكرنب والخيار والطماطم.

وعند المرقى كانت تشمخ مظلات الشوك الحمراء والبنفسجية وينمو القنب البري كثيفاً، وكانت نوامي القرع تتلوى زاحفة بين اعواد السياج، مزينة اياه بازهار الجرس الصفراء. وفي الصباح كان السياج يشع ومضات زرقاً لزهور اللبلاب المتفتحة، فيبدو من بعيد بساطاً مدهش الحياكة. كان المكان معزولاً. وقد لفت نظر ناغولنوف في اليوم التالي، حين مر في الصباح الباكر بفناء الكسييفنا، بمحاذاة النهر.

ظل يومين لايفعل شيئاً منتظراً زوال زكامه، وفي اليوم الثالث، ما ان هبط المساء حتى لبس سترته المبطنة، وخرج الى الشارع خلسة، وهبط نحو النهر. كان طوال الليلة – وكانت ظلماء بلا ضوء قمر – راقداً في القنب البري تحت السياج، ولكن احداً لم يظهر عند المرقى. وفي الفجر ذهب ماكار الى بيته، ونام بضع ساعات، وفي النهار خرج الى الفريق الاول الذي كان قد بدأ يحش العشب، وبحلول الظلام عاد فاستلقى قرب المرقى.

في منتصف الليل صرف باب الكوخ صريفاً خافتاً. وكان ماكار يرى من خلال السياج شبح امرأة ملفوفة في منديل داكن تظهر في مدخل البيت. فعرف ماكار انها لوشكا.

نزلت درجات المدخل ببطء، ووقفت قليلاً، ثم خرجت الى الشارع، واستدارت نحو زقاق. سار ماكار مكتوم الخطى على بعد عشر خطوات وراءها لم تشتبه لوشكا بشيء، ولم تتلفت، واتجهت نحو الارض الفراغ. تركا العزبة خلفهما، ولكن الزكام اللعين خذل ماكار في هذه اللحظة فعطس عطسة قوية، وسقط منبطحاً على الأرض في الحال. التفتت لوشكا بسرعة. وقفت لحظة بلا حراك، كالمصعوقة، ضاغطة يدها على صدرها، وانفاسها تتلاحق متقطعة. واحست بشيال

الصدر ضيقاً عليها، وراح الدم يدق في صدرها مدمدماً. تغلبت لوشكا على ارتباكها، وتقدمت نحو ماكار في خوف وخطى قصيرة. كان يرقد مستنداً على الارض بمرفقيه، مراقباً لوشكا من تحت حاجبيه. توقفت لوشكا على بعد ثلاث خطوات منه، وسألت بصوت مكتوم:

– من؟

كان ماكار قد وقف على الأربع دافعا طرف السترة الى رأسه بصمت. كان لايريد على الاطلاق ان تعرفه لوشكا.

– أوي، يا الهي! – ندت منها همسة مذعورة، وركضت باتجاه العزبة.

...قبيل الفجر أيقظ ماكار رازميوتنوف، وقال متجهماً وهو يجلس على المسطبة:

– عطسة واحدة افسدت علي الأمر كله، اللعنة! ساعدني، يا اندريه، والا فسيفلت تيموشكا منا.

بعد نصف ساعة اقتربا من فناء الكسييفنا، على عربة يجرها حصانان. شد رازميوتنوف الحصانين الى السياج، وكان اول من صعد الى مدخل البيت، ودق الباب السائل.

– من؟ – سألت ربة البيت بصوت ناعس – من تريد؟

قال رازميوتنوف بنشاط:

– استيقظي، يا الكسييفنا، والا فستتاخرين عن البقرة في النوم.

– من هذا؟

– هذا انا، رازميوتنوف، رئيس السوفيت.

فردت المرأة مستاءة:

– ما الذي جاء بك في هذه الساعة المبكرة؟

– شغل، افتحي!

وشحط مزلاج الباب، ودخل رازميوتنوف وناغولنوف المطبخ. لبست ربة البيت ملابسها على عجل. واشعلت المصباح صامتة:

– تزيلتك موجودة؟ – اشار رازميوتنوف الى باب حجرة الجلوس.

– موجودة. وماذا تريد منها في هذا الوقت المبكر؟

طرق رازميوتنوف الباب دون ان يرد، وقال بصوت عال:

– هاي، لوكيريا! انهضي، والبسي. لك خمس دقائق لتهيئة نفسك، كما في العسكرية!

خرجت لوشكا حافية، وقد طرحت منديلا على كتفيها العاريتين. وكانت ربلتا ساقيها السمروان الداكنتان تظهران البياض غير الصافي للمخرمات على تنورتها الداخلية. امرها رازميوتنوف:

– البسي. – وهز راسه مقرعاً – على الأقل لو لبست تنورتك... اية امرأة قليلة الحياء انت!

حدقت لوشكا بامعان وتساؤل في الداخلين، وابتسمت ابتسامة باهرة النصوع:

– ولكنني لست بين غرباء، فممن أخجل؟

كانت لوشكا الملعونة هذه تبدو نضرة وجميلة كفتاة، حتى وهي ناعسة! ابتسم رازميوتنوف وراح يتمعنها غير خاف اعجابه. نظر ماكار الى ربة البيت التي كانت مستندة الى الموقد بنظرة ثقيلة لا ترف.

– لم شرفتما، ايها الضيفان العزيزان؟ – وعدلت لوشكا بحركة غنج المنديل السارح عن كتفيها – العلكما تبحثان عن دافيدوف؟

وابتسمت، وكانت ابتسامتها الآن ظافرة وقحة. وقلصت عينيها الجسورتين المشعتين بانتصار، متوقعة ان تلتقي نظرتها بنظرة زوجها السابق. ولكن ماكار كان قد ادار لها وجهه. ونظر اليها بثقل وهدوء، واجاب ملقياً الكلمات بنفس الثقل والهدء:

– لا، لسنا نبحث عن دافيدوف، بل عن تيموفي الأشرم.

– ماكان يجب ان تبحثا عنه هنا – قالت لوشكا باسترخاء، ولكن كتفيها اختلجتا وكانما من قشعريرة – يجب ان تبحثا عنه في الاصقاع الباردة، الى حيث تقيتم صقري هذا...

– دعك عن التظاهر، – قال ماكار بنفس الهدوء، محتفظا برباطة جاشه.

والظاهر ان هدوءه البارد الذي لم تتوقعه لوشكا كثيراً، اغاظها، فانتقلت الى الهجوم:

– الم تكن انت، يا زوجي العزيز، الذي كان في اعقابي هذه الليلة، حين خرجت من العزبة؟

– يعني عرفتني؟ – مست شفتي ماكار ابتسامة ساخرة لاتكاد تبين.

– لا، لم اعرفك في الظلام، وقد افزعتني، يا عزيزي، الى حد الموت. وفيما بعد، حين وصلت الى العزبة واكضة حدست انه انت.

– كيف خفت، وانت السليطة الجسور؟ – سالها رازميوتنوف بفظاظة، محاولا بالغلظة المتعمدة هذه ان يبطل السحر الذي يثيره فيه جمال لوشكا المتحدي.

تخصرت لوشكا، وحدجته بنظرة لاذعة:

– لا تنعتني بهذه الصفة! اذهب، وانعت صاحبتك مارينا بمثل هذه النعوت، ربما، وسيهشم دييمد الصموت بوزك، كما ينبغي. اما انا فمن السهل اهانتي، لانه لا احد يدافع عني.

قال رازميوتنوف ساخراً:

– لديك منهم اكثر مما يجب.

ولكن لوشكا سالت ماكار، ولم تعد تعير رازميوتنوف اقل التفات.

– لماذا كنت تسير ورائي؟ ماذا تريد مني؟ انا طير طليق اطير الى حيث اشاء. ولو كان صديقي دافيدوف سائراً معي، لما شكرك على ملاحقتنا!

ارتجت الجيوب الصلبة تحت وجنتي ماكار الشاحبتين، ولكنه كبح نفسه بجهد هائل من ارادته، ولزم الصمت. وترددت في المطبخ واضحة فرقعة اصابعه المنقبضة. اسرع رازميوتنوف لانهاء الحديث الذي اتخذ منحى خطيراً.

– تحدثنا، وكفى! تهيئي، يا لوكيريا، وأنت يا الكسييفنا فانتما معتقلتان، وسنأخذكما حالا الى مركز المنطقة.

فتساءلت لوشكا:

– ولاى شيء؟

– هناك ستعرفين.

– واذا امتنع عن الذهاب؟

– ستربطك كنعجة، وناخذك. ولا تدعك ترفسين. طيب، اسرعي!

وقفت لوشكا بضع ثوان مترددة، ثم تراجعت وانسلت من الباب بخفة، وبحركة مراوغة، واغلقت الباب خلفها، وحاولت من الداخل أن تحشر المزلاج في فتحة الباب. ولكن ماكار فتح الباب بجسمه بدون جهد يذكر، ودون أن يفوت الوقت، ودخل حجرة الجلوس، وحذرها رافعاً صوته:

– نحن لا نمزح معك! البسي ثيابك، ولا تفكري في الهروب. لن الاحقك أنا بل ستلحق بك رصاصة، أيتها الحمقاء. واضح؟

جلست لوشكا على الفراش غير المرتب، ثقيلة الانفاس.

– اخرج. سالبس ملابسي.

– البسيها. ولا داعي لان تخجلي مني. فقد رايتك في مختلف الاوضاع.

– طيب، لا تهمني، – قالت بتعب وبدون ضغينة.

خلعت ثوب النوم، والتنورة، وسارت الى الصندوق بلا تكلف عارية بديعة بجمالها الفتي المقدود، وفتحت الصندوق. لم ينظر ماكار اليها. فقد كان بصره اللامبالي الفاتر كما بدا مصوبا الى الشباك.

وبعد خمس دقائق قالت لوشكا، وقد لبست ثوباً قطنياً متواضعاً.

– أنا جاهزة، عزيزي ماكار – ورفعت الى ماكار عينين خاضعتين فيهما شيء من الحزن.

في المطبخ سالت الكسييفنا، وقد فرغت من ارتداء ملابسها.

– ولمن ستترك البيت؟ من سيحلب البقرة، ومن سيعتني بحديقة الخضروات؟

فهداها رازميوتنوف قائلا:

– سنأخذ هذا على عاتقنا، يا عمة، ولدى عودتك سيكون كل شيء على ما يرام، كما هو الآن.

خرجوا الى الفناء، وركبوا العربة.

تناول رازميوتنوف الاعنة، ولوح بالسوط بضراوة، وانطلق بالحصانين بعدو سريع. وتوقف عند سوفيت القرية، وقفز من العربة.

– هيا، انزلا! – وكان أول من دخل الرواق، واشعل عود ثقاب، وفتح باب حجرة المؤونة – ادخلا، وخذا مجلسكما.

سالت لوشكا:

– ومتى سنسافر الى مركز الاقليم؟

– سنسافر، حين يطلع النهار.

فعادت لوشكا تسال:

– ولم جئنا الى هنا بالعربة، اذن، وليس مشياً؟

– للاعتبار. – ضحك رازميوتنوف في الظلام.

وفي الحقيقة أنه لم يكن قادراً على أن يوضح لهاتين المراتين المحبتين للمعرفة: اركبناكما العربة، لأننا لم نرد ان يراكما أحد، وانتما في طريقكما الى سوفيت القرية.

– كان من الممكن أن تاتي الى هنا مشياً ايضاً، – قالت الكسييفنا ورسمت علامة الصليب، ودخلت حجرة المؤونة.

تنهدت لوشكا مقهورة وتبعتها صامتة. قفل رازميوتنوف حجرة المؤونة، وعند ذلك فقط هتف بصوت عال:

– لوكيريا، اسمعيني: سنطعمكما ونسقيكما. في الزاوية على يسار الباب يوجد جردل لقضاء الحاجة. ارجو التزام الهدوء، فلا ترفعا اصواتكما، ولا تدقا الباب، والا،

فيحق الرب سنربطكما ونسد افواهكما. فالقضية جدية. والى اللقاء! وفي الصباح سآتيكما.

وعلق قفلا ثانياً في باب الخروج من سوفيت القرية، وقال لناغولنوف الذي كان ينتظر عند المدخل. وفي صوته توسل:

– ساحجزهما هنا ثلاثة ايام، ولا استطيع اكثر، يا ماكار. فكر بما شئت، ولكن حين سيعرف دافيدوف، سننال منه مايزعج.

– لن يعرف. ابعد الحصانين، وبعد ذلك اجلب للمحتجزتين بشكل مؤقت ما تاكلانه. طيب، شكراً. انا ذاهب الى البيت.

ولم يكن ناغولنوف ممشوقاً مشدود القوام، كالسابق، حين كان يسير في ازقة غريمياتشي لوغ المقفرة في الظلام المائل الى الزرقة قبيل الفجر. سار محدودب الظهر قليلا، مطاطأ الرأس، يضغط من حين لآخر كفه الكبيرة العريضة على موضع القلب من صدره.

* * *

وناغولنوف لكي يتحاشى ان يراه دافيدوف كان يقضي النهارات في الحش، ولا يعود الى العزبة الا في الليل. وفي مساء اليوم الثاني ذهب الى رازميوتنوف قبل ان يختبئ في مكمنه. وسأله:

– الم يبحث دافيدوف عني؟

– لا، وانا ايضاً لا اكاد اراه، يومان ونحن نصلح الجسر على النهر، وعندي من الاشغال مايكفيني فقط لأن اكون عند الجسر، ثم اهرع لرؤية المحتجزتين.

– كيف هما؟

– ثارت لوشكا يوم امس، ثورة جنونية! فاقترب من الباب، فتمطرني بمختلف النعوت. ان هذه المرأة اللعينة تشتم اسوأ مما يشتم قوزاقي سكران. اين تعلمت هذه

الشتائم المقذعة! وقد هدأتها بعد جهد شديد. انها الآن هادئة، تبكي.

– دعها تبكي. وعن قريب ستنوح على فقيدها.

فقال رازميوتنوف متشككا:

– لن يظهر تيموشكا.

– سيأتي! – وضرب ناغولنوف قبضته على ركبته، ولمعت عيناه المنتفختان من السهر – وأين يذهب بدون لوشكا؟ سيأتي.

...وجاء تيموفي. نسي الحذر، وظهر عند المرقى في اليوم الثالث، حوالي الثانية بعد منتصف الليل. فهل الغيرة دفعته الى العزبة؟ ام الجوع؟ ام ربما الغيرة والجوع على حد سواء، غير انه لم يصطبر وجاء.

وكالوحش صعد الدرب من النهر دون جلبة. ولم يسمع ماكار خشخشة التربة المتفتتة تحت قدميه، ولا همهمة غصن الحشائش الطفيلية اليابسة، وحين طلع فجأة، وعلى بعد خمس خطوات شبح رجل مائل بجذعه قليلا الى الأمام، جفل ماكار من المباغتة.

وقف تيموفي بلاحراك ممسكا البندقية بيده اليمنى، يرهف سمعه. كان ماكار منطرحاً في القنب حابساً انفاسه. وللحظة تضاعفت دقات قلبه، ثم انتظمت من جديد، ولكن ماكار احس بمرارة وجفاف في فمه.

عند النهر زعق طائر الكركي بصوت صارف. وخارت بقرة في الطرف القصي من العزبة. وغرد سمان تغريداً حاداً في المرج وراء النهر.

كان ماكار في موضع جيد لاصابة هدفه، فقد كان تيموفي واقفاً، مبدياً جنبه الأيسر بشكل ملائم، مديراً جذعه قليلا الى اليمين، وهو مايزال يرهف سمعه لشيء ما.

وضع ماكار ماسورة مسدسه الناغان على مرفق يديه اليسرى المعكوفة. كان كم سترته مبللا بالندى. تريث ماكار لحظة. قطعاً لم يكن ناغولنوف وغداً كولاكياً ليطلق النار على عدوه خلسة! فقال ماكار بصوت عال، دون ان يغير وضعه:

– ادر وجهك للموت، يا وغد!

نط تيموفي الى الأمام في ناحية كالمقذوف من منصة النط، وشهر بندقيته، ولكن ماكار كان اسبق منه. وفي الصمت الرطب رنت الرصاصة مكتومة، وليست عالية الصوت.

رمى تيموفي البندقية، وسقط على ركبتيه، وانطرح على الأرض ببطء كما بدا لماكار. وسمع ماكار ارتطام قفاه على ارض الدرب المدكوكة الصلبة ثقيلا اصم.

ظل ماكار حوالي خمس عشرة دقيقة اخرى راقداً دون حراك وراح يفكر، وهو يرهف سمعه الى اقصى حد «لايأتي الرجل لزيارة امرأة مع رهط من الرجال. ولكن قد يكون أصدقاؤه مختبئين عند النهر ينتظرونه؟» ولكن الصمت المطبق كان يشمل كل ما حوله. الكركي الذي سكت بعد الطلقة عاد الى زغردته بتوجس وتقطع. وكان الفجر يقترب سريعاً. وفي الحافة الشرقية للسماء السوداء المزرقة طلع شريط احمر وراح يتسع. وصارت اجمات الصفصاف ما وراء النهر ملحوظة للعيان. نهض ماكار، وتقدم من تيموفي الذي كان راقداً على ظهره، وقد القى ذراعه اليمنى بعيداً عن جسده. وعيناه مفتوحتان على سعتهما، وقد خمدتا ولكنهما لم تفقد بعد لمعة الحياة. لقد بدت هاتان العينان الميتتان تتمليان باعجاب ودهشة صامتة النجوم الباهتة المنطفئة، والغيمة البيضوية الصغيرة الذائبة في السمت، والمفضضة قليلا في الأسفل، وكل الفضاء السماوي المترامي بلا حدود، المغطى بهباب الضباب الشفاف الخفيفة تماماً.

مس ماكار القتيل بطرف حذائه، وسأل بخفوت:

– ها، انتهت ايام عربدتك، يا لعين؟

وكان جميلا حتى وهو ميت، زير النساء هذا والمعشوق. سقطت خصلة شعر داكنة على جبينه الأبيض الصافي غير الملوح بالشمس، ووجهه الممتلئ، لم يلحق بعد ان يفقد لونه الوردي الخفيف، وشفته العليا المقلوبة، بشاربها الأسود الناعم الكثيف، قد ارتفعت قليلا كاشفة عن اسنان ناصعة البياض، وكان ظل خفيف لبسمة مندهشة يختفي في

الشفتين النضرتين اللتين قبل بضعة ايام فقط تقبلان لوشكا بشراهة. وفكر ماكار «يبدو انك تاكل جيداً، يافتى!».

كان ماكار، وهو يتفحص القتيل بهدوء لايعاني من الغيظ الذي كان يعتمل في نفسه قبل حين، ولا يشعر بالرضى، لا شيء غير التعب المقبض. ان كل ما كان يقلقه اياماً طويلة وسنوات، وكل ما كان يغمر قلبه حيناً بدم ساخن ويجعله ينعصر من المهانة والغيرة والألم، كل ذلك قد ولى الآن بعيداً مع موت تيموفي، والى غير رجعة.

رفع البندقية من الأرض، وفتش جيوب القتيل لاوياً وجهه باشمئزاز. في الجيب الأيسر من السترة تلمس الجسم المسنن لقنبلة يدوية «الليمونة» والجيب الأيمن لم يكن يحوي غير اربعة امشاط من خراطيش البندقية. ولم تكن عند تيموفي أية هوية.

وقبل أن ينصرف ماكار القى نظرة اخيرة على القتيل وعند ذاك فقط فطن الى ان القميص المطرز الذي يلبسه كان مغسولا لتوه، وان البنطلون الكاكي مرقعاً بعناية عند الركبتين، وبيد نسائية، على ما يبدو. «يبدو انها كانت تطعمك وتعتني بك جيداً» فكر ماكار بمرارة، وهو يرفع قدمه بثقل شديد درجة عبر المرقى.

ورغم الساعة المبكرة فقد التقى رازميوتنوف بماكار قرب البوابة الخارجية، وتناول البندقية والخراطيش والقنبلة اليدوية من يديه، وقال مرتاحاً:

– يعني قضيت عليه؟ كان فتى شجاعاً، لا يخشى المخاطر. سمعت طلقتك، فنهضت، وارتديت ملابسي. واردت ان اهرع الى هناك، ولكنني رأيتك قادماً. زالت الغمة.

طلب ماكار:

– اعطني مفاتيح سوفيت القرية.

حدس رازميوتنوف مرماه، مع ذلك سأل:

– تريد ان تطلق سراح لوشكا؟

– نعم.

– عبثاً.

– اسكت – قال ماكار بصوت مدمدم – انا، مع كل ذلك احبها، الساقطة...

وتناول المفاتيح، واستدار صامتاً، وسار نحو سوفيت القرية شاحطاً بنعلي حذائه.

* * *

في الرواق المظلم لم يعثر ماكار على فتحة القفل راساً ليضع المفتاح فيها. وحين فتح الباب على مصراعه قال بصوت خافت:

– لوكيريا! اخرجي للحظة.

صدرت همسهسة في القش عند الركن. ووقفت لوشكا على العتبة دون أن تنطق بحرف، وعدلت المنديل الابيض على راسها بحركة ذابلة.

– اخرجي الى مدخل البيت. – وتنحى ماكار ليتر كهاتمر. على المدخل وضعت لوشكا يديها وراء ظهرها، واتكأت على الدرابزين صامتة. العلها كانت تبحث عن مسند. وانتظرت صامتة. انها، مثل اندريه رازميوتنوف، لم تنم الليل بطوله، وفي الفجر سمعت صوت طلقة خافتاً. ومن المحتمل أنها كانت تحدس ما سيخبرها ماكار به الآن، كان وجهها شاحباً، وعيناها الجافتان في محجريهما المظلمين تنطويان على تعبير جديد غير مالوف لماكار.

– قتلت تيموفي، – قال ماكار محدقاً في عينيها السوداوين المتعبتين، محولا نظرته، لا ارادياً، الى تجعدات العذاب التي طلعت بسرعة مذهلة، خلال يومين، وترسخت في زوايا فمها النزق الشهواني. – والآن اذهبي الى البيت، واجمعي اشياءك في صرة، واتركي العزبة الى الأبد. والا فستكون عاقبتك وخيمة... ستحاكمين.

وقفت لوشكا صامتة. نبش ماكار في جيوبه بطريقة مضطربة يبحث عن شيء ما. وبعد ذلك مد على كفه منديلا مدنئلا مكوراً غير مغسول منذ زمن رمادياً من القذارة.

– هذا منديلك، بقي عندما تركتني... خذيه، لست بحاجة اليه الآن.

حشرت لوشكا المنديل باصابع باردة في كم ثوبها المدعوك. زفر ماكار، وقال:

– اذا كنت تريدين توديعه، فهو راقد في فنائكم، وراء المرقى.

وافترقا صامتين فراقاً لا لقاء بعده. ولدى الوداع هز ماكار راسه لها باهمال وهو ينزل درجات مدخل البيت، وشيعته لوشكا بعينيها مثبتة فيه نظرة طويلة، واحنت راسها الذور انحناءة شديدة. العلها في هذا اللقاء الأخير في حياتهما كانت لها صورة أخرى عن الرجل الذي كان دائماً صارماً منكمشاً عن الناس؟ من يدري؟

الفصل الثاني عشر

عجلت أيام الصحو الحارة نضوج الاعشاب في الوديان الجافة، وفي آخر الأمر انضم الفريق الأخير، وهو الفريق الثالث في كولخوز غريمياتشي الى حشى العشب في السهب. خرج حاشو هذا الفريق الى السهب في صباح الجمعة، وفي مساء السبت جاء ناغولنوف الى منزل دافيدوف. جلس وقتاً طويلا صامتاً، محدودب الظهر، غير حليق الوجه، وكانما شاخ خلال الأيام الأخيرة. وقد نما شعر اسود خشن على حنكه المدور. ولاول مرة راى دافيدوف لمعة الشيب الثلجية.

ظل صاحب البيت وضيفه يدخنان صامتين لحوالي عشر دقائق، لم ينبس احد منهما بكلمة، ولم يرد أن يكون البادي في الحديث. ولكن ناغولنوف سأل قبل أن ينصرف:

– يبدو أن اعضاء فريق ليوبشكين قد خرجوا جميعا للحش هل تاكدت من ذلك؟

– خرج من عين له ذلك. فماذا؟

– حرى بك أن تكلف نفسك، وتذهب اليهم في صباح الغد، لترى كيف حالة الأمور عندهم.

– ما لحقوا أن يغادروا حتى اذهب اليهم واتاكد اليس ذلك مبكراً؟

– غدا الأحد.

– وماذا يترتب على ذلك؟

مست شفتي ناغولنوف اليابستين بسمة ساخرة لا تكاد تبين:

– فريقه كله تقريباً من المتدينين المتمسكين بطقوس الكنيسة، لا سيما ذوات التنورات. أنا اعرف انهم خرجوا ولكنهم لن يفعلوا شيئاً في ايام الآحاد! وعلاوة على ذلك ستترى بعض النسوة يذهبن الى الكنيسة في توبيانسكوي والعمل لا يقبل التأجيل، ثم ان الطقس قد يخوننا، وبدلاً من القش سنحصل على ما يفرش للكلاب.

– طيب، سأخرج في الصباح في وقت ابكر، واتاكد ولن اسمح، بالطبع، بأية تغييبات! شكراً على تنبيهك. ولماذا فريق ليوبشكين وحده كل افراده تقريبا من المتدينين كما تقول؟

– طبعا، هناك منهم الكفاية في كل فريق، ولكن في الفريق الثالث اكثر.

– مفهوم. وأنت ماذا تنوي أن تفعل غداً؟ ربما تخرج الى الفريق الأول؟

اجاب ناغولنوف على مضض:

– لن اخرج الى اي مكان. سامكث بضعة ايام في البيت. اشعر بالوهن في كل جسدي... كأنني مهروس هرساً.

وكانت قد جرت العادة في الخلية الشيوعية في غريمياتشي أن يلتزم كل شيوعي اثناء اعمال الحقل، بأن يكون موجوداً في الحقل. وكانوا في العادة يخرجون الى هناك قبل تلقي الأمر بذلك من مركز المنطقة بوقت طويل. وكان وجود ناغولنوف في احد الفرق في هذه المرة ضرورياً تماماً، ولكن دافيدوف كان يفهم جيداً حالة رفيقه النفسية، ولهذا قال:

– طيب، ابق، يا ماكار في بيتك. اظن ذلك سيكون

أحسن. اذ يجب أن يبقى أحد القياديين في العزبة للطوارئ.

ولم يضف دافيدوف جملته الأخيرة الا لعدم رغبته في ان يكشف بصراحة عن تعاطفه مع رفيقه. اما ناغولنوف فكانما لم يات الا لهذا الغرض، فخرج دون ان يودع.

الا انه دخل حجرة الجلوس ثانية من دقيقة، وعلى فمه ابتسامة شعور بالذنب.

– صارت ذاكرتي كالجيب المثقوب، نسيت حتى ان اقول لك مع السلامة، عندما تعود من عند ليوبشكين تعال الي، وخبرني كيف حال المتدينين، والى اين ابصارهم تتجه: الى حيث تسير خيولهم لحش العشب، ام الى صليب كنيسة توبيانسكوي؟ وقل لهؤلاء المأخوذين المعمدين ان المسيح انزل من السماء، طحين المن في سنة المجاعة على الشيوخ فقط، ولمرة واحدة في كل حياته، ولكنه لن يهيىء القش للفزلق لفصل الشتاء، فلا يتوكلوا عليه. وبكلمة واحدة: ادخل الوعي في عقولهم. ثم انت نفسك تعرف كيف تتكلم في مثل هذه الأحوال. خسارة انني لا اذهب معك، والا لكنت لك عوناً في تفتيح عقولهم. بالطبع ربما لا اكون طبيباً نابهاً، ولكن، الى جانب ذلك، يا اخي، املك قبضة بافعة في حسم كل نقاش. ما ان اسددها على منافس مرة واحدة، حتى لا يستطيع ان يعترض، لأن الاعتراض يجدي مايمت واقفاً على قدميك، اما اذا انطرحت ارضاً فأية اعتراضات يمكن ان تكون؟ المعترضون المطروحون ارضاً لا يجلبون انتباهاً.

وفجأة شاعت الحيوية في ناغولنوف، ومضى يقول وعيناه المرحتان تلمعان:

– هيا، يا سيميون، وانا ذاهب معك ايضا! اخشى ان تقع في متاعب مع النسوة من جراء التباسات دينية، وحينذاك ستكون لك ذا نفع لاينكر. انت تعرف نساءنا. اذا كن في الربيع لم يقضين عليك في المرة الاولى، فانهن في المرة الاخرى يقضين عليك حتماً. وفي صحبتي ستكون في امان! انا اعرف كيف اتصرف مع بذور الشيطان هؤلاء!

شعر دافيدوف ذراعيه هلعاً، وهو يكبت ضحكه بكل ما لديه من قوة.

– لا، لا! ما هذا الكلام! لا حاجة لي الى اية مساعدة منك، سأسوي الأمر بنفسي! ولربما مخاوفك هذه لاتقوم على اساس اطلاقاً؟ لقد اصبح الناس اكثر وعياً بالقياس الى الشهور الاولى من الكلخزة. حقيقة! بينما انت، يا ماكار، تقيسهم بالعيار القديم، وهذه حقيقة ايضاً!

– كما تشاء. يمكن ان اذهب ويمكن لا. تصورت انني قد اكون نافعا لك، ولكن اذهب وحدك، مادمت بطلا ابيا لهذا الشكل.

– لا تزعل، يا ماكار – قال دافيدوف متصالحاً – ولكنك مناضل سيىء ضد الاهواء الدينية، وقد تجلب الكثير من الضرر، آه، الكثير جداً في هذه الناحية:

قال ناغولنوف بجفاف:

– لا احب ان اتجادل معك في هذه المسالة. اياك فقط ان تزل! لقد تعودت على التساهل مع هؤلاء الذين كانوا اصحاب ملكية في الأمس، اما انا فاحضهم كما يملي علي ضميري الحزبي. طيب، انا ذاهب، مع السلامة!

وتصافحا بقوة على طريقة الرجال، وكأنهما سيفترقان زمناً طويلا. كانت يد ناغولنوف صلبة باردة كالحجر، ولاح الم مكظوم اخرس في عينيه اللتين فقدتا ماكان لها قبل حين من لمعان حي. وفكر دافيدوف مع نفسه وهو يكبت بجهد شعوراً مفاجئاً بالشفقة: «يمر في حالة صعبة الآن...»

التفت ناغولنوف نحو دافيدوف، وهو يمسك بقبضة الباب، ولكنه لم يكن ينظر اليه. بل ناحية. وحين تكلم ظهرت في صوته بحة خفيفة:

– زوجتي السابقة ومحضيتك غادرت العزبة. هل سمعت؟

اندهش دافيدوف، وكان لا يعرف ان لوشكا قبل بضعة ايام قد ودعت الى الأبد غريمياتشي لوغ وكل الاماكن التي تحبها وتتذكرها. قال في ثقة:

– هذا غير ممكن! الى اين تذهب بدون وثائق وهوية؟ الغلب الظن انها تعيش عند عمتها، وتنتظر حتى تخمد الاحاديث عن تيموفي كما انها بالفعل تشعر بالحرج من ظهورها امام الناس، علاقتها مع تيموفي لم تكن موفقة.

كشر ماكار عن بسمة ساخرة. وأراد ان يقول: «وعلاقتها معي ومعك هل كانت اكثر توفيقا؟» ولكنه قال شيئاً آخر:

– هويتها عندها. وقد غادرت العزبة يوم الاربعاء، وما اقوله لك مضبوط. رايتها بنفسي في الفجر تطلع الى الطريق العام، وفي يدها صرة صغيرة فيها ملابسها على ما أظن. وقد وقفت قليلا على الربوة، وحدقت في العزبة، وغابت عن البصر، القذرة! وقد سالت عمتها الى أين توجهت لوشكا؟ ولكن العمة ايضا لاتعرف شيئاً. قالت لها لوشكا: اذهب الى حيث تقذف بي الأرض، وهذا كل شيء. هذه طريقتها اللاهية في الحياة، الومس اللعينة...

صمت دافيدوف. ان احساسه القديم بالخجل والحراجة امام ماكار استولى عليه الآن بقوة جديدة: قال بخفوت محاولا أن يبدو غير مكترث، محدقا ايضا في نقطة خلال ماكار:

– طيب، الى حيث القت! لا احد يشفق عليها.

– هي لم تكن بحاجة ابداً الى شفقة احد. ولكن تيموشكا غلبنا انا وانت بأفانين الحب، ياأخ. وهذا كما تعودت ان تقول، حقيقة! طيب، ولماذا انت مرتبك؟ لا يعجبك؟ وانا ايضا، يا اخ، لا يعجبني هذا الأمر كثيراً، ولكن لا مفر من الحقيقة! كان من السهل جداً على لوشكا ان تستغفلنا انا وانت. ولماذا؟ لأنها الشيطان في لباس امراة! هل تظن انها كانت تهتم بالثورة العالمية؟ لا، على الاطلاق! لا حاجة بها قط الى الكولخوزات أو السوفخوزات وحتى السلطة السوفيتية نفسها! لا تهتم الا باللهو، وأن تعمل أقل ما يمكن، وتعيث اكثر ما يمكن، وهذا كل برنامجها اللاحزبي! اذا اردت أن تحتفظ بامراة مثلها فعليك ان تدهن يديك بالقطران، وتمسك بذيل تنورتها وتغمض عينيك، وتنسى كل شيء في الدنيا. ولكن مع هذا كله اتصور انها ما ان تغفو قليلا،

حتى تنسل من تنورتها مثلما تنسل الأفعى من جلدها، وتولي عارية كما ولدتها امها الى مجلس لهو وطرب، تلك هي لوشكا الملعونة من الرب ثلاثا! ولهذا لصقت بتيموشكا، وكان تيموشكا هذا يدور في العزبة والاكرديون في يديه اسبوعاً كاملا، ويتمشى ماراً بمسكني، وعند ذاك كانت لوشكا تصاب بالحمى لهفة لخروجي من البيت. فكيف كان يمكن لي أو لك أن نمسك خليعة عابثة مثلها؟ أمن أجلها نتخلى عن الثورة والعمل السوفيتي الحالي؟ ونشترى اكورديوناً بالمشاركة؟ هلاك محقق! هلاك وعودة الى البرجوازية! لا، من الأفضل أن ترحل هي، ولتشنق نفسها ثلاثاً على أول شجرة تصادفها. ليس من أجل قحبة مثلها نتخلى عن فكرنا الحزبي، لا انا، ولا انت، يا سيميون.

ونشط ناغولنوف من جديد، ورفع قامته. وتوردت وجنتاه. اتكأ على عضادة الباب، ولف سيكارة، واشعلها وبعد مصتين أو ثلاث مصات عميقة أخذ يتكلم، ولكن بشكل اهدأ واخفت، متحولا الى الهمس احياناً.

– اعترف لك، يا سيميون، بانني كنت اخاف من ان زوجتي السابقة ستولول، حين ترى تيموشكا ميتاً... لا! فقد روت عمتها أنها تقدمت منه، بلا دموع، وبلا صياح، وركعت على ركبتيها امامه، وقالت بخفوت: «جئتني طائراً، يا صقري، ولكنك جئت لموتك... اغفر لي على انني لم استطع أن احرسك من الموت». ثم خلعت منديلها من رأسها، واخرجت المشط ومشطت تيموشكا وعدلت شعره، وقبلته من فمه، وانصرفت. ابتعدت عنه، ولم تلتفت اليه قط!

وبعد توقف قصير عاد ماكار يتكلم بصوت عال والتقط دافيدوف في بحة صوته وبشكل مفاجيء له نبرات كبرياء لم يحسن اخفاءها.

– كان هذا كل وداعها له. اليست روعة؟ لقد تبين أن هذه المرأة اللعينة قوية القلب! طيب، أنا ذاهب، مع السلامة!

لهذا السبب، اذن، جاء ماكار. اوصله دافيدوف الى

الباب الخارجي، وعاد الى حجرته شبه المظلمة، والقى نفسه على السرير، دون أن يخلع ملابسه. لم يرد أن يتذكر شيئاً، ولا يفكر في شيء، لم يرد الا أن يغط في النوم باسرع وقت. ولكن النوم لم يقبل عليه.

لعن نفسه في سره كثيراً على اندفاعه، على علاقته غير اللائقة بلوشكا. ذلك لان علاقتهما كانت خالية من اية قطرة من الحب... وحين ظهر تيموفي تخلت عنه، عن دافيدوف دون تردد، وعلقت بتيموفي، من جديد، وتبعت محبوبها دون اي تفكير. وهذا يعني بالفعل ان الحب الأول لاينسى... تركت العزبة دون ان تقول كلمة، ودون ان تودع. ولكن ما حاجتها الى التوديع بالفعل؟ لقد ودعت الذي كان عزيزاً عليها، وهو ميت أيضاً. فما علاقة دافيدوف هنا؟ كل شيء سيأخذ مجراه الطبيعي. وكل هذه الحكاية غير النظيفة جداً مع لوشكا مثل رسالة سيئة ناقصة قطعت في وسط الكلمة. وهذا كل شيء.

تقلب دافيدوف على التخت الضيق، وتنحنح، ونهض مرتين ليدخن، ولكنه لم ينم الا في الفجر. ولم يستيقظ الا حين تندرت الدنيا تماماً. ولم يعده نومه القصير بشيء من الحيوية. نهض، يغامره احساس بأنه استيقظ بعد سكرة قوية. فقد كان العطش يضنيه. والصداع يطوق رأسه بالم لا يحتمل، وكان فمه جافاً، ومن حين لآخر كانت تغشاه رغبة خفيفة في التقيؤ. ركع على ركبتيه بصعوبة، وظل وقتاً طويلا يبحث عن حذائه. تلمس بيديه تحت التخت، وتحت الطاولة، واجال بصره بحيرة في أركان الحجرة الفارغة، وحين رفع قامته فقط وفطن الى أن الحذاء في رجليه، تأوه في ضيق، وهمس:

– اراك بلغت الحضيض، يا بحار. تهانينا! ولا اوطأ من هذا، حقيقة! لوشكا الملعونة! اربعة أيام وهي ليست في العزبة. ومع ذلك فهي معي...

عند البئر تعرى الى الوسط، وظل يسكب الماء المتثلج على ظهره الحار العرق لوقت طويل، وتأوه وأن وبلل رأسه،

وبعد قليل، حين شعر بشيء من الارتياح ذهب الى اسطبل الكولخوز.

الفصل الثالث عشر

بعد ساعة كان قرب مخيم الفريق الثالث، ولكنه كان قد لاحظ من بعيد أن شيئاً خارج المألوف يجري في الفريق. فقد كان نصف الحاصدات لا يعمل، والخيول المقيدة القوائم تطوف هنا وهناك في السهب. ولا أحد يجمع العشب المحشوش الجاف، وما من حاملة قش ترى حتى الافق...

وبالقرب من عربة الفريق جلس ستة من القوزاق على بطانية من صنع بيتي يلعبون الورق، وقوزاقي سابع يخيط حذاءه المفتوح البوز، أما الثامن فنائم، وقد وجد مكاناً مريحاً في الظل قرب عجلة العربة الخلفية، وقد حشر وجهه في معطر قذر مدعوك من المشمع. نهض اللاعبون يتكاسل حين رأوا دافيدوف ماعدا شخصاً واحداً كان نصف مستلق مرتفقاً على كوعه، والظاهر انه متألم من لعبة خسرها قبل حين، فكان يمشط شدة الورق ببطء وسهوم.

عدا دافيدوف بفرسه نحو اللاعبين لصقاً، ممتقع الوجه من شدة الحنق، وصرخ بصوت متقطع الاوداج:

– أهذا عمل؟ لماذا لا تحشون؟ اين ليوبشكين؟

– اليوم يوم احد، – رد أحد اللاعبين بتردد.

– وهل الطقس سينتظركم؟! وماذا لو ينزل المطر؟!

وادار دافيدوف فرسه بحدة، حتى ان الفرس سار جنباً، ووطأ البطانية، وفجأة تملكه الرعب من الموطأ غير الاعتيادي لقدميه، فشب على قائمتيه الخلفيتين، وقفز الى مسافة بعيدة في ناحية. ترنح دافيدوف بشدة، وكاد يفقد الركاب تحت قدميه، ولكنه بقي ثابتاً على السرج. انطرح بثقله الى الوراء جاذباً العنان الى الآخر، وحين سيطر بطريقة ما، على الفرس الذي كان يتراقص في مكانه، صرخ مرة اخرى بصوت أعلى:

– انا اسألكم: اين ليوبشكين؟!

– يحش هناك، الحصادة الثانية الى يسار الرابية ولكن مالك تصرخ، يا رئيس؟ حاذر تتقطع اوتار صوتك...

رد بذلك اوستين ريخالين في استهزاء، وهو قوزاقي كهل ركين القامة له حاجبان ابيضان يلتقيان فوق جسر أنفه، ووجهه مدور كثيف النمش.

– ولماذا تتكاسلون؟! السؤال موجه اليكم جميعاً! – غص دافيدوف من الحنق والصياح.

وبعد فترة قصيرة من الصمت اجاب الكسندر ثيتشايف المعلول الوديع وكان جار دافيدوف في العزبة:

– لا أحد يسوق الخيول. هذه هي المسألة. النسوة وبعض الفتيات ذهبن الى الكنيسة، طيب، فاضطررنا نحن ايضا ان ناخذ لانفسنا اجازة... طلبنا اليهن، اللعينات، ان يتركن الأمر، ولكن اية واحدة منهن لم تسمع كلامنا! وهكذا لم نستطع ان نوقفهن! حاولنا بهذه الطريقة وبغيرها، ولكن لم نقدر أن نصدهن. صدق بكلامي، يا رفيق دافيدوف!

– وليكن أصدق بك. ولكن، لماذا انتم الرجال لا تعملون؟

سأل دافيدوف اكثر تماسكاً لنفسه، ولكن بصوت مازال مرتفعاً كثيراً.

ظل الفرس على توثبه لا يهدأ، ويقبع على وركيه، موتراً اذنيه مذعوراً، وسرت تحت جلده رعشة كمويجات دقيقة. امسك دافيدوف الفرس بسحب العنان باحكام، مسنداً على رقبته الدافئة الناعمة، منتظراً الجواب بصبر، ولكن الصمت استطال هذه المرة...

– ليس عندنا من نعمل معه. قلت لك النساء انصرفن، – عاد ثيتشايف يقول بدون ما رغبة، متلفتاً في الآخرين، لعله ينتظر منهم سنداً.

– كيف ليس عندكم ها انتم ثمانية رجال عاطلين. أما كان بوسعكم تشغيل اربع حاصدات؟ نعم! بينما انتم تلهون بلعب الورق. لم اكن اتوقع منكم هذا الموقف من العمل الكولخوزي. لم اكن اظن. حقيقة!

فسأل اوستين متحدياً:

– وماذا كنت تظن؟ كنت تظن اننا لسنا بشراً، بل بهائم عمل.

– ماذا تريد ان تقول بذلك؟

– اليس للعمال ايام عطل اسبوعية؟

– لهم، ولكن المصانع لاتتوقف يوم الأحد، والعمال في الورش لايوزعون الورق، كما انتم هنا. مفهوم؟

– في ايام الآحاد تعمل هناك وجبات اخرى من العمل، على ما اعتقد، أما هنا فنحن وحدنا، كالذين حلت بهم اللعنة! في الطوق من يوم الاثنين الى السبت، وفي يوم الأحد لا نخلعه عن رقابنا، فأي نظام هذا؟ اهذا ما تمليه السلطة السوفيتية؟ انها تملي بأن من غير الممكن ان تكون هناك فروق بين الشعب الكادح، بينما انت تشوه القوانين، وتسعى الى تحويلها الى منفعتك.

صاح دافيدوف مغتاظا:

– ما هذا الهراء؟ ما هذا الهراء؟ أنا اريد أن أوفر علف الشتاء لكل ماشية الكولخوز، ولكل ابقاركم. مفهوم؟ فأين منفعتي في هذا؟ أين فائدتي الشخصية. ماهذا الذي تهذر به، يا مهذار؟!

شمر اوستين ذراعه بازدراء:

– همك الوحيد أن تنفذ الخطة في موعدها. وليكن ما يكون! وتزعم أنك تهتم بمواشينا. لا أصدق بك! كم من الثيران وجدنا عظامها ترقد في الطريق اثناء نقل البذور من المحطة الى قويسكوفوي؟ بلا حصر! وانت هنا تحاول أن تصرف بضاعتك علينا.

– ثيران كولخوز قويسكوفوي نفقت في الطريق لأن اشخاصاً مثلك دفنوا الحبوب في الأرض. انضموا الى الكولخوز، وأخفوا حبوبهم. وكان يجب أن تبذر الأرض بشيء؟ فاضطروا الى سوق الثيران في طريق لايعقل لجلب البذور، ولهذا نفقت. حقيقة! وكأنك لاتعرف ذلك؟

فدمدم اوستين ملحاً:

– لايهمك الا أن تنفذ الخطة، ولهذا تجاهد بشأن القش.

صاح دافيدوف، وقد فقد صبره:

– ولكن، هل انا الذي سيأكل هذا القش؟ اجاهد في سبيل المنفعة العامة! فما علاقة الخطة هنا؟

– لا تزعق ولا ترعد، يا رئيس. فانت لن تخيفني بالزعق والرعد فقد خدمت في المدفعية من قبل. طيب، لنفرض أنك تجاهد في سبيل المنفعة العامة، ولكن لماذا تفري مهج الناس في اجبارهم على العمل في النهار والليل؟ هنا تكمن الخطة! انك تسعى لأن ترفع من شأنك أمام رؤساء مركز المنطقة، ورؤساء المركز أمام الاقليم، بينما نحن ندفع الثمن لكم. تظن الشعب لايرى شيئاً؟ تظن الشعب اعمى لايبصر. انه يرى، ولكن أين الخلاص له من امثالك من الوصوليين؟ فهل تستطيع مثلا أن تنحيك ومن على شاكلتك من مناصبهم ؟ لا! فانت تقوم بما يطرأ على ذهنك. وموسكو بعيدة، موسكو لا تعرف اي افاعيل تلعبها هنا...

وعلى عكس افتراضات ناغولنوف لم يضطر دافيدوف الى مجابهة النساء. ولكن ذلك لم يجعل المهمة اسهل. ادرك دافيدوف من صمت القوزاق المتوجس أن الصياح لا يجدي في هذه الحال، بل ويضرها بالاحرى. ويجب التدرع بالتحمل واستخدام اوثق الوسائل: الاقناع. تمعن دافيدوف وجه اوستين الحانق بعناية، وفكر بارتياح: «لطيف أنني لم آخذ معي ماكار! والا لحصل عراك الآن...»

ولكسب الوقت وللتفكير في الخطة الاتية للتصدي لاوستين، ولربما، للذين سيفكرون في الوقوف الى جانبه سأل دافيدوف:

– هل صوت لي يا اوستين ميخائيلوفيتش، حين انتخبت رئيساً؟

– لا! امتنعت! وما الذي يجعلني اصوت لك؟ لقد جلبوك الى هنا، مثلما يجلب قط في كيس...

– انا الذي جئت بنفسي.

– لا يهم، جئت كالقط في كيس، فما الذي يحدوني الى ان اصوت لك، وانا لا اعرف من انت؟

– وانت الآن ضدي؟

– وكيف لا؟ ضدك، بالطبع!

– اذن، فاطرح في اجتماع الكولخوز العام مسالة تنحيتي. وما سيقرره الاجتماع العام سيجرى. فقط ان تدعم اقتراحك بالدليل، حسب الاصول، والا فستخسر!

– لن اخسر، كن مطمئنا، سيكون لنا وقت لذلك. فلا داعي للعجلة. قل لنا مادمت رئيساً حتى الآن: اين بددت عطلنا الاسبوعية؟

كان الجواب على هذا السؤال ابسط من البسيط، ولكن اوستين لم يترك لدافيدوف مجالا لان يفتح فمه.

– لماذا تقدر النساء الموظفات في مركز المنطقة، وفي الدسكرة من طلاء وجوههن في ايام الآحاد والتبودر، والتنزه في الشوارع طوال النهار، والرقص في حفلات الرقص في الأماسي، ومشاهدة الافلام في السينما. بينما على نسائنا وفتياتنا ان يغتسلن بعرقهن ايام الآحاد؟

– في موسم العمل، في الصيف...

– دائما عندنا موسم عمل شتاء وصيفا، طوال السنة موسم عمل.

– اريد ان اقول...

– لا فائدة من تحريك لسانك! ليس لديك ما تقوله!

رفع دافيدوف يده محذراً:

– على مهلك، اوستين!

ولكن اوستين عاجله بكلام سريع:

– انا اقف امامك كشغيل، بينما انت تجلس على السرج كسيد.

– انتظر، ارجوك كانسان!

– لا فائدة لي من الانتظار. لن تظفر منك بكلمة صادقة مهما طال الانتظار.

– هلا تركتني اتكلم؟ – صاح دافيدوف محمراً.

– لا تصح بي! انا لست لوشكا ناغولنوفا عندك! – واستنشق اوستين الهواء بكلا منخريه المتسعين، وراح يقول بصوت عال صاف متصدع – لن تدعك تكذب بلا جدوى هنا! اصرخ في الاجتماعات، قدر ماتشاء، ولكن الكلام لنا هنا. ولا تحاسبنا، يا رئيس، على لعب الورق! نحن سادة الكولخوز: اذا اردنا عملنا، واذا لم نرد استرحنا، ولن تستطيع ان تجبرنا بالقوة على العمل في يوم الاجازة، ليست لك القوة على ذلك!

– هل انتهيت؟ – سأل دافيدوف، وهو لايكاد يسيطر على نفسه.

– لا، لم انته. ساقول لك في النهاية: اذا لا تعجبك امورنا، فارحل من حيث جئت، والى جهنم! لم يدعك احد الى عزبتنا، وسنعيش بدونك، بالتاكيد. لست ضوء البيت!

وكان ذلك استفزازا واضحا. وكان دافيدوف يدرك جيداً الى م يرمي اوستين، ولكنه كان ايضاً غير قادر على ضبط مشاعره. حامت بقع سود في عينيه، وهو يحدق بما يشبه العمه في حاجبي اوستين الكثيفين، وفي وجهه المدور الذي بدا كالمسترخي، شاعراً من بعيد بيده اليمنى تطبق بقوة على مقبض السوط، وبالدم يتدفق الى وجهه، ويثقل على مفاصل اصابعه الى حد الألم الحاد الواخز.

كان اوستين يقف امامه على رجلين منفرجتين واضعا يديه في جيبي بنطلونه باهمال... وقد استرجع رصانته السابقة في الحال، وهو الآن واثق من تفوقه شاعراً بمساندة الفوراق الصامتة له، فكان يبتسم بهدوء بشيء من الوقاحة، ويقلص عينيه الزرقاوين الغائرتين. بينما صار دافيدوف اكثر شحوباً، غير قادر على النطق بكلمة، فكان يتلمظ بشفتيه المتيبستين صامتاً. كان يصارع نفسه بصلابة، ويشد على كل ارادته ليكبح الضراوة العمياء، الطائشة المعتملة في داخله. وبدا صوت اوستين وكأنه يأتي من بعيد، ولكن دافيدوف كان يلتقط بوضوح معنى ما كان اوستين يقوله، والنبرات الهازئة التي ينطق بها صوته...

– طيب، يا اوستين ميخائيلوفتش، مادمت قد امسكت بعنان الفرس، فخذه، واربطه. وتقول: تعال نلعب الورق؟ تفضل، بكل سرور! وزع الورق، حقيقة!

واتخذ الأمر منحى غير متوقع تماماً... تبادل القوزاق النظرات، وتباطأوا، واخذوا يجلسون البطانية صامتين ربط اوستين الفرس بعجلة العربة، وجلس مقابل دافيدوف، وتربع على طريقة الكالميك، ملقيا عليه نظرات سريعة من حين لآخر. انه قطعاً لم يعتبر نفسه قد فشل في محادثته مع دافيدوف، ولهذا قرر أن يستمر في الحديث:

– حسناً، بخصوص الاجازات الاسبوعية لم تقل شيئاً، يا رئيس! وضعت المسالة على الرف.

وعده دافيدوف بمعنى خفي:

– مايزال لنا حديث في المستقبل.

– وكيف يجب ان يفهم ذلك؟ كأنك تهددني؟

– لا، ولم! جلست لألعب الورق، يعني نؤجل الاحاديث الجانبية. ما يزال ثمة وقت للكلام...

– اما الآن فكلما صار دافيدوف هادئاً صار اوستين اكثر قلقاً. وقبل أن يفرغ من القاء ما في يده من الورق، القاه على البطانية، وطوق ركبتيه بيديه.

– اي لعب سيكون الآن، تعال نتحدث عن الاجازات الاسبوعية افضل. هل تتصور، يا رئيس، أن الناس وحدهم قلقون على هذه الاجازات؟ لا، قطعاً! في صباح الأمس عندما ذهبت لأشد الحصان، تنهدت الفرس الكميت كمداً، وقالت لي بلسان بشري: «آه، يا اوستين، يا اوستين، ما هذه الحياة الكولخوزية؟ في ايام الاسبوع يعملون علي ولا يخلعون عني النير ليل نهار، وحتى في ايام الأعياد لا يفكون العدة عني. من قبل لم يكن ذلك! من قبل كانوا لا يعملون علي في ايام الآحاد. كانوا اما يركبونني للزيارات او لحضور حفلات الزفاف، مثلا. من قبل كانت حياتي افضل من الآن بما لا يقاس!».

ضحك القوزاق بأصوات خفيضة، ولكنها جماعية. وبدا

– لماذا تفتح فمك كالسمكة، يا رئيس، ولا تنطق بكلمة؟ هل بلعت لسانك، ام ليس لديك ما تقوله؟ اظن انك كنت تريد أن تتكلم، بينما تقف صامتاً... نعم، بالفعل، يبدو أن الحقيقة لا تقهر! خير، يا رئيس، الا تتورط معنا، ولا تحتد على اشياء تافهة. الأفضل أن تنزل من الحصان بشكل مسالم، وتلعب معنا الورق لعبة الأهبل، انها، يا اخ، لعبة ذكية، وليست كقيادة الكولخوز...

ضحك احد القوزاق الذين كانوا واقفين وراء اوستين ضحكة خفيفة، ثم قطعها، ولبرهة قصيرة ساد قرب العربة صمت مشؤوم لا يسمع فيه غير انفاس دافيدوف المتلاحقة، ودمدمة حاصدة من بعيد، وهديل القبرات المهدىء الخلي في اجواء السماء العميقة غير مرئية للعين. فهي، على اية حال، لم تكن تعبأ بما يجري بين الناس المستثارين المحتشدين قرب العربة...

رفع دافيدوف السوط فوق رأسه ببطء، ولكن الحصان بكعبيه. وفي تلك اللحظة اندفع اوستين الى الأمام، وامسك شكيمة الحصان بيسراه، وتحرك هو الى اليمين، وانضغط على قدم دافيدوف كلياً. وقال بخفوت وتحد:

– اتريد أن تضربني؟ هيا، حاول!

وفجأة ارتسم عظما وجنتيه المدوران بحدة والتمعت عيناه ببريق تحد مرح، وانتظار لهيف.

ولكن دافيدوف اوقع السوط بقوة على ساق حذائه الرث، وقال بصوت عال، وهو ينظر الى اوستين من فوق الى اسفل، محاولا أن يبتسم عبثا.

– لا، لن اضربك، يا اوستين، لا! فلا تأمل فيه، ايها الحرس الابيض! ولكن لو وقعت في يدي قبل عشر سنين لكان شيء آخر... حينذاك كنت ستتوقف عن الكلام الى الابد، ايها المعادي للثورة!

ودفع دافيدوف اوستين جانبا بحركة خفيفة من يده، وترجل.

تعاطفهم الى جانب اوستين. الا انهم سكتوا مترقبين، حين قال دافيدوف بصوت خافت، وهو يتلمس تفاحة آدم في اعلى رقبته:

– ولمن كانت هذه الفرس الطريفة قبل الكولخوز؟

قلص اوستين عينيه بمكر، بل وغمز دافيدوف قليلا.

– أظنك تحسبها فرسي؟ كانت تتحدث بكلماتي؟ لا، يا رئيس، لقد ارتكبت خطأ في هذا! كانت فرس تيتوك، وهي من الحيوانات المصادرة من الكولاك. كانت تتغذى عنده في الحياة الانفرادية، ليست كما في الكولخوز: حتى في الشتاء لم تكن تاكل الفضلات، بل الشعير وحده، حتى استنفدت اسنانها كلها بالاكل، كما يمكن القول. انها لم تكن تعيش، بل تتنعم.

فسأل دافيدوف وكأنما عرضاً:

– يعني فرس عجوز، اذا كانت قد استنفدت اسنانها كلها؟

– نعم، عجوز، متقدمة في السن. – وافق اوستين برضى، غير منتظر من خصمه شركاً.

فقال دافيدوف بثقة:

– عبثاً أن تستمع الى هذه الفرس المتحدثة.

– ولم عبثاً.

– لأن الافراس الكولاكية تتكلم بكلام الكولاك.

– ولكنها الآن كولخوزية.

– بالاسم فقط انت ايضاً كولخوزي، ولكنك من حيث الفعل ربيب كولاكي.

– اوه، تجاوزت بالشتيمة، يا رئيس!

– لم اتجاوز. الحقيقة تبقى حقيقة. ثم اذا كانت الفرس عجوزاً، فما حاجتك الى الاستماع اليها؟ انها من الهرم اخرفت تماماً! ولو كانت اصغر سناً واذكى عقلا لما تكلمت معك بهذا الشكل.

فسأل اوستين، وقد تحفز:

– وكيف كانت تتكلم؟

– كانت ستقول لك: «آه، اوستين، اوستين، يا ذيل الكولاك! في الشتاء، يا ابن الكلبة، لم تعمل شيئاً، وفي الربيع لم تعمل، تظاهرت بالمرض، والآن ايضاً لاتريد ان تعمل بجد. فبم ستطعمني في الشتاء، انا الفرس الكميت وماذا ستاكل انت نفسك في الشتاء؟ ستقطس كلانا من الجوع بسبب اعمالنا الهزيلة!». هكذا كان عليها ان تتكلم!

عطى ضحك جماعي على كلمات دافيدوف الأخيرة. وضحك نيتشايف كالفتاة، ضحكاً كنثار الحمص، واصدر وصوصة نحيلة كوصوصة الفتاة ايضاً. كما ان غيراسيم زيبابلوف النحيل الصوت نهض على رجليه، وقهقه قابعاً بشكل مضحك، ضارباً ساقي حذائيه بكفيه، كما في الرقص. اما تيخون اوسيتروف الهرم فقبض على لحيته الشائبة، وزعق بصوت مجلجل:

– انبطح، اوستين، ولا ترفع راسك. مسح دافيدوف بك الارض!

ولكن اوستين نفسه – وبالدهشة دافيدوف! – ضحك ضحكاً غير قليل دون ان يرتبك، وضحكه لم يكن قط اضطرارياً او مصطنعاً.

وحين عاد الصمت بالتدريج بادر اوستين ليقول:

– أوه، يا رئيس، غلبتني... لم اكن أظن انك ستفلت من تحت قبضتي بهذه البراعة. اما وصفك لي بذيل الكولاك فليس عادلا، وكذلك قولك بانني لم امرض في الربيع، بل تمارضت، فهو ايضاً اتهام كاذب. فانت، يا رئيس، وارجو المعذرة، تلجأ هنا الى الكذب.

– اثبت.

– بم اثبت لك؟

– بالحقائق.

– واي حقائق يمكن ان نربطها بحديثنا المازح هذا؟ – سأل اوستين الذي مال قليلا الى الجد مبتسما بدون وثوق.

– فقال دافيدوف في غيظ:

– كفاك تحامقاً. حديثنا بعيد عن ان يكون مزاحاً.

العمل الذي بداته ليس مزاحاً على الاطلاق. أما الحقائق فها هي امامك: أنت في الكولخوز لا تشتغل تقريباً، وتحاول أن تجر وراءك العناصر غير الواعية، وتجري احاديث خطرة عليك. وها أنت اليوم، مثلاً، افلحت في عرقلة الخروج الى العمل. نصف الفريق لا يحصد بفضل اجتهاداتك. فاي مزاحات لعينة هذه؟

رف حاجبا اوستين بشكل مضحك، وارتخيا، واتصلا مرة اخرى على قصبة انفه في خط مستقيم خشن.

– تكلمت عن الاجازات الاسبوعية فصرت في الحال من ذيول الكولاك واعداء الثورة؟ يعني انت وحدك يمكن أن تتكلم، وعلينا أن نصمت، ونمسح افواهنا في اكمامنا؟

اعترض دافيدوف بحرارة:

– ليس لهذا السبب فقط! كل تصرفاتك غير نزيهة، حقيقة! مالك تماحك على الاجازات الاسبوعية بينما قد حصلت أنت، في الشتاء، على عشرين يوما في الشهر من هذه الاجازات وليس انت وحدك، بل كل الموجودين الآن هنا. ماذا كنتم تفعلون في الشتاء غير تنظيف الماشية، وتصنيف البذور؟ لا شيء! كنتم منبطحين فوق رفوف المواقد الدافئة! فاي حقوق لكم في الاجازات الاسبوعية في اوج ذروة العمل، حين كل ساعة ثمينة، وحيث الخطر يهدد حتى القش؟ طيب، قولوا باخلاص!

حدق اوستين متفرساً في دافيدوف لا يرف له جفن وصمت. وبدلا منه تحدث تيخون اوسيتروف:

– لا حاجة الى التهامس، يا جماعة القوزاق. دافيدوف على حق في كلامه. لقد اخطانا وعلينا ان نصحح خطانا. عملنا يقتضي أن لا ناخذ اجازة لانفسنا في كل وقت نريد، بل في الشتاء بالفعل وعلى العموم. وقد كان ذلك من قبل أيضاً، حين كنا نعمل افراداً. من كان هنا يترك استمارة في عيد الشفيع؟ ما ان تلحق لتحصد الحبوب، حتى ينعين عليك ان تحرث في الخريف. كلام دافيدوف صحيح، وقد اخطانا اليوم في ترك النساء يذهبن الى الكنيسة. كما ان

خطانا واضح في الجلوس هنا نلعب الورق... وباختصار، اخطانا! جئينا على انفسنا بانفسنا، وهذا حق. وانت، يا اوستين، ضللتنا، ايها الشيطان المهذار!

انفجر اوستين كالبارود. اظلمت عيناه الزرقاوان، وبرقتا حنقاً:

– وانت، أيها الأحمق الملتحي، هل معك عقلك ام نسيته في البيت؟

– بالضبط، يبدو انني نسيته...

– اجر الى العزبة، واجلبه!

غطى تيتشايف فمه بكفه الضيقة ليخفي ابتسامته، وسأل اوسيتروف بصوت ناحل مرتعش، وكان هذا قد ارتبك قليلا:

– وهل حفظته بمكان جيد، يا تيخون غورديتش؟

– وماذا يهمك؟

– اليوم يوم احد...

– وماذا يترتب على ذلك؟

– اغلب الظن أن كنتك اخذت ترتب البيت في الصباح، وتكنس ارضية الحجرات، واذا كنت قد خبأت عقلك هذا تحت مسطبة او مقعد، فانها بالتاكيد ستكنسه بالمكنسة، وترميه في الحوش. وسينقره الدجاج السارح على الفور. اخشى ان تعيش بقية عمرك بلا عقل، يا غورديتش. وهذا الذي همني...

وضحك الجميع، حتى دافيدوف، ولكن ضحك القوزاق لم يكن مرحاً، على ما بدا... الا أن التوتر الذي كان الى حين قد تلاشى. وكما يحصل دائماً في مثل هذه الاحوال منعت النكتة الجيدة وقوع شجار محقق موشك. هدا اوسيتروف قليلا، بعد التكدر، فاكتفى بان قال مخاطباً تيتشايف:

– اما انت، يا الكسندر، فكلما نظرت اليك اقول لنفسي لا هو نسي عقله في البيت، ولا عقله معه. وتصور لنفسك اعقل مني؟ زوجتك ايضاً في طريقها الآن الى

توبيانسكوي تتلهف للوصول اليها، وأنت أيضاً لاتمتنع عن لعب الورق.

فرد نيتشايف على النكتة، بنكتة:

– ذنبي على جنبي! ذنبي على جنبي!

ولكن دافيدوف لم يكن راضياً عن نتيجة الحديث. فقد كان يريد ان يضيق الخناق على اوستين بشكل حقيقي. فقال متفرساً في اوستين:

– طيب، تعالوا ننهي الحديث عن الاجازات الاسبوعية بشكل كلي. هل اشتغلت كثيراً في الشتاء، يا اوستين ميخائيلوفيتش؟

– اشتغلت قدر ما توجب.

– يعني؟

– لم احسب.

– كم ايام عمل سجلت لك؟

لا اتذكر. وما هذا الالحاح علي؟ خذ واحسب. اذا لم يكن لديك شيء تفعله. فقلة العمل تبعث على الضجر.

– لست احتاج الى ان احسب. واذا كنت انت قد نسيت، فانا كرئيس كولخوز، لا يجدر بي أن انسى.

وكم كان نافعاً لدافيدوف السجل الضخم الذي لم يكن يفارقه قط! وحين كان يقلب صفحات هذا السجل الملطخة كانت اصابعه ماتزال ترتعش من الانفعال الذي انتابه قبل حين:

– ها هو اسمك، يا مجد! وها هي ايام عملك: خلال كانون الثاني، وشباط، وآذار، ونيسان، وايار بالمجموع، سأقول لك بالمجموع تسعة وعشرون يوم عمل. ها، كيف؟ شغل المجدين؟

قال أحد القوزاق في اسف وعتاب:

– رقم ضئيل، يا شغول!

ولكن اوستين لم يرد أن يذعن.

– ما يزال امامي نصف عام، وعدد الدجاج يحسب في الخريف عادة.

قال دافيدوف بحدة:

ستعد الدجاج في الخريف، ولكن المورد يحسب يومياً. تذكر جيداً، يا اوستين، في المستقبل: لن نتحمل العاطلين في الكولخوز. سنطرد جميع المخربين بكل حزم! لاحاجة لي في الكولخوز الى طفيليين. فكر الى اين انت تسير، والى اين تتحول؟ لاوسيتروف حوالي مائتي يوم عمل، وللآخرين في فريقكم اكثر من مائة، وحتى للمرضى من امثال نيتشايف، حوالي المائة. بينما لك تسعة وعشرون يوم عمل! ان هذا عار!

قال اوستين عبوساً:

– زوجتي مريضة، تعاني من امراض نسائية، وترقد في الفراش اسابيع. وفضلا على ذلك عندي ستة اطفال.

– ولكن انت؟

– واي شيء انا؟

– لماذا لا تشتغل بكل قابليتك؟

وتوهجت وجنتا اوستين مرة اخرى بحمرة الكرز، ولمع شرر خبيث في عينيه الزرقاوين المتقلصتين.

– مالك تحملق بي؟ تنظر في عيني فقط، والى وجهي؟! – صاح مستشاطاً غضباً قبضة يده اليسرى، وانتفخت العروق الزرق على رقبته القصيرة المدورة – فهل انا عندك لوشكا ناغولنوفا ام فاركا خارلاموفا المغرمة بك؟ انظر الى يدي وعند ذاك اسالني عن العمل.

ودفع يديه الى الامام بقوة، وعند ذلك فقط راى دافيدوف السبابة وحدها تبرز في يد اوستين اليمنى المشوهة، وفي مواضع الاصابع الاخرى رقع بنية متغضنة.

حك دافيدوف قصبة انفه في دهشة:

– هذا هو اذن... اين فقدت اصابعك؟

– في القرم، في جبهة القتال ضد فرانغل. لقد وصفتني بالابيض، بينما أنا وردي كالبطيخة الناضجة جداً، اذ كنت مع البيض، وضلعت مع الخضر، وحاربت مع الحمر. خدمت مع البيض، حاربت بلا رغبة، وكنت في المؤخرة في

اغلب الأوقات. ولكنني حاربت البيض، وفقدت اصابعي، لسوء الحظ. اليد التي امسك بها القدح سليمة – وحرك اوستين اصابع يده اليسرى السميكة القصيرة بينما اليد التي تطعمني، بلا كماشات كما ترى.

– اصابتك شظية؟

– قنبلة يدوية.

– وكيف سلمت سبابتك؟

– كانت على زناد الأطلاق، فبقيت سليمة. في ذلك اليوم قتلت بنفسي اثنين من الفرانغليين. كان يجب أن ارد حيفي بشيء! غضب الرب علي بسبب اراقة الدماء. هذه، فاضطررت ان اضحي له باربع اصابع. اظنني دفعت ثمنا بخساً. والا لأمكن لطيشه ان يطيح برأسي...

وبالتدريج انتقل هدوء دافيدوف الى اوستين. فصارا يتحدثان بلهجة مسالمة. وفتر اوستين المتهور بعض الشيء، بل وظهرت على شفتيه ابتسامته الساخرة المعتادة.

– لاباس لوضحيت بالاصبع الأخيرة ايضاً، فما نفعها لك؟

– ما هذا السخاء منك، يا رئيس، على ما للآخرين! حتى هي لوحدها ضرورية لي في الشغل.

فسأل دافيدوف كاتماً ابتسامته:

– وما وجه الضرورة هذه؟

– في الكثير... اتوعد بها زوجتي في الليل، اذا لم تستجب لشيء ما، وفي النهار اسلك بها اسناني، واخدع بها الناس الطيبين. فانا لفقري لا اذوق مرق الكرنب باللحم الا مرة في السنة بينما بهذه الاصبع اخرج كل يوم الى الشارع بعد الغداء، واسلك هذه الأسنان باصبعي، وابصق، والناس، على ما اظن، يقولون لانفسهم: «اوستين اللعين هذا يعيش عيشة غنى، كل يوم يلتهم اللحم، ويبقى لديه الشيء الكثير منه...» هكذا بينما انت تقول لانفع لك باصبع واحدة. انها تؤدي لي خدمتها! دع الناس يعتبرونني غنياً، فان ذلك يرضي غروري، على أية حال!

قال دافيدوف، وهو يبتسم لا ارادياً:

– ان لك لساناً ذرباً. هل ستحشى اليوم؟

– بالتاكيد، بعد هذا الحديث اللطيف.

التفت دافيدوف الى اوسيتروف. وكان يتوجه اليه كاكبر الحاضرين سناً:

– هل خرجت نساؤكم الى توبيانسكوي منذ وقت طويل؟

– قبل ساعة، لا اكثر.

– واللواتي خرجن كثيرات؟

– حوالى اثنتي عشرة. انهن كالنعاج تماما، تتجه النعجة حيث تتجه النعاج جماعة. واحياناً تقود نعجة ضالة وحدها جمع النعاج كله... ونحن ايضا تبعنا اوستين، فاعطينا لانفسنا اجازة وقت الحش، حلت عليه اللعنة!

ضحك اوستين بطيبة نفس.

– مرة اخرى انا مذنب! لا تلق علي، أيها الملتحي، ذنب الآخرين! النساء ذهبن للصلاة، فما علاقتي انا؟ زوجة اتامنتشوكوف وعجوز من نساء العزبة خرجتا بهن عن الطريق المستقيم. منذ الفجر جئن الينا في السخيم، وتعال اقنعهن! يقلن اليوم عيد القديسة المعذبة غليكيريا، وانتم، يارجال، تريدون الحش، ولا تخشون من الأثم... فخرجن على هواهن. سألت من العجائز: من غليكيريا هذه وربما هي لوشكا ناغولنوفا؟ فهي ايضاً معذبة. طوال حياتها كانت معذبة من أحد... واذا بالعجائز يتصايحن واثرن علي زوبعة! حتى ان العجوز اتامنتشوكوفا لوحت علي بعكازتها تريد ان تضربني بها، ولكن تنحيت في الوقت المناسب، والحمد لله، و الا لحصلت على عجرة في جبيني، كعجرة الوز الهولندي. وفي هذه اللحظة علقت النسوة بي، أسوا مما تعلق الاشواك بذيل الكلب، ولم اخلص منهن الا بالقوة... فاي انسان تعيس انا؟ لا حظ لي، اليوم! عاينوا، يا ناس يا طيبون، في يوم واحد لحقت منذ الصباح اتشاتم مع

العجائز ومع النسوة، ومع رئيس الكولخوز، ومع غورديتش، ابي لحية البوم. هذا يحتاج الى مقدرة.

– وهذا ما تقدر عليه انت! ولا تحتاج الى ان تشرك به جارك. انت، منذ الصغر، يا اوستين، تتناوش مع الجميع مثل الديك المعارك. ولكن عرف الديك المعارك، وتذكر كلمتي، دائما مدمى.

اتم اوسيتروف كلامه محذراً. ولكن اوستين بدا وكأنه لم يسمعه. تابع قوله، وهو ينظر الى دافيدوف بعينين صفيقتين غير هيابتين:

– ومقابل ذلك كان لنا حظ اليوم مع المحرضين. يفدون الينا راجلين وراكبين... ولو كان هناك خط حديدي بالقرب لجاءوا الينا بالقطار ايضاً! ولكن عليك ان تتعلم التحريض الحقيقي، يا رئيس، من عجائزنا... فهن اكبر سناً منك، واكثر مكراً، وتجربتهن اكبر. انهن يتكلمن بخفوت، ويقنعن بلطف، بكل تأدب. فيحصلن على مرامهن، ولا يفشلن في شيء! وانت كيف تعمل؟ ما ان تصل بفرسك الى المخيم حتى تصرخ مل، السهب: «لماذا لا تشتغلون؟!» من في هذا الزمن يتعامل مع الشعب بهذا الشكل؟ ان الشعب، في عهد السلطة السوفيتية، نفض عن كبريائه غبار القرون، ويرفض ان يهاجم بالصياح. وباختصار انه لايحب اية دغدغة، يارئيس. وبالمناسبة الاتمانات في العهد القيصري لم يكونوا يرفعون اصواتهم كثيراً على القوزاق، يخشون ان يتكدر الشيوخ. وقد حان الوقت لأن تفهم انت وناغولنوف ان تلك الاوقات قد ولت، وقد آن الاوان للتخلي عن العادات القديمة... هل تتصور انني كنت سأقبل بأن احش لو لم تكبح جماحك؟ لا، على الاطلاق. ولكنك هدأت قليلا، وخففت من غضبك بعض الشيء، وقبلت بأن تلعب معنا الورق، وتحدثت حديثاً معقولا، فعاد الوضع الى طبيعته! تعامل معي بالكلمة الحسنى، وسأقبل بكل شيء: العب الورق، أو اشد حزم القش.

كان دافيدوف، وهو يصغي الى اوستين باهتمام،

يعاني احساساً مريراً بعدم الرضى عن النفس، وضيقاً خانقاً. ذلك لأنه محقاً في شيء ما هذا القوزاقي العنيد عناداً يفوق الحد. كان محقاً على الأقل في قوله ان دافيدوف ماكان يجب ان يبدأ توضيحه بالشتائم والصياح. ولكن رميته طاشت اولا حين وصل الى المخيم، كما لمح بذلك اوستين فكيف سها ولم يضبط نفسه. ولهذا كان على دافيدوف، ان يعترف مع نفسه، دون ان يجور على ضميره، بأنه استخدم، دون ان يلحظ، طريقة ناغولنوف الفظة في معاملة الناس، اقلت من العقال، كما يمكن ان يقول اندريه رازميوتنوف في مثل هذه الحال، وهذه هي النتيجة: ان ينصح بطريقة لاذعة بأن ياخذ المثل من العجائز اللواتي يتصرفن بحذر، وحذق فيفلحن في الحصول على مبتغاهن دون ان تطيش رميتهن. كل ذلك أوضح من الوضوح! كان عليه ايضاً ان يتقدم من المخيم بهدوء، ويتكلم بهدوء، ويقنع الناس في ان الوقت غير مناسب للاستمتاع بالعيد، بينما هو صرخ على الجميع، ومرت به لحظة كاد فيها ان يستخدم سوطه. في برهة خاطفة يشطب على كل عمله في انشاء الكولخوز، وبعد ذلك، يضع بطاقته، وربما، على طاولة لجنة الحزب في المنطقة... وعند ذلك ستكون هذه كارثة رهيبة في حياته!

ان مجرد التفكير بأن هذا كان من الممكن ان يحدث لو لم يضبط نفسه في الوقت المناسب جعل دافيدوف يهز كتفيه بقشعريرة، ويشعر للحظة ببرودة الزمهرير تسرى في ظهره...

حدق دافيدوف في الاوراق المبعثرة على البطانية تتناهبه المشاعر المقبضة، ولسبب ما تذكر فجأة ولعه في لعبة «التقاط»* في سنوات الحرب الاهلية، وفكر مع نفسه: «افرطت في اللعبة! وعلى ست عشرة نقطة موجودة عندي حصلت على عشر نقاط زائدة، على الأقل، حقيقة!» ولم يكن

* نوع القمار في لعبة الورق يسمى «الواحد والعشرون».

مريحا له كثيراً الاعتراف بنزقه، الا أنه وجد في نفسه الشجاعة، ولو بشيء من مصارعة النفس لأن يقول:

– في الحقيقة ماكان علي ان الجأ الى الصياح. وانت محق في ذلك، يا اوستين! ولكن الذي آلمني انكم لا تشتغلون، فماذا تظن؟ كما أن كلامك معي كان أيضاً ابعد عن الهمس. ولكن كان من الممكن أن نصل الى اتفاق بدون شتائم، بالطبع. طيب، كفانا هذا! اذهب، وشد على العربة اخف الخيول، وانت، يا نيتشايف، خذ زوجاً آخر مناسباً من الخيول، لهذه العربة.

سأل اوستين دون ان يخفي دهشته:

– وتذهب انت لملاحقة النساء؟

– بالضبط. ساحاول اقناع النساء ايضا بأن يعملن اليوم.

– وهل سيخضعن لك؟

– سأرى. الاقناع ليس امراً.

– حسناً، كان الرب ومريم العذراء في عونك! اسمع، يا رئيس، خذني معك، ها؟

وافق دافيدوف دون تردد.

– لنذهب. ولكن ستعينني في اقناع النساء؟

تغضنت شفتا اوستين المتشققتان من الحر، حين ابتسم:

– سيعينك مساعدي، وسآخذه معي حتماً!

– اي مساعد؟

ونظر دافيدوف الى اوستين في حيرة. فتقدم هذا من العربة بصمت ودون عجلة، واخرج من تحت كومة القفاطين سوطا طويلا في نهاية مقبضة شرابة جلدية انيقة.

– هذا هو مساعدي. اهو جيد؟ مقنع الى حد كبير! ما ان يصفر حتى يقنع ويخطب الود. لا يهمك أنني آيسر!

قطب دافيدوف:

– اترك هذا! لن اسمح لك بأن تمس النساء باصبع، وكم اسر لو جربت مساعدك هذا على ظهرك!

الا أن اوستين خاوص عينيه بسخرية وقال:

– ذات مرة اراد الجد ان يتلذذ بأكل فطائر الجبنة، ولكن الكلب اكل الجبنة... انا، كأحد معوقي الحرب الاهلية، عندي امتياز. والنساء لايزيدهن الضرب الا سمنة وخشوعاً، وانا اعرف ذلك بالقياس الى زوجتي. ومن يستحق الضرب؟ النسوة، بالطبع. ثم لماذا تتخوف؟ ما ان اضرب اثنتين او ثلاثاً حتى تطير الباقيات الى العربة في لحظة واحدة كأنما كسحتهن الريح!

واعتبر الحديث منتهياً، فاخرج اللجام من تحت العربة، وذهب الى الربوة ليمسك حصاناً. واسرع نيتشايف وراءه والقوزاق الآخرون ما عدا اوسيتروف وحده. سأله دافيدوف:

– لماذا لاتذهب للحش، يا تيخون غورديتش؟

– اريد أن اقول لك كلمة عن اوستين. ممكن؟

– هيا.

فقال اوسيتروف متوسلا:

– لا تغضب على هذا الاحمق، بحق الرب! انه يصير احمق تماماً، حين يلجم.

ولكن دافيدوف قاطعه:

– ليس أحمق على الاطلاق، بل عدو صريح لحياة الكولخوز! مثل هؤلاء، كافحناهم، وسنظل نكافحهم بلاهوادة.

– ولكن اي عدو هو؟! – هتف اوسيتروف مدهوشاً – اقول لك انه يخرج عن اطواره، حين يستثار. وهذا كل شيء! انا أعرفه منذ الصغر، وبقدر ما اتذكر انه دائماً حاد المزاج بهذا الشكل. وقبل الثورة كان شيوخنا كثيراً ما يجلدون هذا الوغد في اجتماعات العزبة على مقاومته. كانوا يجلدونه بحيث لم يكن يستطيع الجلوس ولا الاستلقاء. ولكن بلا جدوى! يختفي اسبوعاً، ثم يعود الى ديدنه الأول، ولا يدع احداً في سلام، يبحث عن المآخذ لدى الجميع، ويفعل ذلك بكل ما له من طاقة. يفلي الناس، كما يفلي الكلب برغوثا علق في ذيله! ولماذا يصير عدواً للكولخوز؟ طوال حياته كان شوكة في حلوق الاغنياء، أما كيف يعيش هو، فانظر الى حاله! كوخه مائل الى جانب ويوشك أن يتداعى، وليس له

غير بقرة، وغنمتين هزيلتين، أما الفلوس فلم يكن يملكها قط، ولا يملكها الآن. في أحد جيبيه برغوث وفي الجيب الآخر قملة. وهذه كل ملكيته! بينما زوجته مريضة، والأطفال اتعبوه، والحاجة تنخر به... وربما بسبب هذا يحنق على الجميع، وانت تقول: عدو. انه مهذار وليس عدو.

– اهو من أقاربك؟ لماذا تدافع عنه؟

– نعم، في الحقيقة، هو ابن عمي.

– ولهذا تسعى له؟

– ولم لا، يارفيق دافيدوف؟ في رقبته ستة أطفال، واحدهم اصغر من الآخر. ولكن لسانه كالرحى. وكم قلت له: «احفظ لسانك، يا اوستين! فانت تستخدمه بشكل يجلب لك المتاعب. وفي يوم ما تهذر هذراً يؤدي بك الى سيبيريا، وعند ذلك تعض لسانك، ولكن بعد فوات الأوان!» فيرد علي: «وهل تحسب الناس في سيبيريا يسيرون على الاربع؟ لا اخاف حتى من الريح الباردة هناك. فانا شديد المناعة!» طيب، لك أن تفعل مع هذا الأحمق شيئاً، ولكن ما ذنب اطفاله؟ من الصعب تربيتهم، الا أن اليتيم سهل جداً في هذه الأيام.

اغمض دافيدوف عينيه، وغرق في تفكير طويل. العله تذكر في هذه اللحظات طفولته المعتمة الكالحة المريرة؟

كرر اوسيتروف:

– لا تغضب عليه بسبب كلماته السيئة.

مرر دافيدوف يده على وجهه، وكانما صحا على نفسه.

– المسالة كالآتي، يا تيخون غورديتش – انشا يقول ببطء وتباعد في الكلمات – لا أمس اوستين في الوقت الحاضر. وليشتغل في الكولخوز قدر الامكان ولن نعطيه عملا صعباً، وليعمل ما يقدر عليه. واذا سيكون لديه نقص في عدد ايام العمل في نهاية العام سنساعده. نخصص للاطفال بعض الحبوب من الصندوق العام. مفهوم؟ ولكن ابلغه عني على انفراد: اذا نوى مرة أخرى اثارة المتاعب علي في الفريق، وتضليل الناس في مختلف الحقارات فانا

لن نتسامح معه! وليفكر في الأمر قبل فوات الأوان! أنا لا انوي أن امزح معه بعد الآن، فقل له هذا. أنا لا اشفق على اوستين، بل على عياله!

– شكراً على الكلام الطيب، يا رفيق دافيدوف ! كما اشكرك على انك لا تضمر حقداً في قلبك على اوستين.

وانحنى اوسيتروف لدافيدوف. فاستشاط هذا فجأة:

– ولم هذه الانحناءة لي؟ انا لست ايقونة امامك! لاحاجة الى انحناءات، وسافعل ما قلته!

فاجاب اوسيتروف بوقار:

– هذا ما تعودنا عليه منذ العهود القديمة: اذا شكرت فاحن قامتك.

– طيب، لا باس، يا شيخ. خبرني: هل عند اطفال اوستين ثياب؟ وكم واحداً منهم في المدرسة؟

– في الشتاء جميعهم يلازمون سطح الموقد، فليس لهم من الثياب ما يخرجون فيها الى الشارع. وفي الصيف يخرجون مهفهفين باسمالهم. اعطي لهم ما قسم من الثياب المصادرة، ولكنه ما اعطي لا يستر عريهم. وفي هذا الشتاء اخذ اوستين آخر ولد له من المدرسة، لانه لا يملك ما يلبسه او يحتذيه. وهذا الصبي كبير، في الثانية عشرة تقريباً، ويستحي أن يلبس اسمالا كاسمال الغجر...

حك دافيدوف علباءه بحدة، وفجأة أدار ظهره لاوسيتروف دورة حادة.

– اذهب للحش.

وكان صوته فاقد الرنين مقبضاً... حدق اوسيتروف في شخص دافيدوف المكور الكتفين على نحو يبعث على الاسى، وانحنى مرة اخرى، وسار نحو الحاصدات ببطء.

هدأ دافيدوف قليلا، وشيع اوسيتروف ببصره طويلا، وهو يبتعد عنه. وراح يفكر: «اناس مدهشون هؤلاء الفوزاق! جرب أن تفهم اي مخلوق اوستين هذا! أهو عدو صريح أم مجرد مهذار ومشاجر يطفح لسانه بما في عقله؟ مايسر يوم الا ويضعون لي الالغاز... وعلي أن احزر كل

واحد منها، عليها اللعنة. ولكن لاباس، ساحزر! ساجرعها مع كيس من الملح ولا اقل، ولكنني ساحزرها على كل حال، حقيقة!»

قطع اوستين عليه افكاره. جاء يركل على حصان، وهو يقود الحصان الثاني من مقوده.

– ولم علينا أن نشدهما الى عربة خفيفة يا رئيس؟ تعال نشد عربة اعتيادية. ولا اظن النساء سيهتززن كثيراً فيها، اذا وافقن على العودة!

قال دافيدوف:

– لا، شد عربة خفيفة.

فقد لحق أن يفكر وعرف ما قد تؤدي العربة الخفيفة من نفع في حالة توفيقه في مهمته.

* * *

وبعد حوالي اربعين دقيقة من السير السريع رأيا من بعيد الحشد الزاهي للنسوة الطالعات بثياب الاعياد، وهن يصعدن ببطء في الطريق الصيفي على منحدر الوهدة المقابل.

حاذى اوستين دافيدوف:

– طيب، يا رئيس، تثبت! الآن ستنتصب النساء لك مناوشة ثانية.

– قال الأعمى: «سنرى!» – رد دافيدوف بمرح، وهو يحث الحصانين بالاعنة.

– الاتخاف؟

– وماذا اخاف؟ هن اثنتا عشرة فقط، او اكثر بقليل.

فسأل اوستين، وهو يبتسم بغموض:

– واذا ساعدتهن أنا؟

وتفرس دافيدوف في وجه اوستين، ولم يستطع أن يعرف هل جاد في كلامه ام مازح.

– كيف سينقلب الأمر عند ذاك؟ – سأل اوستين ثانية، ولكن دون ان يبتسم هذه المرة.

اوقف دافيدوف الحصانين بقوة، ونزل من عربته وتقدم من العربة الخفيفة. ادخل يده في جيبه الأيمن واخرج مسدساً – هدية نيستريتكو له – ووضعه على ركبة اوستين.

– امسك هذه اللعبة، خبئها ابعد ما يكون دفعاً للشر. فانا اخشى في حالة انضمامك الى النسوة أن لا أتحمل الاغراء، واحطم راسك اول ما احطم.

واخذ السوط من يد اوستين العرقة برفق، ورفع ذراعه، ورماه في ناحية بعيداً.

– والآن لنذهب! سر انشط، يا اوستين ميخائيلوفيتش. المكان الذي وقع فيه سوطك له علامة لاتخطأ. وسناخذه في طريق العودة، حقيقة! أما المسدس فارجعه لي، حين نصل الى المخيم. هيا!

لحق دافيدوف بالنساء، والتف عليهن من ناحية بسرعة واوقف العربة في عرض الطريق. اوقف اوستين الحصانين قرب عربة دافيدوف.

– مرحباً، يا حسنوات! – حيا دافيدوف المتدينات بمرح مصطنع.

فردت احداهن، وهي اكثرهن جراة.

– مرحباً، اذا كنت لا تمزح.

قفز دافيدوف من العربة، وخلع طاقيته، واحنى راسه:

– ارجوكن باسم ادارة الكولخوز أن تعدن الى العمل. رجالكن ارسلوني اليكن. هم الآن يحشون.

– نحن ذاهبات الى القداس، وليس الى الرقص والطرب! – صاحت امراة عجوز ذات وجه لامع من العرق، في نبرة من الغضب.

ضغط دافيدوف كلتا يديه على صدره داعكا طاقيته:

– بعد الحصاد صلين قدر ماتشئن، ولكن لا وقت الآن. انظرن الى السحب قادمة، بينما لم تشد اية حزمة من العشب المحصود. سيتلف العلف! يتفسخ كله. واذا

تلف العلف نفقت الماشية في الشتاء. وانتن تعرفن هذا اكثر مني!

سألت شابة بتهكم:

– أين رأيت السحب؟ السماء كالقماشة المغسولة!

– البارومتر يسير الى المطر، ولاتهم السحب! قريباً سينزل المطر حتماً! هيا، يا نساءنا العزيزات، وفي الأحد القادم اذهبن الى الكنيسة. وما الفرق عندكن؟ اجلسن، وسانطلق بكن كالريح! اجلسن، يا عزيزاتي، فالوقت ضيق.

حث دافيدوف كولخوزياته مغدقاً عليهن اطيب الكلمات. وهن يترددن، وصرن يتهامسن فيما بينهن. وفي تلك اللحظة هب اوستين لنجدة دافيدوف بشكل لم يتوقعه. تقدم من الخلف وبخطوات غير مسموعة من زوجة نيتشايف الممتلئة الطويلة، واحتضنها بذراعيه، وحملها منطلقا بها الى العربة غير مكترث بالضربات التي كانت تمطره بها، وهي تضحك، وأجلسها الى الخلف برفق. تراكضت النسوة في كل الاتجهات ضاحكات زاعقات.

– اجلسن بانفسكن في العربة، والا استخدمت السوط حالا! – صاح اوستين بأعلى صوته مقلباً عينيه بوحشية وانشا يضحك هو الآخر. – اجلسن، ولا امسكن، شرط ان تسرعن، يا عفريتات يا امهات الذيول الطويلة!

وقفت زوجة نيتشايف على العربة بكل قامتها، وهي تعدل لفاحها الصغير الذي انسرح من على راسها وصاحت:

– هيا، يا حلوات، اجلسن بسرعة! هل تتوقعن ان انتظركن؟ انظرن اي شرف لنا: الرئيس جاء بنفسه، ليأخذنا!

اقبلت النسوة من ثلاث جهات، وصعدن الى العربة بلا كلفة وهن يتدافعن ويتضاحكن، ويلقين نظرات سريعة على دافيدوف. وبقيت في الطريق امرأتان عجوزتان.

– وهل علينا وحدنا ان نذهب الى توبيانسكوي، ياشيطان؟ – وحدجت زوجة اتامنتشوكوف دافيدوف بنظرة بغض ثاقبة.

الا ان دافيدوف استعاذ بكياسته كبحار سابق، وانحني، وضرب كعبيه ضربة رنانة:

– وكيف تذهبان مشيا، يا محترمات؟ ها هي عربة خفيفة خصيصاً لكما، فاركبا فيها، وسيرا بها الى الكنيسة تحرسكما السلامة. سيسوقها اوستين ميخائيلوفيتش، وسينتظركما حتى يتم القداس، وبعد ذلك يعود بكما الى العربة.

كانت كل دقيقة ثمينة، وما من حاجة لانتظار موافقة العجوزتين! أخذ دافيدوف بذراعيهما، وقادهما الى العربة. قاومت زوجة اتامنتشوكوف بكل وسيلة، الا ان اوستين كان يدفعها من الوراء بلطف واحترام. واجلست العجوزتان في العربة بطريقة ما، فامسك اوستين بالعنان، وقال بخفوت شديد:

– ماكر انت، يا دافيدوف، كالشيطان نفسه!

ولاول مرة يسمي رئيسه بالاسم المجرد طوال هذه المدة.

وفطن دافيدوف الى ذلك في سره، وابتسم ابتسامة متعبة، فقد اثرت فيه الليلة المؤرقة، والمتاعب التي صادفها، واستولى عليه النعاس بشكل لايقهر.

الفصل الرابع عشر

– حسناً، عندنا عشب غزير في هذه السنة. واذا لا تفسد الأمطار علينا الأمر، ونكمل حشه وهو جاف، فستكون لنا وفرة من العلف.

قال ذلك اغافون دوبتسوف وهو يدخل الى غرفة مكتب دافيدوف الرحيبة، ويقعد على المسطبة متعباً يتنحنح كالشيوخ.

وما ان استقر في وضع أروح حتى وضع الى جانبه قبعته ذات الظليلة، الناصلة اللون بفعل الشمس، ومسح بكم قميصه التشيت العرق من وجهه المنمش المسود من

تلويح الشمس، وتوجه بابتسامة نحو دافيدوف والمحاسب وياكوف لوكيتش الجالسين وراء مكتبه.

– طاب نهارك، يا رئيس، وانتما ايضاً، يا كتبة!

نخر المحاسب قائلا:

– وصل المزارع دوبتسوف! انظر، يا رفيق دافيدوف، الى هذا الرجل بامعان! حسناً، هل تحسب نفسك مزارعاً، يا اغافون؟

– ومن انا، في رايك؟ – تفرس دوبتسوف في المحاسب بتحد.

– كل شيء، ما عدا المزارع.

– وبالتحديد؟

– ليس من اللياقة ان اقول من أنت...

تعبس دوبتسوف، وتجهم، حتى لكأن وجهه الداكن صار اكثر دكنة... قال في ضيق ظاهر:

– طيب، لا تلعب معي، واسرع وحدد من انا في رايك. واذا كانت الكلمة قد تعصت في حلقك، دعني اضربك على ظهرك، وستتكلم فوراً.

قال المحاسب بوثوق:

– انت غجري حقيقي.

– كيف انا غجري؟ لماذا غجري؟

– هكذا، ببساطة جداً.

– حتى البرغوث لا يلسع ببساطة، بل عن قصد. فاشرح انت قصدك المهين لي.

خلع المحاسب نظارته، وحك وراء اذنه بالقلم. – لا تتضايق، يا اغافون، وتمعن في كلامي. المزارعون يعملون في الحقل. اليس كذلك؟ والغجر يطوفون القرى والعزب، ويتسولون، ويسرقون ما سنحت لهم سرقته... وهذا انت. لماذا جئت الى العزبة؟ اليس للسرقة؟ واذا لم يكن لذلك فلتطلب شيئاً اليس كذلك؟

– لم لأطلب فقط... – قال دوبتسوف – يعني ممنوع

ان ازوركم؟ مجرد ان آجيء لشان من الشؤون، مثلا؟ يعني تمنعني، يا ابا نظارة؟

سأل دافيدوف مبتسماً:

– بالفعل، ما سبب مجيئك؟

ولكن دوبتسوف تظاهر بانه لم يسمع السؤال. اجال بصره في الحجرة شبه المظلمة بامعان، وتنهد بحسد:

– هناك اناس في دعة العيش، عليهم اللعنة! شبابيكم مغلقة بصفاقاتها، وارض حجرهم مرشوشة بالماء البارد، حيث السكون، والضوء الخافت، والطراوة. ومامن ذبابة تزعجهم، وما من بعوضة تنفذ اليهم... ولكن في السهب، يا ابن الكذا والكذا، تلسعك الشمس من الصباح حتى المساء، وتنفذ الى دمك. وكل ذبابة قذرة تلتصق بك، واسوا من زوجتك المضايقة، وفي الليل لا يترك البعوض لك لحظة من الراحة. وهذا البعوض غير اعتيادي، بل ضخامة! انتم لا تصدقون، يا اخوان، كل واحدة بحجم العصفور، وحين تمتص الدم تصير حتى اكبر حجماً من العصفور. واقول لكم الحق! ان هذا البعوض بذاته اصفر، مريع، حمته تقرب من شبر. تستطيع الواحدة منه أن تنفذ من خلال القفطان، وبلسعة واحدة تصل الى اللحم الحي، وحق الرب! وكم من العذابات نتحمل من كل الاهوال الطائرة، وكم نفقد من الدم، اكثر مما في الحرب الاهلية، واقولها بصراحة!

قال ياكوف لوكيتش متضاحكا:

– يا لكذبك الهائل، يا اغافون! ستتسبق الجد شوكار بسرعة في هذا المجال.

– ولماذا اكذب؟ انت تلازم ادارة الكولخوز، ولكن تعال الى السهب، وسترى – قال دوبتسوف بلهجة لاذعة، ولكن الابتسامة ظلت تلوح طويلا في عينيه المتقلصتين الماكرتين.

ولربما كان سيستمر في حكايته الكئيبة بطريقة مصطنعة عن مضايقات ومتاعب الفريق، لو لم يقاطعه دافيدوف قائلا:

– يكفي! لا تتشيطن، ولا تتباك، وتذر الرماد في عيوننا: قل بصراحة: ما سبب مجيئك؟ تطلب مساعدة؟

– لاضير فيها...

– ماذا يعوزك، يا يتيم: تطلب اباء ام امهات؟

– انت تجيد النكات، يا دافيدوف. ولكننا لم نبدأ الحياة بالدموع وحدها، بل وبالضحك ايضاً.

– انا اسأل دون نكات: ما الذي يعوزك؟ ناس؟

– وناس ايضاً؟ على منحدرات وهدة تيرنوفا – انت رأيت بنفسك – يوجد عشب جيد كثيراً، ولكن الحاصدات لا تنفع على كل منحدر. والمحشات اليدوية لا تكفي للحاصدين. ومن الموجع حقاً أن يتلف مثل هذا العشب ويضيع جزافاً!

سأل دافيدوف بمراوغة:

– ربما نضيف لك حاصدتين او ثلاثاً، من الفريق الاول على الأقل؟

زفر دوبتسوف بخرن، ونظر الى دافيدوف طويلا وبكآبة ومعاناة. وتمهل في الجواب، وزفر للمرة الأخيرة، وقال:

– لا ارفض. العانس لا ترفض حتى الخطيب الأعور. ... تصوري بهذا الشكل: عملنا في الكولخوز مشترك، وعلى اساس الفائدة المشتركة، ولهذا لا اعتبر قبول المساعدة من فريق آخر عملا معيباً. صحيح؟

– تصورك صحيح. ولكن اليس الحش على خيول الآخرين يومين عملا معيباً؟

– على اي خيول هذه؟ – شابت صوت دوبتسوف رنة حيرة اصيلة حتى ان دافيدوف ماكاد يكتم ابتسامته.

– كأنك لاتعرف؟ من اخذ من ليوبشكين زوجين من الخيول، حين كانت ترعى، لا تعرف؟ اظن محاسبنا على حق. ان في شخصيتك شيئاً غجرياً، تحب ان تطلب، ولا تتحرم من خيول الآخرين...

استدار دوبتسوف، وبصق بازدراء:

– ويسمونها خيولا! ان هذه البراذين هي التي ضلت الطريق الى فريقنا. ولا أحد ساقها، ثم لماذا تسميها خيول الآخرين مادامت عائدة الى كولخوزنا؟

– ولماذا لم ترجع هذه البراذين رأساً الى الفريق الثالث؟ وانتظرت حتى يأتي اصحابها، ويفكوها من الحاصدات؟

ضحك دوبتسوف:

– أصحاب حريصون! خلال يومين لم يستطيعوا العثور على خيولهم في دائرة عملهم! وهل هؤلاء اصحاب شيء؟ متسيبون، وليس اصحاب شيء. ولكن ما مضى انقضى، وقد تصالحنا مع ليوبشكين، فلا حاجة الى اثارة الماضي. ولم اجيء الى هنا طلباً للمساعدة ابداً. بل لمسألة مهمة. فكيف يمكن ان اترك الحش، اذا لم يكن هناك شيء مهم؟ في اسوا الأحوال سننهض بالمهمة، بدون مساعدة، ونكتفي بما لدينا من وسائل. اما هذا العفريت العجوز المحاسب ميخيتش فقد نسبتني الى الغجر رأساً. اعتبر ذلك ظلماً! نحن لانطلب المساعدة الا عند الضرورة القصوى، والا فنحن نسلخ جلودنا، ولا نتخلى عن كبريائنا ... ثم ماذا يفهم ميخيتش المسكين هذا في شؤون الزراعة؟ انه ولد على المعداد الخشبي، وسيموت على المعداد الخشبي. اعطني اياه، يادافيدوف، للفريق لمدة اسبوع. ساجلسه على حاصدة يلقي العشب، وانا اوجه الحصانين. سأعلمه كيف يعمل! يجب عليه مرة واحدة في حياته، على الأقل، ان يبلل نظارته بالعرق!

واوشك الحديث شبه المازح ان يتحول الى شجار، ولكن دافيدوف توقاه بسؤال عاجل:

– اي مسألة جئت من أجلها، يا اغافون؟

– كيف اقول لك... انها مهمة بالنسبة لنا، بالطبع. ولا نعرف نهائياً ما رأيكم فيها... باختصار، جلبت معي ثلاثة طلبات، مكتوبة بالحبر بالطبع. طلبنا من المسجل

عندنا قطعة قلم لا يمحى، واذبنا لبابه في ماء نائر، وكتبنا الطلبات الثلاثة بصيغة واحدة.

وتهيأ دافيدوف لأن يواجه دوبتسوف بنوبيخ صارم على «ولعه بطلب الاعانة» فسأل مهتماً:

– اية طلبات؟

تابع دوبتسوف قوله دون ان يلتفت الى سؤاله:

– كان يجب، حسب ما اعرف، ان نوجهها الى ناغولنوف، ولكنه لم يكن في البيت، فقد خرج الى الفريق الاول، ولهذا قررت ان اقدم هذه الأوراق اليك. اذ لا يمكن ان اعود بها!

فعاد دافيدوف يسأل بنفاد صبر:

– عن اي شيء هذه الطلبات؟

لم يبق في وجه دوبتسوف الذي اكتسى جدية اي ظل للمزاح السابق. اخرج من جيب الصدر وعلى مهل كسرة من مشط، وأخذ يمشط الى الأعلى الشعر الذي تلبد بالعرق، واتخذ هيئة رصينة، وعند ذاك فقط أخذ يتكلم كاتبا قلقه في داخل نفسه، مختاراً الكلمات بعناية:

– نريد نحن جميعاً، اقصد نحن الثلاثة الراغبين في هذا الأمر، نريد أن ننضم الى الحزب. ولهذا نطلب من خليتنا الحزبية في غريمياتشي أن تقبلنا في حزبنا البلشفي. كنا نقلب المسألة في الليالي على هذا الوجه وذاك، وناقشناها من مختلف النواحي، وقررنا بالاجماع ان ننضما كنا قبل أن نذهب للمبيت، نخرج الى السهب، ونبدأ بتبادل الانتقادات، ومع ذلك فقد اعترف احدنا للآخر بانه مؤهل للحزب، وعليكم أنتم، بعد هذا، أن تقرروا فيما بينكم ما سيكون. احدنا ظل يردد انه كان يخدم في وحدات البيض، ولكنني قلت له: «انت خدمت مع البيض جندياً نفراً مكرهاً ولخمسة اشهر، وانضممت الى الجيش الأحمر متطوعاً، وخدمت كآمر وحدة لمدة سنتين، يعني أن خدمتك الأخيرة تقضي على خدمتك الأولى، وأنت مؤهل للحزب». ويقول الآخر زاعماً أنك، يا دافيدوف، قد دعوته الى

الانضمام الى الحزب منذ زمان، ولكنه رفض آنذاك بسبب تعلقه بثيرانه. ولكنه يقول الآن: «أي تعلق يمكن ان يكون، اذا كان ابناء الكولاك يحملون السلاح، ويريدون ان يعيدوا كل شيء الى الاوضاع القديمة! انا اتقزز نفسياً من كل اسف على ثيراني السابقة وكل الحيوانات الأخرى، واسجل في الحزب لأقف، كما كنت قبل عشرة أعوام مضت، في صف واحد مع الشيوعيين دفاعاً عن السلطة السوفيتية». وانا لي مثل هذا الراي، فكتبنا هذه الطلبات. واقول باخلاص ان المكتوب في كل الطلبات ليس مرتباً بشكل دقيق، ولكن... – وهنا نظر دوبتسوف الى ميخيتش بمؤخر عينه، وختم قوله – ولكننا لم نتعلم المحاسبة والكتابة، ومع ذلك فكل ما خططناه صحيح حقيقة.

وصمت دوبتسوف، ومرة أخرى مسح بكفه العرق المتصبب بغزارة، ومال الى اليسار قليلا، وسحب بعناية من جيب بنطاله الأيمن الطلبات الملفوفة بجريدة.

وكان كل ذلك مفاجئا جداً، حتى أن الصمت ساد الغرفة لدقيقة. ولم ينطق احد من الحاضرين بكلمة، ولكن كل واحد منهم تلقى ما قاله دوبتسوف بطريقته الخاصة. ترك المحاسب مابين يديه من تقرير ودفع نظارته الى جبينه دهشة، وتفرس بعينيه العمشاوين في دوبتسوف مذهولا لا يرف له جفن، واشاح ياكوف لوكيتش وجهه، لأنه لم يكن قادراً على اخفاء ابتسامته الجهماء الازدرائية. اما دافيدوف فقد تالق وجهه بابتسامة الفرح، واتكا على ظهر المقعد، حتى أن المقعد ارتج تحته، وصر بثقله.

– تسلم عرائضنا، يا رفيق دافيدوف – وفك دوبتسوف الجريدة، وقدم لدافيدوف بعض الاوراق المنتزعة من دفتر مدرسي، والمكتوبة بحروف كبيرة غير مستقيمة.

سأل دافيدوف بصوت صادح:

– من كتب الطلبات؟

– بيسخليبنوف الصغير وأنا وكوندرات مايدانيكوف.

قال دافيدوف بانفعال مكتوم، وهو يتقبل الطلبات:

– هذه حقيقة مؤثرة، وحدث كبير بالنسبة لكم ايها الرفاق دوبتسوف والرفيقان الآخران مايدانيكوف وبيسخليبنوف، وبالنسبة لنا كاعضاء خلية غريمياتشي الحزبية. اليوم سأسلم طلباتكم الى ناغولنوف، أما الآن فعد الى الفريق، ونبه الرفاق الى اننا في مساء الأحد سننتظر في طلباتهم في اجتماع حزبي مفتوح. سنبدأ في الساعة الثامنة مساء، فتعالوا في الوقت المحدد. على العموم ستتابع انت هذه المسألة. بعد الغداء شدوا أحسن الخيول، وتعالوا الى العزبة. وهناك شيء آخر. هل لديكم في المخيم عربة خفيفة غير العربة؟

– عندنا.

– طيب، تفضلوا وتعالوا بها الى العزبة – وتألق دافيدوف مرة اخرى بابتسامة طفولية، ولكنه غمز لدوبتسوف في نفس اللحظة – وارتدوا الى اجتماعنا كما يرتدي العرسان! هكذا، يا اخي، فالحياة توهب مرة واحدة. وهذا، يا اخي، حدث ذو شأن... انه، يا عزيزي، كالشباب يأتي مرة واحدة في الحياة...

كانت تنقصه الكلمات، على مايبدو، فصمت بادي الانفعال، وبعد ذلك سأل فجأة مضطرباً:

– والعربة الخفيفة في هيئة معتبرة؟

– معتبرة، ذات اربع عجلات. ولكن يمكن نقل الروث فيها، أما نقل الناس عليها في النهار فغير صحيح، مخجل، في الليل فقط، في ستر الظلام. انها مهلهلة كلها، ومتداعية، انها في مثل سني، على ما اعتقد. وكوندرات يقول ان قوزاق عزبتنا غنموها من نابوليون قرب موسكو.

– لا تنفع، اذن! – قال دافيدوف بتصميم – سأرسل الجد شوكار ليجيء بكم على عربة بنوابض. لقد قلت ان مثل هذا الحدث لايحصل الا مرة واحدة في العمر.

كان يريد أن يحتفل قدر الامكان بانضمام اناس احبهم

ووثق بهم الى الحزب. وفكر مع نفسه: ماذا يتخذ بعد ليزيد من بهجة هذا اليوم المشهود.

– يجب طلاء المدرسة وتبييضها قبل يوم الأحد لتبدو كالجديدة – قال أخيراً، وهو ينظر الى اوستروفنوف شارد الذهن – وينظف ما حولها، وينثر الرمل في ساحة اللعب وفناء المدرسة. هل تسمع، يالوكيتش؟ ويجب أن تكنس ارضيات الغرف والمقاعد، وتغسل السقوف، وتهوى الحجرات. وباختصار أن يرتب كل شيء تمام الترتيب!

سأل ياكوف لوكيتش:

– وماذا لو حضر ناس كثيرون، ولا تستوعب المدرسة كلهم، فماذا سيكون آنذاك؟

– اقامة ناد، هذا هو المطلوب! – قال دافيدوف بهدوء واستغراق، بدلا من ان يجيب. الا انه عاد الى ارض الواقع على الفور: – لايسمح للأطفال والصبيان بدخول المدرسة، وعند ذلك سنستوعبهم. وعلى كل حال يجب أن تعطى للمدرسة، كيف أقول؟ مظهراً احتفالياً.

– ومن سيتعهدنا؟ من سيكفلنا؟ – سأل دوبتسوف قبل أن يخرج.

ابتسم دافيدوف حين كان يصافحه بقوة، وقال:

– من يتعهدكم؟ سنجد! اليوم مساء سنكتب لكم توصيات، حقيقة! طيب، مع السلامة! انقل تحياتنا الى الحاصدين، واخبرهم أن لايتركوا العشب يبقى طويلا، ولا يتركوا القش في شداته يجف كثيراً. هل يمكن الاعتماد على الفريق الثاني؟

– يمكن الاعتماد علينا دائماً، يا دافيدوف. – اجاب دوبتسوف بجدية غير مألوفة منه، وسلم، وخرج.

* * *

في بكرة الصباح في اليوم التالي ايقظ صاحب البيت دافيدوف:

– استيقظ، يا نزيلنا، جاءك رسول على فرس يعدو

من ميدان المعركة... اوستين المقطوع الاصابع جاء يرقل من الفريق الثالث على فرس بلا سرج، يبدو منهوكاً قليلاً، وقيافته ليست على مايرام.

كان صاحب البيت يبتسم ابتسامة عريضة، ولكن دافيدوف لم يفهم مقصوده والنعاس مايزال عالقاً في عينيه، رفع رأسه من المخدة المدعوكة، وسأل في غمغمة ولا اكتراث:

– ماذا تريد؟

– قلت خيال جاء اليك، في غاية الانهاك طلباً للنجدة، لابد...

واخيراً توضح لدافيدوف معنى كلام صاحب البيت، فأخذ يلبس ثيابه على عجل. في الرواق بلل وجهه على عجل بالماء الدافيء المزعج الذي لم يلحق أن يبرد خلال الليل، وخرج الى مقدمة البيت.

كان اوستين ريكالين يقف على الدرجة السفلى ممسكا العنان باحدى يديه، وملوحاً بالاخرى على فرس فتية اثارها العدو. كان قميصه الازرق التي احالت الشمس لونه قد تمزق في مواضع عدة حتى طرفه، وبقي معلقا بكتفيه باعجوبة، وكانت كدمة زرقاء كثيفة على خده الأيسر من الوجنة حتى الحنك، وعينه محمرة منتفخة، اما العين اليمنى فقد كانت تبرق مستثارة محنقة.

– أين حصلت على كل هذا؟ – سأل دافيدوف بلهفة، وهو ينزل من مقدمة البيت، ناسياً حتى أن يبادره بالسلام.

صاح اوستين بصوت مبحوح:

– نهب، يا رفيق دافيدوف، نهب، وسلب، ولا شيء آخر. ومن غير أولاد الكلبة يقدمون على هذه الفعلة؟! آه، توقفي، يا ملعونة! – ومرة أخرى لوح اوستين بذراعه على الفرس التي كادت تدوس على قدمه.

قال دافيدوف:

– اوضح بكلامك.

– اكثر من هذا لا يمكن! ويسمونهم جيراناً، عساهم ان يحرقوا بنار حامية، عساهم أن يصابوا بحمى قاتلة، هؤلاء الطفيليين! ما رأيك في هذا؟ اهل توبيانسكوي، جيراننا، قطع الله دابرهم، تسللوا في الليلة البارحة كاللصوص الى كالينوف اوغل، وأخذوا معهم مالايقل عن ثلاثين كومة من قشنا. وفي الفجر اراهم يحملون على عربتين متأخرتين قشنا الذي حششناه بأيدينا. ولم يبقوا على شيء منه، ولا حتى كومة واحدة! ركبت حصاني، وانطلقت اليهم: «ما هذا الذي تفعلونه، يا كذا وكذا؟ على اي اساس تأخذون قشنا؟!» ويضحك احدهم، وكان على عربة قريبة مني هذا القذر: «كان قشكم، وصار قشنا. لا تحشوا في ارض لاتخصكم» «كيف لا تخصنا؟ هل غشيت عيناك حتى لاترى اين يقف عمود الحدود؟» ولكنه يقول لي: «انت نفسك افتح عينيك، وانظر، فستجد العمود يقف وراءك. هذه الأرض ارضنا، ارض توبيانسكوي منذ اقدم العصور. اجركم عند الله على أنكم شددتم همتكم، وحصدتم قشنا». اها، هكذا؟ يتلاعبون باعمدة الحدود؟ سحبته من العربة من رجله، ووجهت له ضربة بين حاجبيه ببقايا اصابعي، ليرى احسن، ولا يخلط بين ارضهم وارض الآخرين... فتلقى ضربة جيدة، فسقط من العربة، وتبين انه ليس قوياً في الوقوف على قدميه. وهنا جاء الثلاثة الآخرون متراكضين. واستطعت أن اجندل واحداً آخر منهم، وبعد ذلك لم الحق أن اضربهم، فقد أجتمع اربعتهم على ضربي. وهل يستطيع شخص واحد أن يصمد ضد أربعة؟ وقبل ان تنضم جماعتنا الى العراك، لونوا جلدي بمختلف الالوان كما يلون بيض عيد الفصح، وقطعوا قميصي تقطيعاً. طيب، اليسوا اوغاداً؟ كيف سأظهر الآن امام زوجتي؟ حسناً، ليضربوني، ولكن لماذا يمسكونني من ثلابيبي، ويجعلون قميصي مزقاً؟ والآن ماذا افعل به؟ اجعله فزاعة طيور؟ اخجل حتى من ان اجعل فزاعة طيور من مزق كهذه، ام اقطعه شرائط للفتيات. لن يستعملنها،

فالقماش ليس من النوع المقبول... ولكن، مهلا حتى يقع في يدي في السهب واحد من اهالي توبيانسكوي هؤلاء! سيرجع الى زوجته مزرقاً، كما انا الآن!

ضحك دافيدوف وهو يعانق اوستين.

– لا تغتم، فالقميص يعوض، اما الكدمات الزرق، فانها ستزول الى يوم زفافك.

اجاب اوستين قارصاً:

– الى يوم زفافك؟

– الى اول زفاف في العزبة. انا لحد الآن لم اخطب واحدة. وانت تذكر ماذا كان يقول لك عمك يوم الأحد؟: «الديك المعارك دائماً مدمى العرف».

ابتسم دافيدوف، وقال في سره «شيء رائع تماماً، يا عزيزي اوستين، انك اشتبكت في عراك في سبيل قش الكولخوز، لا من اجل ملكيتك انت. هذا شيء يؤثر في النفس، حقيقة». ولكن اوستين ابتعد متكدراً.

– انت، يادافيدوف، مرتاح وتضحك. اما انا فكل اضلاعي تئن علي. فلا تتملص بالضحك. بل اركب فرسك واذهب الى توبيانسكوي لاعادة القش. استطعنا ان نخلص عربتين، ولكن كم لحقوا ان ياخذوا اثناء الليل! دعهم يعيدون قشنا الى العزبة ويسلموه لنا جزاء على نهبهم، وسيكون ذلك عدلا وانصافاً. – وابتسم بصعوبة من شفتيه المتورمتين المدماتين – سترى ان نساءهم وحدهن سيجلبن القش، لان رجالهم يخافون ان ياتوا الينا للزيارة، ولكن، عند السرقة، جاء الرجال وحدهم، واختاروا منهم اقواهم، حتى ان الاربعة، حين اخذوا يضربونني بقبضاتهم شعرت بروحي تطفح من داخلي... لا يتركونني انزل على الارض، ان اسقط، مهما حاولت! وهكذا كنت انقل من يد الى يد، حتى وصل جماعتنا. وانا ايضا استخدمت اصابعي المقطوعة قدر الامكان، ولكن الغلبة للعدد.

وحاول اوستين ان يبتسم مرة اخرى، ولكنه لم يستطع الا ان يلوى قسمات وجهه، ويشمر ذراعه.

– ليتك، يارفيق دافيدوف، رايت صاحبنا ليوبشكين، لست من الضحك. كان يجري حولنا، ويقعى كالكلب حين يريد ان يقفز سياجاً، ويصرخ بصوت قبيح: «اضربوهم، يا شبان، واجعلوهم مزقا! اضربوهم، جلودهم تتحمل، انا اعرفهم!» وهو نفسه لا يدخل العراك، ويمسك نفسه. وعمي اوسيتروف يحتد غيظاً، ويصيح به: «ساعدنا. ايها الخروف المخصي! ام في ظهرك دمامل؟!» وليوبشكين يكاد يبكي ويجيب زاعقا: «لا اقدر! فانا حزبي. ورئيس فريق علاوة على ذلك! مزقوهم! سأتحمل انا بشكل ما!» ويظل يجوم حولنا، ويقعى، ويصك على اسنانه من ضبط النفس... ولكن لاجدوى من تضييع الوقت عبثاً، اسرع لتتناول فطورك، وانا خلال ذلك احصل لك على حصان، واسرجه، ونذهب الى الفريق سوية. شيوخنا قالوا: لن ترينا وجهك بدون ان يجيء به. لن ننوي ان نهدي قشنا الثمين للطفيليين!

وحين اعتبر اوستين ان مسالة الذهاب الى توبيانسكوي قد انتهت، حل حصانه من درابزين مدخل البيت، وسار في فناء ادارة الكولخوز. وفكر دافيدوف «يجب ان اذهب الى بوليانيتسا. فاذا كان القش قد اخذ بعلمه، فلا مفر من الشجار معه. انه عنود كالحمار، ومهما يكن من شيء يجب ان اذهب».

شرب دافيدوف قدحاً من الحليب الطازج على عجل، وبينما كان يتم مضغ كسرة خبز يابسة، راى اوستين في نشاط غير اعتيادي يصل الى باب الفناء على فرس ناغولنوف الكميت، وعليه قميص جديد.

الفصل الخامس عشر

رغم انهما التقيا في لجنة الحزب في المنطقة ولمرات قليلة، الا احدهما، في الاكثر، كان يعرف الآخر بالسماع، كان نيكيفور بوليانيتسا رئيس كولخوز

توبيانسكوي المسمى... «الشعاع الاحمر» خراطاً سابقاً في احد مصانع التعدين في دنيبروبتروفسك، ومن المشتركين في حملة الخمسة والعشرين الفاً، وقد استقبل دافيدوف في مقر ادارة الكولخوز كصديق قديم.

– آه، رفيقي العزيز دافيدوف! بحار البلطيق! اية ريح رمت بك الى كولخوزنا المتخلف في كل المؤشرات؟ تفضل، اجلس، وستكون ضيفاً عزيزاً!

وتالق وجه بوليانيتسا العريض المنمش بابتسامة مصطنعة ماكرة، والتمعت عيناه الصغيرتان السوداوان بترحيب ظاهري. ولكن البهجة الفائقة باللقاء جعلت دافيدوف يحترس، فتبادل معه التحية بجفاف، وجلس الى الطاولة، يجيل بصره فيما حوله ببطء.

لقد بدا مكتب رئيس الكولخوز غريباً في عيني دافيدوف. فقد كانت في حجرة المكتب الواسعة كثرة من الزهور المتربة في احواض مطلية بالمغرة الصفراء، ومزهريات من الصلصال، وبينها كراس قديمة فيناوية تتزوي متيبسة تتخللها مقاعد قذرة، وعند المدخل اريكة متداعية غريبة الشكل طلعت نوابضها الصدئة الى السطح. وقد الصقت على الجدران صور منتزعة من مجلة «نيفا» ولوحات رخيصة مطبوعة على الطريقة الحجرية تصور تعميد روسيا القديمة في كييف، وحصار سيبستوبول، ومعركة شيبكا، وهجوم المشاة اليابانيين عند ليا ويانغ في حرب ١٩٠٤.

وفوق مكتب الرئيس علقت صورة لستالين مصفرة، وعلى الجدار المقابل كانت تزهو لوحة اعلان ملونة لمعمل مروزوف للخيوط دبقها الذباب. وهي تصور مصارع ثيران مقداماً في صدرة قرمزية، القى انشوطة من الخيوط على قرني ثور مهتاج، وقد امسك باحدى يديه هذا الحيوان الوائب، واتكأ باليد الأخرى على سيفه باهمال. وعند قدمي مصارع الثيران وشيعة من الخيوط البيض هائلة مفكوكة

الى النصف، وقد ظهر على رقعة الوشيعة «رقم ٤٠» بشكل واضح.

وقد اكمل حلة غرفة المكتب صندوق ضخم مشدود بقيود من التنك الابيض يستقر في ركن. وكان بوليانيتسا في اغلب الاحتمالات يتخذه بمثابة خزانة حديدية. وكان القفل الملمع الضخم الى حد لا يناسب الصندوق دليلا على ان في الصندوق وثائق في الدرجة الاولى من الاهمية.

لم يسع دافيدوف الا أن يبتسم، وقد اجال بصره بسرعة في مكتب بوليانيتسا، ولكن هذا قيم ابتسامته على هواه، اذ قال في رضى عن النفس:

– ها انت ترى انني قد انشأت مكتباً مريحاً. كل ذلك تبقى من مالكه الكولاكي السابق، كل المظهر الخارجي للغرفة، الا السرير مع الحشية من الريش والمخدات فقد طلبت ان تنقل الى حجرة الخادمة، وعلى العموم حافظت على اسباب الراحة كلياً، وليكن في علمك، دون اي طابع مكتبي او رسمي! نعم، واعترف بانني شخصياً احب الوضع البيتي، واريد أن لا يشعر الناس، وهم يدخلون علي، بأية مضايقة، وكأنهم في بيوتهم. هل صحيح قولي؟

هز دافيدوف كتفيه متحاشياً الرد، وانتقل الى الموضوع رأساً:

– لي معك حديث غير سار، يا جاري.

اختفت عينا بوليانيتسا الصغيرتان الماكرتان في طيات الجلد اللحمية تماماً، والتمعت التماعاً اسود من مخبئهما وكأنهما قطعتان صغيرتان من فحم الانتراسيت، وارتفع حاجباه الاسودان الكثيفان الى اعلى.

– واي احاديث غير سارة يمكن ان تحدث بين الجيران؟ انت تخوفني، يا دافيدوف! انا وانت دائماً في وئام كالسمكة مع الماء، واذا بنا نفاجأ باحاديث غير سارة. لا استطيع حتى ان اصدق بذلك! مهما يكن، لن اصدق!

حدق دافيدوف متفرساً في عيني بوليانيتسا، ولكنه لم يستطع ان ينفذ الى التعبير الذي توحيان به. كان وجه

بوليانيتسا سمحاً ومتحصناً، وقد جمدت على شفتيه ابتسامة ترحيبية هادئة. والظاهر أن رئيس كولخوز «الشعاع الأحمر» كان في طبعه ممثلا، قادراً على التحكم بنفسه، وليس أقل مقدرة على ادارة اللعبة ايضاً.

سأل دافيدوف دون لف أو دوران:

– قشنا أخذ منا في هذه الليلة، بناء على تعليماتك؟

ارتفع حاجبا بوليانيتسا اكثر.

– أي قش، يا صديقي؟

– اعتيادي، من السهب.

– لأول مرة اسمع بذلك! تقول: أخذوه؟ جماعتنا من توبيانسكوي؟ غير ممكن! لا أصدق. لا أصدق حتى ولو قتلتني، صلبتني! ليكن في علمك، يا سيميون، يا صديقي، أن كولخوزي «الشعاع الأحمر» شغيلة نزيهون كلياً لحقولنا الاشتراكية، وشكوكك لا تهينهم فقط، بل وتهينني ايضا كرئيس الكولخوز. ارجو أن تلتفت الى هذا جدياً، يا صديقي.

قال دافيدوف بهدوء مخفياً امتعاضه:

– اسمع، أيها الصديق العزيف، أنا لست ليتفينوف، ولست انت تشمبرلين، ولا حاجة لنا الى اللعب بالدبلوماسية. هل أخذوا القش، بناء على أمرك؟

– مرة اخرى، عن اي قش تتحدث، يا صديقي؟

هتف دافيدوف متضايقاً:

– كأننا أمام حكاية مضحكة.

– ليكن في علمك، يا صديقي. أسأل جاداً: اي قش تقصد؟

– القش في كالينوفي اوغل. هناك تقع مناطق الحش عندنا جنباً الى جنب، وانتم قد سرقتموه بصريح العبارة.

تظاهر بوليانيتسا بالفرح لأن سوء التفاهم قد توضح جلياً، فضرب كفيه على ركبتيه ضربة رنانة وقهقه ضاحكاً:

– كان عليك أن تبدأ بهذا، يا صديق! ولكنك رحت تردد: القش، القش، ولكن أي قش. هذا هو السؤال. انتم في كالينوفي أوغل أخذتم تحشون ارضنا خطأ او عن عمد.

وقد أخذنا هذا القش على اساس شرعي تام. أ واضح، يا صديق؟

– لا، ايها الصديق العزيف، غير واضح. اذا كان هذا قشكم فلماذا اخذتموه بطريقة لصوصية، في الليل؟

– هذه مسالة تخص رئيس الفريق. الليل افضل للعمل للدواب وللناس ايضاً، فالجو اكثر طراوة، ولهذا، على ما يبدو، أخذوه ليلا. الا يعملون عندكم في الليالي؟ عيناً! العمل في الليل، لاسيما اذا كان مقمراً، أخف بكثير من العمل أثناء النهار، في الحر.

ابتسم دافيدوف ابتسامة ساخرة.

– الليالي الآن بالعكس مظلمة، وهذه حقيقة!

– طيب، حتى في الليالي المظلمة لاتخطىء في رفع الملعقة الى فمك.

– لا سيما اذا في كان في الملعقة عصيدة غيرك.

– دعك من هذا، يا صديق! ليكن في علمك أن تلميحاتك تهين اهانة عميقة كولخوزيي «الشعاع الأحمر» الواعين تماماً، مثلما تهينني، بصفتي رئيساً للكولخوز. ومهما يكن من شيء، فنحن شغيلة، ولسنا لصوصاً، وليكن ذلك في علمك.

برقت عينا دافيدوف، ولكنه بقي محافظاً على رصانته وقال:

– اترك كلماتك الطنانة، ايها الصديق العزيف، وتعال نتكلم بشكل عملي. هل لك علم بان ثلاثة اعمدة من التي تعلم الحدود قد نقلت في ربيع هذا العام الى كالينوفي اوغل، على جانبي الوهدة كليهما؟ كولخوزيوك النزيهون نقلوها، وجعلوا الحدود خطاً مستقيماً، واقتطعوا منا ما لا يقل عن اربعة الى خمسة هكتارات من الأرض. هل لك علم بذلك؟

– يا صديق! من اين جئت بهذا؟ ليكن في علمك أن شكوكك تسبب اهانة عميقة لأناس غير مذنبين في شيء...

قاطعه دافيدوف، وقد وجد نفسه يغلي من الداخل:

– كفى ثرثرة وتصنعاً! أتعتبرني مبتزاً؟ أنا اتكلم معك جدياً، بينما أنت تمثل تمثيلا، وتدعي أن مشاعرك النبيلة قد أهينت. في طريقي الى هنا ذهبت الى كالينوفي اوغل، وتأكدت بنفسي ما ابلغني به الكولخوزيون. القش قد أخذ، واعمدة الحدود قد حولت، حقيقة! ولا يمكنك الزوغان عن هذه الحقيقة.

– ولكنني لا انوي ان ازوغ الى اي مكان؟ ها أنا امامك فامسكني بيديك العاريتين، ولكن... قبل ان تمسكني، ادلكهما بالقطران! ادلك يديك بشدة، والا، وليكن هذا في علمك، سانزلق كالسمكة...

– ان ما فعله التوبيانسكيون يسمى الاستحواذ التعسفي، وستقع مسؤوليته عليك، يا بوليانيتسا!

– هذا ما يجب اثباته، يا صديقي، اقصد ما يخص بنقل علامات الحدود. ان ذلك، يا صديقي، افتراضك غير المدعوم، ولا اكثر. قشك غير موسوم بعلامة خاصة.

– الذئب لا يفرق بين الغنمة الموسومة او غير الموسومة.

ابتسم بوليانيتسا ابتسامة لاتكاد تلحظ، ولكنه هز راسه موبخا:

– آي آي آي! تشبهنا بالذئاب! قل ما تشاء، ولكنني لا اصدق بأن أحداً يمكن أن يحفر اعمدة الحدود، وينقلها الى مكان آخر.

– اذهب وتحقق بنفسك. الم تبق الآثار التي كانت فيها الاعمدة؟ بقيت. التربة في تلك المواضع رخوة، والعشب أقصر، وعلامات الحفر المستديرة واضحة وضوحاً تاماً، حقيقة! فماذا تقول عن هذا؟ لنذهب سوية الى هناك، اذا تريد. موافق؟ لا، يا رفيق بوليانيتسا، لن تستطيع التملص مني! طيب، هل نذهب، ام لا؟

راح دافيدوف يدخن صامتاً منتظراً رد بوليانيتسا. وسكت بوليانيتسا ايضا،وهو ما يزال يبتسم خلي البال. كانت الحجرة بزهورها الكثيرة خانقة. وكان الذباب يضرب

زجاج النوافذ المغبر، ويطن برتابة. ورأى دافيدوف من خلال فتحة في اوراق الفيكوس الخضراء اللامعة الثقيلة امرأة شابة بدينة بدنة مفرطة لا تناسب عمرها، ولكنها جميلة لما تزل، تخرج الى مدخل البيت، وعليها تنورة قديمة، وقميص نوم محشور فيها، ذو كمين قصيرين. ظللت عينيها بكفها عن الشمس، وراحت تنظر على طول الشارع، وفجأة شاعت الحيوية فيها، وصاحت بصوت زاعق حاد بشكل مزعج:

– فينكا، يا بنت يا ملعونة، اجلبي العجل! الا ترين الابقار تعود من المرعى؟

كما نظر باليانيتسا في النافذة الى يد المرأة الممتلئة الناصعة البياض المعراة حتى الكتف، والى شعرها الكتاني الغزير الغالث من تحت المنديل، وقد طايرته الريح، فتلمظ بشفتيه لسبب ما، وتنهد.

– كناسة إدارة الكولخوز تعيش هنا، لتراعي النظافة. المرأة لا بأس بها، ولكنها كثيرة الصياح جداً، لم اقدر أن اجعلها تترك الصياح... اما خروجي الى الحقل، فلا اظن أن هناك ضرورة له. فقد كنت انت بنفسك هناك، ورأيت، وهذا يكفي. ولكنني لن اعيد القش لك، لن اعيده، هذا مجمل الكلام! المسألة هذه فيها اخذ ورد. مسح الاراضي جرى قبل خمسة اعوام. ولسنا انا وانت حكمين في هذه القضية بين اهالي توبيانسكوي واهالي غريميياتشي.

– في هذه الحال من سيكون الحكم؟

– منظمات المنطقة.

– حسناً، انا موافق معك. ولكن الاختلاف على الاراضي شيء مستقل بذاته، وعليك أن ترجع القش. لقد حششناه بانفسنا، فهو يعود لنا.

والظاهر ان بوليانيتسا قرر أن يضع حداً للحديث غير المجدي، حسب رأيه. اختفت الابتسامة من شفتيه. واصابع يده اليمنى التي كانت تستقر خائرة على الطاولة تحركت

قليلا، وانعكفت ببطء في قبضة. أشار بوليانيتسا الى قبضته بعينيه، وتكلم بنشاط بلغته الاوكرانية لسبب غير معروف.

– هل ترى هذه؟ يعني لا. وهذا هو جوابي. ولهذا مع السلامة، اتركني وشأني. مع السلامة!

ضحك دافيدوف ضحكة ساخرة مقتضبة.

– انت مجادل عجيب، هذا ما أراه فيك... هل معقول انك لا تجد لديك الكلمات حتى تريني هذه الاشارة، مثل امرأة سوقية؟ يعني تريد ان ارفع شكوى عنك للنيابة، بسبب هذا القش التعيس.

– اشتك الى من تشاء، تفضل. الى النيابة او الى لجنة المنطقة، ولكنني لن اعيد القش، ولا الارض، فليكن هذا في علمك.

اجاب بذلك بوليانيتسا، وقد عاد يتكلم بالروسية مرة اخرى.

لم يبق مجال لكلام آخر. فنهض دافيدوف، ونظر الى رئيس الكولخوز باستغراق.

– انظر اليك، يا رفيق بوليانيتسا، واندهش. كيف أمكن لك، وانت العامل والبلشفي، ان تتحول بسرعة الى متعلق بالملكية الصغيرة؟ في البداية امتدحت طريقة الكولاك في الترتيب قائلا انك احتفظت بمظهر الغرفة الخارجي. ولكنني أظن انك لم تحتفظ فقط بمظهر البيت الكولاكي الخارجي، بل وبنفسيته ايضاً، حقيقة! وانت نفسك تغذيت على هذه النفسية خلال نصف عام! لو كنت قد ولدت عشرين سنة قبل ولادتك لطلعت بالتاكيد كولاكياً حقيقياً. وانا اقول لك هذا عن حق!

هز بوليانيتسا كتفيه، واخفى مرة اخرى عينيه الملتمعتين في طيات بشرته.

– لا اعرف هل كنت ستطلع كولاكياً ام لا، ولكن انت، يا دافيدوف، وليكن هذا في علمك، كنت بالتاكيد ستطلع ناظر كنيسة، اذا لم اقل قسا.

قال دافيدوف مندهشا بصدق:

– ولم؟

– لانك، كبحار سابق، انغمرت حتى اذنيك في الاهواء الدينية ليكن في علمك لو كنت انا سكرتير اللجنة الحزبية في المنطقة لكنت ستضع بطاقتك الحزبية على منضدتي على تحاملاتك.

– على اي تحاملات؟ عم تتحدث؟

وكان دافيدوف من الدهشة بحيث رفع كتفيه.

– كف عن التصنع! انت تفهم عم اتحدث، وتفهمه جيداً. نحن بكل خليتنا نكافح الدين، وطرحنا مرتين في اجتماع عام للكولخوزيين ولاهالي العزبة مسالة اغلاق الكنيسة، وانت ماذا تفعل؟ ليكن في علمك انك تعمل لوضع العصوات في عجلتنا.

– استمر، لطيف ان اسمعك تتحدث عن العصوات التي اضعها في عجلتكم.

– وانت ماذا تفعل؟ – استمر بوليانيتسا، وقد بان احتدامه – تحمل العجائز على خيول الكولخوز ايام الآحاد ليصلين في الكنيسة، هذا ما تفعله! بينما نساؤنا وليكن في علمك، يدخلن في عيني بهذه الحقيقة قائلات: «انت، يا كذا وكذا، تريد ان تغلق الكنيسة، وتجعل منها ناديا، بينما رئيس كولخوز غريمياتشي يحترم النساء كل الاحترام، حتى انه ينقلهن الى الكنيسة على الخيول ايام الاعياد.

وجد دافيدوف نفسه تقهقه.

– هذا الذي تعنيه! في هذه الاهواء الدينية انا متورط اذن! طيب، ليس هذا بالامر المفزع.

– قد يكون غير مفزع، بالنسبة لك، بينما هو بالنسبة لنا. وليكن هذا في علمك، لا يمكن ان يكون اسوأ منه! – استمر بوليانيتسا في شيء من الاحتداد – انت تجامل الكولخوزيين، وتريد ان تصير لطيفاً مع الجميع، بينما تنسف عملنا لتوعية الناس. شيوعي جيد، ايضاً! تدفع الآخرين بنوازع حب الملكية الصغيرة، بينما الشيطان

وحده يعرف ماذا تمارس. اين وعيك السياسي؟ اين مبادؤك البلشفية، ورفضك الحدي للخرافات؟

– على مهلك، ايها المهذار المبدئي! كن اكثر حذرا في تعابيرك القاطعة! ما معنى «اجامل»؟ اتدري لماذا اخذت العجائز على العربات؟ اتدري لاي اعتبار اقدمت على ذلك؟

– لا تعنيني اعتباراتك الضيقة. اعتبر، كما تريد، ولكن لاتقف حجر عثرة في كفاحنا ضد القساوسة. لك الخيار ولكنني ساطرح في مكتب لجنة المنطقة الحزبية مسالة سلوكك. وليكن هذا في علمك!

– بصراحة كنت اتصورك اكثر ذكاء، يا بوليانيتسا – قال دافيدوف في اسف، وخرج دون ان يسلم.

الفصل السادس عشر

في الطريق الى غريمياتشي لوخ عزم دافيدوف على ان لا يرفع للنيابة قضية استيلاء التوبيانسكويين على الارض، واخذهم للقش. كما لم يرد ان يراجع لجنة الحزب في المنطقة في هذا الخصوص. فقد كان عليه ان يستوضح اولا الى من كانت في الحقيقة تعود، من قبل، الأرض المتنازع عليها في طرف كالينوفي اوغل، وعندئذ، وبموجب مايتوصل اليه سيتصرف.

ولكن دافيدوف قال في سره، وهو يتذكر حديثه مع بوليانيتسا بشيء من المرارة: «أوه أنت نغصة، يا هاوي الزهور والراحة المنزلية! لا يبدو قطعاً انه على جانب كبير من الذكاء، غير ان له حيلة ساذجة، كتلك التي عند المغفلين عادة. ولكن مثل هذا لا يؤمن جانبه... القش اخذ بمواقفة منه، بالطبع، ولكن ليس هذا الشيء الرئيس. والاعمدة. من غير الممكن انهم نقلوها بناء على امر منه. انه لا يقدم على امر كهذا، ان يجازف. ولكن ماذا لو كان يعرف ولكنه اغمض عينيه عن ذلك؟ سيكون ذلك سيئاً جداً! عمر

الكولخوز لايتجاوز نصف عام، ويشرع في الاستيلاء على ارض الجيران، وفي السرقة. هذا يعني افساد الكولخوزيين تماما! هذا يعني دفعهم الى العادة التي كانت جارية في الحياة الفردية سابقاً: وهي ان لا تتورع عن اي شيء، وباية وسيلة، فقط ان تستحوذ على اكثر ما يمكن. لا، لاتسامح في ذلك! ما ان اتاكد من ان الأرض هي ارضنا بالفعل، حتى اهرع الى لجنة المنطقة الحزبية. دعوهم يديرون لي دماغي بخصوص مافعلت مع العجائز، ويديرون دماغ بوليانيتسا على تربيته المفسدة للكولخوزيين».

اخذ دافيدوف ينعس على خبب فرسه المتئد وفجأة تراءت له بوضوح، في غبش النعاس الشاحب، صورة المراة البدينة التي كانت واقفة على مدخل البيت في توبيانسكوي، فلوى شفتيه باشمئزاز، وفكر في تهويمته «كم عليها من الشحم واللحم الزائد!.. اظنها في مثل هذا الحر تسير كالرغوة، حقيقة!» وفي تلك اللحظة استحضرت ذاكرته القوية جداً، وكنوع من المقايسة، صورة لوشكا امامه واضحة بقوامها الرشيق المقدود، كقوام الفتيات، ومشيتها الخاطفة، وحركة يديها الرقيقتين، بتلك الفتنة التي لا توصف، حين كانت، عادة، تعدل تصفيفة شعرها، وهي تنظر من تحت حاجبيها بعينيها الحنونتين، المداعبتين، العليمتين... وجفل دافيدوف، وكانما من لكزة مفاجئة، وانتصب على سرجه، وقلص عينيه، كمن يعاني من الم، وساط حصانه بغيظ، وجعله يسرع في عدوه...

كل هذه الأيام كانت ذاكرته المنغصة تحوك له الاحابيل الخبيثة، في وقت غير مناسب تماماً، فكانت اذا دخل في حديث جدي، او في لحظات التامل، او في النوم، تبعث في مخيلته صورة لوشكا التي كان يريد ان ينساها، ولكنة غير قادر على ذلك حتى الآن...

وصل الى غريمياتشي في الظهيرة. كان اوستروفنوف والمحاسب يتحدثان بحماس عن شيء ما، ولكن ما ان فتح دافيدوف باب الحجرة، حتى ساد الصمت، وكانه بايعاز.

جلس دافيدوف الى الطاولة وقد اتعبه الحر وركوب الخيل، وسأل:

– عم كنتما تتجادلان؟ هل جاء ناغولنوف الى الادارة.

– لم يات – اجاب اوستروفنوف بعد تريث، والقى نظرة سريعة على المحاسب – ثم اننا لم نكن نتجادل، يا رفيق دافيدوف هذا ما تهيأ لك، بل كنا نتحدث عن اشياء معظمها تخص اشغالنا. طيب، هل سيرد التوبيانسكويون القش؟

– بل يطلبون ان نعد لهم اكثر.. ما رأيك، يا لوكيتش، لمن تعود هذه الارض؟

هز اوستروفنوف كتفيه:

– من يدري، يا رفيق دافيدوف، المسالة غامضة. في البداية اقتطعت هذه الارض لعزبة توبيانسكوي، وكان ذلك قبل الثورة، اما في عهد السلطة السوفيتية فقد استرجع الجزء العلوي منها واعطي الينا. وفي آخر تقسيم للاراضي، في عام ٢٦، قلصت اراضي توبيانسكوي اكثر، ولكنني لا اعرف اين كان خط الحدود، لان ارضي كانت في ناحية اخرى. وقبل عامين كان تيتوك يحش هناك. فهل كان يفعل ذلك بشكل كيفي أم اشترى هذه الأرض خلسة من أحد فقراء الفلاحين؟ هذا ما لا استطيع ان ابت به، لأنني لا اعرفه. ولكن ما ابسط ان تدعو مساح اراضي المنطقة الرفيق شبورتنوي؟ انه سيعرف حالا من الخرائط القديمة اين كانت الحدود. انه هو الذي قام بمسح الأراضي عندنا في عام ٢٦، ومن يعرف مثلما يعرف هو؟

فرك دافيدوف يديه فرحاً، وبدا عليه المرح:

– شيء رائع! في الحقيقة لابد أن شبورتنوي يعرف لمن تعود هذه الأرض. كنت اظن ان مسح الأراضي قامت به مجموعة وافدة من مساحي الأراضي. ابحث عن شوكار الآن، واخبره بأن يشد حصانين الى عربة فوراً، ويذهب ليستقدم شبورتنوي. سأكتب له مذكرة.

خرج اوستروفنوف، ولكنه عاد بعد خمس دقائق ودعا دافيدوف باصبعه مبتسماً من تحت شاربيه:

– اذهب الى مستودع القش، وشاهد احدى المعجزات.

كان سكون الظهيرة الخامد الذي لا يخيم الا في اشد ايام القيظ يلف فناء الادارة وكل مكان في العزبة. وكانت في الجو رائحة عشب اسفعته الشمس، من الاسطبل سرت رائحة روث خيل جاف، وحين اقترب دافيدوف من مستودع القش صدم أنفه عبق شذي لعشب زاهر حش مؤخراً، وقد جف قليلا، حتى تصور نفسه للحظة أنه في السهب، قرب كدس قش عطر صف لتوه.

فتح ياكوف لوكيتش ضلفة واحدة من الباب بحذر، وتنحى وترك دافيدوف يدخل أولا، بصوت خفيض:

– متع نظرك بهاتين الحمامتين الوديعتين. لن تفكر ابداً انهما قبل ساعة فقط كانا يتصارعان صراع الموت. ولكنهما حين ينامان تنعقد بينهما هدنة، كما ترى.

في اللحظة الأولى قبل أن يالف بصر دافيدوف الظلام لم ير شيئاً غير شعاع من الشمس مستقيم يسقط من خلال فتحة وسط سقيفة القش، ولكنه تبين، فيما بعد، شخص شوكار نائماً على القش، والتيس تروفيم متكوراً بالقرب منه.

– طوال الصباح كان الجد يطارد التيس بالسوط، والآن انظر، انهما ينامان سوية.

قال ياكوف لوكيتش ذلك بصوت عال هذه المرة فاستيقظ شوكار، ولكن ماكاد يرفع جسمه على كوعه، حتى دفع تروفيم القش بكل قوائمه كالنوابض، وقفز على الأرض، واخذ رأسه وهز عثنونه بضع مرات بتهديد وفتوة.

– أرأيتم، يا طيبون، أي شيطان ذو قرون هذا؟ – سأل شوكار بصوت ذابل مسترخ، وهو يشير الى تروفيم المتهيىء للعراك – طوال الليل كان يتجول على العشب، ويتوثب، ويعطس، ويصرف باسنانه. ولم يتركني اغفو لحظة واحدة، هذا اللعين! في الصباح تعاركت معه مرات عدة، والآن، تفضل، رقد على مقربة لينام، وكان الشيطان

وسوس له ليحشر نفسه في خاصرتي. وحين ايقظتموه تهيأ هذا العفريت للعراك، فكيف يمكن ان أعيش في هذه المطاردة؟ هذا يحمل رائحة الموت والقتل: فاما ان اقضي على حياته في يوم ما، واما ان يفرز قرونه بين ضلوعي، ويكون الجد شوكار اسماً كان يطلق على انسان! وباختصار لن ينتهي امرنا مع هذا الشيطان المقرنن نهاية حسنة، وسيشهد فناؤنا هذا جثة هامدة...

وفجأة ظهر سوط في يد شوكار، ولكن ما ان رفعه حتى صار تروفيم بقفزتين اثنتين في ركن مظلم من السقيفة، وراح يحدج شوكار من هناك بعينيه الثاقبتين الفوسفوريتين، وهو يدق الأرض باظلافه. القى العجوز السوط جانباً، وهز رأسه حزيناً.

— هل رأيتم أي مخلوق حاذق هو؟ لانجاة لي منه الا بالسوط، وحتى هذا لا ينجح دائماً، لأن العفريت يترصدني من حيث لا انتظره! أياماً بلياليها لا اترك السوط من يدي، لا منجى لي من هذا التيس! أجده دائماً في المكان غير المناسب اطلاقاً. خذوا، على سبيل المثال، يوم امس: كان علي أن اذهب الى زاوية معزولة وراء السقيفة لأقضي الحاجة الكبيرة التي لابد منها، واتلفت فيما حولي، فلا أرى التيس. فأقول لنفسي: «الحمد لله على ان تيموفي اللعين يستريح الآن في مكان بارد أو يسرح وراء الفناء، ويقضم العشب». واتجه خلف السقيفة مطمئن النفس، وما كدت اقعد، كما تقتضي الحاجة، حتى بهذا اللعين يقدم نحوي، وقد امال راسه ناوياً أن ينطحني في جنبي. واضطررت الى النهوض رغما عني... طردته بالسوط وحالما عدت الى القعود ثانية حتى يطلع مرة اخرى من وراء الزاوية... وكم من مرة هاجمني بهذا الشكل حتى لم تعد لي رغبة في ذاك. وهل هذه حياة؟ عندي روماتيزم في الرجلين، كما انني لست في سن الشباب، لأقعد وانهض عدة مرات، وكانني في تدريب عسكري. هذا يسبب ارتعاشاً في رجلي، ووخزات في ظهري. وبسبب تروفيم هذا يمكن ان اقول افقد آخر عافيتي،

ويمكن، ببساطة جداً، ان ارقد رقدتي الأخيرة. كنت في الماضي استطيع أن احط كالنسر اليوم بطوله، اما الآن فاحياناً اطلب من احد الناس أن يسندني من ابطي حتى اقعد... الى هذا الحد من العيب والعار اوصلني الملعون تروفيم! تفو!

وبصق شوكار بقوة، وتلمس القش بيديه وظل يدمدم وقتاً طويلا ويلعن.

نصحه دافيدوف ضاحكاً:

— يجب أن تتمدن، يا جد، وتقضي حاجتك في المرحاض، وليس وراء السقائف.

رمقه شوكار بحزن، وشمر ذراعه في يأس:

— لا اقدر! نفسي لا تطاوعني. انا لست من اهل المدينة مثلك. طوال حياتي تعودت أن اقضي حاجتي في الخلاء لتهويني الريح من كل جانب! وحتى في الشتاء، في أشد نوبات الزمهرير لن تستطيع أن تحملني على الجلوس في الجحر. ما ان اقبل على مراحيضكم حتى تصيبني الروائح الكريهة بالاغماء، فاسقط في مكاني.

— طيب، هذا ما لا أستطيع أن اساعدك فيه. دبر حالك، كما تريد. اما الآن فشد الخيول على عربة، واذهب الى الدسكرة لتأتي بمساح الاراضي. نحن بحاجة ماسة اليه. هل تعرف، يالوكيتش، اين يسكن شبورتنوي؟

لم يتلق دافيدوف جواباً، فتلفت فيما حوله فلم يجد اثراً لاوسترووفنوف فقد كان هذا يعرف بالتجربة كم سيتأخر شوكار في شد الخيول على العربة فذهب الى الاسطبل ليشد الخيول بنفسه.

قال الجد شوكار مؤكداً:

— الذهاب الى الدسكرة لا يكلفني غير لحظة قصيرة، لا يكلفني اي جهد. ولكن أوضح لي مسألة واحدة، يا رفيق دافيدوف: لماذا اي حيوان كان عائداً الى كولاكي سابقاً يشابه طبع سيده، اقصد ان يكون مؤذياً ماكراً الى آخر حد؟ خذ العفريت تروفيم مثلا، لماذا لم ينطح ياكوف

لوكيتش، مثلا، ولا نطحة واحدة، بينما يجرب قوته معي على الاكثر؟ لانه تشمم فيه رائحة الكولاكي الاليفة اليه، فلا يمسه، بينما يصب كل غيظه علي.

أو لنأخذ اية بقرة من مخلفات الكولاك. انها لا تدر لحلابة الكولخوز من الحليب ما كانت تدره لصاحبتها الكولاكية الكريمة. طيب، لنقل هذا مقبول، فان صاحبتها كانت تطعمها البنجر وفضلات الطعام والاطايب الاخرى، بينما تلقي لها الحلابة كسرة من القش اليابس المتبقي من العام الفائت، وتقعد، وتغفو تحت الضروع، تنتظر متى ينزل الحليب.

ثم خذ أي كلب كولاكي، لماذا لا يهجم الا على الفقير ذي الاسمال؟ طيب، على أنا، على اقل تقدير؟ المسالة جدية. وقد طرحتها على ماكار. فيقول لي: «هذا صراع طبقي». ولكنه لم يشرح لي ما هو الصراع الطبقي، بل ضحك، وسار الى اشغاله. وماذا يهمني من هذا الصراع الطبقي، اذا كنت اسير في العزبة، وأنظر بخوف الى اي كلب؟ ليس مكتوباً على جبين أي كلب: انه كلب نزيه أو من الفئة المصادرة من الكولاك؟ واذا كان هذا الكلب، الكولاكي، عدوي الطبقي، كما يوضح ماكار، فماذا علي ان افعل؟ انزع ملكيته! وكيف ستنزع أنت ملكيته مثلا؟ يعني تسلخ منه فروة شعره؟ من غير الممكن! الاقرب أن يسلخ هو جلدك بكل رحابة صدر. اذن، فالمسالة واضحة: يجب أن نقضي على هذا العدو الطبقي، ومن بعد ذلك يسلخ منه جلده. عرضت هذا الاقتراح على ماكار، فقال لي: «بهذا الشكل، أيها العجوز الأحمق، ستتمنق نصف كلاب العزبة» ولكن غير معروف من الأحمق من بيننا نحن الاثنين، وهذه مسالة أخرى. أعتقد ماكار لايخلو من حماقة، أما أنا... هل يقبل «مكتب التموين» فروات الكلاب للاستفادة منها؟ يقبل! وكم من الكلاب الكولاكية السابقة تسرح في طول الدولة وعرضها بدون صاحب ولا مراقب؟ ملايين! طيب، اذا سلخنا فرواتها كلها، ثم دبغنا جلودها، وحكنا من شعرها جوارب، فماذا

ستكون النتيجة؟ ستكون النتيجة أن نصف روسيا ستلبس احذية مدبوغة بالكروم، اما الذي يلبس جوارب من شعر الكلب فسيشفى من الروماتيزم الى الأبد. منذ زمان، منذ أن كانت جدتي في الوجود سمعت بهذه الطريقة لمعالجة الروماتيزم، لا يوجد أنجع منها، اذا اردت ان تعرف. ثم ما لي اذهب بعيداً، وانا نفسي مصاب بالروماتيزم، ولا تسعفني الا الجوارب من شعر الكلب. بدونها كنت الآن أدب على الاربع منذ زمان.

فاستفسر دافيدوف:

– يا جد، هل تنوي السفر اليوم الى الدسكرة أم لا؟

– انوي كلياً. فقط أن لا تقاطعني، واسمع تتمة كلامي. طيب، حين هلت علي هذه الفكرة العظيمة بخصوص دبغ جلود الكلاب هجرني النوم ليلتين متتاليتين، وصرت افكر كم من النقود ستنهال على الدولة. عند الاستفادة من فكرتي هذه، والاهم علي ايضا! ولولا هذه الرجفة في يدي لكتبت بنفسي الى المركز. فياتيني شيء من حيث لا أدري، أحصل على مغنم من السلطة على اجتهادي الذهني. وبعد ذلك قررت ان اخبر ماكار بكل شيء. فأنا لست طماعاً. ذهبت اليه وطرحت عليه كل شيء كما هو، قلت: «يا عزيزي ماكار! انا رجل عجوز، ولا احتاج الى اي راسمال ولا نيشان، ولكنني اريد أن اسعدك طول العمر، فاكتب فكرتي الى السلطة المركزية، وستحصل على وسام كذلك الذي حصلت عليه لاشتراكك في الحرب. أما اذا اغرقوك بالفلوس، فضلا عن ذلك، فستتقاسمها، كما هو مفروض. واذا اردت، اطلب لنفسك وساماً، أما أنا فحبذا لو اعطوني من الفلوس ما اشتري به بقرة، او عجلا على الأقل، وساكون راضياً».

لوان احداً غيره لركع على قدمي، وشكرني، ولكنني تلقيت من ماكار هذا شكراً من نوع آخر... عجيب، كيف وثب من مقعده! واعطرني بالشتائم! ويصيح بي: «أنت كلما تكبر يخف عقلك اكثر! بين كتفيك صفيحة فارغة لا رأس!» ومع كل كلمة شتائم وسباب ولعنات ترج الهواء

وتطرد الذباب! وهو الذي اتهمني في عقلي! شاطر في الكلام! ويعتبر نفسه نبيهاً! وانا ساكت لا اقول شيئاً. اجلس منتظراً متى سيجف اللعاب في حلقه، وافكر مع نفسي «لاتركه يتمطط، ويراوح في مكانه، ويبقى كما هو».

وبعد ذلك تعب صاحبي ماكار من السباب، كما يبدو، وجلس، ويسأل: «ألا يكفيك؟» وعند ذاك أخذني الغضب عليه، ولو أنه صديقي الحميم. واقول له: «اذا كنت تلهث فاسترح، وابدأ من جديد. سانتظرك. لست مستعجلا. ولكن لم تشتم هذه الشتائم الحمقاء، يا عزيزي ماكار؟ فانا اريد لك الخير. ستنتشر الجرائد في كل روسيا اسمك على هذه الفكرة!» ولكنه صفق الباب، وخرج من البيت، وكأنني سكبت ماء فائراً في سرواله.

في المساء، ذهبت الى المعلم شبين اتشاور معه، فهو، على كل حال، رجل متعلم. وحكيت له كل شيء، وشكوت له من ماكار. ولكن كل هؤلاء المتعلمين، في رأيي فيهم اختلال، بل واختلال كبير! هل تعرف ماذا قال لي؟ يضحك بسخرية، ويقول: «كل عظماء الناس عانوا من المضايقات بسبب افكارهم، فعلى انت ايضاً يا جد!» يالها من سلوى من جانبه! مستهتر، وليس معلماً! وما أنا والمعاناة؟ كدت احصل على بقرة، واذا أنا لا أحصل حتى على ذيلها... كل ذلك بسبب عناد ماكار! ويعتبر نفسه صديقاً، عساه في داهية! بسببه لا راحة لي حتى في البيت. تباهيت لعجوزتي بأن من الممكن ان يبعث لنا الرب بقرة مكافأة على اجتهادي الذهني، مجرد ان اعطيها بعض الأمل! واذا بالعجوز تصدع رأسي: «أين البقرة؟ كذبت كذبة اخرى؟» وكان علي أن أتحمل منها مختلف المضايقات. وما دام عظماء الناس جميعا قد عانوا من ذلك، فهذه قسمة الله...

وهكذا ضاعت فكرتي العظيمة، وتبددت كنفخة من سيكارة... وماذا افعل؟ لا يستطيع الانسان أن يعلو على قدره...

اتكأ دافيدوف على عضادة الباب، وراح يضحك

بلاصوت. اما شوكار، فبعد أن هدأ قليلا، صار يلبس حذاءه بلاعجالة، ومضى يتكلم متسلياً دون أن يعير التفاتا لدافيدوف:

– جوارب الكلاب اوثق وسيلة لعلاج الروماتيزم! أنا نفسي البسها طوال الشتاء، ولا اخلعها ابداً، رغم أن قدمي كانتا تتعفنان حين يكون الربيع قد حل، وزوجتي العجوز تطردني مرات عديدة من البيت بسبب الرائحة الكلبية النتنة، ولكنني شفيت من الروماتيزم، ولشهر كامل صرت انط وارقص مثل ديك فتي قرب دجاجة. واي جدوى حصلت من ذلك؟ لا شيء! لأنني بسبب دماغي الفاسد بللت قدمي في الربيع، وتفضل، عاد الداء من جديد! ولكنه من حين لآخر. ان هذا المرض لا يخيفني كثيراً. حالما امسك كلباً وديعاً غزير الشعر احلق شعره، ويغادرني الروماتيزم بين عشية وضحاها. هل ترى كيف امشي الآن؟ كالحصان المخصي الذي شبع من الشعير، ولكن حين البس جوارب علاجية، اعود من جديد راقصا كالفتى المرح. المصيبة فقط أن امرأتي العجوز ترفض أن تغزل شعر الكلاب، وتحوك منه جوارب لي. رائحة الكلاب تصيبها بالدوخان، وتأخذ بالاختناق بلعابها وهي خلف دولاب الغزل. تبدأ اولا بالفواق، ثم تتقطع انفاسها وتتقطع، وفي الآخر يتقلب كل شيء في داخلها، فتقذفه بقيء شديد. كان الله في عونها، انا لا اجبرها على مثل هذا العمل. اغسل الشعر بنفسي، واجففه في الشمس بنفسي، واغزل واحوك الجوارب بنفسي. الحاجة، يا اخ، تضطرك أن تتعلم اي عمل وضيع...

ولكن هذه ليست مصيبة، بل نصف مصيبة. المصيبة ان زوجتي العجوز افعى حقيقية وسعلاة! في الصيف قبل السنة الفائتة غلبني الم شديد في قدمي. فماذا افعل؟ تذكرت جوارب شعر الكلب. وذات يوم صباحاً استدرجت كلبة الجيران الى الرواق، اغويتها بالبقسماط. وحلقتها الى الجلد، كحلاق ماهر. لم ابق الا خصلة شعر في كل اذن للمحافظة على الجمال، وطرف الذيل ايضاً حتى يكون لها

شيء تهش به الذباب. ولعلك لا تصدق، حصلت منها على اكثر من ثمانية كيلوغرامات من الشعر.

غطى دافيدوف وجهه بيديه، وتاوه متقطع الانفاس من الضحك.

– الا تبالغ في الكمية؟

ولكن الجد شوكار ماكان يقع في مازق حتى في اكثر الاسئلة احراجاً. هز كتفيه بلا اكتراث وتراجع بأريحية:

– أو ربما اقل قليلا، عشرة ارطال، اثنا عشر، لم ازنها. ولكن الكلبة هذه كانت غزيرة الشعر كالخروف ابو الصوف تماماً! كنت أظن ان شعرها سيكفيني الى نهاية عمري، ولكن لم الحق الا أن احوك زوجاً من الجوارب، وبقية الشعر استولت عليه العجوز الى آخر شعرة، واحرقته في الفناء. آنا لم اتزوج امراة، بل لبوة شرسة! لا تقل ضراوة وأذى عن هذا التيس ابن اللعين! هي وتروفيم فردتان من نعال واحد، وحق الرب لا اكذب! باختصار احرقت كل ما عندي من احتياط، وخربتني تماماً! بينما انفقت آنا على هذه الكلبة كيساً هائلا من البقسماط لتقف وديعة، وتتركني احلق لها، نعم، صدقني...

ولكن هذه الكلبة لم يحالفها الحظ. افلتت مني بعد الحلاقة والرضى باد عليها، لانني خففت عنها حملها من الشعر الزائد، حتى انها هزت ذيلها بخصلة الشعر ارتياحاً، ثم انطلقت نحو النهر، ولكن ما ان رات صورتها منعكسة في الماء، حتى راحت تولول خجلا واستحياء... وبعد ذلك قيل لي انها تخبطت في النهر تريد ان تغرق نفسها طمساً للعار. ولكن ماء نهرنا ضحل جداً، وحتى العصفور يمكن ان يخوض فيه، ولم يخطر في بالها أن ترمي نفسها في البئر، لقلة عقلها. ولكن ماذا تتوقع منها؟ هي حيوان على كل حال، أو قل، حشرة. وعقلها صغير ليس كعقل الانسان...

ظلت ثلاثة أيام تولول تحت شونة الجيران، وقد تقطعت نياط قلبي من ولولتها، ولم تخرج من تحت الشونة، يعني ضميرها كان يعذبها، وخجلت أن تظهر للناس بهذا الشكل

السافر. وفي النهاية اختفت من العزبة. ولم تقع عليها عين، وغابت حتى الخريف، وما ان طلع عليها الشعر من جديد حتى عادت الى صاحبها. الى هذا الحد كانت خجولا، أخجل من أي امراة، لا اكذب وحق الرب!

ومنذ ذلك الحين قررت مع نفسي: اذا لزمتني الحاجة ان احلق كلباً مرة أخرى فلن امس الاناث ولن اجردهن من ثيابهن الخارجية، ولا الحق بهن عيباً نسائياً. بل احلق اكلباً ذكراً. فالذكور من الكلاب ليست خجولة كثيراً، واي واحد منها لن يحرك ساكناً اذا حلقته بالموسى.

قاطعه دافيدوف:

– هل ستنهي قريباً حكاياتك عن الحيوانات؟ يجب عليك ان تذهب. استعجل!

– حالا! البس حذائي الآن، واكون على استعداد. فقط الا تقاطعني بحق المسيح، والا فان افكاري ستتطاير من ذهني، وانسى عم كنت اتكلم. حسناً، كنت اقول: ماكار يحسبني احمق، على ما يبدو، وهو مخطىء جداً. صغير بالنسبة لي، لا يطير عالياً. وكل حيله مكشوفة، اما انا العصفور العجوز، فمن الصعب أن تخدعني، لا، لا تقدر! ان ماكار لا يتضرر بالاستعانة بعقلي. نعم، بالضبط.

وتملكت الجد شوكار نوبة أخرى من حب الكلام. و«تكوك» على حد تعبير رازميوتنوف، وايقافه الآن ليس فقط صعباً، بل ويقرب من المستحيل. وكان دافيدوف يعامل دائما هذا العجوز الخائب في الحياة بالحبوة الطيبة وبالشعور القريب من الاشفاق، الا انه في هذه المرة عزم على قطع حكايته.

– على مهلك، يا جد، خذ لنفسك راحة! يجب ان تذهب عاجلا الى الدسكرة، وتجلب المساح شبورتنوي. هل تعرفه؟

– في الدسكرة لا اعرف شبورتنوي وحده بل كل الكلاب قاطبة.

– انت اخصائي في الكلاب، حقيقة! ولكنني بحاجة الى شبورتنوي. مفهوم؟

– قلت لك سأجلبه، سأتي به كالعروس لعقد قرانها. انتهى. فقط أن لا تقاطعني. ما هي هذه العادة السيئة عندك في مقاطعة انسان يتكلم؟ انت، يا دافيدوف، تصير اسوأ من ماكار، والله! طيب، ناغولنوف على الأقل قتل تيموشكا، انه قوزاقي بطل، ولا بأس لو يقاطعني، سأحترمه على كل حال. اما أنت فاي عمل بطولي حققت؟ على اي شيء يجب ان احترمك؟ على لا شيء قطعاً! فلو رميت بالمسدس هذا العفريت، التيس، لعبدتك طوال حياتي، ولدعوت الله لك الى آخر عمري، ولاحترمتك ولا اقل من احترامي لماكار. وماكار بطل! اتقن العلوم كلها، وهو الآن يحفظ اللغة الانجليزية عن ظهر قلب. ويفهم كل شيء بما لا يقل عني، انه علامة من الدرجة الأولى حتى في صياح الديكة. وهو ايضاً طرد لوشكا من بيته، بينما احتضنتها انت حماقة من جنابك وسوى على تيموشكا الوغد بطلقة واحدة.

صاح دافيدوف بنفاد صبر:

– الا اسرعت في لبس حذائك؟ ماذا تفعل؟

بربر الجد شوكار وهو يتنحنح ويتقلب على القش:

– اربط سيور الحذاء. الا ترى؟ لا استطيع ان اربطها في الظلام!

– اخرج الى النور، اذن.

– سأربطها هنا، على نحو ما. نعم، نعم، هذا هو صاحبي العزيز ماكار. وهو لا يدرس وحده، بل ويسعى الى ان يعلمني.

سأل دافيدوف باسماً:

– ماذا؟

– مختلف العلوم – اجاب الجد شوكار مراوغا. فقد كان واضحاً انه لايريد ان يدخل في التفاصيل، فكرر في غير ما رغبة – اقول مختلف العلوم، هل هذا مفهوم لك؟ التقط الكلمات الاجنبية راساً. فما رايك في هذا؟

– انا لا افهم شيئاً. اية كلمات اجنبية؟

– مادمت بهذا المستوى من قلة الفهم، فلا يحق لك ان تسأل. – قال الجد شوكار في ضيق هذه المرة، ونخر متكدراً كناية عن امتعاضه من الاسئلة المزعجة.

– حاجتك الى الكلمات الاجنبية، ياجد، كحاجة الميت الى علاج جرحه. اسرع! – طلب دافيدوف، وهو يبتسم كالسابق.

هر شوكار كالقط المغتاظ.

– اسرع! كلام ايضاً! السرعة لازمة حين تصطاد البراغيث، وحين تنسل من بيت زوجة شخص آخر في الليل، وزوجها يطاردك، ويكاد يلحق بك... لا استطيع ان اعثر على السوط، عليه اللعنة! قبل لحظة كان في يدي، واذا به وكأن الارض انشقت وابتلعته، وانا بدون سوط اخاف حتى ان اخطو خطوة واحدة... وجدته، والحمد لله! اين طاقيتي؟ هل رايتها، يا رفيق دافيدوف، هل رايت طاقيتي؟ كانت على راسي... ذاكرتي صارت لا تختلف عن منخل منخوب. اوه، الحمد لله، وجدت الطاقية ايضا. والآن لم يبق الا ان اجد القفطان، واكون مستعداً. آه، ياعين النحس، يا تروفيم! لابد انه داس على القفطان فغاص في القش، والآن تعال ابحث عنه حتى الليل... آه، تذكرت! القفطان بقي في البيت... ثم ما حاجتي اليه في مثل هذا الحر؟ ماكنت بحاجة الى ان اجلبه الى هنا.

نظر دافيدوف في الباب فرأى اوستروفنوف قد شد الحصانين على العربة، ويمسدهما برقة متحدثا بشيء ما بصوت خافض. هتف دافيدوف بغضب:

– ياكوف لوكيتش لحق ان يشد العربة، وانت ماتزال تنهيا! متى ستنهي هذه الحركات الفارغة، ايها المتلكىء العجوز؟

شتم الجد شوكار بصوت عال وتطويلا:

– اي يوم لعين هذا، قبحه الله! اذا اردت الحقيقة لا يجدر ان اذهب الى الدسكرة. هناك علامات شؤم! فانظر

من فضلك، الطاقية وجدتها، ولكن لا ادري الآن اين كيس التبغ. اهذا فال حسن؟ لا، قطعاً! سيحصل في الطريق شيء منغص، بالتاكيد. عجيبة، لا استطيع ان اعثر على كيس التبغ، خلاص! ربما ابتلعه تروفيم؟ آوه، الحمد لله، عثرت على كيس التبغ ايضاً والآن يمكن أن اذهب. أم ربما نؤجل السفر الى الغد؟ علامات الشؤم واضحة... جاء في الانجيل، تسيت في أي أصحاح من انجيل متى... طيب، الى جهنم، ولكن مهما يكن من شيء فليس عبثاً أن يقول الناس: «اذا عزمت، ايها المسافر، على سفر، ووقع بصرك على علامات شؤم، فلاتتعب نفسك، والزم بيتك». والآن أصدر انت، يا رفيق دافيدوف، قرارك الحاسم: هل أسافر أم لا؟

أمره دافيدوف بحدة:

— سافر، ياجد، حالا!

زفر شوكار، ولكنه لم يعترض. وانزلق بظهره على القش، وشحط بقدميه على طريقة الشيوخ، ساحبا السوط وراءه، متلفتا بخوف الى التيس اللابد في ركن مظلم، وتقدم من باب الخروج.

الفصل السابع عشر

وجه دافيدوف الجد شوكار بعد لأي، وعزم على الذهاب الى المدرسة، ليعرف هناك الاشياء الأخرى التي يمكن ان تضفى على مبنى المدرسة لتظهر في حلة العيد في يوم الأحد. كما انه كان يريد التحدث الى المدير، ويتعرف معه على مقدار ونوع المواد الانشائية التي يحتاجها ترميم المدرسة، والبدء بعد ذلك بالترميم، حتى يمكن، وبدون استعجال كثير، ادخال اصلاحات أجود على مبنى المدرسة قبل بداية العام الدراسي.

لم يشعر دافيدوف الا في الايام الاخيرة بانه يواجه الآن اشد فترات العمل توتراً منذ وصوله الى غريمياتشي لوغ. لم يتم بعد حش العشب، بينما كان موعد حصاد الحبوب

يقترب، وبدأ الجودار يسمر امام البصر، والشعير ينضج معه في نفس الوقت تقريباً. ونمت الاعشاب الضارة بكثرة، وحقول عباد الشمس والذرة العائدة للكولخوز والهائلة بالقياس الى قطع الأراضي للفلاحين الافراد تطالب بان تحصد دون حاجة الى نطق كما أن حصاد القمح لم يعد بعيداً.

ثم يجب القيام باعمال كثيرة قبل البدء بحصاد الحبوب: نقل اكبر كمية ممكنة من القش الى العزبة، تهيئة الاماكن لدرس الحبوب، الفراغ من نقل مخازن الحبوب التي كانت عائدة للكولاك من قبل الى مكان واحد، اصلاح الدراسة البخارية الوحيدة العائدة للكولخوز، والى جانب ذلك كان على عاتق دافيدوف عدد غير قليل من الاشغال الصغيرة والكبيرة، وكل شغل من هذه الاشغال كان يستغيث مطالباً باهتمام دائم يقظ.

ارتقى دافيدوف الدرجات القديمة الصارفة الى مدخل المدرسة الرحب. وعند الباب تنحت لتفسح له المجال صبية في نحو العاشرة حافية القدمين متينة العود.

سالها دافيدوف بلطف:

— هل أنت تلميذة، يا عزيزتي؟

— نعم. — ردت الصبية بخفوت، وصعدت بصرها في دافيدوف من أسفل الى الاعلى بجراة.

— أين يسكن مديركم؟

— هو ليس في البيت، ذهب هو وزوجته الى حاكورتهما ليرويا الكرنب.

— يا لسوء الحظ... ولا يوجد احد في المدرسة؟

— توجد معلمتنا ليودميلا سيرغييفنا.

— وماذا تفعل هنا؟

ابتسمت الصبية:

— تساعد المتخلفين في الدراسة. انها تدرسهم كل يوم بعد الغداء.

— يعني ترفع من مستواهم؟

هزت الصبية رأسها بصمت.

– جيد! – قال دافيدوف مؤيداً، ودخل الرواق شبه المظلم. ترامت اليه اصوات أطفال من أعماق الممر الطويل، طاف دافيدوف على مهل في حجرات الدراسة الفارغة يتفحصها باهتمام صاحب مصلحة، ورأى من خلال باب مورب في حجرة مجاورة حوالي عشرة أولاد صغار جلسوا متفرقين في الصف الأول من المقاعد التي نقلت متقاربة، وبالقرب منهم المعلمة الشابة. كانت بقصر قامتها ونحافتها وضيق كتفيها وشعرها الاشقر الاجعد المقصوص اشبه بفتاة مراهقة منها بمعلمة.

منذ زمن بعيد لم يتخط دافيدوف عتبة مدرسة، فتملكه الآن احساس غريب، وهو واقف قرب باب الصف، عاصراً بيده اليسرى طاقيته الناصلة اللون بفعل الشمس. في تلك اللحظات تيقظ في نفسه شعور لذيذ من احترامه القديم للمدرسة، غمره حين تذكر خطفاً سنوات طفولته البعيدة...

فتح الباب بتهيب، وسعل دون حاجة جسدية الى السعال، وخاطب المعلمة بصوت واطئ:

– هل تسمحين لي بالدخول؟

فأجاب صوت رقيق كصوت بنت:

– ادخل.

ادارت المعلمة وجهها الى دافيدوف. ورفعت حاجبيها بدهشة، ولكنها عرفته، فقالت بارتباك:

– تفضل، ارجوك.

انحنى دافيدوف انحناءة غير متقنة.

– مرحباً. اعذريني على الاعاقة، ولكن ما هي الا دقيقة... اريد أن افحص هذا الصف الأخير، جئت بخصوص ترميم المدرسة. يمكن أن انتظر قليلا.

نهض الاطفال، وردوا على التحية باصوات متفرقة، وحين نظر دافيدوف الى الفناء فكر حالا في سره: «انا راعي مدرسة من اولئك الرعاة الاغنياء الصارمين السابقين...

ولهذا فزعت مني المعلمة، واحمرت. كان يجب أن اجيء في مثل هذا الوقت!»

اقبلت الفتاة على دافيدوف:

– تقدم، ارجوك، يا رفيق دافيدوف! بعد بضع دقائق سانتهي من الدرس. اجلس، ارجوك. هل أدعو ايفان نيكولايفيتش؟

– من هو؟

– مدير مدرستنا ايفان نيكولايفيتش شبين. اعقول لا تعرفه؟

– أعرفه. لا تتعبي نفسك. سانتظر. هل ممكن ان ابقى هنا وانت تدرسين؟

– بالطبع! تفضل اجلس، يا رفيق دافيدوف.

كانت الفتاة تنظر الى دافيدوف، وتتكلم معه، ولكنها ظلت غير قادرة على التغلب على ارتباكها. احمرت احمراراً شديداً، وحتى ترقوتها توردت، وصارت اذناها قانيتين.

وهذا ما لم يتحمله دافيدوف! لم يتحمله لمجرد أنه، حين كان ينظر الى فتاة تحمر امامه، يحمر هو ايضاً، ثم لأنه كان دائماً يستشعر ارتباكاً وحراجة اكثر منها.

جلس على المقعد الذي عرضته له قرب منضدة صغيرة، اما الفتاة، فابتعدت عن النافذة، واخذت تملي على التلاميذ ناطقة الكلمات بمقاطع:

– ما... ما... ء... حضـ... ر... هل كتبتم، يا أطفال؟ ء.. حضـ... ر لنا ال.. غداء. نقطة بعد كلمة الغداء. اكرر...

كتب الاطفال الجملة ثانية، وتفرسوا في دافيدوف بفضول. مرر دافيدوف اصابعه على شفته العليا بمهابة مقصودة، متظاهراً بتمسيد شاربه، وغمز للاطفال بوداد. فابتسم هؤلاء، وبدا وكأن علاقات ودية بدأت تنعقد بينهم، ولكن المعلمة عادت تملي جملة اخرى، مقطعة الكلمات كالعادة الى مقاطع، وانكب الاطفال على دفاترهم.

كانت في الصف رائحة شمس وغبار وهواء راكد يكون عادة في مبنى نادراً ما يجدد هواؤه. كانت شجيرات الليلق

والاقاسيا المزدحمة عند النوافذ لا تضفي طراوة. وكانت الريح تحرك الاوراق، ورصعات الشمس تتمايل على الارض المقشرة.

قدر دافيدوف في ذهنه، وقد قارب حاجبيه امارة على التفكير: «نحتاج على اقل تقدير الى مترين مكعبين من الواح الصنوبر لتبديل بعض الواح الارضية. اطارات النوافذ جيدة، ولكن يجب ان اعرف هل هناك اطر مزدوجة شتوية وفي اي حال هي. يجب شراء صندوق من الواح الزجاج. اعتقد لا يوجد لوح زجاجي واحد للاحتياط. والزجاج عرضة للكسر، حيث يكون الاطفال، تلك حقيقة! جيد لو نحصل على طلاء للتبييض، وكم سنحتاج من هذه المادة لطلاء السقوف واطارات النوافذ والابواب؟ يجب ان استشير النجارين للتحقق من ذلك. يجب ان تغطى ارضية المدخل من جديد. يمكن استخدام الالواح التي عندنا. قطع شجرتين ونشر اخشابها وتكون الالواح جاهزة. لن يكلفنا الترميم كثيراً... يجب ان تغطى سقيفة الحطب بالقش من جديد. هنا تل هائل من الاشغال، حقيقة! سنفرغ من مخازن الحبوب وننقل فريق النجارين كله الى هنا حالا. يجب طلاء سطح المدرسة من جديد... واين النقود؟ سأحصل عليها للمدرسة، ولو في ذلك حتفي، حقيقة! وحتى بلا حتف ولايحزنون. سنبيع زوجاً من الثيران المستهلكة، وتكون لنا نقود. من اجل هذين الثورين سأدخل معركة مع لجنة المنطقة التنفيذية، والا فلا فائدة... وسيكون اسوأ اذا بعت الثورين سراً... ولكن ساجازف. هل معقول ان تيستورينكو لا يساندني؟

اخرج دافيدوف دفتر الملاحظات، وكتب فيه: «المدرسة. الواح. مسامير. زجاج – صندوق. الاخضر الباريسي للسطح. تبييض. زيت...»

كتب الكلمة الاخيرة مقطباً. وفي تلك اللحظة ضربت جبينه برفق كرة صغيرة مبللة من الورق المعلوك مقذوفة من انبوبة، والتصقت بجلده. جفل دافيدوف من المفاجأة،

وفي تلك اللحظة ضحك احد الاطفال كاتماً ضحكته في يده. وسرى ضحك خفيف فوق مقاعد الدراسة.

– ماذا هناك؟ – سالت المعلمة بحدة.

ولقي سؤالها صمت مكتوم.

نزع دافيدوف الكرة من جبينه باسماً، واجال في الاطفال نظرة سريعة. كانت رؤوسهم الشقراء الشعر والكتانية والسوداء منكبة على المقاعد بانخفاض، ولكن ما من يد من أيديهم الملوحة كانت تخط حرفاً.

– هل انتهيتم، يا أطفال؟ والآن اكتبوا الجملة التالية...

انتظر دافيدوف بصبر دون ان يصرف عينيه الباسمتين عن رؤوس الاطفال المحنية. واذا بأحد الاطفال يرفع راسه خلسة ويبطء، ورأى دافيدوف امامه صاحبه القديم فيدوتكا اوشاكوف بعينه، ذلك الذي التقاه ذات مرة في الحقل في الربيع الماضي. كان ينظر اليه مقلصاً عينيه الضيقتين، وفمه المورد قد انفرج عن ابتسامة عريضة لا تقهر. نظر دافيدوف الى وجهه الماكر، وكاد ينفجر ضاحكاً بصوت عال، الا انه كبح نفسه، واسرع يخلع من دفتر ملاحظاته ورقة بيضاء، وحشرها في فمه، واخذ يمضغها، والقى نظرة سريعة على المعلمة، وغمز لفيدوتكا بمعابثة. كان هذا ينظر اليه بملء عينيه، ولكنه غطى فمه بكفيه حتى لا يرى ابتسامته.

استلذ دافيدوف بما بدا على فيدوتكا من نفاد الصبر، فاخذ يكور الورقة الممضوغة بعناية ودون استعجال، ثم وضعها على اظفر ابهام يده اليسرى، وقلص عينه اليسرى، وكأنه يسدد. نفخ فيدوتكا خديه، وحشر راسه بين كتفيه حوفاً. فقد كانت الكرة، على اية حال، كبيرة وذات وزن... وحين حانت الفرصة لدافيدوف رمى الكرة بطقة خفيفة، صوب فيدوتكا، فاحنى هذا راسه بحركة سريعة حتى ارتطم جبينه بسطح المقعد بقوة. رفع فيدوتكا قامته، وحدق في المعلمة محملقاً بفزع، واخذ يفرك جبينه المحمر بيده

ببطء، اهتز دافيدوف بضحك مكتوم الصوت، وأشاح بوجهه مغطياً اياه بكفيه على عادته.

وطبيعي ان تصرف دافيدوف هذا كان صبيئة لا تغتفر، وكان يجب أن يدرك اين هو. سيطر على نفسه، والقى نظرة جانبية على المعلمة مبتسماً بشعور بالذنب، ولكنه رآها قد أدارت وجهها الى النافذة تحاول ايضاً أن تخفي ضحكتها. كان كتفاها النحيلتان ترتجان، ويدها ترتفع الى عينيها بمنديل مدعوك لتمسح الدموع المترقرقة في عينيها.

وفكر دافيدوف: «اثبت الآن أنك راعي مدرسة صارم حقاً، افسدت الدرس كله. يجب أن تلملم نفسك وتخرج».

اظهر على وجهه سيماء الجد، ونظر الى فيدوتكا. كان هذا الصبي يتململ على مقعده لهوفاً حركا كقطعة من الزئبق، مشيراً الى فمه باصبعه، ثم افرج شفتيه، فلاحت في المكان الذي كان خالياً سابقاً سنان عريضتان بيضاوان بازرقاق، لم تصلا بعد الى نموهما الكامل، كثيران التأثر بحوافيهما، حتى أن دافيدوف وجد نفسه يضحك ضحكة مقتضبة دون ارادته.

اطمأن نفساً، وهو ينظر الى وجوه الأطفال، والى الرؤوس المحنية على مقاعد الدراسة بالوان شعرها المختلفة، ووجد نفسه يتذكر أنه في يوم ما، في سابق الزمان، كان يشبه ذلك الولد الذي يجاور فيدوتكا، مثلاً، له عادة أن يطاطيء راسه بشدة، ويخرج لسانه، حين ينهمك بخط حرف او حين يرسم، وكأنه يجد بكل حركة عوناً له في عمله الصعب. ومرة أخرى، ومثلما حدث في أول تعارفه بفيدوتكا في الربيع الماضي فكر مع نفسه متحسراً: «سيكون العيش أسهل عليكم، يا صغار، بل وعيشكم الآن أسهل. والا فلاي شيء حاربت اذن؟ فهل حاربت ليحيطكم الشقاء من كل جانب، كما كان يحيطني في الطفولة؟»

اخرجه من حالة الحلم هذه فيدوتكا نفسه. اذ جذب انتباه دافيدوف بحركته الدائبة على مقعده، محاولا بالحاح أن يسأل بالاشارات عن اسنان دافيدوف وكيف حالها. انتهز

دافيدوف استدارة المعلمة فبسط ذراعيه في خيبة أمل، وكشف عن اسنانه. ضحك فيدوتكا خافياً ضحكته بكفه، ثم ابتسم باعظم قدر من ارتياح النفس. وكان مظهره المنتصر بكليته يقول بابلغ من اي كلام منطوق: «كيف غلبتك، يا عم! اسناني نمت، واسنانك لا!».

ولكن بعد برهة حدث شيء جعل دافيدوف ولمدة طويلة لايستطيع أن يتذكره الا والرعشة تسري في داخله. استبد العبث بفيدوتكا فرغب ثانية في أن يلفت انتباه دافيدوف اليه، قرع سطح مقعده قرعاً خفيفاً، وحين نظر دافيدوف اليه شارد البال، دفع فيدوتكا جسمه الى الوراء بعظمة، ودس يده اليمنى في جيب سرواله، واخرج قنبلة يدوية صغيرة «ليمونة» واعادها الى جيبه بسرعة. لقد حدث كل ذلك في لحظة خاطفة، حتى أن دافيدوف، في الوهلة الأولى، لم يلحق الا أن يرمش بعينيه مخبولا، وبعد هذا أخذ يمتقع...

«من أين أخذها؟ وماذا لو كانت مهيأة للانفجار؟! ترتطم بالمقعد، وتنفجر... آوه، اللعنة، ما العمل؟!» كان يفكر برعب ساخن، وقد اغمض عينيه، ولم يشعر بالعرق البارد ينصبب على جبينه، وحنكه، ورقبته.

كان يجب اتخاذ شيء ما. ولكن ما هو؟ أن ينهض ويحاول بالقوة أن ينتزع القنبلة؟ وماذا لو يفزع الولد، وتفلت من يده، أو الادهى من ذلك ان يلحق فيرميها دون أن يعرف أن في ذلك حتفه وحتف الآخرين... لا، هذا لا يجوز السكوت عليه. رفض دافيدوف ذلك رفضاً حازماً. ظل يبحث عن مخرج بحرقة، وبصره مايزال عالقاً في الصبي، حاتاً فكره، بينما كان خياله، خارج ارادته، يرسم بمثابرة لهب الانفجار الاصفر، والصيحة القصيرة الوحشية، واجسام الاطفال المشوهة...

الآن فقط أحس كيف كانت قطرات العرق الصغيرة تنصبب من جبينه ببطء، وتنساب على جانبي قصبة أنفه، تلذع عينيه. أراد أن يخرج منديله فتلمس في جيبه مطواة هي هدية قديمة من صاحب قديم. ولمعت في ذهنه فكرة:

اخرج السكين بيده اليمنى، ومسح بكمه العرق الغزير على جبينه، وأخذ يقلب السكين ويتمعن فيه بعناية مشددة، وكأنما يراه لأول مرة في حياته. بينما كان يراقب فيدوتكا بطرف عينه.

كان السكين قديماً مشحوذاً بكثرة، ولكن المادة اللؤلؤية على جانبيه لمعت لمعاناً خافتاً في الشمس، كان لهذا السكين – المطواة مقص صغير رائع الى جانب سكينين صغيرين وفتاحة علب ومسمار لولبي. فتح دافيدوف كل هذه النوافع بالتتالي، ناظراً الى فيدوتكا نظرة قصيرة من حين لآخر. كان هذا يثبت في السكين عينيه المسحورتين. لم يكن هذا في عينه سكينا، بل كنز كامل! لم ير قط ما يضاهيه جمالا. ولكن حين قطع دافيدوف من دفتر الملاحظات ورقة بيضاء، وقص في الحال راس حصان مستخدماً بسرعة المقص الموجود في المطواة، بلغت فرحة فيدوتكا ذروتها.

بعد قليل انتهى الدرس. تقدم دافيدوف من فيدوتكا، وساله همساً:

– هل رايت اي سكين؟

بلع فيدوتكا لعابه، وهز راسه صامتاً. فانحنى دافيدوف، وهمس:

– هل سنتبادل؟

فسأل فيدوتكا بهمس أشد:

– اي شيء بأي شيء؟

– السكين بالحديدة التي في جيبك.

هز فيدوتكا راسه دليل الموافقة بتصميم المستميت، حتى أن دافيدوف امسكه من حنكه ودس السكين في يد الصبي، وتناول القنبلة اليدوية بكفه في احتراس. وتبين له أنها بلا كبسولة، فانتصب دافيدوف متلاحق الانفاس.

قالت المعلمة مبتسمة، وهي تمر بهما:

– عندكما أسرار.

– نحن صاحبان قديمان، مضى علينا وقت طويل دون ان نلتقي. اعذرينا، ياليودميلا سيرغييفنا.

قال دافيدوف ذلك باحترام. فقالت الفتاة محمرة:

– انا مسرورة لحضورك درسي.

سالها دافيدوف دون ان يلحظ ارتباكها:

– ابلغي الرفيق شبين بأن يزورني في ادارة الكولخوز اليوم مساء، وان يضع في ذهنه قبل أن يأتي، ما هي اعمال الترميم التي تحتاج اليها المدرسة، وليقدر التكاليف. ممكن؟

– حسناً، سأخبره بكل ذلك. الا تزورنا مرة أخرى؟

– سآتي اذا سنحت لي ساعة فراغ بالتاكيد، حقيقةً – أكد لها دافيدوف، وسال دون اي ترابط ظاهر بالحديث السالف – عند من تسكنين؟

– عند الجدة اغافيا غافريلوفنا. هل تعرفها؟

– اعرفها. ومن افراد عائلتك؟

– امي واخوان صغيران في نوفوتشيركاسك. ولكن لماذا تسال عن كل هذا؟

رد دافيدوف بمزاح:

– يجب أن اعرف شيئاً عنك، فانا لا امس اسرارك العذرية الخاصة؟

عند مدخل المدرسة احاط الاطفال بفيدوتكا في حلقة متماسكة، وهم يتفحصون السكين. دعا دافيدوف صاحب السكين المحظوظ جانبا، وساله:

– أين وجدت لعبتك الحديدية، يا فيدوت ديميدوفيتش؟ في أي مكان؟

– هل أريك اياه، ياعم؟

– لابد!

فاقترح فيدوتكا بجدية:

– لنذهب. لنذهب الآن، والا فلن يكون لي وقت بعد هذا.

وقبض في يده على سبابة دافيدوف، وسار يتبختر في الشارع متلفتاً من حين لآخر فخوراً، كما يبدو، أن الذي

يقوده ليس شخصاً عادياً، بل رئيس الكولخوز بعينه.
وهكذا سارا دون عجالة تذكر، ومن حين لآخر فقط كانا يتبادلان عبارات مقتضبة.
– الا تفكر في فسخ التبادل؟ – سأل فيدوتكا راكضاً الى امام قليلا، وناظراً في عيني دافيدوف بقلق.
طمأنه دافيدوف قائلا:
– مستحيل! عقدنا صفقة لا رجوع فيها.
سارا نحو خمس دقائق في صمت رصين، كما ينبغي من رجلين، وبعد ذلك لم يصطبر فيدوتكا ففك يده من اصبع دافيدوف، وركض الى امام ثانية، ناظراً من اسفل الى أعلى، وسأل:
– هل انت آسف على السكين؟ هل انت مغموم على مبادلتها؟
– ولا قطرة! – اجاب دافيدوف بحزم:
وسارا صامتين من جديد. ولكن دودة كانت تنخر في قلب فيدوتكا الصغير، على ما يبدو، والظاهر ان فيدوتكا اعتبر المبادلة ليست في صالح دافيدوف بشكل واضح، ولهذا قال بعد صمت طويل:
– هل تريد ان اعطيك مصيادتي علاوة؟ تريد؟
رفض دافيدوف بشهامة مفرطة غير مفهومة لفيدوتكا:
– لا، لا حاجة! لتبق مصيادتك لك. الم نتبادل باش بباش، حقيقة!
– كيف باش بباش؟
– يعني شيئاً بشيء. مفهوم؟
ومع ذلك لم يكن مفهوماً لفيدوتكا. فقد أذهلت فيدوتكا الى أقصى حد هذه الاستهانة التي ابداها رجل راشد في المبادلة، بل وتوجس خوفاً من مبادلة سكين فاخر يلمع في الشمس بحديدة مدورة لاتنفع لشيء. لابد في الأمر حيلة! وبعد قليل قدم فيدوتكا، وكان واقعياً، عرضاً آخر على الماشي:
– طيب، اذا كنت لا تريد المصيادة، ربما اعطيك كعاباً؟

بالاضافة، ها؟ هل تعرف اي كعاب عندي؟ جديدة تقريباً.
– وكعابك ايضاً لا احتاجها، – رفض دافيدوف متنهداً ضاحكا – ولكن لو عرضتها علي قبل عشرين عاماً، يا أخي الصغير، لما رفضتها. ولخطفتها منك في الحال. ولكن اطمئن الآن، يا فيدوت ديميدوفيتش! ما هذا القلق؟ السكين صار لك الى آخر العمر، حقيقة!
صمت آخر، وسؤال آخر بعد بضع لحظات:
– يا عم، هذه الحديدة التي اعطيتك اياها من اي شيء؟ من مذراة؟
– وأنت أين وجدتها؟
– في السقيفة التي نقصدها الآن، تحت مذراة. هناك مذراة قديمة جداً مائلة الى جنبها، محطمة كلية، وكانت هذه تحتها. كنا نلعب الغماية، وانسللت اختبىء نفسي، فوجدت الحديدة هناك. فاخذتها.
– اذن، فهي قطعة من المذراة. الم تر عصا حديدية صغيرة قربها؟
– لا، لم يكن شيء آخر هناك.
فكر دافيدوف: «حسناً، حمداً لله على ذلك، والا لحدث شيء لم نفهمه حتى في العالم الآخر».
استفسر فيدوتكا:
– وهذه القطعة ضرورية جداً لك؟
– جداً جداً.
– ضرورية للشغل؟ لوضعها في مذراة أخرى؟
– طبعاً، حقيقة!
وبعد صمت طويل قال فيدوتكا بصوت جهير:
– لا تغتم ما دامت هذه القطعة ضرورة في الشغل، كنت محقاً في مبادلتك معي، فانت تستطيع ان تشتري سكيناً جديداً لك.
خلص فيدوتكا الى هذه النتيجة في تفكير لايناسب سنه، وابتسم مطمئناً. واستراحت نفسه، على مايبدو.
وهذا، في الحقيقة، كل الحديث الذي دار بينهما في

الطريق، ولكن هذا الحديث بدا وكأنه خاتمة ذهبية لما اجرياه من مبادلة.

فقد عرف دافيدوف الآن معرفة أكيدة الى أين يقوده فيدوتكا، وحين لاحت في الزقاق الى اليسار مرافق كانت من قبل تعود الى والد تيموفي الأشرم، سأل وهو يشير الى السقيفة ذات السقف القصبي:

– وجدتها هناك؟

– كيف حزرت تماماً، يا عم! – هتف فيدوتكا باعجاب، واطلق من يده اصبع دافيدوف – والآن تستطيع أن تصل الى هناك بدوني. وسأنصرف انا فان وقتي ضيق تماماً!

صافح دافيدوف يد فيدوتكا الصغير، كما يفعل الكبار، وقال:

– شكرا لك، يا فيدوت ديميدوفيتش على اخذي الى المكان اللازم. تعال الي لأراك، والا فساشتاق اليك. انا أعيش لوحدي.

وعده فيدوتكا بنوع من التلطف:

– طيب، سأزورك في يوم ما.

واستدار على قدم واحدة، وصفر باصبعيه كما يفعل الشقاة، ليدعو اصدقاءه على ما يبدو، وانطلق بعدو سريع اثار سحابة من الغبار لم يلح من خلالها غير نعليه الاسودين متتابعين.

سار دافيدوف باتجاه ادارة الكولخوز، دون أن يمر ببيت داماسكوف. كان ياكوف لوكيتش وامين المستودعات يلعبان لعبة «الداما» في الحجرة شبه المظلمة التي تعقد فيها اجتماعات الادارة عادة. جلس دافيدوف الى الطاولة، وكتب في ورقة من دفتر الملاحظات: «الى مدير الشؤون الاقتصادية اوستروفنوف ي. ل.: جهز المعلمة ل. س. يغوروفا بـ ٣٢ كيلوغراماً من طحين القمح، و ٨ كيلوغرامات من الحنطة، و ٥ كيلوغرامات من شحم الخنزير، واستقطعها من حصتي» ووقع، واسند ذقنه على قبضة يده، وغرق في صمت متأمل، ثم سأل اوستروفنوف:

– كيف تعيش تلك الفتاة، المعلمة ليودميلا يغوروفا؟

– عيشة الكفاف، – أجاب اوستروفنوف باقتضاب، وهو يبعد رقعة الداما.

– كنت الآن في المدرسة، اتعرف على أعمال الترميم، ونظرت الى المعلمة... ضعيفة... نحيفة كورقة من شجرة في الخريف.. يعني انها لا تأكل كفايتها من الطعام! فارسل اليوم الى ربة بيتها كل ما كتبته هنا. حقيقة! وساتأكد غداً. سامع؟!

وضع دافيدوف الورقة التي كتبها على الطاولة، واتجه مباشرة الى شالي.

* * *

وما ان خرج حتى خلط ياكوف لوكيتش قطع الداما سوية، واشار باصبعه الى الباب من فوق كتفه:

– انظر اي كلب هو؟ بدا بلوشكا ناغولنوفا، ثم حام حول فاركا خارلاموفا، والآن تحول الى المعلمة. وجميع هذه الكلبات يغديهن على حساب الكولخوز. يستقطع منا كل شيء وينفقه على النساء!

فاعترض امين المستودعات:

– لم يجهز خارلاموفا بشيء، اما المعلمة فقد خصص لها من حصته.

ولكن ياكوف لوكيتش تبسم بتلطف:

– اظنه يدفع لفاركا نقداً، والكولخوز سيدفع ما ستحصل عليه المعلمة. اما لوشكا فكم من المواد الغذائية حولت اليها بأمر سري منه. نعم، ذلك هو!

كان ياكوف لوكيتش يجهز تيموفي الأشرم بالمواد الغذائية من الكولخوز حتى مماته، مثلما كان يجهز لوشكا، بينما قال لأمين المستودعات:

– كان دافيدوف يصدر لي اوامر قاطعة بتزويد لوشكا بالمواد الغذائية قدر ما تشتهي، بل وكان يهددني: «واذا

نطقت انت او امين المستودعات بكلمة واحدة فان مآلكما الى سيبيريا قطعاً!» اذن، اسكت يا عزيزي، وهات الشحم والطحين والعسل بدون وزن. لا يحق لنا ان ندين الرئاسة.

واعطى امين المستودعات كل ما طلب اوستروفنوف، وبناء على نصيحته خدع رؤساء الفرق بحذاقة ليخفي النقيصة في المواد الغذائية.

فلماذا لم يستفد ياكوف لوكيتش الآن من الفرصة السانحة ولم يشوه سمعة دافيدوف، هذه المرة ايضاً؟

ولملء الفراغ ظل اوستروفنوف وامين المستودعات وقتاً طويلا «يشرحان» دافيدوف، وناغولنوف ورازميوتنوف.

وخلال ذلك كان دافيدوف وشالي يعملان ليجعلا سقيفة فرول الأشرم اكثر ضوءا. صعد دافيدوف الى السطح، وقلع بالمذراة صفين من القش، وسأل:

– والآن يا شيخ، هل صارت السقيفة اضوا؟

أجاب شالي من داخل السقيفة:

– كفاك تحطيما للسطح. الضوء الآن كاف، وكأنما في مكان مكشوف.

سار دافيدوف بضع خطوات على الرافدة العرضانية، وقفز بخفة على الأرض الناعمة الطرية.

– من اين نبدأ، يا سيدروفيتش؟

قال الحداد العجوز:

– في العادة يبدأ الراقصون العارفون بالرقص من جنب الموقد، فتعال نبدأ من الجدار.

استعانا بقضيبين حديديين سميكين مدببين صنعا في ورشة الحدادة على عجل، وسارا جنباً الى جنب على طول الجدار، داقين الأرض بهذين القضيبين بشدة، متقدمين ببطء نحو المذراة الملقاة عند الحائط المقابل. وقبل بضع خطوات من الوصول الى المذراة كان القضيب الذي يعمل به دافيدوف ينزل في الأرض بنعومة حتى المقبض تقريباً مرسلا صوتا اصم، حين يمس المعدن.

ضحك شالي ضحكة ساخرة، وهو يمسك بمجرفة:

– ها قد وجدنا كنزك.

ولكن دافيدوف جذب المجرفة نحوه.

– دعني ابدأ انا بالحفر، فانا اكثر شباباً منك.

حفر حفرة مستديرة بعمق متر فعثر على صرة ضخمة، تبين انها تحتوي على مدفع رشاش «مكسيم» لف بمشمع. تعاونا على حمله من الحفرة، وفكا المشمع في صمت، وفي صمت ايضاً تبادلا النظرات واشعلا سيكارتيهما.

بعد مصتين قال شالي:

– الأشرم وجماعته كانوا ناوين عن جد ان يحفروا حفرة للسلطة السوفيتية...

– انظر كيف خبأوا «مكسيم» بطريقة حاذقة. ما من صدا او بقعة عليه، يمكن استخدامه في الحال! ولكن دعني ابحث في الحفرة، فقد اتلمس شيئاً آخر.

وبعد نصف ساعة وضع دافيدوف قرب الحفرة باحتراس اربع اقراص من اشرطة خراطيش المدفع الرشاش وبندقية، وصندوقاً من عتاد البندقية، وثماني قنابل يدوية مع كبسولاتها ملفوفة بمشمع متعفن الى النصف. وفي الحفرة الممتدة تحت جدار الموقد وجد ايضاً غلافاً فارغاً من صنع بيتي، كانت تحفظ فيه بندقية في السابق، كما يدل طوله.

وحتى غروب الشمس فك دافيدوف وشالي المدفع الرشاش في ورشة الحدادة، ونظفاه بعناية، ودهناه، وفي الغسق كان المدفع الرشاش يهدر في سكون المساء الرقيق خارج غريمياتشي لوغ هديراً ينذر بالوعيد والثبور. صلية واحدة طويلة، وصليتان قصيرتان، وصلية اخرى طويلة، ثم خيم السكون من جديد على العزبة، وعلى السهب المستريح بعد حر النهار، ناشراً في الجو رائحة عذبة لاعشاب ذابلة وتربة سوداء دافئة.

نهض دافيدوف من الأرض، وقال بخفوت:

– أداة جيدة! جيدة الى حد هائل!

نهر شالي بغضب رادا عليه:

– لنذهب الى اوستروفنوف حالا، ونأخذ معنا القضيبين، ونجس بهما فناءه كله وكل شيء. ونفتش بيته تفتيشاً كاملا. كفى تساهلا معه.

فرد دافيدوف ببرود:

– فقدت رشدك، يا عجوز! – من يسمح لنا بالتفتيش الكيفي، واثارة العزبة كلها؟ لا، مجرد انك فقدت رشدك، حقيقة!

– اذا كنا قد وجدنا عند الأشرم مدفعاً رشاشاً، فسنجد مدفعاً من عيار ستة ارطال مدفوناً في موضع ما في سقيفة الدريس عنده! لست أنا الذي فقدت رشدي، بل انت الاحمق الذكي، كما يظهر، واقول لك بصراحة! انتظر، وسيأتي وقت يخرج لوكيتش فيه مدفعه من تحت الأرض، ويصلي مسكنك ناراً حامية، وعندئذ ستقول حقيقة!

ضحك دافيدوف، وأراد أن يعانق العجوز، الا أن هذا استدار استدارة حادة، وبصق بموجدة كبيرة، وسار نحو العزبة دون أن يسلم، مدندنا بالشتائم.

الفصل الثامن عشر

في المدة الاخيرة، وكما هو دائماً على أية حال، لم يسعف الحظ الجد شوكار في كل شيء على الاطلاق، ولكن هذا اليوم كان بلحمته وسداها منسوجاً من المتاعب الكبيرة والصغيرة، وحتى من النكبات، حتى أن شوكار في آخر اليوم، وقد انهك كلياً بالمحن التي وقعت عليه صار خرافياً اكثر من اي وقت مضى. حقاً ما كان يجب عليه أن يوافق دافيدوف بذلك الاندفاع الطائش، ويتحمل عبء السفر الى الدسكرة، ما دامت علامات الفال دلت على الشؤم منذ الصباح...

قطع الجد شوكار ما لا يزيد عن مجمعين من البيوت بعد تركه فناء ادارة الكولخوز، وبعد ذلك اوقف الحصانين وسط الطريق، ودون أن ينزل من العربة كور ظهره كسير

الخاطر، وغرق في تفكير عميق... وكان له ما يفكر فيه حقا: «قبيل بزوغ الفجر حلمت بأن ذئبا ارقط يطاردني. ولكن لماذا ارقط؟ و لماذا يطاردني انا بالذات؟ وكأنما لم يبق في الارض الفسيحة من الناس غيري! طيب، ليطارد شخصا آخر، شابا خفيف الحركة، وعندئذ كنت ساراقب في ناحية، ولكن الشنيع أن اتحمل مصاعب الآخرين حتى في الحلم. وانا في غنى عن هذه الالاعيب تماما. واستيقظت، وقلبي يخفق ويكاد يطفر من صدري. ياحلاوة هذا الحلم العجيب! واها عليه! ثم لماذا الذئب ارقط، وليس اغبر، بشكل طبيعي؟ وهل هذا قال حسن؟ لا، ابدا، ليس قالا حسنا. علامة شؤم، يعني، والسفر سيكون وبالا علي، سينتهي بسوء، حتما. ثم ما حدث في اليقظة ايضا؟ اضعت الطاقية، وبعدها كيس التبغ، ثم القفطان... علامات لا تبشر بخير ابدا... ماكان يجب أن اخضع لدافيدوف، وما كان يجب ان اغادر مكاني!»

كان الجد شوكار يفكر في جزع، ويحدق شارد الذهن في الشارع الفارغ والعجول المختلفة الشيات الراقدة في الطراوة، تحت ظل السياج، والعصافير الناطة في غبار الطريق.

وقرر العودة بتصميم، ولكنه تذكر الحديث الذي جرى قبل حين بينه وبين دافيدوف، وغير قراره. في تلك المرة، مثلما هو اليوم، امتنع عن السفر الى الفريق الأول متطيرا من علامات النحس، مستشهدا بالحلم المزعج الذي حلم به، واذا بعيني دافيدوف الطيبتين عادة، بل والرقيقتين تغيمان فجأة، وتصيران باردتين وواخزتين. وارتعب شوكار، وقال وهو يرمش متوسلا: «سيميون، ياحسرتي! ابعد هذه الأبر الواخزة من عينيك! عيناك صارتا راسا كعيني كلب مشدود بسلسلة، حانقتين وحادتين. وانت تعرف انني لا اكن الاحترام ابدا لتلك الحشرات المشدودة بسلاسل، تقع نابحة هارة على الناس الطيبين. وعلى اي شيء تتنابذ؟ لتذهب، عليك اللعنة، ما دمت عنودا متصلبا بهذا الشكل.

ولكن اذا حصل لنا حادث في الطريق، فلن اكون ملوما ابدا».

ضحك دافيدوف حين سمع كلام الجد شوكار، وعادت عيناه الى طبيعتهما في الحال تلتمعان طيبة. وربت بكفه الثقيلة على ظهر شوكار العظمي الناشف، وقال: «هذا هو الكلام المضبوط! حقيقة. لنذهب، وساكون انا المسؤول أمام زوجتك العجوز على سلامتك التامة. أما علي فلا تقلق».

تذكر الجد شوكار كل ذلك وابتسم، وشد الأعنة، وحرك الحصانين وقد زايله اي تردد. «لأذهب الى الدسكرة. سحقا لها، لعلامات الشؤم هذه! واذا حدث شيء فليتحمل دافيدوف المسؤولية، فانا فلا انوي تحمل أية مسؤولية عن أية حقارة يمكن أن تحدث معي في الطريق! كما أن دافيدوف شاب لطيف نحوي، ولا حاجة الى اغاظته».

ظل دخان الجلة اللاذع منبسطا فوق العربة وقتا طويلا بعد أن طبخ الناس طعام فطورهم، وكانت نسمة خفيفة تنشر فوق الطريق الرائحة العذبة لنبات رجل الاوز المتفتح، وسرت من زرائب الماشية التي مر بها الجد شوكار رائحة روث البقر والحليب الطازج المالوفة منذ الطفولة. نظر العجوز فيما حوله مقلصا عينيه من سطوع النور، مسددا بحركة معتادة لحيته الصغيرة المشربكة، فتطلع الى الصور الحبيبة الى قلبه لحياة العربة البسيطة. بل وتقلب مرة واحدة على كسله، ولوح بالسوط ليطرد العصافير التي اشتبكت في عراك حام من تحت عجلات العربة، ولكنه مر ببيت انتيب غراب القيظ فالتقط انفه رائحة خبز خبز لتوه، والنكهة المغرية لأوراق الكرنب المحترقة التي تعودت نساء غريمياتشي على انضاج الخبز عليها، وفي تلك اللحظة فقط تذكر انه لم ياكل شيئا منذ ظهر امس، فاحس بجوع شديد حتى ان فمه الخالي من الاسنان امتلأ باللعاب رأسا، وانعصرت معدته بألم مزعج.

استدار الجد شوكار بالحصانين الى الزقاق استدارة حادة، واتجه بهما الى بيته في نية أن يتبلغ بشيء من الطعام، قبل السفر الى الدسكرة. لمح وهو ما يزال بعيدا

عمودا من الدخان يتصاعد من مدخنة كوخه. ففكر مع نفسه بابتسامة ارتياح: «عجوزي انتهت من الطبخ، وهي تستريح الآن. تعيش معي كأميرة تماما. لاحزن ولا ترح ولا ما شاكل ذلك...»

ولم يكن الجد شوكار يحتاج كثيرا ليتحول رأسا، وبدون مرحلة انتقال، من الأفكار المتذمرة الحزينة الى الارتياح النفسي الرخي البال. تلك هي طبيعته المتخلفة من الطفولة. راح يفكر، وهو يجذب الأعنة بكسل: «ومن الذي يجعلها تعيش حرة طليقة كالطير في السماء؟ انا، بالطبع! كنت محقا حين نحرت العجلة في الشتاء، كنت محقا، وحق الرب! والآن تعيش عجوزي حياة راضية مطمئنة بدون تعب العجلة! ليس عندها غير الطبخ، تفرغ منه وتستريح. ولو لا ذلك لصارت العجلة بقرة، ولكان على العجوز أن تنهض حالما يطر الفجر، وتحلب البقرة الملعونة، وتخرج بها الى القطيع، أما البقرة فتلوب اثناء النهار، وتاتي راكضة الى البيت هاربة من ذباب الخيل مثلما يهرب الاطفال. ومرة أخرى يقتضي سوقها، وتحضير العلف لها للشتاء، وتنظيفها، وتغطية زريبتها بالقصب أو القش... عذاب! وما فعلته بالخراف وغيرها كان حتى اكثر صوابا! كان يجب ان اخرج بها الى المرعى، وأقلق عليها، الملعونة، خوفا من ان تخرج من القطيع، ويلتهمها احد الذئاب. بينما لا يجب أن نقلق انفسنا على مثل هذه القذارة، فانا بدون ذلك تلقيت في حياتي مايكفي من القلق، وقلبي كله ثقوب مثل حذاء قديم، على ما اظن. ثم عاد بيتي فخلا من اي خنوص، وهو صحيح أيضا. ترى ما حاجتي الى هذا اللعين الخنوص الآن؟ فاولا سيصيبني مغص، اذا اكثرت من اكل شحم الخنزير، وثانيا بماذا كنت ساطعمه الآن، اذا كنت انا نفسي لا املك من الاحتياط غير حفنتين من الطحين؟ كان سيصرخ الآن من الجوع، وكان سيطلع روحي من حلقومي بصراخه هذا... ثم ان الخنزير حيوان ضعيف. فهو مرة يصاب بالطاعون، او بأي نوع من القروح تتفشى فيه.

فحاول أن تربي حيوانا وضيعا كهذا، فسيفطس عندك اليوم او غدا. كانت رائحته الكريهة تملأ لي الفناء حتى تضيق انفاسي، بينما استطيع الآن، بدونه، ان استنشق ملء صدري هواء نقيا، واشم رائحة العشب، ورائحة الخضروات في الحديقة، والقنب البري وغير ذلك. فانا، الخاطىء، أحب الهواء الطلق! فما لي اعذب نفسي بتربية خنوص او حتى خنزير، عليه اللعنة ثلاثا! ليس لي غير دجاجتين صغيرتين نظيفتين وديك مهذب، وهذا كل كفايتنا، انا والعجوز، من الحيوانات، وليغتن الشبان غيرنا، فنحن في غنى تماما عن هذه الثروات! ثم أن عزيزي ماكار يؤيدني في ذلك ويقول: «اصبحت، يا جد، بروليتاريا خالصا، وحسنا فعلت حين تخليت عن الملكية الصغيرة». ولكنني ارد عليه بزفرة غاضبة: «ربما من المريح ان يكون المرء في عداد البروليتاريا، ولكنني لا اوافق على أن اظل طوال عمري اقتات على شوربة الكرنب بلا لحمة، ومشروب الكفاس. الله يوفق البروليتاريا، ولكن اذا كانوا لا يعطوننا لقاء ايام العمل لحما أو شحما مقددا مثلا لنطبخ به حساء الكرنب، فانني سأسلم الروح الى بارئها بكل بساطة، حين يكون الشتاء على الابواب وعندئذ ماذا سانتفع بلقب البروليتاريا هذا؟ سانتظر كم سيكون لي من ايام العمل حتى الخريف، وبعدها، واذا لم يحصل شيء فساعود حالا الى احضان الملكية الصغيرة».

وقلص الجد شوكار عينيه مفكرا، وتكلم بصوت عال هذه المرة:

– آه، متاعب ومصاعب في حياتنا غير المستقرة هذه! كل شيء بطريقة جديدة، كل شيء يصعب على الفهم، فيه تقلبات راقص بارع...

ربط الحصانين الى السياج، وفتح باب الحديقة المتداعي. وسار نحو البيت في مشية رب بيت متباطئة رصينة عبر ممر معشوشب.

كان المطبخ شبه مظلم، وباب حجرة الجلوس مغلقا،

وضع الجد شوكار على المسطبة طاقيته المتسخة المسطحة ككعكة، وسوطه الذي لم يكن، بسبب التيس تروفيم، يفارقه لحظة واحدة، وتلفت، ونادى للاحتياط:

– يا عجوز! هل انت حية؟

تردد صوت واهن من حجرة الجلوس:

– حية بالاسم فقط. ارقد منذ المساء، ولا ارفع راسي كل شيء في جسمي يؤلمني، ولا قوة لي، وارتجف بردا حتى انني لا احس بدفء، وانا تحت الفروة... علقت بي سخونة، لابد... وانت، لماذا جئت، يا عجوز؟

فتح شوكار باب الحجرة على مصراعه، ووقف على العتبة:

– انا ذاهب الى الدسكرة الآن، وقد جئت لاتناول لقمة قبل السفر.

– ولاي غرض تسافر؟

مسد شوكار لحيته بعظمة، وأجاب، وكانه مكروه على ذلك:

– امامي مهمة ايفاد جدية، اجلب مساح الاراضي الرفيق دافيدوف يقول لي: اذا انت لا تاتي به، فلن ياتي به احد غيرك». مساح اراض واحد للمنطقة كلها، ولكنه رجل معروف لي، شبورتنوي هذا سياتي بالتاكيد احتراما لي – اوضح شوكار، وتحول راسا الى لهجة عملية جدا – اعدي شيئا آكله، وقتي ضيق.

تاوهت العجوز بشدة اكثر.

– آه يا تعيس! ماذا اطعمك؟ لم اطبخ اليوم، ولم اشعل الموقد. اذهب، واقطع خيارات من الحديقة، وعندنا في السرداب لبن رائب جلبته جارتنا يوم امس.

استمع الجد شوكار الى عقيلته بازدراء مكشوف، واخيرا قال حانقا:

– خيار طازج مع لبن رائب؟ تخيلت نهائيا، ايتها الاسطرلاب القديم! العلك تريدين ان افقد كل مكانتي؟ انت تعرفين ان معدتي ضعيفة جدا، وستنحل بطني من هذا

الطعام، فماذا سافعل عند ذاك في الدسكرة؟ اجري وسروالي في يدي؟ بينما لا استطيع أن ابتعد عن الحصانين خطوة واحدة، فماذا يبقى علي ان افعل؟ أفقد آخر قطرة من كرامتي امام الناس في الشارع؟ شكرا جزيلا! استعملي انت خياراتك، واسحقيها باللبن الرائب، فأنا لا اقدم على هذه المجازفة! منصبي ليس هينا، انا انقل الرفيق دافيدوف نفسه، ولا انوي المجازفة باكل خياراتك. هل فهمت، ايتها الاسطرلاب القديم؟

صرف السرير الخشبي المتخلخل تحت العجوز صريخا مريبا، فتوجس الجد شوكار على الفور. وما كاد يتم ملاحظته الانتقادية حتى طرأ على العجوز تغير مذهل. اذ غادرت السرير بوثبة نشطة، وتخوصرت ممتلئة حنقا وتصميما. واكتسب صوتها الذي كان واهنا قبل حين رنين المعدن تقريبا، حين انشأت تقول، وهي تميل منديلها المدعوك جانبا بطريقة المتعاركات:

– وهل تريدني، ايها القرمة العتيقة، ان اطعمك بحساء الكرنب المطبوخ باللحم؟ أم ربما تخيلت فطائر مع القشطة؟ من اين اجيء بكل هذا، اذا كانت حجرة مؤونتك خالية الا من الفئران. وحتى هي تموت من الجوع! الى متى تظل تلوثني بانواع الكلمات غير المفهومة؟ وكيف تدعوني بالاسطرلاب والانتطرلاب؟ هل علمك ماكار ناغولنوف ان تقرأ انواع الكتب العتة وانت فرحان، ايها العجوز؟ انا امرأة نزيهة، وعشت معك بنزاهة، ابو مخاط، كل حياتي كامرأة، وانت، في شيخوختي، لا تعرف اسمي لتدعوني به؟

واتخذت المسألة تحولا مفاجئا ومشؤوما بالنسبة لشوكار، ولهذا قرر ان يتراجع قليلا الى اعماق المطبخ، وقال متصالحا، وهو يتراجع خفيف الحركة:

– كفاك، كفاك، يا عجوز! هذه ليست كلمات سباب بل مداعبة بطريقة مثقفة. شيء واحد ان اسميك اسطرلاب او «يا روحي!»، ومعناه في الكتب «استلطاف». وحق الرب لا اكذب، هذا ماجاء في الكتاب الذي اعطاني ماكاروشكا لاقراه،

وقد قرأته بأم عيني، بينما تصورت انت اشياء مخيفة. اهذا يعني عندك محو الأمية التام! يجب ان تتعلمي، كما اتعلم انا، عندئذ تستطيعين ان تتصرفي بالكلمات، مالا يقل عني، حقيقة!

وكان في صوت شوكار من قوة الاقناع بحيث جعلت العجوز تفتر، ولكنها ظلت تتفرس في زوجها مرتابة، وتنهدت:

– فات الوقت لأتعلم، وبلامنفعة. وانت ايضا، يا فار الخيل العجوز، يجب ان تتكلم بلغتك، والا فان الناس سيضحكون منك، مثلما يضحكون من احمق حقيقي.

قال شوكار بعجرفة، ولكنه لم يستمر في الجدل:

– لا يخلو الناس من ضحك.

قطع كسرة خبز يابسة بعناية ولوقت طويل، ووضعها في طاسة صغيرة من اللبن الرائب، وأكل ببطء، وحماس، وهو ينظر من النافذة، ويفكر: «ولم استعجل في السفر الى الدسكرة؟ الاستعجال، حين يكون هناك شخص يحتضر، ويجب دعوة القس له ليقرأ عليه. اما شبورتنوي فمساح اراض وليس قسا، ودافيدوف لاينوي ان يموت قط، فلماذا اتعب نفسي بالاستعجال؟ سيحين لكل منا اجله، ولا يوجد بيننا الآن من هو مرشح الى ذلك... اذن، حين سأخرج من العزبة، استدير الى وهدة لئلا يراني احد، وأرقد ملء جفني، قدر ما أريد، وخلال ذلك سيرعى الحصانان العشب. وعند المساء سأكون عند فريق دوبتسوف، وستقدم لي كوبريانوفنا العشاء بالتاكيد، واذهب الى الدسكرة ليلا، حيث الطراوة. واذا عرف دافيدوف بذلك – لاسمح الله – فساقول له بصراحة: «اقضوا على تيسكم اللعين تروفيم، وعندئذ لن تكون لي حاجة الى النعاس في الطريق. طوال الليل يتغطرس هذا التيس على القش، فكيف ينام الانسان في هذه الحال؟ ازعاج تماما!»

فرح شوكار بالامل اللذيذ في ان يكون عند دوبتسوف، فابتسم، ولكن العجوز افلحت في هذه اللحظة في تعكير مزاجه:

– ما لك تعلك كالمشلول؟ ما داموا قد ارسلوك في مهمة فلا تظل تدور كالخنفساء في روث، واذهب بسرعة. واطرد من رأسك كلمات الكتب البلهاء، ولا تفوه بها امامي ابدا، والا قلمت ظهرك بالعصا. فلا تنس هذا، أيها الأحمق العجوز!

– لكل عصا طرفان – تمتم الجد شوكار.

ولكنه فطن الى تجاعيد الغضب على وجه عقيلته، فشرب اللبن بسرعة، وسلم مودعا:

– ارقدي، يا عزيزتي، ولا تنهضي بدون لزوم، وامرضي بالصحة والسلامة. أنا ذاهب.

– بحفظ الله! – تمنت له العجوز في غير كثير من الرقة، وادارت له ظهرها.

* * *

سار الجد شوكار سيرا اعتياديا حتى طرف وهدة تشيريفلينا على بعد حوالي ستة كيلومترات من العزبة، والنعاس اللذيذ يطوف في عينيه، ومن حين لآخر كان يرخي رأسه على صدره، وكاد يسقط ذات مرة من العربة وقد انهكه قيظ الظهيرة تماما. وفكر شوكار، وهو يتحول الى الوهدة: «بهذا الشكل سأنقلب من العربة!.»

في قاع الوهدة كان العشب الطري العذب الرائحة يرتفع حتى الخصر. وكان جدول ينبوع يترقرق من اعلى الوهدة في مجرى طيني. وكان الماء شفافا، وباردا جدا، حتى ان الحصانين كانا ايضا يشربانه بجرعات صغيرة متفادية، راشفين اياه بحذر من خلال اسنانهما. وبالقرب من الجدول في كثيف، تعجز الشمس المرتفعة عاليا عن النفاذ اليه لتحميه. وهمس شوكار وهو يفك الحصانين: «اية نعمة!». شكل قوائم الحصانين، واطلقهما يرعيان. وفرش لنفسه في ظل اجمة شوكية قفطانه القديم، واستلقى على ظهره،

واستغرقته أحلام دنيوية، وهو ينظر الى السماء الحائلة اللون بفعل الحر بعينين من نفس اللون.

«لن يستطيع أحد أن يخرجني من هذا الترف حتى المساء ولو سحبوني سحبا. سانام ملء جفوني، وادفا في الشمس عظامي الشائخة، وبعد ذلك اذهب في ضيافة دوبتسوف، واتلذذ بالعصيدة. ساقول له لم الحق لاتناول فطوري في البيت، وسيطعمونني بدون أي شك، وبلا حاجة الى سؤال وجواب! ثم، اذا اردنا الحقيقة، لماذا على الناس في الفريق ان ياكلوا عصيدة غير مطعمة بدسم، او نحوها من الأشياء البائخة؟ ليس دوبتسوف بالفتى الذي يصوم في ايام الحش. صحيح أنه محتال منمش، ولكنه لن يقبل بأن يمر يوم بلا لحم. سيسرق خروفا من احد القطعان، ويطعم افراد فريقه به!.. لا باس بقطعة لحم ضأن في الغداء، حوالي اربعة ارطال! لاسيما اذا كانت محمصة بالسمنة، او على الأقل بيض مقلي بالشحم، على ان يكون مايملأ المعدة...

وفطائر مع القشطة، غذاء ملوكي ايضا. الطف من اي قربان مقدس، لاسيما اذا كان الكثير من هذه العزيزة الى قلبي، يوضع في صحني، ومعها زيادة، ويخض الصحن برفق لتتغلغل القشطة الى قعره، ولتتلبس كل فطيرة بالقشطة ظهرا وبطنا، على الاخص اذا كان الصحن اعمق تسرح فيه الملعقة وتجول!».

لم يكن الجد شوكار يتميز قط بالنهم، سوى انه كان جوعان لا غير. خلال حياته الطويلة الكالحة نادرا ما اكل الى حد الشبع، وفي الاحلام فقط كان يتخم نفسه بالوان الطعام اللذيذة حسب ذوقه. فمرة كان يحلم بانه ياكل لقم لحم الضأن المسلوق، ومرة يلف فطيرة ضخمة بعد ان يغمسها بالقشطة، ويدفعها الى فمه، ومرة يزدرد حساء بطارخ البط دسما لاذعا لسانه بحرارته لعجالته... نعم، وكم كانت له من مختلف الاحلام الطويلة مثل اي جائع، ولكنه كان دائما يستيقظ بعد مثل هذه الاحلام حزينا، بل وخانقا احيانا يقول

لنفسه: «انا احلم بمآدب لا تخطر على بال! هذا ضحك على الذقون وليس حياة: احلم في النوم بما لذ وطاب، وآكل الحساء دسما بحيث لاتطاوعني نفسي ان اعوقه، وفي اليقظة تدفع لي عجوز الخبز المنقوع بالماء والبصل، عليه اللعنة ثلاثا!»

وبعد مثل هذه الكلمات كان الجد شوكار حتى حلول الفطور يعلق شفتيه الجافتين خلسة، واثناء الفطور البائس يتحسر بحزن، ويتناول الملعقة الخشبية المقشرة بحركة وانية، ويحاول أن يلتقط قطع البطاطس في الطاسة شارد اللب.

ظل الجد شوكار وقتا طويلا يفكر، وهو مضطجع تحت الأجمة، ترى، ماذا يمكن ان يقدم للغداء في الفريق، ثم تذكر بغير مناسبة كيف شبع في الغداء الذي قدم في اربعينية أم ياكوف لوكيتش، وبعد ان اتعب نفسه كليا بتذكر الاطعمة التي اكلها، احس فجاة بنوبة حادة من الجوع مرة اخرى، حتى أن النعاس انقشع عن جفنيه بسرعة، فبصق مختدا، ومسح لحيته، واخذ يتلمس بطنه الخاسف، وبعد ها قال بصوت مسموع:

– قطعة خبز و كوز من اللبن الرائب، أهذا طعام حقيقي لرجل منتج؟ هذا انتفاخ وليس طعاما! قبل ساعة كان بطني مشدودا كالطبل الغجري، اما الآن؟ فبطني منطبق على ظهري، ياربي الرحيم! وطوال الحياة تفكر في كسرة من الخبز الكفاف، فيما تملأ به بطنك، بينما العمر يمر كالماء من خلال الاصابع، ولا تحس كيف يصل الى نهايته وينقضي.. وهل مضى وقت طويل منذ أن مررت بهذه الوهدة لآخر مرة! آنذاك كان البرقوق الشوكي يزهر في الوهدة كلها، وقد قارت كلها بالرغوة البيضاء وحين كانت الريح تهب، كان الزهر الأبيض العذب يتماوج، وكانما اجتاحت الوهدة عاصفة ثلجية. وكان الطريق الى الاسفل كله مغطى باللون الابيض، ويفوح باعذب من رائحة اي عطر نسائي، اما الآن فان زهر الربيع هذا قد ذبل وتلاشى واختفى نهائيا والى

الابد! وكذلك هي حياتي التي لانفع فيها، اسودت وذبلت في الشيخوخة، وعن قريب سيتعين على شوكار المسكين أن يسحب قدميه المستهلكتين من الدرب، ولا منجى من ذلك...

وبذلك انتهت تأملات الجد شوكار الفلسفية الشاعرية. واخذته الشفقة على نفسه، فبكى قليلا، وتمخط، ومسح بكم قميصه عينيه المحمرتين، وأخذ يهوم في غفوة. فقد كانت الافكار الحزينة تسلمه الى النوم دائما.

أبتسم بعذوبة مستغرقا في النوم، حتى وهو في هذه الحال، وفيا للطبع المجبول عليه. قلص عينيه بهناءة، وفكر من خلال النعاس: «حتما سيكون لحم الضأن الطازج في وجبة الغداء، عند فريق دوبتسوف، هذا ما يعلمني به قلبي! أنا لا استطيع بالطبع أن آكل اربعة ارطال في جلسة واحدة، ظننت ذلك حين تحمست قليلا، وضيعت الحساب، ولكن ثلاثة ارطال او ثلاثة ونصف استطيع أن آلتهمها على طول، ودون توقف! فقط أن يكون لحم الضأن جاهزا على المائدة، وشوكار هناك، فلن يفوت الفرصة، ولن يخطىء الطريق الى فمه... كونوا على ثقة!»

في نحو الساعة الثالثة وصلت شدة الحر الى ذروتها. وجلبت الريح الحارة الهابة من الشرق الى وهدة تشيريفلينا هواء مفخورا، فلم يبق أثر للطراوة التي كانت هناك قبل حين. وحتى الشمس في تحولها الى الغرب بدت، وكأنها تطارد شوكار. ثام منبطحا على بطنه، دافنا وجهه في القفطان الملفوف، ولكن ما كادت اشعة الشمس تتسلل من خلال القميص المثقوب، وتلمسه ويحس بحرارتها على ظهره النحيل، حتى تحول قليلا الى الظل، وهو ما بين النوم واليقظة، غير أن الشمس الملحاحة عادت، بعد بضع دقائق، واخذت تحرق ظهره الشائخ بدون رحمة، فاضطر مرة اخرى الى الزحف على بطنه متنحيا عنها. وخلال ثلاث ساعات قطع نصف الدائرة حول الاجمة الصغيرة زحفا، ودون أن يستيقظ. واخيرا استيقظ منتفخا وقد انهكه

الحر، وبلله العرق تماما، وقعد، ونظر الى الشمس من تحت كفه، وفكر حانقا: «يا ربي، لامنجى من عينك الربانية حتى تحت اجمة!.. جعلتني كالأرنب أحوم حول الأجمة طوال الظهيرة. وهل هذا نوم؟ ليس نوما، بل عقاب حقيقي! كان يجب أن ارقد تحت العربة، ولكن عين الرب هذه كانت ستجدني حتى وأنا هناك، لا فرار منها لشيطان في السهب الأجرد!».

خلع حذاءه المستهلك كليا، وهو يحمحم ويتنهد، وطوى طرفي سرواله، وحدق طويلا في رجليه اليابستين، وابتسم منتقدا، هازا راسه بحزن في الوقت ذاته. وبعد ذلك توجه الى الجدول ليغتسل، ويبرد وجهه المتوهج بمائه البارد جدا.

ومنذ تلك اللحظة أيضا أخذت تبدأ سلسلة من المغامرات الحزينة في حياته.

ما كاد يتقدم خطوتين خلال الأسل القصير الى الماء الصافي وسط الجدول رافعا قدميه الى الأعلى، حتى احس فجاة بانه سحق بباطن قدمه اليسرى شيئا متحركا زلقا باردا، وشعر على الفور بلسعة خفيفة فوق رسغه بقليل. اخرج الجد شوكار قدمه اليسرى من الماء بسرعة، وبقي واقفا على قدمه اليمنى كالغرنوق وسط مستنقع. ولكنه حين راى أسلة تتمايل الى يساره، وقد سرى خلالها بسرعة اثر ملتو، اخضر وجهه اخضرار الأسل نفسه، واخذت عيناه تبرزان من محجريها ببطء...

وتملكت العجوز خفة طارئة عليه! وكانما عاد اليه شبابه الغابر، وبقفزتين طلع الى شاطىء الأمان، وما ان جلس على ربوة صلصالية، حتى أخذ يتمعن بعناية في بقعتين حمراوين في رجله، ناظرا الى الجدول الغدار من حين لآخر بعينين فزعتين.

وحين زايله خوفه الأول بالتدريج، عادت اليه قابليته على التأمل، فهمس بصوت خافت:

– هذه هي البداية، وانت المحمود، يارب... اي شيء تعني هاتان العلامتان اللعينتان! لقد كنت اقول

لصاحبي العنود دافيدوف ذاك: لا حاجة الى المجازفة اليوم، والسفر الى الدسكرة، ولكن بلا فائدة، ركب راسه، واصر على السفر. وهذه هي النتيجة. كان كثيرا ما يقول: «انت طبقة عاملة». ولماذا هذه الطبقة العاملة عنودة بهذا الشكل؟ حين تنوي على شيء، لن تتركك في سلام حتى تحصل عليه، كن على ثقة! وقد حصلت عليه، بنت الكلبة. والآن ماذا افعل أنا؟

وهنا عنت للجد شوكار فكرة خاطفة: «يجب الآن ان امص الدم من الجرحين! لا بد أن صلا ضارا. قد لسعني، رايته كيف يشق الأسل شقا! الأفعى الحقيقية، او لنقل، حية الزرع، لا تزحف بتلك العجالة، بل بهدوء. اما ذلك الصل، فقد مرق كالبرق، وتلوى. فزع مني ذلك الفزع الشديد! ولكن السؤال المطروح: من الذي افزع اكثر؟ أنا ام هو».

ولم يكن له مايكفي من الوقت لحسم هذه المسالة المعقدة، فقد كان وقته ضيقا. ودون أن يضيع الجد لحظة واحدة، طوى جذعه طيتين، اثناء جلوسه، ولكنه مهما حاول لم يستطع أن يوصل شفتيه الى موضع الجرحين. عندئذ امسك أخمص رجله وموطنها بيديه وجذب القدم اليه بجهد المستميت، حتى أن شيئا طقطق في رسغه بشدة، وانطرح العجوز على ظهره من الألم الشديد. وبقي مطروحا بلا حراك حوالى خمس دقائق. وحين افاق على نفسه حرك اصابع رجله اليسرى. وراح يفكر في حيرة تامة: «في البداية لسعة، والآن شيء آخر. لأول مرة في حياتي أرى رجلا عاقلا يفسخ قدمه بيده. لن يصدق أحد بك، اذا حكيت له هذه الحكاية، وسيقول: «الجد شوكار يعود الى الكذب!». تفضل، هذه هي العلامات! الى اين تتجه بي... آه، طعنه طاعون، دافيدوف هذا. كنت اتكلم معه بلطف، كانسان. والآن ماذا على أن افعل؟ كيف ساشد الحصانين؟»

ولكن لا يجوز التماهل بعد الآن. فنهض شوكار بهدوء، وحاول بحذر أن يطأ على قدمه اليسرى. وفرح فرحا عظيما حين تبين أن الألم ليس بتلك الشدة السابقة، واستطاع

أن يتحرك، ولو بصعوبة. فرك في كفيه كتلة صغيرة من الطين، وبللها بلعابه، وملط بها الجرح بعناية، وسار نحو الحصانين، ولكن بعرج دون ان يطأ الارض بقدمه المصابة الا بحذر، واذا به يرى في الجانب المقابل من الجدول، على بعد حوالي اربعة امتار، ماجعل عينيه تتوهجان، وشفتيه ترتعشان بشدة لا تكبح: فقد رأى هناك حية زرع صغيرة ملفوفة على نفسها تنعم بنوم لذيذ على اكمة. ولم يكن هناك اي مجال للشك في أنها هي نفس الحية التي لدغته. وكانت «نظارتاها» الصفراوان البرتقاليتان تلمعان على رأسها بوداعة.

وقد استسلم ذلك الجد شوكار الى الغيظ الشديد، فاتخذ كلامه نبرة انفعالية مهتاجة حانقة لم يستخدمها من قبل قط. وضع قدمه المتضررة الى الامام، ومد يده بمهابة، وقال بصوت راعش:

– زاحفة لعينة! لئيمة باردة الدم! طاعون ذو عيون صفر! انت التي استطعت، أيتها الحشرة المؤذية، أن تفزعيني، انا الرجل المنتج، ذلك الفزع المميت؟! بينما كنت اظن في البداية أن الذي لدغني صل حقيقي! وماذا انت حقيقة، اذا دققنا في هذه المسألة؟ حقارة زاحفة، بصقة، ولا شيء اكثر! ما ان تطؤك قدم حتى تتحولي الى هباب، ولا يبقى منك شيء. ولو لم افسخ قدمي بسببك، أيتها الحية، لفعلت بك ما لم تنسيه ابدا. فليكن هذا في علمك.

وتوقف شوكار ليلتقط انفاسه، ويلع ريقه. رفعت حية الزرع رأسها الأسود المنحوت كالمرمر، وبدت وكأنها تصغي باهتمام الى الخطاب الموجه اليها. استراح شوكار قليلا، وتابع يقول:

– بحلقت عينيك الوقحتين وجمدت لايرف لك جفن، أيتها الروح الشريرة؟! وتتصورين أن ذلك سينقذك؟ لا، ابدا، ياالطيفتي، ستلقين مني ماسيسجل لك في دفتر عملك اليوم! تتصورينني متساهلا! ولكن لا، سأفعل بك مالا يبقى منك غير الأثر، حقيقة!

وخفض الجد شوكار بصره الحانق الفاضح، ورأى حجرا مدورا كبيرا بين الحصى الدقيق الذي جرفته مياه الربيع من أعلى الوهدة. فتسي ألم قدمه، ومشى الى الأمام بجراة. انطلق ألم حاد في رسغه، فسقط الجد على جنبه، وشتم اقذع الشتائم، ولكنه لم يطلق الحجر من يده.

وبينما كان ينهض على قدميه متأوها متوجعا، كانت حية الزرع قد اختفت، وكأن الأرض انشقت وابتلعتها! رمى شوكار الحجر، وبسط ذراعيه محتارا:

– تفضل، لغز لا اكثر ولا اقل. طيب، اين استطاعت هذه المشعوذة أن تغوص؟ لابد أنها دخلت الماء، ثانية. اذا عاكسك الحظ مرة ظل يعاكسك على طول... اعتقد ان الأمر لا ينتهي الى هذا الحد. ما كان علي، انا الأحمق العجوز، أن ادخل نفسي في حديث معها، وكان يجب ان التقط حجرا بصمت، وأضربها بأول ضربة على رأسها، على رأسها بالتاكيد، والا فلن اقتل هذه الحشرة الوضيعة، وفي المرة الثانية قد اخطئها، حقيقة. ولكن من اضرب الآن مادامت هذه الروح الشريرة قد غاصت؟ هذه هي المسألة.

وظل الجد شوكار لبعض الوقت واقفا عند الجدول يحك علباءه، ثم هز ذراعه في يأس، ومشى يعرج ليشد الحصانين. وأخذ يتلفت حتى ابتعد عن الجدول مسافة لاباس بها، تلفت بضع مرات وللحيطة فقط.

...كان السهب يتنفس في خفق الريح بكل صدره العريض جبارا ومسالما، نكهة مسكرة توحي دائما بشيء من الشجن، هي رائحة العشب المحشوش، وسرت من احراش البلوط على جانبي الطريق طراوة، ورائحة موات ولكنها منعشة، هي رائحة اوراق البلوط المتعفنة، ولكن اوراق الدردار المتبقية من السنة الفائتة كانت تفوح، لسبب ما، برائحة الصبا، والربيع، وبشيء من البنفسج ربما... ومن هذا المزيج من الروائح المختلفة يتسربل المرء دائما ولسبب غريب بغلالة من الحزن، وكأنما فقد توازنه، لاسيما، اذا بقي لوحده... ولكن الجد شوكار لم يكن مثل

هذا المرء، وضع قدمه المصابة في موضع مريح، تاركا اياها على القفطان الملفوف، ودلى اليمنى من العربة بلا اكتراث، وابتسم ابتسامة عريضة بكل فمه الادرد، مقلصا بارتياح عينيه الباهتتين من كبر السن، وصار انفه الصغير الاحمر المقشر يختلج، وهو يستنشق بنهم الروائح الأليفة لسهبه الحبيب.

ولم لا يفرح بالحياة؟ والألم في قدمه قد خف كثيرا، والشمس قد حجبتها ولمدة طويلة غيمة جلبتها الريح من الشرق البعيد، وعلى السهل والاكمات والروابي والوهاد ارتمى ظل ليلقي كثيف وصار التنفس أخف، وبعد قليل سينعم بعشاء وافر من كل بد... وهكذا، ومهما يكن رايك فيه، فان الجد شوكار لحد الآن لا يحيا حياة سيئة جدا!

حالما تراءت عربة الحقل ومخيم الفريق الثاني من بعيد، من فوق أكمة، حتى اوقف شوكار الحصانين الراكضين، ونزل من العربة. مايزال الألم يناكد وسغه ولكن بدون حدة، الا انه كان يقدر ان يقف على قدميه كلتيهما بهذا القدر او ذاك من الثبات، فقرر العجوز مع نفسه «ساريهم ان القادم اليهم ليس سقاء اعتياديا يجلب الماء، بل سائق من ادارة الكولخوز على كل حال. ومادمت انقل الرفيق دافيدوف وماكار العزيز، وغيرهما من الرؤساء المهمين، فيجب ان اقبل عليهم بشكل يجعل الناس يتطلعون الي من بعيد في حسد!».

وقف العجوز بكل قامته على العربة لاعنا ومتوجعا من الألم، كابحا الحصانين اللذين احسا بانتهاء الطريق وقرب المبيت وباعد بين قدميه، وجذب الأعنة بقوة، وحثهما بنداء الشطار. انطلق الحصانان من مكانهما في عدو سريع. على المنحدر زادا من سرعتهما اكثر، وسرعان ما انتفخ قميص شوكار على ظهره في مهب الريح، ولكنه ظل يحثهما على الاسراع، وراح يهز السوط مرحا مقلصا وجهه من الألم في قدمه، صائحا بصوت نحيل: «يا حصاني العزيزين، اريني شطارتكما!».

واول من رآه كان دوبتسوف الذي كان قرب المخيم.

– ها هو احد الشياطين قادم الينا واقفا على طريقة تتار القرم. انظر، يا بريانيشنيكوف من هذا المتشرف بالحضور الينا؟

صاح بريانيشنيكوف من تلة قش لم تكمل بعد:

– فريق الدعاية والتحريض قادم، انه الجد شوكار.

– جاء في الوقت المناسب – قال دوبتسوف مبتسما بارتياح – والا فقد تحمضنا من الضجر. سيتعشى العجوز معنا، وسنلزمه، يا اخوان، قضاء الليلة عندنا.

واخرج كيسه من تحت العربة، وتحسس محتوياته بنشاط، ودس في جيبه ربعية فودكا قد شرب بعضها.

الفصل التاسع عشر

اتى الجد شوكار على الطاسة الثانية من عصيدة القمح المطعمة قليلا بشحم الخنزير، ودخل في حالة من الارتياح التام، والنعاس الخفيف. وقال وهو ينظر بامتنان الى الطباخة السخية:

– شكرا لكم جميعا على الطعام والفودكا، واحتراماتي الكثيرة لك، يا كوبريانوفنا، لعلمك انك لست امرأة ابدا، بل صندوق من الذهب، حقيقة. ومهارتك بطهي العصيدة تؤهلك لان تطبخي لميخائيل ايفانيتش كالينين نفسه، وليس لنا نحن الصغار. اراهن براسي على أنك ستحصلين بعد عام على ميدالية تعلق على صدرك تكريما لجهدك الرائع، أو ربما على شريط يشد في الكم، وحق الرب لا اكذب، حقيقة. فانا اعرف ما هو الأهم في الحياة الى حد التفاصيل...

– ما هو؟ – سأل دوبتسوف بحيوية، وكان جالسا الى جانبه – ما هو الأهم، حسب رايك، يا جد؟

– الأكل! واقول لك بصدق انه الأكل ولا شيء آخر اهم منه.

– انت غلطان، يا جد – قال دوبتسوف بحزن محولا عينيه الغجريتين الى بقية المستمعين، ومحتفظا باقصى درجة من الجدية – انت غلطان بشدة، وكل ذلك لان عقلك صار في شيخوختك خفيفا كهذه العصيدة التي تاكلها، دماغك ساح، ولهذا تغلط.

ابتسم الجد شوكار بمجاملة:

– لا يزال غير معروف دماغ من ساح: دماغي ام دماغك؟ وما هو اهم شيء في الحياة، حسب رأيك؟

– الحب!

فخرجت من فم دوبتسوف تنهيدة اكثر منها كلمة، وقلب عينيه حالما، حتى ان كوبريانوفنا انفجرت قبل الآخرين، حين نظرت الى وجهه الأسمر المتمش، وصهلت بقوة كالفرس التي تحسست اقتراب المطر، واهتزت بكل كيانها من الضحك، وغطت وجهها المحمر بردن بلوزتها.

– ها! الحب! – وابتسم شوكار بازدراء – وماذا يساوي حبك بدون طعام جيد؟ بصفة، ولا شيء آخر! اذا لم تاكل لاسبوع فستتخلى عن زوجتك نفسها، ودع عنك كوبريانوفنا.

فاصر دوبتسوف قائلا:

– هذا مجرد كلام.

– لا كلام ولا غيره. انا أعرف كل شيء تماما – قطع الجد شوكار دابر الشك باليقين، ورفع سبابته عبرة – سأحكي لك الآن حادثة، وسيتوضح لك كل شيء، ولا حاجة الى النقاش بعد هذا.

نادرا ما كان الجد شوكار يصادف مستمعين اكثر انتباها من هؤلاء، وهم حوالي ثلاثين شخصا يجلسون حول النار، وجميعهم كانوا يخافون ان ينبسوا ولو بكلمة واحدة. وهذا ما بدا له على الاقل. نعم، وماذا تتوقع من عجوز؟ في الاجتماعات لم يدعوه قط ان يتكلم. ودافيدوف اثناء ركوبه معه يظل صامتا، يفكر دائما في شيء مع نفسه، وزوجة شوكار العجوز لم تعرف عنها كثرة الكلام حتى حين كانت

شابة. فمع من ينفس العجوز المسكين عن نفسه؟ ولهذا قرر ان يطلق العنان للسانه الآن، وقد وجد مستمعين صاغين، رصفا مزاجه تماما بعد أن تعشى. جلس جلسة اروح، وطوى ساقيه، ومسد لحيته بكفه، وماكاد يفتح فمه ليبدأ سردا متانيا، حتى قاطعه دوبتسوف بصرامة متعمدة:

– تحدث، يا جد، ولكن بدون كذب! عندنا تقليد في الفريق: ان نضرب الكاذبين بالعنان.

زفر الجد شوكار زفرة ثقيلة، ومسد قدمه اليسرى بكفه:

– لا تحاول أن ترعبني، يا اغافوشا. فقد شبعت رعبا اليوم بدونك... طيب، الحكاية واصلها ان دافيدوف استدعاني في الربيع، وقال لي: «خذ من أمين المستودعات، يا جد، كيسين من الشعير، وسجل لنفسك بعض الطعام، واطلع على الحصانين الى طرف «سوخوي لوغ» لا تحيد الى هنا ولا الى هناك. خيولنا ترعى هناك، فاذهب مع حصانيك العروسين الى هناك. وستجد فاسيلي بابكين الاطرش يرعى الخيول. اقسم رعيل الخيول الى قسمين احدهما لفاسيلي، والآخر لك. شريطة أن تكون مسؤولا عن الخيول المنتجة منه حيث ستطعمها جيدا بالشعير». وبصراحة، لم اكن اعرف ما يعني أن تكون الخيول منتجة، لم اسمع بهذا الاستعمال من قبل. وجوبهت بمسألة. أنا أعرف اناث الخيول وذكورها، واعرف ما هو المخصي منها. فسألته: «ما هو المنتج من الخيول؟» فيجيب: «الذي ينجب يسمى المنتج» فاساله بعد ذلك: «والثور ايضا يمكن أن تسميه منتجا؟» عكنن وجهه، وقال: «طبيعي» فاساله مرة اخرى: «وانا وانت منتجان ايضا؟» ضحك وقال: «في هذا المجال كل واحد مسؤول عن نفسه». يعني المسألة باختصار اذا كنت مخلوقا ذكرا سواء، كنت عصفورا أو بهيمة أو انسانا، فانت منتج حقيقي لاغبار عليه. فاقول لنفسي: «لطيف جدا». واعود الى السؤال: «والذي ينتج الحبوب، هل هو منتج ايضا ام ماذا؟» فينتهد دافيدوف، ويقول: «انت رجل متاخر، يا جد». فاقول له: «الاحرى أن تكون انت المتاخر،

ياسيموشكا، فانا ولدت قبلك باربعين عاما. فانت المتاخر عني». فحسمنا المسالة بذلك.

سالت كوبريانوفنا بهمس صافر:

– يعني انت ايضا منتج، يا جد؟

رد شوكار بافتخار:

– ومن انا عندك اذن؟

– اوه، ياربي! – توجعت كوبريانوفنا، ولم تستطع ان تقول اكثر من هذا، لانها دفنت رأسها في منزرها، ولم يسمع في الصمت غير نخيرها المكتوم.

قال كوندرات مايدانيكوف وهو يشيح وجهه عن النار:

– لا تعرها اهتماما، ياجد، وتابع حكايتك.

– طوال حياتي لم اعر اهتماما لهؤلاء النسوة، ولو كنت افعل لما عشت حتى هذا العمر المديد.

رد شوكار بذلك بقناعة، وتابع قوله:

– طيب، وصلت الى الرعيل، فارى حولي ما يملا النظر بهجة. اينما وجهت بصري رايت نواظر طبيعية تشدني اليها كل عمري فلا ارحل! زهور لازوردية في السهب، وعشب فتي، وخيول ترعى، وشمس تدفىء العظام. وباختصار نواظر طبيعية في كل مكان.

فاستفسر بيسخليبنوف:

– ما هذه الكلمة التي قلتها؟

– نواظر طبيعية؟ يعني حين يكون كل ما يحيط بك جميلا: من النظر، يعني انظر الى العالم وتمتع، ولا تحزن نفسك، ولا تتحسر. هذه كلمة ثقافية. – اجاب شوكار بثقة لا تتزعزع.

فمضى بيسخليبنوف يستفسر حبا بالمعرفة:

– من أين التقطت هذه الكلمات؟

– من ماكاروشكا ناغولنوف. فنحن صديقان حميمان. وهو في الليالي يدرس اللغة الانجليزية، وأنا على مقربة منه. اعطاني كتابا سميكا مثل كوبريانوفنا، يسمونه «قاموس» ليس كتاب مطالعة للصغار، بل قاموس للكبار.

اعطاه لي، وقال: «تعلم، يا جد، فسينفعك ذلك في شيخوختك». فتعلمت قليلا. ولكن لا تقاطعني، يا اكيموشكا، والا تشتت افكاري. سأحدثك فيما بعد عن هذا القاموس. طيب، وصلت الى مكان التعيين مع اصحابي المنتجين، غير انني لم احصل على اي نفع لا من اصحابي المنتجين ولا من النواظر الطبيعية. واقول لكم بصراحة، يا ناس، يا طيبون: ان من لا يعرف فاسيلي الاطرش هذا عن قرب، سيعيش عشر سنين زيادة على عمره.

انه حجر أصم اذا قارنته بديميد الصموت، الذي هو اكثر المتحدثين عندنا في غريمياتشي لوغ. والعذابات التي تحملتها في السهب من جراء صمته بلا حساب! وهل تريدونني ان اتكلم مع الخيول؟ ان فاسيا هذا يصمت اياما كاملة متتالية، لا تسمع فيه الاقرقشة استانه حين ياكل، وبقية الاوقات اما ان ينام بصمت، او يرقد تحت البطانية مثل جذع شجرة متعفن، وبصمت ايضا. ومن النادر جدا ان يرف بعينيه، وبصمت ايضا. وضعني امام هذه المشكلة المستعصية على الحل تقريبا. وبعبارة مختصرة عشت هناك ثلاثة ايام وكانني في مقبرة، في ضيافة الاموات، فاخذت اتحدث مع نفسي. اوه، قلت لنفسي، هذا لا ينفع! واذا طالت الحال على هذا المنوال فان رجلا حلو المعشر مثلي سيفقد عقله.

ونفاد صبري معروف للناس، حين كان صديقي ماكار ناغولنوف يبدأ في الاعياد السنوية، أقصد اول أيار، والسابع من تشرين ثاني، بخطبه الطوال عن الثورة العالمية، ينفوه فيها بأنواع الكلمات العويصة، ولكنني كنت في تلك اللحظات سأقبل بأن استمع اليه يوما كاملا، وكانني استمع الى بلبل يغرد في الحديقة او الى ديك يصيح في منتصف الليل. ما رايكم، ايها المواطنون، في صياح الديكة؟ انه، يا اخواني، ليس أسوأ مما في الكنيسة، حين يرتلون جنازا او غير ذلك من الصلوات المؤثرة...

وهنا قال مسجل العمل في الفريق مقاطعا المتحدث بنفاد صبر:

– حدثنا عن الحب بدون طعام وليس عن صياح الديكة.

– لا تقلقوا، أيها المواطنون، سيصل الكلام الى أنواع الحب وما شابه، ليس هذا الموضوع. حسنا، كنت اتكلم عن فاسيلي الاطرش ذاك. وكانت المصيبة اهون، لو كان قد اكتفى بالصمت فقط، ولكنه شره في الاكل ايضا، الى درجة لايضارعه بها احد. وحين نطبخ عصيدة او لقما من العجين الخالي لا أعرف كيف ادبر امري معه. حين اغرف ملعقة واحدة من القدر يغرف هو خمسا. يتسلح بملعقته الضخمة ككباس القاطرة البخارية، وتظل الملعقة تروح وتجيء من القدر الى الفم، ومن الفم الى القدر، حتى انظر فلا أجد الا القليل من العصيدة في قعر القدر. واقوم جائعا، بينما هو منفوخ كالقربة، ويستلقى وبطنه الى الاعلى، وبعد ذلك يبدأ بالفواق الذي يملأ السهب كله. ويظل على فواقه حوالى ساعتين، ذلك المنحوس، ثم ينتقل الى الشخير. والملعون يشخر شخيرا يجعل حتى الخيول القريبة من خصنا تفزع، وتبتعد عنا لائذة بالفرار. وينام حتى الليل، نومة المرموط في الشتاء، ولا أقل.

بهذا الشكل كانت حياتي قاسية هناك. جائع كالكلب الشريد، لا اتكلم مع اي انسان، ولو مرة واحدة، دفعا للضجر... في اليوم الثاني جلست قرب فاسيلي، وكورت يدي، ووضعتهما على اذنه، واصيح بكل قوتي: «كيف فقدت سمعك؟ اثناء الحرب أم اصبت بالخنزيرة في الطفولة؟» فيصرخ بي بصوت احد «اثناء الحرب. الحمر اطلقوا قذيفة من مدفع ذي عيار اربع بوصات من قطارهم المصفح فسقطت بالقرب مني. فقتل حصاني تحتي، واصبت انا برجة عصبية منذ ذلك الحين، وفقدت سمعي كليا» فاساله بعد ذلك: «طيب، ولماذا تلتهم الطعام بهذا الشكل المخبول، يا فاسيلي؟ أهذا ايضا من اثر الرجة العصبية؟» فيرد علي: «نعم، توجد غيوم، وهذا شيء لطيف. فنحن الآن

بحاجة الى مطر!» فتفضل، تحدث مع مثل هذا الاهبل...

سأل دوبتسوف بنفاد صبر:

– ومتى ستبدأ بالكلام عن الحب؟

تجهم شوكار متضايقا:

– جننك هذا الحب، عليه اللعنة ثلاثا! كنت سأتحاشى هذا الحب طوال حياتي، ولو لم يضطرني المرحوم ابي، لما تزوجت ابدا. والآن تريدني أتحدث عن الحب، وكأنه لا يوجد غير هذا الموضوع... ولكن بعلمك هذا ما حصل للحب بلا طعام...

وصلت الى مكان التعيين، وقسمت الرعيل الى قسمين، ولكن عرساني لا تنظر الى المهرات، ولاتفتأ تقضم العشب دون تعب... ولا تعير اي التفات لعروساتها! فاقول لنفسي: قضية! سيأتيني العار من خيولي المنتجة هذه. أقدم لها الشعير بالمقادير الكاملة، وهي لا تلقى نظرة الى المهرات.

في اليوم الاول لا تنظر، وفي اليوم الثاني ايضا. واحس بالحراجة من الاقتراب من المهرات المسكينات. امر بهن، والوي وجهي خجلا، لا استطيع أن انظر في عيونهن. هذا اكثر من اللازم! طوال حياتي لم احمر خجلا، بينما تعلمت هناك أن احمر خجلا. ما ان اقترب من الرعيل لاسوقه ليروي في البركة، حتى يحمر وجهي خجلا كآنسة...

أوه، يا الهي، كم تحملت من الخجل بسبب خيولي المنتجة! بلا حساب! وتبين ان المشكلة مستعصية على الحل تماما. وفي اليوم الثالث حصل هذا المشهد امام عيني. مهرة شابة تلعب مع أحد خيولي المنتجة – يلقب بالزاهر – وهو حصان كميت على جبينه غرة، وقدمه اليسرى الخلفية معجلة. والمهرة تحوم حوله، وتأتي هذه الحركة وتلك، وتقرقشه بأسنانها برقة، وتظهر له مختلف انواع الحب. اما هو فيضع رأسه على ظهرها، ويغمض عينيه، ويرسل زفرة شاكية... ويسمونه زاهرا ايضا، ولا أسوا منه. وانا ارتعد من الغيظ، وافكر ماذا تظن المهرات بي؟ أظنهن يقلن: «اي

كسالى جلب الينا الشيطان العجوز». أو ربما يقلن أسوأ من ذلك...

فقدت المهرة المسكينة آخر صبر عندها، فادارت عجيزتها لحصاني الزاهر، وطعنته بجنبه بقائمتيها الخلفيتين طعنة جعلت ما في جوفه يقرقر. فاتقدم منه، وأنا نفسي أبكي بدموع مريرة، واهبط على ظهره بسوطي، واصيح: «مادمت تسمى منتجا، فلا تجلب العار لك ولي في شيخوختي!».

اندفع هذا المعذب عني راكضا حوالي عشرة اذرع، وتوقف، وصهل صهيلا شاكيا انقبض له قلبي، فبكيت اشفاقا عليه. وسرت نحوه بدون سوط، وربت على عرفه، فوضع هو راسه على كتفي، وارسل حسرة...

امسكته من عرفه، وقدته نحو الخص، واقول: «لنذهب الى البيت، يا زاهري، ولا حاجة الى التسكع هنا بدون جدوى، ونجلب العار على أنفسنا بلا لزوم...» وشددته وسرت به الى العزبة. ويقول فاسيا الاطرش «تعال، يا جد، بعد عام، لنعيش في السهب، ونطبخ العصيدة، ونحتسيها سوية. وخلال ذلك تكون خيولك قد استردت عافيتها اذا لم تكن قد فطست».

وصلت الى العزبة، وابلغت دافيدوف بكل شيء، فامسك راسه بيديه، وراح يصيح علي: «لم تعتن بها جيدا!» فارد عليه «ليس أنا الذي لم اعتن بها جيدا، بل أنت، حضرتك، وماكار واندريه رازميوتنوف. لم تخلعوا عنها الطوق، وتتركونها تستريح، وياكوف لوكيتش لا يقدم الشعير حتى ولو ركعت له. ومن الذي يركب هذه الخيول؟ اذا كانت منتجة كان يجب ان تترك لتعلف الشعير فقط. ولا تشغل، والا فان المشكلة ستكون مستعصية تماما». وكانت النتيجة ان ارسل منتجان من الدسكرة، وانتم تذكرون هذه الواقعة، وانحلت مسالة المهرات من تلقاء نفسها. هذا ما يعني الحب بلا طعام لازم. هل فهمتهم، أيها المتبلدون؟ ولا داعي للضحك على هذا، ما دمتم قد حصلتم على هذا الحديث الجدي تماما.

أجال الجد شوكار نظرة ظافرة في مستمعيه، ومضى يقول:

— ماذا تفهمون في الحياة مادمتم، كالخنافس في الروث تنبشون في الأرض على الدوام؟ أما أنا فعلى الأقل مرة في الاسبوع واحيانا أقل من اسبوع، اذهب الى الدسكرة طيب، انت يا كوبريانوفنا، هل سمعت ولو مرة واحدة كيف يتحدث الراديو؟

— وكيف اسمعه، اذا لم اذهب الى الدسكرة منذ عشرة اعوام؟

— بالضبط! بينما أنا استمع اليه قدر مايدخل في اذني. الا انه شيء زائف، واقول بصراحة! — وهز شوكار راسه، وضحك بهدوء — قبالة لجنة المنطقة الحزبية تماما يوجد بوق اسود معلق على عمود، ولكن، يا ربي، اي صوت زاعق له! يوقف الشعر، بل ويبعث السخونة في الظهر كالنمل الصغير! وانا افك حصاني الزاهرين تحت هذا البوق، وفي البداية اصغي باستمتاع الى كلام عن الكولخوزات والطبقة العاملة، والى غير ذلك من مختلف الأحاديث، وبعد ذلك تود لو تدفن راسك في عليجة العلف، حين يصرخ شخص من موسكو بصوت أعلى من صهيل الحصان: «اترع القدح اكثر، ولنشرب، يارب» وقد لا تصدقونني، يا طيبون، تتولد عندي من ذاك، رغبة في الشرب اكثر من اية رغبة! وانا، الآثم، كلما اوفدوني الى الدسكرة، آخذ من زوجتي العجوز بالخفية، عشر بيضات، او ما وقع في اليد منها، واذهب الى السوق الريفية حالما أصل الى الدسكرة. وابيعها، وادخل مطعما شعبيا. واحتسي الفودكا على نغمات أنواع الأغاني من الراديو، وعندئذ يمكنني ان انتظر الرفيق دافيدوف حتى يوما كاملا، ولا يهمني. واذا لم افلح في اختلاس البيض من البيت، لأن زوجتي تعلمت ان تراقبني قبيل السفر، اذهب الى لجنة المنطقة، واطلب من رفيقي دافيدوف خفية قائلا: «سيموشكا، يا لهفتي، امنحني ثمن ربعية، والا فسيقتلني الضجر، وانا انتظرك بلا شغل» وعزيزي اللطيف لايرفض ابدا، فاذهب الى مطعم شعبي، وافعلها من جديد، ارشف القليل منها،

وبعدها اما أن أنام مرتاحا في الشمس، واما ان اطلب من أحد أن يراقب حصاني المنتجين، واذهب اتجول في الدسكرة انجز اشغالي المعلقة.

سأل اكيم بيسخليبنوف:

– واي اشغال يمكن ان تكون لك في الدسكرة؟

تنهد الجد شوكار وقال:

– وهل الاشغال قليلة لصاحب بيت؟ اما أن اشتري قنينة كيروسين، أو علبتين او ثلاثا من الكبريت، او هكذا على سبيل المثال: طيب، انتم سألتموني عن كلماتي المثقفة، عن القاموس. وفيه توجد كلمات مكتوبة بحروف كبيرة، وأنا استطيع ان اتبحر فيها بدون نظارات، ومقابلها شرح لها بحروف صغيرة، اي معنى الكلمة. والكثير من الكلمات افهمها بدون اي شرح. فمثلا ما معنى «احتكار»؟ واضح انهم يقصدون «الحانة». و«الوصولي» يعني الرجل التافه، الوغد عموماً، ولا اكثر. و«المائيات» يعنون بها الفتيات الجميلات، او هذا ما اتصوره. اما «المشمشات» فعلى العكس، تعني النساء الخليعات. اما الدخول في «الانترسول» فيعني الحب الذي سلبك عقلك، يا اغافون، وهكذا وهكذا. على كل حال كنت دائما بحاجة الى نظارة. وحين ذهبت مع دافيدوف نويت ان اشتري نظارة. وقد زودتني عجوزتي بالنقود لهذا الأمر الجليل.

وادخل أحد المستشفيات، واذا به ليس مستشفى على الاطلاق، بل دار للتوليد، في احدى الغرف تتاوه النسوة ويبكين بمختلف الاصوات، وفي غرفة اخرى يموء الاطفال الصغار، كما تموء القطيطات. فاقول لنفسي: لا يمكن ان احصل على نظارة هنا، دخلت فيما لا يجب الدخول فيه. واذهب الى مستشفى آخر. فاجد شخصين يجلسان على مدخله، يتبارزان بالسيوف. سلمت عليهما وسألت: «هل يمكن وضع نظارات هنا؟» ويأخذان بالصياح بأعلى صوتيهما، ويقول أحدهما: «هنا سيضعون لك، ياجد، نظارات تجعل عينيك تطلعان الى جبهتك. هذه مستشفى

للامراض الزهرية، فغادر في أقرب وقت، والا فسيعالجونك بالقوة».

وارتعبت، بالطبع، رعب الموت، وانطلقت مبتعدا من هذا المستشفى ماوسعتني رجلاي. ولكن الملعونين خرجا ورائي من باب الحديقة احدهما يصفر، والآخر يصيح على طول الشارع: «اسرع اكثر، أيها الأتم العجوز، والا فسيلحقون بك في الحال!». فعدوت عدو فرس السباق. فك، اية مزحة تضمر في غفلة عن الرب، وقد يستطيعان اللحاق بي دون ان يعيا ما يفعلان، وتعال تعذر أمام الاطباء واكبت أنت انك غير مريض.

وحين وصلت راكضا الى الصيدلية وصل قلبي الى حلقومي من الخفقان. ولكن النظارات لم تكن موجودة في الصيدلية ايضا. ويقولون لي: سافر، ياجد، الى ميليريفو او روستوف، فطبيب العيون وحده يستطيع ان يكتب لك وصفة للنظارات. فاقول لنفسي: ما لزومي الى السفر الى هناك؟ فانا اقرأ القاموس بالحدس بدون نظارات، وتبين أن مسألة النظارات مستعصية ايضا.

وكم من احداث حصلت لي في الدسكرة! بلا حساب!

سأل دوبتسوف:

– تكلم عن كل شيء بالتتالي، يا جد، والا فانت كالعصفور تنتقل من غصن الى غصن، ولا أحد يفهم اين بداية حكايتك واين النهاية.

– انا اتكلم بالتتالي. المهم ان لاتقاطعني. فلو قاطعتني مرة اخرى، فستتشتت افكاري نهائيا، وعند ذلك ساخلط في الكلام بحيث لاتستطيعون انتم بمجموعكم أن تتبينوا منه راسا من ذيل. طيب، حسنا، واسير في الدسكرة، فارى فتاة شابة جميلة كمعزاة في قيافة اهل المدن، والحقيبة في يدها تقابلني من الجهة المعاكسة. والفتاة هذه تسير بكعبها العالي، تنقر به الأرض: «طيك– طيك – طيك – طيك» كالعنزة حين تضرب الارض باظلافها. وأنا في شبخوختي صرت طماعا الى كل ما هو جديد الى

حد الهوس! تصوروا، يا اخوان، انني جربت الركوب على الدراجة، رأيت شابا يركب دراجة فقلت له: «يا حفيدي العزيز، اسمح لي بأن اركب عربتك قليلا». فوافق الشاب بكل سرور، وساعدني على ان احط على السرج واستدني، وانا ادور الدواسة بكل قوتي، واجاهد بكل طاقتي. وبعد ذلك اطلب منه: «لا تمسكني الآن، بحق الرب، أريد ان اسيرها بنفسي». وما كاد يفك يده عني حتى افلتت الدفة من بين يدي، وانسرحت الدراجة تحت اجمة اقاسيا، وانغرزت الاشواك فيما يجوز وما لا يجوز من جسمي من هذه الأجمة، وبلاحساب! وفيما بعد ظللت اسبوعا اقلعها من جسمي، كما ان سروالي انشق، حين تعلق بقرمة شجرة.

قاطعه دوبتسوف بحدة:

— حدثنا عن الفتاة، ياجد، وليس عن سروالك. فكر بنفسك: ما يهمنا من سروالك وما حدث له؟

— عدت مرة اخرى الى مقاطعتي — اجابه الجد شوكار بكآبة. ومع ذلك عزم على المضي في حديثه — طيب، رأيت تلك المعزاة الشابة البديعة، وهي تهز ذراعها كالجندي، فاقول لنفسي، انا الآثم، كيف اسير معها متابطا ذراعها ولو للحظة؟ في حياتي كلها لم اتابط ذراع واحدة، بينما غالبا ما ارى في الدسكرة شبانا يسيرون على هذه الطريقة. فاما ان يكون هو ممسكا بيدها او هي ممسكة بيده. واسالكم، ايها المواطنون، اين يمكنني ان احصل على هذه المتعة؟ في عزبتنا لا يليق ان نسير بهذه الطريقة، فسيضحك الناس، فاين يمكن؟

وهنا ينشأ سؤال: كيف يمكن تحقيق ذلك مع هذه الفتاة؟ ولجأت الى الحيلة. طويت جسمي كالحلقة، وأخذت اثن أنينا ملأ الشارع. فتهرع هذه الفتاة، وتسالني: «ماذا حصل لك، ياجد؟» فاقول لها: «داهمني المرض، يا عزيزتي، ولا استطيع الوصول الى المستشفى. في ظهري وخزة الم...» فتقول: «سأوصلك، استند علي، فامسك يدها بكل جراة وهكذا سرت معها متابطا ذراعها. روعة حقا. وما

ان وصلنا الى مخزن المنطقة العام، اخذت افرد قامتي قليلا، وقبل ان تدرك الفتاة طبعت قبلة على خدها، وانا ماشي، وانطلقت ودخلت المخزن، رغم انني لا احتاج الى غرض هناك. التمعت عيناها، وصاحت ورائي: «انت، ياجد، قليل الأدب، ومدع!». فتوقفت قليلا، وقلت: «يا عزيزتي، الحاجة تدفعك الى عمل أسوا من هذا! وليكن في علمك انني لم أمش متابطا ذراع حسناء في حياتي كلها، بينما انا الآن على حافة القبر». وادخل المخزن، وانا افكر بانها قد تلجأ الى استدعاء الميلشيا. ولكنها ضحكت، وسارت في طريقها تطقطق بكعب حذائها. وانسللت انا الى المخزن في نفس واحد. ويسأل البائع: «هل هربت من حريق، ياجد؟» فالتقط انفاسي قليلا، واقول له: «بل اسوأ. اعطني علبة كبريت».

وكان الجد شوكار سيستمر في سرده وقتا اطول، لو لم يأخذ العمال المتعبون بعد يوم العمل بالانصراف عنه. راح العجوز يتوسل اليهم عبثا بأن يصغوا ولو الى بعض الحكايات الأخرى، ولكن بعد قليل لم يبق أحد من المتحلقين حول النار.

سار شوكار نحو المعالف مغموما ومتكدرا الى حد كبير، وصعد الى واحد منها واستلقى، وغطى نفسه بالقطفان، وانكمش متثلجا. وفي منتصف الليل تساقط الندى على الأرض، واستيقظ شوكار مرتجفا يحس بقشعريرة. وصمم مع نفسه: «اذهب الى القوزاق، وانضم اليهم في العربة، والا فانا ارتجف هنا كالجرو في الزمهرير».

ومضت سلسلة المغامرات تنفث ببطء، ولكن بقوة لا تقهر. كان الجد شوكار يتذكر منذ الحراثة الربيعية ان الرجال كانوا ينامون في العربة، والنساء في الخارج، ولم يفكر، وهو بين اليقظة والنوم، ان الوضع ربما تغير الآن بعد انقضاء شهرين. فدب بهدوء على الاربع الى العربة، وخلع حذاءه، ورقد عند الحافة، وغفا في الحال وقد تدفأ بجسم حي. وبعد بعض الوقت استيقظ لأنه شعر باختناق. تلمست صدره رجل عارية، ففكر بأسف شديد: «اي حقير

ينام بهذا الشكل القبيح! يقذف رجله وكأنه يمتطي حصانا».

ولكن ما أشد رعبه، حين اكتشف، وهو يريد ان يلقي عنه هذا الثقل الحي، أن هذه ليست رجل مطلقا، بل ذراع كوبريانوفنا العارية، وقد سمع بالقرب من خده انفاسها القوية. كانت النساء وحدهن ينمن في العربة.

رقد شوكار الذاهل بضع دقائق بلا حراك، متصببا بالعرق من شدة القلق، ثم اختطف حذاءه، وانسل من العربة بهدوء، كالقط المتلبس بجرم، واتجه الى العربة التي جاء بها وهو يقزل. ولم يحدث له قط أن شد حصانيه ذات مرة بتلك الخفة التي شد بها الحصانين الآن! وراح يسوطهما بلا رحمة منطلقا بهما بعدو سريع، وهو يتلفت طوال الوقت الى عربة النساء التي كانت تلوح سوداء بشكل مشؤوم على خلفية السماء المتنورة.

«لطيف انني استيقظت في الوقت المناسب. فماذا لو تاخرت، ورات النسوان انني أنام الى جانب كوبريانوفنا، وهذه الابنة الملعونة تطوقني بذراعها؟ احميني، أيتها السيدة العذراء، واشفقي علي! كان الناس سيضحكون مني الى مماتي، وحتى بعده!».

حل فجر صيفي خاطف. واختفت عربة النساء عن بصر شوكار. ولكن هزة اعصاب كانت في انتظاره وراء الاكمة. وقع بصره عرضا على قدميه، فاكتشف أن في قدمه اليسرى فردة حذاء نسائية جديدة تقريبا لها ربطة جلدية جذابة، ودرزة خياط على الموضة. ومن حجم الحذاء ماكان من الممكن ان يكون الا لكوبريانوفنا.

استشعر شوكار برودة الخوف، ودعا العلي القدير: «يا الهي الرحيم، على اي شيء تعاقبني هذا العقاب؟! يعني لقد اخطأت في الظلام فاخذت الحذاء الغلط. فكيف اظهر هكذا امام زوجتي؟ حذائي في قدم واحدة، وحذاء امراة في القدم الأخرى، هذه مسالة مستعصية!».

الا أن هذه المسالة لم تكن مستعصية، كما تبين: استدار شوكار بالحصانين استدارة حادة نحو العزبة، وقد

قرر عن حق أن من غير الممكن الظهور في الدسكرة حافيا او بحذائين من جنسين مختلفين وفكر جزعا وهو في الطريق الى غريمياتشي لوغ. «ليذهب مساح الاراضي الى جهنم، يمكنهم الاستغناء عنه. السلطة السوفيتية في كل مكان، والكولخوزات في كل مكان، فما الفرق اذا استقطع احد الكولخوزات شيئا من العلف من كولخوز آخر؟».

وعلى بعد حوالى كيلومترين من العزبة، حيث يوجد منحدر شديد قريب من الطريق اتخذ شوكار قرارا آخر اكثر شجاعة. خلع فردتي حذائه من قدميه، وتلفت على الجانبين متلصصا، و القاهما في الخندق، وقد همس في اثرهما:

— يعني تريدان أن اموت بسببكما، عليكما اللعنة!

وابتهج شوكار وارتاح من هذه الطريقة الممتازة في تخلصه من هذين الدليلين الفاضحين، بل وكشر عن ابتسامة، وقد تصور كيف ستذهل كوبريانوفنا، حين تكتشف في الصباح اختفاء فردة حذائها بهذا الشكل الغامض.

ولكنه كان عجولا جدا في ابتهاجه هذا، فقد كانت في انتظاره في البيت الضربتان الأخيرتان وهما أشد الضربات واكثرها تدميرا.

لقد رأى، وهو ما يزال على مشارف بيته، جمهرة من النساء المضطربات لشيء ما. ففكر شوكار مذعورا: «ألعل عجوزتي اسلمت الروح؟»، ولكنه حين دفع بصمت بعض النسوة المبتسمات لشيء ما، ودخل المطبخ، واجال بصره بعجالة ارتخت رجلاه، وهمس بصعوبة، وهو يرسم علامة الصليب: «ماهذا؟».

كانت امراته العجوز تهدهد طفلا ملفوفا بخرقة، والطفل يبكي باعلى صوته...

وهمس شوكار همسا أعلى من ذي قبل، وقد تملكته الدهشة:

— ماهذه الحكاية؟

صاحت العجوز، وعيناها المنتفختان تلمعان بضراوة:

– دسوا الينا طفلك، هذه هي الحكاية! أيها الفاسق المتعلم! اقرأ الورقة هناك على الطاولة!

وأظلمت الدنيا في عيني شوكار اكثر، الا انه استطاع على نحو ما ان يقرأ الحروف المشخبطة على ورقة من اوراق اللف:

«مادمت أبا لهذا الطفل، أيها الجد، فقد توجب عليك أن تطعمه وتربيه».

. . . . . .

وقبل حلول المساء بقليل كان شوكار بعد ان بح صوته من الانفعال والصياح قد افلح تقريبا باقناع زوجته ببراءته التامة من مجيء الطفل الى هذه الدنيا، الا انه في هذه اللحظة ذاتها ظهر على عتبة المطبخ صبي في الثامنة من العمر، هو ابن ليوبشكين. وقال، وهو يستنشق من انفه:

– ياجد، اليوم بينما كنت أرعى الأغنام رأيتك تسقط هاتين الفردتين في المنحدر. وقد وجدتهما، وجلبتهما لك، فخذهما. – ومد الى شوكار الفردتين المنحوستين.

وما حصل فيما بعد «يلفه ظلام الغيب»، كما كان يقول احيانا الاسكاف لوكاتييف، الذي كانت له علاقة صداقة وطيدة مع شوكار. ولا يعرف الا أن الجد شوكار ظل اسبوعا يشد ضمادة على خده، وكان يقول، وهو يشيح بوجهه، ان سنه السليمة الوحيدة في فمه توجعه وجعا يتعذر معه حتى أن يتكلم...

الفصل العشرون

وصل اندريه رازميوتنوف الى سوفيت العزبة في باكر الصباح ليوقع ويرسل مع رسول الى لجنة المنطقة التنفيذية تقريرا عن سير حش العلف والاستعداد لحملة حصاد الحبوب. وماكاد ينظر في معلومات عن الفرق، حتى طرق شخص الباب طرقا حادا.

صاح رازميوتنوف دون ان يرفع رأسه عن الورق.

– ادخل!

ودخل الحجرة رجلان لا يعرفهما، وبدا في الحال وكأن الحجرة امتلأت بهما. احدهما ركين مكتنز لايتميز مظهره بشيء في معطف جديد واق من المطر. وجهه المدور حليق، تقدم من الطاولة مبتسما، ومد لرازميوتنوف يدا صلبة كالحجر.

– انا بويكو بوليكارب بيتروفيتش أمين شعبة مناجم شاختي لتموين العمال، وهذا مساعدي خيجنياك. – واشار باصبعه باهمال، ومن وراء كتفه الى مرافقه الذي كان واقفا عند الباب.

وكان هذا من مظهره الخارجي يشبه راعي بقر أو متاجرا بالماشية. فان مشمعه المتسخ بقلنسوته، وحذاءه من جلد البقر ببوزه العريض، وطاقيته الرمادية المسطحة والسوط الانيق بشرابتيه الجلديتين يمسكه في يده، كل ذلك كان يدل على حرفته دون كلام. ولكن الغريب أن وجه خيجنياك لم يكن في مظهره يطابق ذلك. فان عينيه الذكيتين المتطلعتين، والثنية الساخرة في طرفي شفتيه الرقيقتين، وطريقته في رفع حاجبه الايسر، وكأنما يتسمع لشيء، ومسحة التهذيب في كل محياه، كل ذلك كان يوحي للعين المتفحصة بأن هذا الرجل بعيد عن التعامل بالماشية واحتياجات الزراعة. وقد لمح رازميوتنوف ذلك خطفا، بينه وبين نفسه. وعلى العموم لم يلق على وجه خيجنياك الا نظرة خاطفة، وحول بصره فورا الى كتفيه العريضتين بشكل غير متناسق، وفكر مع نفسه، وهو يبتسم لا راديا: «لا أظنه يتعامل في الماشية... انه ورفيقه قاطعا طرق اصيلان... لا يشتغلان بشراء الماشية وبيعها، بل التربص ليلا تحت احد الجسور، ليضربوا التجار السوفييت على رؤوسهم بالتبابيت...» وسأل وهو يحافظ على جديته بصعوبة:

– بأية مهمة جئتما الي؟

– نشتري من الكولخوزيين مواشيهم الخاصة. نقبل المواشي الكبيرة والصغيرة وكذلك الخنازير، أما الدواجن فلا حاجة لنا بها الآن. ربما سيختلف الوضع في الشتاء، ولكننا الآن لانقبل الدواجن. والاسعار هي اسعار التعاونيات

مع اضافة للماشية المسمنة: انت تفهم، أيها الرفيق الرئيس، ان عمل المناجم عمل صعب، ويجب علينا ان نطعم عمال المناجم بالشكل المطلوب، ولا اقل.

– هوياتكم. – وضرب رازميوتنوف الطاولة بكفه ضربة خفيفة.

ووضع كلا المتاجرين هويتي الترخيص على الطاولة. وكان كل شيء حسب الاصول: الاختام، والتواقيع، ولكن رازميوتنوف راح يتفحص الهويتين بتدقيق، ولم ير كيف استدار بويكو الى مساعده، وغمز له، فابتسم الاثنان راسا، ثم ازاحا الابتسامة على الفور.

– تظنهما مزورتين؟ – سأل بويكو، وابتسم هذه المرة على المكشوف، وجلس على كرسي قرب النافذة بحرية، غير منتظر اذنا.

– لا، لا اظن هويتيكما مزورتين... ولكن لماذا جئتم الى كولخوزنا بالذات؟

ولم يكن في كلام رازميوتنوف نبرة مزاح، فقد كان يتكلم جادا.

– لماذا الى كولخوزكم بالذات؟ ولكن ليس الى كولخوزكم فقط، نحن لا ننوي ان نقتصر على كولخوزكم. لقد زرنا ستة كولخوزات مجاورة، واشترينا خمسين راسا من الماشية، من بينها ثلاثة ازواج من الثيران الشائخة المعطوبة وعجول وابقار غير حلوبة واغنام، وحوالى ثلاثين خنزيرا...

فصحح المساعد العريض المنكبين الواقف عن الباب لرئيسه:

– سبعة وثلاثين.

– بالضبط، اشترينا سبعة وثلاثين خنزيرا باسعار متهاودة. وبعدكم سنستمر في تطوافنا على العزب.

فسأل رازميوتنوف:

– والتسديد راسا؟

– بدون تأخير! حقا اننا لم نأخذ معنا فلوسا كثيرة،

فانت تعرف، يارفيق رازميوتنوف، ان الفترة مضطربة، وما اكثر ما يحصل... ولهذا السبب اخذنا معنا حوالات بريدية.

القى رازميوتنوف جذعه على ظهر المقعد، وراح يضحك.

– هل معقول انكما تخافان ان تسلبا؟ ولكن انتما انفسكما تستطيعان ان تفرغا الجيوب من القلوس، وتنتزعا من صاحب البضاعة ملابسه!

ابتسم بويكو ابتسامة متحفظة. وطلعت غمازتان على خديه الموردين، كما يحدث لامرأة. واحتفظ خيجنياك بلامبالاة تامة، واخذ يحدق في النافذة شارد الذهن. وفي هذه المرة فقط، حين ادار وجهه الى النافذة راى رازميوتنوف على خده الايسر ندبة طويلة عميقة تمتد من حنكه الى اذنه.

سأل رازميوتنوف:

– تحمل تذكارا من الحرب على خدك؟

استدار خيجنياك نحوه بخفة، وابتسم ابتسامة شحيحة:

– لا علاقة لها بالحرب... حصلت عليها بعد ذلك...

– هذا ما اراه. لاتشبه اثر ضربة سيف. زوجتك خربشتك؟

– لا، زوجتي وديعة. هذه في حالة سكر، ضربني صديق بسكين...

– انت فتى حسن الطلعة، ففكرت بأن زوجتك خربشتك، واذا لم تكن هي، فلربما امرأة اخرى بسبب غرام؟ – مضى رازميوتنوف باسئلته المكشوفة ضاحكا ومسندا على شاربيه.

وابتسم خيجنياك بسخرية:

– حاسة الحدس قوية عندك، يارئيس.

– هذا ما تقتضيه وظيفتي... ولكن ندبتك هذه ليست من اثر سكين، بل من ضربة سيف، وهذه ما اعرفه من التجربة، وانت نفسك، كما أرى، تاجر ماشية بقدر ما أنا اسقف. وبوزك لايدل على انك رجل بسيط وكذلك يداك. لا اظنهما امسكتا بقرن ثور طوال حياتك، انهما يدان من اصل نبيل... ولو أنهما غليظتان بعض الشيء، ولكنهما

بيضاوان... على الأقل لو عرضتهما قليلا للشمس لتسمرا قليلا، وتلوثت بشيء من الروث، عندئذ كنت ساصدق بانك تتاجر بالماشية. والا فان سوطك لايدل على شيء، وهو لا يحتاج الى دهاء، وبه لا تستطيع أن تخدعني!

فعاد خيجنياك يقول، ولكن بلا ابتسامة هذه المرة:

– انت قوي الحدس، يا رئيس. ولكن باتجاه واحد. ندبتي من ضربة سيف، بالفعل، غير انني لا احب الاعتراف بذلك. كنت في وقت من الاوقات أخدم مع البيض، فحصلت على هذا التذكار. ومن يحب تذكر ذلك؟ أما بخصوص يدي، فانا بالفعل لست سائق ماشية، بل متاجر بها، ومهمتي عد النقود، وليس سحب العجول من ذيولها. هل يريبك مظهري، يا رفيق رازميوتنوف؟ فاعلم اذن أنني اشتغل في الاتجار بالماشية منذ فترة وجيزة. وقبل ذلك اشتغلت مهندساً زراعياً، ولكنني فصلت من العمل بسبب السكر، فاضطررت الى تغييراختصاصي... هل فهمت الآن، أيها الرفيق الرئيس؟ اضطررتني الى المصارحة، فالتجات الى الاعتراف امامك...

– انا غير محتاج الى اعترافك، مثلما الكلب لايحتاج الى رجل خامسة. ولاترك لجنة امن الدولة تتلقى اعترافك، وتقدم لك القربان المقدس. فهذا لا يخصني – قال رازميوتنوف ذلك، وصاح دون أن يغير وضعه – ماريا تعالي الى هنا!

خرجت من الحجرة المرتبطة بحجرة المكتب فتاة كانت تلزم الخفارة في سوفيت القرية، وبدا عليها التهيب.

– اسرعي في احضار ناغولنوف. وابلغيه أن يحضر الى السوفيت على جناح السرعة، فالقضية مستعجلة. – امرها رازميوتنوف ونظر بامعان الى خيجنياك اولا، ثم الى بويكو.

هز خيجنياك كتفيه العريضتين بحيرة وتكدر، وجلس على المسطبة، واشاح وجهه. أما بويكو فقد كان يهتز كالهلاميات وهو يغالب ضحكة مكبوتة، واخيراً صاح بصوت عالي النبرة.

– هذه هي اليقظة! هذا ما يعجبني! وقعت، يا رفيق خيجنياك؟ وقعت كالفار في المصيدة!

وضرب ركبتيه الممتلئتين بكفيه، وطوى جذعه وضحك بتلك العفوية الصادقة التي جعلت رازميوتنوف ينظر اليه، غير مخف دهشته.

– وانت، ايها السمين، ماذا يضحكك؟ انتبها، فقد يتعين عليكما كليكما ان تذرفا الدموع في الدسكرة! وسواء أتكدرتما ام لا، فانني مرسلكما الى مركز المنطقة للتاكد من شخصيتكما. فانتما تبدوان لي مريبين، أيها الرفيقان المتاجران بالمواشي.

سال بويكو، وهو يمسح الدموع التي تندت بها عيناه، وهو مايزال يطبق شفتيه الممتلئتين على ضحكة:

– والهويات؟ فقد فحصتها، واعترفت بصحتها.

– الهويات قد تكون صحيحة، ولكن مظهركما هو المريب!

اجاب رازميوتنوف بجهامة، واخذ يلف سيكارة على مهل.

وبعد قليل جاء ماكار ناغولنوف. ودون أن يسلم اشار بهزة من رأسه الى المتعاملين بالمواشي. وسال رازميوتنوف:

– من هؤلاء؟

– اسالهم بنفسك.

تكلم ناغولنوف مع الشخصين، وعاين هويتيهما، وسال مخاطبا رازميوتنوف:

– ولكن ما الخبر؟ لماذا استدعيتني؟ جاء الرجلان يشتريان الماشية، فاتركهما يشتريان.

احتدم رازميوتنوف، ولكنه قال بقدر كاف من ضبط النفس:

– لا، لن يشتريا ماشية، قبل أن اتحقق من شخصيتهما. هذان الشخصان لايروقان لي، وهذا هو الخبر! سارسلهما الآن الى الدسكرة للتاكد منهما، وبعد ذلك يمكن ان يشتريا الماشية.

عندئذ قال بويكو بخفوت:

– يارفيق رازميوتنوف، اطلب من ساعيتك أن تترك البيت، عندي حديث معك.

– واية اسرار يمكن ان تكون بيني وبينك؟

– افعل ما قلت لك. – قال بويكو بنفس الصوت الخافت، ولكن بلهجة ايعاز هذه المرة.

وامتثل رازميوتنوف. وحين بقوا وحيدين في البيت كله، اخرج بويكو من جيب سترته الداخلي دفتراً احمر صغيراً، وقدمه الى رازميوتنوف باسماً:

– إقرأ، ايها الشيطان الحاد البصر! ها نحن نكشف اوراقنا، ما دمنا لم نوفق في التمويه. المسألة، ايها الرفيقان، ان كلينا نعمل في شعبة الاقليم من لجنة امن الدولة، وقد جئنا اليكم للبحث عن شخص هو عدو سياسي خطير ومتآمر، ومعاد للثورة شرس. ونحن لكي لانلفت الانظار الينا انتحلنا صفة المتاجرين بالمواشي. فهذا يسهل علينا العمل. فنحن سنطوف في البيوت، ونتحدث مع الناس، ونأمل أن نعثر على أثر لهذا العدو عاجلا أو آجلا.

فهتف رازميوتنوف:

– ولكن كيف، يارفيق غلوخوف، لماذا لم تقل لي راساً من انتما؟ ماكان سيحدث سوء التفاهم هذا.

– هكذا يقتضي العمل السري، يا عزيزي رازميوتنوف! فاذا قلنا لك ولدافيدوف ولناغولنوف، فبعد اسبوع ستعرف غريمياتشي لوغ كلها من نحن. لا تتكدر، بحق الرب، ليست المسألة أننا لا نثق بك، ولكن أشياء مؤسفة قد تحدث بعض الاحيان، وليس لنا الحق في المخاطرة بعملية لها اهمية كبيرة جداً بالنسبة لنا – اوضح بويكو – غلوخوف ذلك بتلطف، وهو يدس الدفتر الأحمر الصغير في جيبه، بعد أن اطلع عليه ناغولنوف ايضا.

سأل ناغولنوف:

– هل يمكن أن نعرف عمن تبحثون؟

بحث بويكو – غلوخوف صامتاً في محفظة اوراق

سميكة، ووضع باحتراس على كفه السميكة صورة فوتوغرافية بالقياس المستعمل عادة في الجوازات.

انحنى رازميوتنوف وناغولنوف على الطاولة. تطلع اليهما من مربع الورق الصغير رجل كهل يبتسم بلطف، له كتفان مستقيمتان، ورقبة ثور. ولكن تلك البسمة الطيبة بافتعال لم تكن تنسجم مع جبينه الشبيه بجبين الذئب، وعينيه الجهمتين العميقتي الغور، وحنكه الثقيل المربع، حتى أن ناغولنوف اكتفى بتكشيرة ساخرة، بينما قال رازميوتنوف، وهو يهز رأسه:

– اها، واحد ليس من اهل الطرب...

– ونحن نبحث عن هذا «الواحد» – قال بويكو – غلوخوف باستغراق، ولف الصورة بنفس العناية في ورقة بيضاء محكوكة في اطرافها، وخبأها في محفظة الجيب – لقب عائلته بولوفتسيف، واسمه واسم ابيه الكسندر انيسيموفيتش، وهو ضابط سابق في الجيش الابيض برتبة عقيد، اشترك في حملات التاديب واعدام فصيلة بودتيلكوف وكريفوشليكوف. وفي الفترة الأخيرة كان يدرس منتحلا لقباً عائلياً آخر، ثم عاش في الدسكرة. وهو الآن يعمل سرياً، واحد المشتركين النشطين للانتفاضة التي تهيأ ضد السلطة السوفيتية. وهو، بناء على المعلومات المستقاة من مخبرينا يختفي في مكان ما في منطقتكم. وهذا كل ما يمكن ان يقال عن هذا المخلوق المريب. ويمكنكما أن تبلغا دافيدوف بحديثنا هذا، ولا أحد غيره، ولا كلمة! انا اعتمد عليكم ايها الرفاق. والآن إلى اللقاء. لا حاجة إلى لقائنا اذا لم تكن هناك ضرورة. وطبيعي أن تستدعوني الى ادارة السوفيت، اذا وجدتم شيئاً ضرورياً لنا، على أن يكون ذلك في النهار، دفعاً لكل شكوك قد تنشأ لدى اهالي العزبة حولي. والشيء الأخير: كونوا على حذر! ومن الأفضل بشكل عام الا تتنقلوا في الليالي. ان بولوفتسيف لا يقدم على عمل ارهابي، فهو لا يريد أن يكشف عن نفسه، ولكن الحيطة نافعة. من الافضل عموماً الا تتنقلوا في الليالي،

واذا اقتضى التنقل فلا يجوز أن يخرج احدكم بمفرده. وليكن معكم سلاح دائماً. ولو انكم على ما يظهر، لا تخلون من سلاح على الأقل أنني سمعت حين كنت تتحدث مع خيجنياك يا رفيق رازميوتنوف، كيف ادرت قرص مسدس في جيبك، اليس كذلك؟

قلص رازميوتنوف عينيه، وادار وجهه، وكأنما لم يسمع السؤال. هب ناغولنوف لنجدته:

– بعد حادثة اطلاق النار علي، أخذنا احتياطنا للدفاع عن النفس.

قال بويكو – غلوخوف مبتسماً ابتسامة خفيفة:

– ليس فقط للدفاع عن النفس، بل وللهجوم أيضاً، على ما يبدو... بالمناسبة ان تيموفي داماسكوف الملقب بالاشرم، وهو الشخص الذي قتلته، يارفيق ناغولنوف، كانت له في وقت ما، علاقة بمنظمة بولوفتسيف، وهناك اشخاص في عزبتكم أيضاً هم اعضاء في هذه المنظمة – ذكر «تاجر المواشي» العليم بكل شيء، وكان ذلك فلتة لسان – ولكنه خرج منها لأسباب مجهولة. إنه لم يطلق عليك النار بأمر من بولوفتسيف. والأحرى انه كان مدفوعاً بدوافع شخصية...

هز ناغولنوف راسه مصادقاً، ومضى بويكو – غلوخوف يقول باتزان وهدوء، وكأنه يلقي محاضرة:

– وخروج تيموفي داماسكوف من جماعة بولوفتسيف لأسباب معينة، وتحوله إلى مجرد قاطع طريق منفرد، تثبتهما حقيقة انه لم يسلم لأتباع بولوفتسيف المدفع الرشاش الذي ظل محفوظاً منذ الحرب الأهلية في زريبة آل داماسكوف، حتى وجده دافيدوف في آخر الأمر. ولكن ليست هذه هي المسالة. ساتحدث ببعض الكلمات عن مهمتنا: يجب ان نقبض على بولوفتسيف وحده، ويجب أن نقبض عليه حياً. نحن الآن لا نريده الا حياً. وفيما بعد سنتخلص من شر افراد تجمعه الاعتياديين. ويجب أن اضيف الى ذلك ان بولوفتسيف ما هو إلا حلقة في سلسلة كبيرة، ولكنها

حلقة ليست قليلة الاهمية. ولهذا عهدت الينا عملية البحث عنه واعتقاله، وليس الى العاملين في شعبة المنطقة. ومحوا لكل ما قد تبقى في انفسكما من تكدر مني اقول ان رئيس شعبة منطقتنا للجنة امن الدولة وحده يعرف بوجودنا في اراضي منطقتكم. وحتى ليسترينكو نفسه لا يعرف. فهو سكرتير لجنة المنطقة الحزبية، فما علاقته، في آخر الأمر، بتجار مواش صغار من امثالنا؟ فلينصرف الى توجيه العمل الحزبي في منطقته، وسننصرف نحن الى اشغالنا... ويجب القول إننا في الكولخوزات التي زرناها قبل مجيئنا إليكم مررنا بسلام ولم يكشف امرنا، واثت فقط، يارازميوتنوف، تشككت في خيجنياك وفي ايضاً. ولم تصدق باننا تاجرا ماشية حقيقيان. لا شك في ان ذلك يرفع من قدر يقظتك. وسواء اكان هذا او ذاك فانني كنت سأضطر بعد يومين ان اكشف لكم عن حقيقتنا، لأن حاستي المهنية تهمس لي بان بولوفتسيف يتخطر عندكم في العزبة... سنحاول ان نجد الذين كانوا رفاق الخدمة معه في الحرب ضد المانيا. وفي الحرب الأهلية. نحن نعرف الوحدات التي خدم فيها السيد بولوفتسيف، واكثر الاحتمالات انه نزل عند واحد من افراد وحدته. هذا كل شيء باختصار. وسنلتقي مرة أخرى قبيل مغادرتنا، والى ذلك الحين مع السلامة!

نظر بويكو – غلوخوف إلى ناغولنوف، وقد وصل الى العتبة.

– الا يهمك أن تعرف مصير زوجتك؟

ظهرت بقع صغيرة على وجنتي ناغولنوف، واظلمت عيناه. تنحنح، وسأل بصوت خفيض:

– اتعرف اين هي؟

– اعرف.

– اين؟

– في مدينة شاختي.

– وماذا تفعل هناك؟ ليس لها احد هناك. لا اقارب ولا اصحاب.

– زوجتك تشتغل.

– في أية وظيفة؟ – تبسم ماكار ابتسامة ساخرة غير بهيجة.

– تشتغل على عربة نقل فحم. ساعدها العاملون في هيئاتنا في ايجاد عمل. ولكنها لا تعرف بالطبع من ساعدها في ذلك... ويجب القول إنها تعمل بشكل جيد جداً، بل وأقول وبشكل ممتاز! إنها تتصرف باحتشام، ولا تقيم أية صحبة جديدة، ولا أحد من الصحاب القدامى يزورها حتى الآن.

– ومن يمكن أن يزورها؟ – سأل ناغولنوف بخفوت.

وبدا في مظهره الخارجي هادئاً تماماً، سوى أن جفن عينه اليسرى اختلج قليلاً.

– لا تخلو من أحد... على الأقل اصحاب تروفيم. أم أنت تستبعد ذلك كلياً؟ على كل حال يبدو لي أن هذه المرأة قد غيرت حياتها، وتروّت، فلا تقلق عليها، يا رفيق ناغولنوف.

– وكيف تراءى لك انني قلق عليها؟ – سأل ناغولنوف بصوت أكثر خفوتاً، ونهض من وراء الطاولة، وانحنى الى الأمام قليلاً متكئاً على حافتها بكفيه الطويلتين.

وشحب وجهه شحوب وجوه الموتى، وارتعشت الجيوب العادة تحت وجنتيه. وأخذ يقول ببطء أكثر من المعتاد منتقياً الكلمات:

– لقد جئت لشغلة، أيها الرفيق المفوه، فاذهب، وانجزها، ولا حاجة الى التسرية عني، فانا لست بحاجة إلى أية تسرية منك! كما لا نحتاج إلى تحذيراتك. والأمر راجع لنا أن نخرج ليلا أو نهاراً. سنعيش على نحو ما بلا تعليمات الحمقى، ولا مداراة الآخرين! مفهوم لك؟ فاخرج من هنا. فقد أكثرت من الحديث، وبحت بكل مالديك، وتسمى نفسك من رجال أمن الدولة. انا الآن لا أفهم هل أنت بالفعل من العاملين في شعبة المنطقة من لجنة أمن الدولة أم أنت حقاً تاجر مواشٍ، أو عاقد صفقات، أو دلال، كما يقال عندنا...

نظر خيجتياك الصموت الى رئيسه المرتبك قليلا نظرة لا تخلو من تشف، بينما خرج ناغولنوف من وراء الطاولة، وعدل الحزام على قميصه العسكري، وسار نحو الباب مشدوداً، كما هو دائماً، ومستقيماً، بل ويشي، من التبختر بقيافته العسكرية.

وبعد خروجه خيم صمت محرج على الحجرة لبعض الوقت.

– ماكان يجب أن أذكر زوجته – قال بويكو – غلوخوف وهو يمسد بداية قصبة أنفه باظفر خنصره – يبدو أنه مايزال متأثراً برحيلها...

– نعم، ما كان يجب – وافقه رازميوتنوف – ماكار فتى غليظ، ولا يحب كثيراً أن يتعرض الآخرون لمواضع حساسة في نفسه.

قال خيجتياك بلهجة متصالحة، وهو يمسك بمقبض الباب:

– طيب، لا بأس، شيء عابر.

فسأل رازميوتنوف لازالة بعض الحراجة:

– يارفيق غلوخوف اشرح لي: ماذا عن شراء الماشية؟ هل ستشتريانها بالفعل، أم ستطوفان في البيوت وتماكسان على السعر فقط؟

تبسم بويكو – غلوخوف لهذا السؤال الساذج جداً، وعادت الغمازتان الى خديه المشدودين.

– يبدو راسماً أنك مزارع حقيقي! نعم نشتري الماشية بالفعل، وندفع الفلوس كاملة، ولكن لا تقلق بشأن مشترياتنا، فنحن سنوجهها الى شاختي في الحال، وسيتلذذ عمال المناجم بلحمها. سيأكلونها، ولا يقولون لنا شكراً، لأنهم لن يعرفوا أية مؤسسة عالية المستوى اشترت لهم مواشيكم المغذاة باعتدال. هكذا، يا اخ!

وبعد توديع الضيفين بقي رازميوتنوف مدة طويلة اخرى جالساً وراء الطاولة، وقد باعد كوعيه، وأسند وجنتيه على قبضتيه. فقد كانت تقلقه فكرة واحدة هي: «من من بين

أهالي عزبتنا استطاع أن ينحاز لهذا الضابط الملعون؟» وراجع في ذاكرته كل القوزاق الراشدين في غريميا تشي لوغ، ولم يستثن اي واحد منهم إرتياباً حقيقياً في نفسه...

نهض رازميوتنوف من وراء الطاولة ليحرك مفاصلة قليلا، وقطع ثلاث مرات المسافة بين الباب والنافذة، وفجأة توقف في وسط الغرفة، وكأنما اصطدم بعقبة غير مرئية، وفكر في هلع: «ان ذلك السمين استثار قلب ماكار. اي شيطان جعله يتحدث عن لوشكا! ماذا لو يستوحش ماكار. ويذهب لرؤيتها في شاختي؟ كان في المدة الاخيرة هادئا، ولا يعلن عن نفسه، ولكن يظهر انه يشرب في الليالي خلسة ولوحده...»

وظل رازميوتنوف بضعة أيام ينتظر هلعاً ما سيقدم عليه ماكار. وحين قال ناغولنوف ذات مساء، بحضور دافيدوف انه يفكر بالسفر الى دسكرة مارتينوفسكايا بترخيص من لجنة الحزب في المنطقة، ليتفقد عمل واحدة من اولى محطات الآلات والجرارات في الدون تأوه رازميوتنوف في سره وفكر: «يا لضيعة ماكار! انه ذاهب الى لوشكا! اين ذهبت عزته الرجولية؟...».

الفصل الحادي والعشرون

اغرم زوج من اليمام بفناء رازميوتنوف الداخلي، حتى عند حلول الربيع، حين أخذ آخر الثلج يهبط متحولا إلى ماء شفاف حتى في الطرف الشمالي قرب السياج. كان يحوم طويلا فوق البيت، ومع كل دورة كان يزيد انخفاضه، ثم هبط قرب القبو حتى الأرض، وحط على سطح البيت، بعد تحليقة غير عالية. وبقي هناك وقتاً طويلا محولا راسيه بحذر الى كل الجهات، ومتفحصا، ليالف المكان الجديد، ثم سار الذكر على الجص القذر المتناثر حول المدخنة رافعاً مخلبيه القرمزيين باستنكاف مرهف، ودفع راسه قليلا الى الأمام والى الخلف، وراح يزقو بتوجس تاثراً قوس قزح

كامد الألوان من ريش حوصلته. اما الانثى فقد انزلقت إلى الأسفل صافقة بجناحيها مرتين اثناء طيرانها، ورسمت نصف دائرة، وحطت على اطار النافذة الغائر في حجرة الجلوس في بيت رازميوتنوف.

فماذا يمكن أن تعني هاتان الصفقتان الرنانتان من جناحيها غير دعوة اليفها إلى أن يحذو حذوها؟

عند الظهر جاء رازميوتنوف إلى بيته ليتناول غداءه، ومن خلال باب السياج رأى زوج اليمام قرب عتبة داره. كانت الأنثى تركض على حافة بركة صغيرة من ماء الثلج الذائب محركة كفيها الانيقتين بعجالة، ملتقطة شيئاً اثناء ذلك، بينما كان الذكر يتبعها بنطات قصيرة، ثم توقف برهة، ودار وانحنى حتى كاد يلامس الأرض بمنقاره، وحوصلته المرتخية، وزقا بشراوة، وعاد يتابع ناثراً ذيله كالمروحة، ضاغطاً صدره على الأرض المبللة الباردة الشتوية لما تزل. ولزم جهة اليسار بعناد، محاولا تنحية أنثاه عن البركة.

دنا رازميوتنوف حتى على بعد خطوتين منهما منقلا قدميه بحذر، ولكن الطائرين لم يعمدا الى الطيران، بل تنحيا عن طريقه قليلا. وقال رازميوتنوف لنفسه بفرح طفولي حار وقد وقف على عتبة داره: «هذان ليسا ضيفين، بل أهل البيت!» ثم دمدم مع نفسه او فكر وهو يبتسم ابتسامة مريرة: «جاءا كعلامة خير متاخرة، ولابد...».

وغرف من حجرة المؤنة غرفة من القمح، ونثرها. مقابل النافذة.

كان رازميوتنوف عابس الوجه مغتاظاً منذ الصباح. فان الاستعدادات إلى البذار وتنقية البذور لم تكن على مايرام. في هذا اليوم أستدعي دافيدوف الى الدسكرة، وخرج ناغولنوف على فرس الى الحقل، ليتفقد شخصياً الاراضي المخصصة للبذار، وعند الظهر كان رازميوتنوف قد تشاتم الى حد الاشباع مع رئيسي فريقين ومع امين المستودعات. والآن، حين جلس في بيته الى المائدة اخذ

يراقب الطائرين ناسياً حساء الكرنب وهو يبرد في الماعون، فتنور قليلا وجهه الملوح برياح الربيع، ولكنه احس بثقل في قلبه.

وراقب بعينيه الغائمتين، والابتسامة الحزينة على فمه، اليمامة الصغيرة الجميلة تلتقط الحب بنهم، وذكرها الرصين لايفتأ يدور ويدور قربها، يدور بعناد ولا كلل، دون أن يلتقط حبة واحدة.

هكذا كان هو، اندريه، يحوم حول حبيبته قبل عشرين سنة مضت فتياً رشيقاً كهذا اليمام. ثم جاء الزواج، والخدمة الفعلية في الجيش، والحرب... وباي سرعة رهيبة مكدرة انقضت الحياة! وكان رازميوتنوف يفكر مع نفسه بحزن وهو يتذكر زوجته وابنه: «لم اكن اراكما كثيراً، وانتما على قيد الحياة، يا عزيزي، وقليلا ما ازوركما الآن ايضاً...»

لم يكن ذكر اليمام يابه للطعام في هذا اليوم المشمس من نيسان. ولم يكن اندريه رازميوتنوف يابه للطعام ايضا. لم تعد عيناه الآن غائمتين بل كدرتين من الدموع مكفوتين، فلم ير اليمامتين، ولا نعومة الالوان الربيعية، وراء تشبيكة النافذة، بل طلع امام عين خياله المحيا الفاجع لتلك المرأة التي احبها ذات مرة في حياته اكثر من الحياة نفسها، كما يلوح، ولكنه دون أن يهنأ بحبه الى الآخر، والتي انتزعها الموت الاسود منه، قبل اثني عشر عاماً، في يوم ربيعي متالق مثل هذا اليوم ربما...

كان رازميوتنوف يعلك خبزة مطاطئا راسه فوق الصحن بانخفاض. فقد كان لا يريد أن ترى امه دموعه التي كانت تتحدر ببطء على خديه لتملح حساءه المالح اصلا. تناول الملعقة مرتين، وفي كلتيهما سقطت الملعقة على المائدة، فالتقطها من يده المرتعشة بشدة، والخائرة بشكل غريب.

يحدث احياناً في الحياة أن سعادة الطيور القصيرة ايضاً، وليست سعادة الانسان وحدها، لا تثير في الانسان ذي القلب المكلوم الحسد ولا ابتسامة التلطف الساخرة،

بل الذكريات المرهقة المفعمة بالمرارة المقيمة والعذاب... نهض رازميوتنوف من وراء المائدة بعزم، وادار ظهره الى امه، وليس سترته المبطنة، واطبق يده على طاقيته القوزاقية.

– يحفظنا المسيح، يا امي، ليست لي شهية كبيرة الى الأكل الآن.

– اذا كنت لا تريد حساء الكرنب، فلربما تاكل شيئاً من العصيدة مع اللبن الرائب.

– لا، لا اريد. لا حاجة.

فسالت امه بحذر:

– هل انت في ضيق؟

– اي ضيق؟ لاضيق، كان وقد عفا عليه الزمن.

– منذ الصغر، وانت كتوم، يا اندروشكا... لا تخبر لمك باي شيء ابداً، ولاتشكو من شيء ابداً... يبدو ان قلبك من حجر...

– انت التي ولدتني بهذا الشكل، يا امي، فلا تلقي باللوم على احد.. جئت الى الدنيا بالشكل الذي ولدتني به، ولاحيلة لنا في ذلك.

قالت العجوز متكدرة، وهي تزم شفتيها الشاحبتين:

– طيب، لك الله.

استدار رازميوتنوف الى اليمين، بعد خروجه من باب الحديقة، باتجاه سوفيت العزبة، ثم إلى اليسار باتجاه السهب. سار قدماً وبخطو عريض ولكنه متان في ارض لا درب فيها، نحو غريمياتشي لوغ اخرى تضم الأموات وحدهم منذ القدم في إكتظاظ سمح. كانت المقبرة بلاسياج. في سنوات الكدح هذه لم يكن الاحياء يحفلون بالموتى. كانت الصلبان العتيقة المسودة من القدم مائلة الى جنب، وبعضها القلب على الأرض بظهره او وجهه. ولم تشمل الرعاية اي قبر من هذه القبور، فكانت الريح الهابة من الشرق تهز الاعشاب البرية المتخلفة من العام الماضي، هزاً يثير الشجن، على تلك الحدبات الطينية وتمرر اصابعها الرقيقة

الحدوب كاصابع النساء على خصائل الافستتين المتصلبة الحالكة اللون. ويخيم على القبور مزيج قوي من رائحة التعفن والعشب المتفسخ والأرض السوداء المنحسر عنها الثلج.

والحي دائماً يشعر بالحزن في أية مقبرة، وفي اي فصل من فصول السنة، ولكن أشد الآلام مضاضة وحدة يظهر دائماً هناك في الربيع الباكر واواخر الخريف بشكل خاص.

سار رازميوتنوف في أخدود شقته عجلة عربة، متجهاً الى الشمال، وراء حدود المقبرة، حيث كان المنتحرون يدفنون من قبل، وتوقف عند قبر يعرفه، حوافيه منهارة، وخلع طاقيته من رأسه الأشيب المنكس. كانت القنابر وحدها تحطم الصمت المسبل على قطعة الأرض هذه، المنسية من قبل الناس.

فلم جاء اندريه إلى هنا في هذا اليوم الربيعي المتلالي بشمس ساطعة، والمفعم الى الحافة بالحياة المتيقظة؟ اليقف عاصراً اصابعه القصيرة القوية وصاكاً على اسنانه، وينظر بعينيه المتقلصتين إلى ما وراء حافة الافق المضببة، وكأنما يحاول أن يتبين في الغبش الداخن شبابه غير المنسي، وسعادته القصيرة؟ ربما ذلك. لأن الماضي المقبور، والعزيز على القلب يرى دائماً بشكل جيد من على مقبرة أو من خلال الظلام الاخرس لليالي الأرق.

* * *

ومنذ ذلك اليوم اخذ رازميوتنوف زوج اليمام الذي حل في بيته تحت رعايته اليقظة. فكان ينثر مرتين في اليوم حفنة من القمح تحت النافذة، ويقف طارداً الدجاجات الوقحة حتى ينال زوج اليمام شبعه. وفي باكر الصباح، كان يجلس طويلا على عتبة الشونة يدخن، ويراقب بصمت النزيلين الجديدين ينقلان وراء تشبيكة النافذة قطع الاغصان الرقيقة والتبن وخصل وبر الثور المخلوعة من السياج. وبعد قليل من الوقت تهيأ عش سريع الصنع، وتنفس رازميوتنوف الصعداء، مفكراً: «صار لهما بيت! والآن لن يغادرا».

وبعد اسبوعين لم تخرج اليمامة لالتقاط الحب، وفكر

رازميوتنوف مبتسماً قعدت لتفقس. وعن قريب سيزداد افراد العائلة».

ومع ظهور اليمام في بيته ازدادت مشاغله بشكل ملحوظ. فقد كان عليه أن ينثر له الحب في الوقت المعين، ويغير طاسة ماء الشرب، لأن البركة قرب العتبة سرعان ما جفت، وفضلا عن ذلك كان من الضروري تماما اقامة حراسة لحماية فراخ اليمام العاجزة عن حماية نفسها.

وذات مرة، بينما كان رازميوتنوف عائداً من الحقل، رأى، وهو على مشارف البيت، القطة العجوز – معشوقة امه – تزحف في السطح ضاغطة كل جسمها على القش، ثم تقفز بخفة على الصفاقة المفتوحة قليلا، وتنهيا للوثوب مدورة ذيلها. كانت اليمامة تجلس في العش ساكنة مديرة ظهرها الى القطة، غير شاعرة بالخطر، على ما يبدو. ولم يكن يبعدها عن حتفها غير حوالي اربعين سنتمتراً.

ركض رازميوتنوف على اطراف أصابعه، وقد خطف المسدس من جيبه، حابساً انفاسه، غير محول عن القطة عينيه المتقلصتين. وحين تراجعت هذه قليلا، محركة فالمتيها الاماميتين بتشنج، انطلقت رصاصة بزمجرة حادة، وثرنحت الصفاقة قليلا. طارت اليمامة مبتعدة، وسقطت القطة على الدكة الطينية كالكيس ورأسها الى الأسفل، وقد اخترقتها الرصاصة.

جاءت أم اندريه راكضة من البيت على صوت الرصاصة.

– اين الرقش الحديدي، يا ماما؟ – استفسر رازميوتنوف، وكأن شيئاً لم يحصل.

كان يمسك القطة القتيلة من ذيلها، ويعكنن وجهه بقرف.

ضربت العجوز كفاً بكف في يأس من أمرها، واخذت تولول، وتصيح:

– عليك اللعنة، ايها القاتل! لا تشفق على اي كائن حي! لا فرق عندك ولا عند ماكار أن تقتلا انساناً او قطة! كسرت ايديكما، ايها المتعطشان للدماء! لا تستطيعان أن

تعيشا بلا قتل، مثلما لا تستطيعان أن تعيشا بلا تبغ!
قاطعها ابنها بخشونة:
– كفاك كفاك، بلا نواح! لاقطط عندنا منذ الآن كما لا تتعرضي لي ولا لماكار. فنحن نتنرفز كثيراً حين تطلق علينا مختلف النعوت. نحن للشفقة فعلا نستدد باحكام على كل وضيع يقف في طريق حياة الآخرين، سواء أكان يمشي على رجلين أو على اربع. أهذا مفهوم لك، يا ماما؟ طيب، ادخلي الى البيت. وانفعلي في الداخل. فانا، كرئيس سوفيت العزبة، امنعك بشكل قطعي من اظهار انفعالك خارج البيت، وشتمي.
ظلت الأم لا تكلم ابنها اسبوعاً. فكان صمت الأم اسعافاً له. فخلال هذا الأسبوع رمى جميع القطط والهررة المجاورة بالرصاص، ووفر الأمان فترة طويلة ليمامه، وذات مرة سأل دافيدوف، وهو يدخل في سوفيت العزبة.
– ما اطلاق النار هذا في جواركم؟ ما ان يمر يوم حتى تتردد طلقة من ناغان. ترى: لماذا تروع الناس؟ اذا كنت تريد اطلاق النار، يا اندريه، فاخرج الى السهب، واطلق قدر ما تشاء، حقيقة!
اجاب رازميوتنوف بجهامة.
– انا التقط القطط خلسة. لا حياة لنا منها، اللعينة!
رفع دافيدوف حاجبيه الملوحين بالشمس استغراباً:
– اية قطط؟
– مختلف القطط. مرقطة، وسوداء، ومخططة. اية واحدة تقع أمامي أقتلها.
اخذت شفة دافيدوف العليا ترتجف، وتلك العلامة الأولى على انه يصارع نوبة ضحك قاهرة بكل قوته. وتجهم رازميوتنوف وهو يعرف ذلك، ومد ذراعه في تحذير وخوف:
– تريث في الضحك، يا بحار! اعرف القضية اولا.
– ما هي؟ – سأل دافيدوف لاوياً قسمات وجهه بمعاناة، يكاد ينفجر ضاحكاً – لعلك لم تنجز خطة اعداد الفراء الخام؟ جمع فروات الحيوانات يجري ببطء، فعزمت...

على أن تعجل؟ آه، اندريه! هذا فوق طاقتي... اعترف والا فسأموت وراء طاولتك حالا...
والقى دافيدوف رأسه على يديه، اختلجت دفتاه العريضتان وراءه. فاذا برازميوتنوف يقفز، وكأنما لسع، وصاح:
– احمق! احمق حضري! حمامي جالس على البيض. وقريباً ستتطلع الفراخ، وانت تردد: «اعداد الفراء الخام»... ما شأني بهذه الصغائر – الصوف والكراع؟ نزل اليمام عندي ليقيم في داري، ولهذا احميه، كما ينبغي. والآن، اضحك ملء شدقيك.
كان رازميوتنوف يتهيأ لسخريات جديدة، فلم يتوقع ذلك الوقع الذي تركه كلامه على نفس دافيدوف، فقد مسح هذا الدموع من عينيه بسرعة وسأل بحماس:
– اي حمام؟ من اين جاءك؟
– أي حمام، أي قطط، من اين جاء... عليك اللعنة، ياسيما، أية اسئلة حمقاء تطرح علي؟ – اضطرب رازميوتنوف – طيب، حمام اعتيادي، له رجلان، وجناحان، ورأس واحد لكل واحد، وفي طرف كل واحد ذيل، ولكل دنار من ريش، ولا ينتعل شيئاً في ارجل، ولفقره يسير حافياً في الشتاء. هل يكفيك ذلك؟
– انا لا اسأل عن ذلك، بل اسأل: هل هما اصيلان ام لا. في طفولتي رعيت انا الآخر حماماً، ولهذا يهمني أن اعرف من اي نوع هو: حمام بهلواني، أو بوتر، أو لعله مترهب أونورس. من اين أخذته؟
الآن اخذ رازميوتنوف يبتسم ممسداً شاربه:
– جاء من بيدر لاحد الناس، ومعنى ذلك ان نسله يمكن ان يطلق عليه نسل البيدر، ولأنه جاء بدون دعوة مسبقة فيمكن ان يسمى ايضاً «الضال» او «المغترب» لأنه يعيش على الحب الذي انثره، ولا يحاول أن يحصل على غذائه... وباختصار يمكن أن تنسبه الى اي نسب، حسب ما يروق لك.

فاستفسر دافيدوف بجدية هذه المرة:
– واي لون له؟
– اعتيادي، حمامي.
– يعني؟
– مثل الاجاصة الناضجة، حين لم تمسها الايدي بعد، مع ازرقاق فاتح، ودخنة.
– آها، يمام داخن – قال دافيدوف بخيبة امل. وفي الحال وفرك يديه بحيوية – ولكن يوجد يمام من هذا النوع، يا اخ، تحفة! يجب ان اراه. طريف جداً، حقيقة!
– تعال انظر، زرنا كضيف!
وبعد مضي بضعة ايام على هذا الحديث استوقف رازميوتنوف رهط من الاولاد في الشارع. وسال اجراهم بصوت موصوص، وهو يحافظ على المسافة التي تستوجبها الاحترام:
– ياعم اندريه، هل انت تقتل القطط لتبيع فراءها؟
– ماذا؟!
وتقدم رازميوتنوف من الاولاد مهدداً.
فتقافز هؤلاء كالعصافير في مختلف الانحاء، ولكنهم بعد دقيقة اجتمعوا ثانية في كتلة متماسكة.
سال رازميوتنوف بالحاح، وهو لا يكاد يضبط نفسه من الخنق:
– من الذي حدثكم عن القطط؟
غير أن الاولاد سكتوا منكسين رؤوسهم، متبادلين النظرات من حين لآخر، وكأنما بايعاز واحد، وراحوا يخططون باقدامهم الحافية رسوماً على ما ظهر لأول مرة في هذا العام من تراب بارد على الطريق.
واخيراً تشجع ذلك الصبي الذي طرح عليه السؤال. ادخل راسه بين كتفيه النحيلتين وقال بصوته الرقيق:
– امي قالت انك تقتل القطط بالمسدس.
– طيب، اقتلها، ولكن لا ابيع فراءها! هذا شيء مختلف، يا اخ.

– وقالت: ورئيسنا يقتلها، وكأنما يعدها للبيع. فليقتل قطنا ايضاً، فانه يفتك بالحمام.
– هذا شيء آخر تماماً، يا بني – هتف رازميوتنوف وقد بدت عليه الحيوية – اذن، قطكم يفتك بالحمام. ابن من انت؟ وما اسمك؟
– انا ابن يروفي فاسيليتش تشيباكوف، واسمي تيموشكا.
– طيب، دلني على بيتكم، يا تيموشكا. سنصفي قطكم على الفور، لاسيما وان امك نفسها ترغب في ذلك.
ولم تجلب المبادرة النبيلة التي اتخذت في سبيل صيانة حمام آل تشيباكوف اي نجاح لرازميوتنوف، ولا أي مجد اضافي. ولعل العكس هو الصحيح. سار رازميوتنوف الى بيت تشيباكوف متانياً، مصحوباً برهط الأولاد الضاج بمختلف الاصوات، ودون ان يتوقع مواجهة ازعاج كبير ولكنه ما كاد يظهر من وراء منعطف الزقاق شاحطاً بنعلي حذائه الطويل بخطوات عريضة خائفاً طوال الوقت ان يطأ قدماً حافية من تلك الاقدام التي كانت تحوم حوله، حتى خرجت العجوز أم يروفي على مدخل بيت تشيباكوف.
وقفت هذه العجوز الفارعة الضخمة المهيبة الطلعة على مدخل البيت تقطب حاجبيها بوعيد، وهي تضغط على صدرها قطاً ضخماً اصهب اغدق عليه الطعام حتى سمن.
– مرحباً، يا أم – حياها رازميوتنوف بلطف احتراماً لشيخوختها، ومس طاقيته الرمادية باصبع يده مساً خفيفاً ليؤدي التحية.
ردت عليه العجوز بنبرة حادة:
– نحمدالله. لأي شيء جئت، يا آتمان العزبة؟ انطق.
– جئت بخصوص القط. الاولاد يزعمون انه يفتك بالحمام. هاته، وسأصدر حكماً عسكرياً عليه، نقول فيه ان الحكم على هذا الوغد... «نهائي وغير قابل للاستئناف».
– وباي قانون هذا؟ هل اصدرت السلطة السوفيتية قانوناً يلزم القضاء على القطط؟

ابتسم رازميوتنوف:

– وما حاجتك الى اصدار قانون؟ ما دام القط يقوم بمختلف أعمال الشقاوة والفتك فلا محالة من اصدار اقصى عقوبة في حقه دون أخذ ورد! عندنا للشقاة قانون واحد: «اهتداء بالوعي الثوري» وهذا كل ما في الأمر! طيب، لا حاجة للجر والعت، هاتي قطك، يا ام، وساسوي عليه بلمح البصر.

– ومن سيصيد الفئران عندنا في الشونة؟ ربما نستاجرك لهذا المنصب؟

– انا عندي منصب. ولكن انت بلا شغل، فانشغلي بالفئران، بدلا من الصلوات الفارغة والركوع امام الايقونة.

هدرت العجوز:

– انت أصغر من أن تشير الي ماذا افعل! انا أعجب كيف انتخب قوزاقنا هذا الولد لمنصب الرئيس! ولكن هل تعرف ان اي اتمان للعزبة لم يجسر في العهد القديم ان يتحدث معي ويتصرف بهذا الشكل؟! الآن ساجعلك تخرج من بيتي، بحيث لا تشعر بنفسك الا وانت في الزقاق!

وعلى صوت العجوز العالي طلع جرو ارقط من وراء الشونة، وصار ينبح نباحاً قوياً يشق الأذن. أخذ رازميوتنوف يلف سيكارة بهدوء، في وقفته قرب المدخل، وحجم السيكارة يوحي بانه لم يكن ينوي ان يتخلى قريباً عن الموقع الذي اتخذه. فان السيكارة بطولها الملحوظ وسمكها المساوي لسمك السبابة قد اعدت لحديث مطول. ولكن ذلك لم يتحقق.

تكلم رازميوتنوف بهدوء وتعقل:

– انت محقة، يا أم! انتخبني القوزاق رئيساً لخفة عقولهم. ولا عبت أن يقول الناس «القوزاقي عقله بالمقلوب». ثم أنني قبلت بهذا الامتحان لا عن عقل راجح. ولكن لا تغتمي. عن قريب ساتخلى عن منصب الرئيس.

– حان الوقت منذ زمان!

– هذا ما اقوله: حان الوقت اما الآن فودعي قطك يا أم، وسلميه الى يدي الرئاسية.

– بدونه قتلت جميع القطط في العزبة، وعن قريب ستتكاثر الفئران في العزبة، حتى تكون أول من ستقضم اظافره في الليل.

فاعترض رازميوتنوف بحزم:

– لا، على الاطلاق! فان اظافري متينة تتكسر عليها اسنان كلبك حتى. وعلى كل حال، هاتي القط ليس لدي الوقت لاصرفه على المماكسة معك. ارسمي عليه علامة الصليب، وسلميه الي بالحسنى، من يد ليد.

صنعت العجوز من اصابع يدها اليمنى المعقدة السمر علامة الرفض الموحية، بينما ضغطت القط باليسرى الى صدرها بهيام شديد، حتى ان القط ماء بصوت قبيح، واخذ يخمش، وينخر بغيظ. ضحك الأولاد المتجمعون وراء رازميوتنوف بتشف. وكان تعاطفهم الى جانب رازميوتنوف بشكل واضح. ولكنهم صمتوا في الحال، وكأنما بأمر، حالما أخذت العجوز تصرخ، بعد أن هدأت القط المستثار:

– اخرج من هنا فوراً، يا روح الشر، ايها الكافر اللعين! اخرج بالحسنى، والا تلقيت مني ما لا يسرك.

أخذ رازميوتنوف يبلل السيكارة بلعابه، ببطء، وعناية ممرراً لسانه على حافة ورقة الجرائد الخشنة، بينما كان ينظر من تحت حاجبيه بمكر الى العجوز المعاركة، ويبتسم في الوقت ذاته ابتسامة لا ابالية، وكانت المصادمات مع عجائز العزبة كلهن ما عدا أمه، تمنحه، والحق يقال، ارتياحاً كبيراً، بل ومتعة. فان المعايشة التي يتسم بها فتيان القوزاق، وروح المرح الغليظة الباقية على سليقتها ماتزالان تداعبان نفسه، رغم كبر سنه. وفي هذه المرة ايضاً ظل ملتزماً بعادته النعيمة. فبعد أن اشعل سيكارته وامتص منها نفسين متتاليين، قال بترحاب، بل وانشراح:

– يالجمال صوتك، ياجدة ايغناتييفنا! لا يمل الانسان من سماعه! كنت ساجعلك فقط تصرخين من الصباح حتى المساء، دون أن آكل او اشرب... لا اعتراض ابداً، صوتك ممتاز! عالي النبرة قليلا، وهادر، تماماً مثل صوت الشماس

في الدسكرة، أو مثل صوت حصاننا الكولخوزي الذي نسميه الزاهر... منذ اليوم سأسميك: «الجدة الزاهرة» لا «الجدة ايفناتييفنا». تعالي نتفق بالشكل التالي: اذا احتجنا الى شخص ينادي الناس للاجتماع، سنجعلك تصرخين في الساحة بكل حنجرتك. وسنسجل لك يومين عمل على هذا...

وقبل أن يتم رازميوتنوف عبارته حتى امسكت العجوز المغتاظة القط من قفاه، ولوحت بذراعها كالرجل. تنحى رازميوتنوف جانباً مذعوراً. اما القط فقد بسط قوائمه الأربع، ومرق من امامه وهو يموء مطعوناً، وعيناه الخضروان تتقلبان في محجريهما، وحط على الأرض كالاسفنجة، وانطلق نحو الحديقة بكل قوته، وقد اسبل ذيله الضخم كذيل الثعلب، وانطلق الجرو وراءه بزعيق مجنون، وادناه مرتخيتان، وتراكض الاولاد وراء الجرو مطلقين صيحات وحشية... قفز القط السياج وغاب، وكان ريحا طوحت به. اما الجرو الذي لم يكن قادراً على قفز هذا المانع الخطير، فقد انسل بكل قوته الى نقب كان يعرفه منذ زمان، ولكن الاولاد قفزوا على السياج الهش، بحركة واحدة، وجعلوه ينهار فوراً بفرقعة.

لاح القط بين صفوف الخيار، وزروع الطماطم والكرنب كالبرق الأصهب، فقعد رازميوتنوف ممتلئاً فرحة، وراح يضرب كفيه على ركبتيه، ويصيح:

– امسكوه! سيهرب، امسكوه، أنا اعرفه!..

وكانت دهشة رازميوتنوف عظيمة، حين التفت الى مدخل البيت عرضاً فراى الجدة اغناتييفنا، تغرق في ضحك لا يكبح، وهي تمسك بيديها صدرها الثقيل وهو يعلو ويهبط بشدة. ظلت طويلا تمسح عينيها بطرف المنديل الذي تشد به راسها، وهي تقول بصوت كامد، دون أن تشبع من الضحك.

– اندريوشكا رازميوتنوف! ستدفع انت او سوفيتك الضرر الذي لحق بمزروعاتي! عند المساء سأحسب التلف الذي سببه الشقاة الذين جاءوا وراءك، وستدفع الاضرار!

اقترب اندريه من مدخل البيت، ونظر الى العجوز من تحت الى فوق بعينين متسائلتين:

– يا جدة، سأدفع لك بالكامل سواء من راتبي كرئيس لسوفيت العزبة، او من حديقة خضرواتنا في الخريف! ومقابل ذلك اعطيني حمامك الذي كان قطك يستبيحه. انا ايضا عندي زوج من اليمام في دور التفقيس، ومع الزوج الذي ستتفضلين به، ستكون لي مجموعة جيدة منها.

– خذه بحق المسيح، خذ الحمام كله، اذا شئت. ليس لي منه غير التعب، ومزاحمة دجاجاتي على الحب.

التفت رازميوتنوف نحو حديقة الخضروات وصاح:

– يا اولاد، انصراف!

وبعد عشر دقائق كان يسير نحو بيته، ولكن ليس عبر الازقة، بل عبر الوهدة قرب النهر، حتى لا يثير انتباه نساء غريمياتشي الفارغات من العمل. وكانت ريح طرية فيها شيء من البرودة تهب من الشمال. وضع رازميوتنوف في طاقيته الحماميتين الدافئتين بحوصلتيهما الثقيلتين، وغطى الطاقية بطرف سترته الميطنة، وراح يختلس النظر الى الجانبين، ويبتسم بارتياح، بينما كانت الريح الشمالية الباردة تحرك ناصية شعره الشائبة.

الفصل الثاني والعشرون

قبل اجتماع الخلية الحزبية في غريمياتشي بيومين جاءت ست كولخوزيات الى ناغولنوف في مسكنه. وكان ذلك في ساعة مبكرة من الصباح، وخجلت النسوة من الدخول جميعة واحدة في البيت. فجلسن على درجات المدخل وعلى الدكة باحتشام، وعند ذاك سالت زوجة مايدانيكوف، وهي تعدل المنديل النظيف المغسول بكثير من مسحوق الزرقة.

– يعني أدخل عليه، يا نساء؟

اجابت زوجة اغافون دوبتسوف نيابة عن الجميع، وكانت جالسة على الدرجة الارضية:

– ادخلي، مادمت قد تبرعت.

كان ماكار يحلق ذقنه في حجرته، وقد تقوس وهو

جالس جلسة مريحة امام كسرة مرآة صغيرة، وضعت على مزهرية على نحو ما. كانت الموسى القديمة الكليلة تزيح الشعر الاسود الخشن من خديه الاسمرين بفرقعة شبيهه بتلك التي يحدثها تطاير شرر كهربائي، بينما كان ماكار يلوي قسمات وجهه بالم، ويتنحنح، واحياناً يحمحم حمحمة كابية ماسحاً من حين لآخر الدموع المترقرقة في عينيه بكم قميصه الداخلي. لحق ان يجرح نفسه عدة مرات حتى ان رغوة الصابون الرخوة على خديه لم تعد بيضاء، بل وردية عكرة. وكان وجهه المنعكس على قطعة المرآة الكامدة تتنازعه مشاعر مختلفة: الخضوع المتبلد للقدر، والعذاب المكبوت، والقسوة المستشرية، واحياناً كان بعزيمته المستميتة يشبه وجه منتحر عزم ان يقضي على حياته بالموسى مهما يكن من شيء.

دخلت زوجة مايدانيكوف الحجرة وسلمت بهدوء. اسرع ماكار فادار اليها وجهه الجهم المدمى المتوتر من الالم، فاهت هذه المرأة المسكينة مذعورة، وتراجعت نحو العتبة.

– اوه، رحماك! كيف دميت نفسك بهذا الشكل؟ على الأقل لو ذهبت لتغتسل، فان الدم يتدفق منك كما يتدفق من ذبيحة!

– لا تفزعي، ايتها الحمقاء الملعونة، واجلسي – حياها ماكار مبتسما برقة – الموسى كليلة، ولهذا جرحت بها. كان يجب ان ارميها منذ زمان، ولكن خسارة، تعودت على ان اتعذب بها. خاضت معي حربين، وجملتني خمسة عشر عاماً. فكيف افارقها؟ ولكن اجلسي، سانتهي حالا.

– تقول انها كليلة؟ – استفسرت مايدانيكوفا من جديد، وهي لا تعرف ماذا تقول، وتجلس على المسطبة بتردد محاولة أن لا تنظر الى ماكار.

– بشكل فظيع! الى حد... – وغص ماكار بالكلمة، وسعل مرتين، واتم بعجالة: – الى حد غمض عينيك واحلقا ولكن لماذا جئت في هذه الساعة المبكرة؟ اي مصيبة حلت بك؟ هل اصابت كوندرات نوبة قلبية؟

– لا، انه معافى. وانا لم اجيء لوحدي. قصدناك ستا من النساء.

– لاي حاجة؟

– بعد يوم غد ستقبل رجالنا في الحزب، ولهذا عزمنا على ان نرتب المدرسة ونعدها لذلك اليوم.

– هل الفكرة من عندكن، او من وحي ازواجكن؟

– وهل نحن قاصرات عن التفكير؟ انت تستهين بنا، يا رفيق ناغولنوف.

– طيب، شيء رائع، اذا كانت المبادرة منكن!

– نريد أن نطلي ونبيض الداخل والخارج.

– شيء رائع تماماً! اصادق عليه كلياً وبالتمام، فقط ان يكون في علمكن اننا لا نسجل لكن ايام عمل على ذلك. هذا عمل اجتماعي.

– اي ايام عمل اذا كنا قد جئنا متطوعات؟ فقط ان تخبر رئيس فريقنا ان لايرسلنا الى عمل آخر. نحن ست نساء، سجل على ورقة.

– سأخبر رئيس الفريق، اما التسجيل فلا حاجة به، لنا الكفاية من البيروقراطية والمكتبية بدونكن.

نهضت مايدانيكوفا، وسكتت قليلا، ونظرت الى ماكار من جانب، وابتسمت ابتسامة خفيفة.

– زوجي لايقل عنك غرابة، ان لم يكن اكثر... الناس يقولون انه في الحقول الآن يحلق وجهه كل يوم، ولكن حين يأتي الى البيت يقيس القمصان... عنده ثلاثة قمصان بالمجموع، فهو يتردد ولا يعرف اي قميص يلبس، واي قميص أفضل ليذهب فيه يوم الاحد للانضمام الى الحزب... فاقول له ضاحكة: «أنت كالعروس في ليلة الزفاف» فيغضب علي غضباً شديداً. يغضب، ولكن لا يظهر غضبه، الا في مرة واحدة، حين اخذت اضحك منه، فاذا به يضيق عينيه راساً، فاعرف انه سيمطرني بشتائم شنيعة، فاخرج بسرعة، لا اريد ان اغضبه تماماً...

ضحك ماكار ضحكة مقتضبة، وظهرت رقة في عينيه.

– هذه المسالة بالنسبة لزوجك، يا لطيفة، اهم من زواج الفتاة. الزفاف شيء عادي! عقد القران وليلة الدخلة، كما يقولون، وانتهى الأمر. اما الحزب، يا فتاتي، فاية موسيقى، باختصار، موسيقى على طول الخط... ولو انك لا تفهمين شيئاً ابداً! انت في النقاشات والمفاهيم الحزبية ستطوفين كما يطوف صرصار في حساء، فلماذا اتحدث معك بدون نفع، واغرف الماء بمنخال؟ الحزب، باختصار شان عظيم، وهذا آخر كلامي. واضح لك؟

– واضح، يا ماكاروشكا، فقط ان تخبرهم بان يبعثوا لنا حوالي عشر عربات من الطين.

– سأخبرهم.

– وجصاً لتبييض الحيطان.

– سأخبرهم.

– وزوجاً من الخيول واولاداً لتحضير الطين.

– ولربما تحتاجين إلى إستدعاء عشرة ملاطين من روستوف؟ – سال ماكار بسخرية، رافعاً الموسى إلى فوق، ملتفتاً إلى زوجة مايدانيكوف بكل جذعه كالذئب.

– سنملط نحن بانفسنا، ولكن جهزنا بالحصانين، والا فلن نتم العمل إلى يوم الأحد.

تنهد ماكار:

– اثنين، النساء، تعرفن كيف تركبن على رقاب الناس الطيبين... طيب، حسناً، وتعطيكن الحصانين، تضع كل شيء تحت تصرفكن، فقط ان تنصرفي، بحق الرب! بفضلك جرحت نفسي مرتين زيادة! واذا تحدثت إليك دقيقتين اخريين لن يبقى مكان سليم في جسمي، مفهوم؟

وكان في صوت ماكار الرجولي من التوسل الشاكي ماجعل زوجة مايدانيكوف تستدير بسرعة، وتقول: «طيب، مع السلامة!» وخرجت. وبعد لحظة فتح الباب من جديد.

– اعذرني، يا ماكار...

– ماذا تريدين ايضاً؟ – وكان في صوت ماكار ضيق مكشوف.

– نسيت ان اقول لك شكراً.

وصفق الباب بصوت عال. وجفل ماكار، وانغرزت الموسى مرة اخرى في بشرته، وصاح في اثرها:

– الشكر لك اي لكن، يا حمقاء، ولا تشكريني!

وظل يضحك طويلا بلا صوت.

وهذه الحادثة التافهة اشاعت المرح في اعطاف ماكار المتجهم دائماً، حتى انه ظل يبتسم في سره حتى المساء، ما ان تخطر في باله زيارة زوجة كوندرات له، وقولها شكراً في غير وقته.

* * *

استقر جو نادر في صحوه واشماسه وسكون ريحه. وفي نحو المساء من يوم السبت كانت المدرسة تتالق من الخارج ببياض جدرانها الناصع، وفي الداخل كانت ارضيات الحجر المغسولة جيداً، والتي حكت بلاطاتها الممسوحة نظيفة عذراء، حتى ان كل من دخل المدرسة كانت تراوده رغبة لا ارادية في السير على اطراف اصابعه.

كان موعد افتتاح الاجتماع الحزبي في الساعة السادسة مساء، ولكن منذ الساعة الرابعة كان قد تجمع اكثر من مائة وخمسين شخصاً في المدرسة. ورغم ان جميع الابواب والنوافذ كانت مفتوحة على مصاريعها، إلا ان الصفوف كلها كانت تسبح برائحة الدخان المزروع بيتياً بمرارته وقوته، وبعرق الرجال القوي كالكحول، وبرائحة الدهان النسائي الرخيص، والصابون الرخيص ايضاً تفوح من جمع النسوة والفتيات المتانقات بلباسهن.

كانت هذه المرة الأولى التي يقام فيها اجتماع حزبي علني في غريمياتشي لوغ لقبول أعضاء جدد في الحزب، ومن اهالي العزبة علاوة على ذلك، ولهذا فان اهالي غريمياتشي لوغ كلها، باستثناء الاطفال والمرضى الطريحي الفراش، كانوا داخل المدرسة أو قربها. ولم يبق في مخيمات الحقول، في السهب، اي انسان، فقد جاء الجميع إلى العزبة، حتى

راعي العزبة الجد أغي ترك قطيعه في عهدة مساعده الصبي، وجاء إلى المدرسة وقد غير ملابسه، مشط لحيته جيداً، ولبس حذاء قديماً مستهلكاً تماماً انتفخت اعاليه. فكان مظهره بحذائه الطويل ولباسه المعتنى به، وحقيبة الخيش تحت ابطه، وبلا سوط غير مألوف جداً حتى ان الكثيرين من القوزاق الكبار لم يعرفوه في الوهلة الأولى، وسلموا عليه كزائر طارئ.

في تمام الساعة السادسة نهض ناغولنوف من وراء الطاولة المغطاة بقماشة حمراء، وأجال بصره في الصفوف الكثيفة من الكولخوزيين الجالسين وراء مقاعد التلاميذ والواقفين في الممرات. هدأت ضجة الأصوات المكتومة وضحكة نسائية صارفة صدرت من آخر الصفوف. وعندئذ رفع ناغولنوف ذراعه عالياً:

— طيب، اهدأوا قليلا، يا اصحاب الأصوات العالية، ولاسيما من النساء! أرجو المحافظة على اكبر قدر ممكن من الهدوء. ها أنا أعلن افتتاح الاجتماع الحزبي العلني لخلية غريميا تشي من الحزب الشيوعي السوفيتي (البلشفي). والكلام للرفيق ناغولنوف، يعني لي. عندنا في جدول الأعمال مسألة واحدة: قبول اعضاء جدد إلى الحزب، فقد قدمت لنا بعض الطلبات، ومن بينها طلب ابن عزبتنا كوندرات مايدانيكوف الذي تعرفونه معرفة جيدة. ولكن التقليد المتبع والنظام الداخلي للحزب يتطلبان مناقشته. ارجو من جميع الرفاق الحزبيين وغيرهم من المواطنين غير الحزبيين التكلم عن حقيقة كوندرات، كيف وما رأيهم فيه، من «مع» ومن «ضد» وبما. والرأي المضاد يسمى «اعتراضاً». فيقال مثلا: «اعترض على الرفيق مايدانيكوف». وفي هذه الحال يجب ايراد الحقائق التي لاتؤهل مايدانيكوف للانضمام إلى الحزب. ونحن نريد الحقائق الدامغة. فهي الحقائق الوحيدة التي يمكن ان نناقشها، أما الافاضة والدوران والاقاويل بخصوص الشخص بدون وقائع فهي مسألة مرفوضة. فاننا لن نقبل مثل هذه الاقاويل. ولكنني

في البداية أقرأ عريضة كوندرات مايدانيكوف القصيرة، ثم سيحدثنا هو عن تاريخ حياته، اقصد سيوصف حياته الماضية والراهنة والمقبلة، وبعد ذلك يأتي دوركم. كل شخص وقابليته فيما يتعلق برفيقنا مايدانيكوف. هل المهمة واضحة؟ واضحة. اذن، لأبدأ، اقصد العريضة.

قرأ ناغولنوف العريضة، وبسط الورقة على الطاولة، ووضع عليها كفه الطويلة الثقيلة. إن هذه الورقة المخلوعة من دفتر تلميذ كلفت كوندرات الكثير من الليالي المؤرقة والتأمل والتفكير... والآن، حين كان ينظر تارة إلى الشيوعيين الجالسين وراء الطاولة، وتارة إلى جيرانه على المقعد نظرة متخوفة غير معتادة منه، كان في قلق شديد حتى ان جبينه تفصد بقطرات كبيرة من العرق، وبدا وجهه كالمبلل بماء المطر.

تحدث في كلمات قليلة عن حياته، وهو يتعذب بانتقاء الكلمات، ويصمت طويلا، ويقطب حاجبيه، ويبتسم في الوقت ذاته ابتسامة بائسة معذبة. لم يتحمل ليوبشكين، فقال بصوت عال:

— ولم تخجل من حياتك؟ لماذا تتلجلج كالفرس الموثوق؟ حياتك جيدة، فتكلم اجرأ، يا كوندرات.

— قلت كل شيء. — رد مايدانيكوف وهو يجلس محركاً كتفيه وكأنما في قشعريرة.

فقد كان يحس وكأنما خرج عارياً من بيت دافيء إلى الصقيع.

نهض دافيدوف بعد فترة صمت قصيرة، فتحدث باختصار ولكن بحرارة، عن مايدانيكوف الذي يجذب بعمله الكولخوزيين الآخرين، وجعله مثالا للآخرين، وفي النهاية اعلن بوثوق:

— إنه أهل تماماً لأن يكون في صفوف حزبنا، حقيقة!

ثم تكلم متحدثون آخرون عن مايدانيكوف بحرارة وود، وقوطعوا غير مرة بهتافات الاستحسان:

— حقاً!

— مزارع جيد!

– يحرص على مصلحة الكولخوز.

– لا يرمي فلساً واحداً من أموال الكولخوز، واذا رمى فلساً إلتقط فلسين.

– لن يستطيع الانسان التحدث عنه بسوء، لن يصدق به الناس!

واستمع كوندرات المستقع الوجه من القلق، الكثير من كلمات الإطراء، وبدا وكأن للحاضرين رأياً جماعياً فيه، إلا أن الجد شوكار نهض في تلك اللحظة بشكل غير متوقع، وشرع يقول:

– أيها المواطنون الاعزاء والعجائز! عندي إعراض كامل على كوندرات! أنا لست كالآخرين. الصداقة صداقة. ولكنني اتركها جانباً حين احكم على شخص. هكذا انا! هاقد وصف كوندرات وكأنه ليس آدمياً، بل ولياً من اولياء الله القديسين! طيب، لأسألكم، أيها المواطنون: أي قديس يمكن ان يطلع منه، إذا كان آدمياً خاطئاً مثلنا ومثل سائر الناس؟

صحح له ناغولنوف بالحسنى هذه المرة:

– أنت تخلط، كما انت دائماً، ياعم. نحن لا نريد ان ندخله الجنة، بل الحزب.

ولكن الجد شوكار لم يكن ذلك الشخص الذي يمكن أن تهدئه حبة واحدة أو تسلمه إلى الارتباك. التفت إلى ناغولنوف، والتمعت احدى عينيه بغيظ، أما الأخرى فكانت مشدودة بمنديل أحمر لم يغسل منذ زمان.

– آه، يا ماكار، أنت شديد في عصر الناس الطيبين، كان عليك أن تعمل في المعصرة بدلا من الكباس لتعصر الزيت من بذور عباد الشمس... فلماذا تصم فمي، ولا تدعني أقول كلمة واحدة؟ انا لا اتحدث عنك ولا اعارضك، طيب، اسكت لأن الحزب يوصي بتطوير النقد والانتقاد الذاتي بكل قوة. وما هو الانتقاد الذاتي؟ هذا يعني بالروسي الفصيح الانتقاد التلقائي فماذا يعني هذا؟ هذا يعني أن عليك أن تقرص الشخص المنقود في الموضع الذي تهواه،

بحيث توجعه! فاقرص ابن الكلبة هذا بحيث يتصبب بالعرق المالح من رأسه إلى أخمص قدميه! هذا يعني «الانتقاد الذاتي»، هذا ما افهمه!

– توقف، يا جد! – قاطعه ناغولنوف بحزم – لا تشوه الكلمة بالشكل الذي تهواه. الانتقاد الذاتي يعني أن ينقد الانسان نفسه، هذا هو المعنى. وحين ستلقي في اجتماع الكولخوز، عند ذاك يمكنك أن تقرص نفسك بالشكل الذي تهواه، وفي الموضع الذي تحبه. أما الآن فاسكت، واجلس بهدوء.

– لا، انت اسكت. ولا تدفع النقد إلى فمي بعد خروجه منه! – صاح الجد شوكار محتدماً بصوت عال بتصنع – انت ذكي جداً، يا ماكاروشكا! وعلى اي اساس سأرمي نفسي بمختلف النعوت؟ ولماذا سأتقول بنفسي على نفسي؟ عسى ان يهلك جميع الحمقى في عهد السلطة السوفيتية! القدامى انقبروا، ولكن الجدد كثار بلا حساب! وهم حتى في عهد السلطة السوفيتية لا يبذرون، ولكنهم يتكاثرون متناثرين في كل الانحاء كالحبوب في مهب الريح، وبلا عائق! خذ نفسك مثلاً، على الاقل، يا ماكار..

– لاتمسني، فانا لست موضوع الكلام الآن – قال ناغولنوف بصرامة – تكلم في الموضوع، عن كوندرات مايدانيكوف، واذا لم يكن لديك شيء تقوله، اسكت واجلس بهدوء، مثل جميع الناس الاسوياء...

سأل الجد شوكار:

– يعني انت انسان سوي، وانا لا؟

وهنا زعق شخص من الجالسين في الصفوف الخلفية:

– جداً، أيها الجد السوي، لو تحدثنا عن نفسك. ممن خلفت ذلك الطفل وانت في شيخوختك، ولماذا احدى عينيك مفتوحة، والثانية اصيبت بكدمة زرقاء؟ وإلا فانك تزقو دائماً على الآخرين زقاء الديك من فوق السياج، بينما تسكت عن نفسك، أيها الشيطان الماكر.

سرت في المدرسة موجة من الضحك الهادر، ولكنها

هدأت على الفور، حالما وقف دافيدوف. كان وجه دافيدوف متجهماً، وحين أخذ يتكلم تم صوته عن الاستياء:

– ليس عندنا عرض مسرحي مسل، بل إجتماع حزبي، حقيقة! ومن يحب أن يتسلى فليذهب إلى حفلة طرب. هل ستتكلم في الموضوع، ياجد، أم تحب أن تمشي في تهريجك؟

وكان دافيدوف يستخدم مع شوكار لأول مرة هذا التأدب القتال، ولعل ذلك جعل الجد شوكار يحتدم نهائياً. وثب واقفاً وراء مقعد الدراسة كالديك الفتي قبيل المعركة، حتى أن لحيته ارتجت من شدة الغيظ:

– من الذي يهرج؟ أنا أم قليل الذكاء، ذاك الجالس ورائي، ويمطرني بأسئلة سفيهة؟ وأي اجتماع علني اذا كنت لاتستطيع أن تقول كلمة علناً؟ ومن أنا عندك؟ صوت مجرد من الحقوق ام كيف؟ انا اتكلم في موضوع كوندرات، بأن لي اعراضاً عنه. نحن لسنا بحاجة إلى مثله في الحزب، وهذا كل كلامي.

فسأل رازميوتنوف، وهو يختنق بضحكه:

– ولماذا، يا جد؟

– لأنه لا يستحق أن يكون في الحزب. ولماذا تضحك، يا ابيض العينين؟ هل وجدت زراً مرمياً في الأرض فضحكت فرحاً به لأن كل شيء نافع لاستثمارتك حتى الزر؟ اذا كنت لا تفهم لماذا كوندرات غير مؤهل للحزب، فسأشرح للكل شرحاً قاطعاً، وعند ذاك ستتوقف عن التكشير فرحاً كالعصان المخصي وهو يرمق الشوفان... أنتم اساتذة في الاشارة إلى الآخرين، ولكن ماذا عن انفسكم؟ أنت رئيس سوفيت العربة، شخصية مهمة، ويجب ان يأخذ منك المثل الكبار والصغار، ولكنك كيف تتصرف؟ تتوتر أوداجك من الضحك السفيه في الإجتماع، وتزرق كالديك الرومي! اي رئيس انت، واي ضحك يمكن أن يكون إذا كان مصير كوندرات هنا في كفة الميزان؟ طيب، فكر أينا اكثر جدية أنا أم أنت؟ خسارة، يا فتى، ان ماكاروشكا منعني من أن استخدم في الكلام مختلف الكلمات الاجنبية التي حفظتها من قاموسه عن

ظهر قلب، وإلا لغطيتك بهذه الكلمات، بحيث لا تفهم كليا ماذا اتحدث ولماذا! أنا ضد انضمام كوندارت إلى الحزب، لأنه صاحب ملكية صغيرة، ولا تستطيعون أن تعتصروا منه اكثر، حتى ولو وضعتموه في معصرة! سيطلع منه تفل، وهي الكلمة العلمية للحثالة، وليس شيوعياً. لا، ولن!

فسأل كوندرات بصوت راعش من الاهانة:

– ولماذا لا يطلع مني شيوعي، يا أب؟

قلص الجد شوكار عينيه بخبث:

– وكأنك لا تعرف؟

– لا اعرف. فاشرح لي وللمواطنين الآخرين بوضوح لماذا لست مؤهلا؟ فقط أن تقول الحقيقة العارية وحدها، بدون اي تلفيقات منك.

وهل كذبت يوما ما؟ أو، على سبيل المثال، الفت اي تلفيقات؟ – وزفر شوكار زفرة ملأت المدرسة كلها، وهز رأسه بحزن – بالعكس طوال حياتي كنت اواجه الناس الطيبين بالحقيقة الناصعة وحدها، واخشى في عيونهم، ولهذا السبب، يا عزيزي كوندرات، يعتبرني بعض الناس في هذا العالم عنصراً غير صالح. كان ابوك المرحوم يقول: «إذا شوكار يكذب فمن يصدق إذن؟» كان له راي طيب جدا في! خسارة أنه مات والا لصادق على قولي حالا، رحمة الله عليه!

ورسم شوكار علامة الصليب، وأراد أن يذرف دمعة، ولكنه غير فكره لسبب ما.

فطالب مايداتيكوف باصرار:

– اوضح ما تقصد بخصوصي، ولا علاقة لأبي في الموضوع. لم تتهمني، بالذات؟

ولم تقلق شوكار قط ضجة الاستهجان المكتومة الموجهة ضده بوضوح كما دلت بعض الهتافات. احتفظ شوكار باتزانه ورصانته التامة مثل نحال مجرب تعود على طنين النحل المستثار.

– سأوضح حالا كل شيء بالتمام. وانتم ايها

المواطنون، والعجائز العزيزات، احتفظوا بضجتكم لأنفسكم فانتم، في كل الاحوال، لن تمنعوا تدفق افكاري. قبل لحظة سمعت شيئاً ورائي كهسيس الافعى، يزعم: «إنه كالقط الذي لا شغل له...» وغير ذلك من الاقوال الوضيعة تهمس ورائي. ولكنني اعرف من أين جاءت هذه الهمسة اللاسعة. ان الذي يهمس لي أيها المواطنون الاعزاء والعجائز هو اغافون دوبتسوف كالثعبان الضاري من العالم السفلي! هو الذي يريد أن يشوش علي ويشرب افكاري فلا اقول شيئاً عنه. ولكن دعوه لايتوقع مني أي شيء، فانا لست ذلك الرجل! اغافون أيضاً يسعى إلى التسلل إلى الحزب، تسلل الافعى إلى السرداب للارتواء بالحليب، ولكنني سأقدم اعراضاً ضده اقوى من اعراضي على كوندرات، فانا أعرف عنه شيئاً يجعلكم جميعاً تتأوهون حين تعرفون، ولربما يغمى على احدكم بسبب ذلك.

دق ناغولنوف بالقلم على قدح فارغ، وقال غاضباً:

– يا شيخ، اختلطت افكارك تماماً، فائته من كلامك! أنت تأخذ كل وقت الإجتماع، يجب أن يكون لك شيء من خجل!

ولول الجد شوكار بصوت باك:

– ها أنت مرة أخرى، تأخذ بخناقي، يا ماكاروشكا؟ يعني اذا كنت سكرتير الخلية يحق لك أن تضغط علي؟ هذا اكثر من اللازم! لا يوجد في النظام الداخلي للحزب مادة تمنع الشيوخ من الكلام. هذا ما اعرفه بالضبط! كيف يدور لسانك ليزعم أنني بلا خجل؟ كان عليك أنت أن تخجل زوجتك لوشكا، قبل أن تولي عنك بذيل تنورتها، وتروح إلى مجاهيل الأرض، اما أنا فحتى عجوزتي لم تقل لي أبداً إنك لا تخجل. اهنئني، يا ماكاروشكا، اهانة قتالة!

وفي النهاية ذرف شوكار دمعته الموعودة، ومسح عينيه بكم قميصه، ولكنه استمر يقول بنفس الهمة:

– ولكنني لست بالرجل الذي يسكت، وساصل إليك، يا ماكاروشكا، حتى في الاجتماع الحزبي المغلق، حتى لا

تقدر أن تهرب مني، انت لم توفق في اختيار الرجل الذي تهاجمه! أنا متهور، حين استثار، وكان يجب أن تعرف ذلك قبل غيرك، وتوازن، لأننا صديقان متلاحمان، والعزبة كلها تعرف بذلك. صديقان عريقان، ولهذا يجب أن تحرص كلياً، علي وعلى نقدي وانتقادي الذاتي! وأنا لن اتساهل مع احد، وليأخذ ذلك بعين الاعتبار كل من يريد تشويه الحزب!

لوى ناغولنوف حاجبه الايسر، والتفت إلى دافيدوف وهمس:

– نخرجه؟ سيخرب الإجتماع! لم يخطر في بالك أن ترسله في مهمة في هذا اليوم! توحل الجد، والآن لا يقدر ان يكبح جماحه...

لكن دافيدوف كان يحجب وجهه بالجريدة بيده اليسرى، وباليمنى يمسح الدموع من عينيه. كان الضحك يمنعه من أن يقول كلمة واحدة، ولهذا اكتفى بان هز رأسه ممتنعاً. رفع ناغولنوف كتفيه في ضيق شديد، وخزر الجد شوكار بنظرة حانقة مرة أخرى. اما هذا فقد مضى يقول عجولا شاهقاً وكان شيئاً لم يحدث:

– وما دام اجتماعنا علنياً، توجب عليك، ياكوندرات العزيز، أن تقول علناً تماماً: حين انضممت إلى الكولخوز، وطلب إليك أن تقدم للكولخوز ثوريك، هل ذرفت الدموع عليهما أم لا؟

صاح ديمكا اوشاكوف:

– السؤال لا علاقة له بالموضوع!

فوافقه اوستين ريكالين:

– سؤال فارغ. ما لك تصنف قشور البيض كثيراً؟

– لا، ليس سؤالا فارغاً، ولا قشور بيض، ولكنني اسأل عن الحقيقة! وانتم، يا ذوي النيات الحسنة، صوا افواهكم! – صاح الجد شوكار محمراً من الجهد في محاولته لأن يعلو على اصواتهم.

وبعد أن ساد الهدوء عاد يقول بهدوء ومخاتلة:

– ربما أنت لا تتذكر، ياكوندرات العزيز، ولكنني

اتذكر أنك اخذت توريك في الصباح إلى زريبة الكولخوز، بينما كانت عيناك منتفختين حمراوين مثل عيني الارنب، أو قل، مثل عيني الكلب العجوز حين يستيقظ من النوم، طيب، اعترف كما تعترف امام قس: هل كان ذلك؟

نهض مايدانيكوف، وشد على قميصه باستياء، ونظر إلى شوكار نظرة قصيرة بعينيه القاتمتين، ولكنه أجاب بصلابة وتحفظ:

– كان. ولا اخفي انني بكيت قليلا. كان الفراق يعز علي. فانا لم ارث هذين الثورين من أبي، ولكنني كسبتهما بعرق جبيني. لقد كلفني كثيراً، هذان الثوران! ولكن هذا شيء مضى وانقضى، يا أب. فأي ضرر للحزب من دموع ذرفتها في الماضي؟

فانفعل شوكار:

– كيف لا ضرر؟ إلى اين أخذت توريك؟ اخذتها للاشتراكية، يا عزيزي، إلى هناك اخذتها. وماذا سيكون عندنا بعد الاشتراكية؟ ستكون عندنا شيوعية كاملة. هذا ما سيكون، واقول لك هذا بكل صراحة! أنا، كما يمكن ان يقال، ترعرعت في بيت ماكار ناغولنوف، وكل الحاضرين هنا يعرفون أننا صديقان ركينان، وانا اعترف منه انواع المعارف، بكل ما تستوعب حوصلتي. فنحن في الليل نقرأ مختلف الكتب السميكة الجدية غير المصورة، ونقرأ القاموس، واحاول أن اتذكر الكلمات الأجنبية، ولكن شيخوختي، لعنها الله، تخونني! ذاكرتي صارت كالسروال بجيوب مثقوبة، ما إن تضع فيها شيئاً، حتى يتسرب منها، ويضيع! أما إذا وقع في يدي كراس صغير فلن يفلت منهما ابداً! أتذكر كل كلمة فيه! هذا أنا، حين تقع في يدي قراءة من هذا القبيل! قرأت كراريس كثيرة مختلفة، وانا اعرف بكل دقة واستطيع أن اتناقش مع أي انسان، إلى ان يطلع الفجر، أن الشيوعية ستتشرف عندنا بعد الاشتراكية، واعلن ذلك على رؤوس الاشهاد! وهنا تراودني الشكوك، ياكوندرات.. أنت دخلت الاشتراكية سابحاً في دموعك،

فماذا ستفعل في الشيوعية؟ ستخوض إلى ركبتك في دموعك وهذا مؤكد كقدسية الرب. وسيحصل هذا لك، وانا ارى ذلك كما ارى صورتي في المرآة! والآن اسالكم، ايها المواطنون والعجائز العزيزات، أي نفع للحزب من دامع العينين هذا؟

وضحك الجد قرحاً، وغطى فمه الاهرت بكفه.

– انا لا اطيق الناس الجديين على اختلافهم، وفي الحزب خصوصاً. اي نفع لهؤلاء العابسين الجاهمين؟ هل لاثارة الوحشة في قلوب الناس الطيبين، وتشويه وافساد منظر الحزب بشكلهم القبيح؟ في هذه الحال اسال: لماذا لا تأخذون ديميد الصموت وتضمونه إلى الحزب؟ أنا لم أر في حياتي اكثر جدية منه. ولكن اعتقد أن الحزب يجب أن يقبل الناس المرحين الطروبين مثلي، وإلا فسيدخل فيه كل من هب ودب من الجديين والترجمان من شتى الأنواع. ولكن مانفعهم؟ لنأخذ ماكاروشكا مثلا. إنه منذ عام ١٩١٨ انتصب بقامته، وكانه بلع ذراعاً حديدياً، وحتى الآن يمشي بادي الجد، منتصباً رزيناً كالغرنوق على سطح مستنقع، لا تسمع منه نكتة، ولا كلمة مرحة، فهوليس إلا قطعة من الجهامة العارية لابسة بنطلوناً، وليس انساناً.

حذره ناغولنوف بصرامة:

– لا تمسني، يا جد، ولا تنتقل إلى الصغائر، وإلا فساتخذ اجراءات.

إلا أن العجوز استمر يقول بحرارة مبتسماً بهناءة، غير قادر أن يكبح لهفته الى الخطابة.

– انا لا امسك إطلاقاً، ولو بقدر ضئيل! هذا كوندرات ماذا تستطيع أن تفعل معه، حين يركب القلم وكانه صهوة حصان، ويسير به، ويكتب أو يحسب دائماً، وكانما لا احد غيره يكتب ويحسب. بينما الاذكياء في موسكو حسبوا وكتبوا كل شيء منذ زمان، ولا حاجة لأن يتعب دماغه! شغله أن يدير ذيول الثيران، لا أن يتخبط كالأحمق حيث يوجد المتعلمون جداً في موسكو... اعتقد، ايها المواطنون

والعجائز العزيزات انه يفعل كل ذلك لنقص كبير في وعيه العقلي. لحد الآن يفتقر صاحبنا كوندرات إلى التطور السياسي، وما دام يفتقر إلى التطور، ولم يصل إليه فليقعد في بيته، ويطور نفسه قليلا، ولا يستعجل في التسلل إلى الحزب الآن. أنا ضد دخوله قطعياً، واعارضه كلياً، حتى ولو مات كمداً.

وفي تلك اللحظة سمع دافيدوف من الصف المجاور صوت فاريا خارلامونا العالي المرتجف، وكان قد مضى وقت طويل دون أن يرى هذه الفتاة، ولم يسمع صوتها الحلو العميق...

– تسمحون لي ان اتكلم؟

فقال ناغولنوف مقترحاً:

– تعالي إلى هنا، حتى يراك الجميع.

تقدمت فاريوخا – غاريوخا من الطاولة شاقة طريقها بجسارة خلال الجمع المحتشد، وسوت شعرها على علبائها بلمسة خفيفة من يديها الملوحتين.

نظر دافيدوف إليها بدهشة هادئة، وابتسم غير مصدق عينيه. لقد لحقت فاريا أن تتغير خلال بضعة أشهر تغيراً لا تعرف به. لم تعد بنتاً غير متناسقة، بل فتاة ممشوقة. مع شمرة راس فخور، وعقصة غزيرة من شعرها المضموم بمنديل أزرق، وقفت مستديرة نحو طاولة الرئاسة نصف استدارة، وانتظرت حتى يسود الهدوء، وهي تنظر إلى نقطة فوق رؤوس الجالسين في زحمة، مقلصة عينيها الجميلتين، وكأنما تحدق في آماد السهب البعيدة، حتى راح دافيدوف يفكر: «كم احاولت منذ الربيع!».

إلتمعت عينا فاريوخا باستثارة، والتمع ايضاً وجهها العرق المتورد الذي لا يعرف البودرة ولا عطر الوجه. ولكن الشجاعة غيرتها، وهي تحت الأنظار العديدة الشاخصة. كانت يداها، تضغطان بتشنج على منديل صغير مؤطر بالمخرمات، وتوهج وجهها بحمرة كثيفة، واخذ صوتها الصدري يرتعش من الانفعال، حين أخذت تتحدث مخاطبة شوكار.

– كلامك غير صحيح، ياجد! أسأت الكلام عن الرفيق

كوندرات خريستوفوريتش مايدانيكوف، ولا احد يصدقك بانه غير مؤهل للانضمام إلى الحزب! منذ الربيع عملت معه في الحراثة، وقد حرث احسن واكثر من الجميع! إنه يضع كل قوته في العمل الكولخوزي، بينما انت تقف ضده... انت رجل كبير السن، ولكنك تفكر مثل طفل لا يفهم!

قال بافل ليوبشكين بصوت عالي النبرة مترع دون ان يوتر اوتاره:

– كيلي له، يا فاركا! والا فانه يطنطن كالجرس في رقبة العجلة، ولا نسمع منه كلمة طيبة عن الآخرين.

وقال العجوز بيسخليبتوف:

– كلام فاركا صحيح. لكوندرات ايام عمل اكثر من جميع الكولخوزيين، إنه قوزاقي كدود!

صاح شخص من الفناء، بصوت مزكوم عالي النبرة:

– اذا كان اشخاص مثل كوندرات لا يقبلون في الحزب اذن سجلوا الجد شوكار فيه. الكولخوز في وجوده يصعد إلى القمة حالا...

إلا أن الجد شوكار اكتفى بأن ضحك بتلطف في لحيته الشعثاء التي لم تمشط منذ وقت طويل، ووقف وراء المقعد كالمتغرس في الأرض، بل ولم يلتفت الى اصوات المتكلمين. وحين عاد الهدوء مرة أخرى قال بهدوء:

– حتى وجود فاركا هنا غير مقبول، لأنها بنت قاصرة. عليها ان تلعب في دمية تحت سقيفة من السقائف، بينما هذه العصفورة جاءت إلى هنا تعلم العقل والرشاد لشيوخ حكماء مثلي. الحياة صارت فوضى وانقلبت بالعكس. صارت البيضة تعلم الدجاجة... والآخرون ايضاً تكلموا درراً. احدهم يناقش في ايام العمل، ويقول إنها تسع عربة واكثر... أسالكم: ما علاقة ايام العمل هنا؟ هذه أيضاً من الطمع، المالكون الصغار دائماً طماعون، اذا كنتم تحبون ان تعرفوا، وقد حدثني بذلك عزيزي ماكار اكثر من مرة... وآخر طلع احمق ليقول خذوا شوكار إلى الحزب، وسيتنفس الكولخوز الصعداء على الفور... ولا داعي للضحك على الاطلاق،

فالمسوسون فقط يمكن أن يضحكوا، وينصبوا مجالس الأنس. هل أنا متعلم؟ أكيد! اكتب كل شيء، واوقع بطلاقة. هل اوافق على نظام الحزب الداخلي؟ نعم، واكثر! موافق على المنهاج؟ موافق ولا شيء لي ضده. وهل استطيع أن اقطع المشوار من الاشتراكية الى الشيوعية، اجل وساركض ركضاً، ضمن قدراتي الشيخوخية، بالطبع، وليس بسرعة تقطع الأنفاس. كان من الممكن أن اكون قد تفتحت في الحزب منذ زمان، وصرت أحمل محفظة تحت ابطي، على ما أظن ولكنني، أيها المواطنون والعجائز العزيزات اصدقكم القول، أمام الله وامامكم، انني ما ازال غير مؤهل لحزبنا... وقد تسألون: لماذا؟ لأن الديانة، عليها اللعنة، نخرتني! ما أن يهدر رعد في الأعالي حتى اهمس: «يا الهي، ارحمني، أنا الخاطئ!» وارسم علامة الصليب فوراً مصلياً للسيد المسيح ولمريم العذراء، ولروح القدس، ولكل القديسين الذين أتذكرهم، اصلي لهم على التوالي، بل واقعد نصف قعود خوفاً من هذا الرعد المزعج...

وهم الجد شوكار بان يرسم علامة الصليب متأثراً بقصته، بل ورفع يده إلى جبينه، ولكنه غير رأيه في الوقت المناسب، وحك جبينه بدلا من ذلك، وكركر بارتباك:

– نعم، اذا صح القول... حين يصدمني الرعب اتخيل مختلف الاشياء «فمن يدري ما سيفكر النبي ايليا في اللحظة التالية! فقد يفكر للفرقشة أن يضربك بصاعقة من البرق على صلعتك، يا شوكار، فتخر صريعاً ملقياً يديك ورجليك على كل الجوانب. وهذا ما أنا في غنى عنه! فأنا لا ازال أريد الوصول الى الشيوعية، وبلوغ الحياة الحلوة، لأنه أحياناً، حين تلزمني الحاجة، اصلي واتبرع للقس بفلس أو فلسين لا اكثر، حتى لا اثير غضب الله بلا فائدة. فانت تتصور أن المسألة مأمونة، ولكن يطلع لك ما لا يعرفه إلا الشيطان، فلا تعرف هل سيدار لك الوجه او البطانة... انت تأمل بأن القس سيدعو لك، أيها الأحمق، بالصحة والعافية، ولكن حاجة القس اليك اذا تروّيت في الأمر، مثل

حاجة القحبة أو المومس، بالكلام الفصيح، إلى الميت. لأن القس اللعين ينوي أن يحتسي الفودكا بفلوسك، لا أن يصلي للرب. والآن اشرح لكم: كيف أتسلل، اذن، بديانتي اللعينة هذه إلى الحزب؟ لاشوه عزيزنا هذا، ونفسي، والبرنامج؟ لا، أبداً، اعفوني من هذه المعصية! أنا في غنى عن ذلك، واعلنه بشكل قاطع.

صاح رازميوتنوف:

– يا جد، انحرفت مرة اخرى عن الجادة! سر عليها ولا تمل على الجانبين!

رفع شوكار ذراعه في الرد عليه محذراً:

– سأنتهي حالا، يا اندريوشكا! ولكن لا تقاطعني بهتافاتك الخرقاء، والا فلن انتهي الى نهاية، أبداً. اجلس، واستمع إلى عبارتي الذكية بهدوء، واحفظها، فانها ستنفعك في حياتك. طوال عمري لا انحرف في كلامي، هذا لا يحصل لي، بينما انت وماكاروشكا فتصيحان علي بأن اتوب، مثل شماس من مقام جوقة المرتلين، فطبيعي أن انحرف قليلا عن تسلسل افكاري. إذن، اقول إنني في كل الاحوال، ولو كنت غير حزبي سأصل إلى الشيوعية، وليس كهذا المبلل بدموعه كوندرات، سأصل إليها راقصاً طروباً، لانني بروليتاري نقي ولست مالكاً صغيراً، واقول لكم بصراحة! والبروليتاري كما قرأت في أحد الكتب لا يفقد غير سلاسله، وبالطبع ليس لي غير السلسلة العتيقة التي كنت اربط بها الكلب، حين كنت اعيش في عز، ولكن لي إمرأة عجوزاً، وهي، أيها الاخوان، اسوأ من كل السلاسل واصفاد المحكومين بالاشغال الشاقة... ولكنني حتى إمراتي العجوز لا انوي أن افقدها فلتعش معي، والله معها، ولكنها اذا ستعيقني وتقف حجر عثرة في طريقي المستقيم إلى الشيوعية، فانني سأمرق منها بحيث لا تلحق أن تصدر آهة! وكونوا مطمئنين على ذلك! فانا رجل شديد العناد، حين اتهيج، فلا يستطيع أحد أن يوقفني! فاما أن ادوس عليه فيموت، واما أن امرق به، فلا يستطيع حتى أن يرف بعينيه!

أعلن ناغولنوف بحزم، وهو يضرب الطاولة بكفه:

– أنه كلامك، يا جد، ساحرمك من الكلام!

– سأنتهي حالا، يا ماكاروشكا! لا تضرب كثيراً، فستؤذي كفك. طيب، ما الذي اقوله: ما دمتم جميعاً إلى جانب كوندرات، عفا الله عنه، اقبلوه في حزبنا. إنه شاب محترم وشغال، كنت دائماً أقول ذلك. واذا فكرنا بشكل صحيح، وفحصنا كل شيء بالتدقيق فان كوندرات يجب ان يدخل حزبنا بالتأكيد، وانا اعلن ذلك بشكل قطعي. إن كوندرات، مؤهل كلياً إلى ان يكون حزبياً. وهذه كل حكايتي.

سأل رازميوتنوف:

– في البداية قرات الفاتحة على روحه، وفي النهاية تمنيت له الصحة؟

ولكن الضحك الشامل غطى على كلماته، فلم يسمعها احد تقريباً.

وحط الجد شوكار على المقعد تعباً راضياً كل الرضى عن خطبته، ومسح صلعته العرقة بكمه، وسأل انتيب غراب القيظ الجالس الى جانبه:

– يعني انتقدت... جيداً؟

وبدلا من ان يجيبه انتيب نصحه همساً:

– انضم الى الفنانين، يا جد.

أحول شوكار عينه نحو جاره مرتاباً، ولكنه لم يلحظ البسمة المخفية في لحيته الفاحمة.

– وما الموجب الى ان انضم اليهم؟

– ستغرف الفلوس بالمغرفة، وليس بها فقط، بل بالمجرفة. كل شغلك هنا لا يتعدى اضحاك الناس! تضحكهم بالقصص المسلية، اكذب أكثر ما يمكن، واغرب أكبر ما يمكن، وهذا كل عملك. تحصل على فلوس دون توسيخ يديك.

ظهر الانتعاش على الجد شوكار، وتململ على المقعد، وأخذ يبتسم.

– يا لطفك، يا انتيب العزيز! ليكن في بالك ان شوكار لن يفشل في شيء! وهو لا يطلق كلمة جزافاً، بل يصيب

العظم، ولا يخطأ الهدف أبداً! وماذا تتصور؟ في اسوا الاحوال، حين تخونني الشيخوخة تماماً يمكن ان اصير فناناً ايضاً. فانا منذ شبابي متفنن في هذه المتنوعات، والآن بشكل خاص. هذه توافه.

ومضغ العجوز بفمه الأهرت مستغرقاً في تفكير، وسكت مقلباً في فكره شيئاً ما، ثم سأل:

– الم يصادف ان سمعت كم يدفعون للفنانين؟ بالقطعة ام كيف؟ باختصار اي راتب يخصص للشخص؟ يمكن ان تغرف الفلوس بالمجرفة، ولكن لا قيمة لها، ولو ان الفلس على الفلس يصير مالا عند المقتر.

– يدفعون على التقليعة ومسك الختام، وكيف تؤثر في الناس، – همس انتيب كالمتآمر – كلما تفننت في مسك الختام وتحركت اكثر قبضت راتباً اكبر. ان اولئك، يا اخ، لا يعرفون غير الاكل والشرب والطواف في المدن. حياتهم خفيفة، ويمكن ان يقال وطيارة.

– لنخرج الى الفناء، يا انتيب، لندخن، – اقترح شوكار، وقد فقد حالا اي اهتمام بالإجتماع.

خرجا من الصف شاقين طريقهم بصعوبة خلال الحشد الكثيف، وجلسا قرب السياج على الأرض التي ادفأتها الشمس، واشعلا سيكارتيهما.

– وهل صادف ان رايت هؤلاء الفنانين، يا انتيب؟

– كثيراً. عندما كنت اخدم في الجيش العامل في مدينة غرودنو، كنت أرى الكثير والكثير منهم.

– طيب، وكيف هم؟

– اعتياديون؟

– هل كانوا يبدون شبعانين؟

– كالخنازير المسمنة.

تنهد شوكار:

– يعني الأكل عندهم وفير شتاء وصيفاً؟

– إلى حد التخمة.

– وكيف أصل اليهم؟

– سافر إلى روستوف. ولا اقرب من ذلك.

– ليس بعيداً جداً... ولماذا لم تلمح لي من قبل إلى هذا المورد السهل؟ ربما كنت في وظيفة منذ زمان؟ فانت تعرف انني شديد الاقتدار على العمل السهل، ولو في الفن، ولكنني لا اقدر على العمل الصعب في الزراعة بسبب الفتق الذي اعاني منه. حرمتني من لقمة عيش سهلة! دماغ ناشف انت وليس انساناً.

قال شوكار ذلك في استياء عظيم.

فدافع انتيب قائلاً:

– لم يسنح لي الحديث في ذلك.

– كان عليك أن تذكرني بذلك منذ زمان، اذن. لكنت اتمرغ الآن بين الفنانين منذ زمان. وحين اجيء إلى عجوزتي في الإجازة، تجدني اضع على مائدتك زجاجة فودكا في لمحة عين لقاء نصيحتك الحلوة! فاكون انا شبعان وانت سكران، وتكون الأمور حسب الاصول. آه، انتيب، انتيب!.. ضيعنا شغلة نافعة! اليوم يجب علي ان اتشاور مع العجوز، فلربما في الشتاء اخرج لكسب الرزق. سيسمح لي دافيدوف، والفلوس التي ساكسبها ستنفعني في الزراعة. اشتري بقرة، وحوالى عشر غنمات وخنانيص، واصير في غاية الأنس.– راح الجد شوكار يوغل في الاحلام بدون عائق مشجعاً بصمت انتيب المتعاطف، فمضى يقول: – ويجب ان اعترف بانني سئمت من الخيول، وسوق العربات في الشتاء، لا يناسبني. فقد صرت هشاً، لا اتحمل البرد. وباختصار تضعضعت صحتي. ما ان اجلس ساعة في الزلاجة حتى ينفذ البرد إلى مصارييني. ومن السهل ان تتشربك في داخلي اذا طال الوقت، او اصاب بالتهاب عصب العصعوص، كما حدث للمرحوم خاريتون. وانا في غنى عن هذا كله! فان امامي اشغالا كثيرة لا تزال، ولكنني سأصل إلى الشيوعية حتى ولو ان انطبق صدري على رجلي!

تعب انتيب من تسلية نفسه مع هذا العجوز الواثق بشكل طفولي، فقرر أن يختم ذلك بنكتة:

– يجب ان تفكر جيداً، يا جد، قبل الالتحاق بالفنانين.

فاعلن الجد شوكار بثقة في النفس:

– ولا حاجة إلى التفكير. ما دامت الفلوس هناك سهلة ساكون هناك في الشتاء. وهل تعتبرها صعبة تسلية الناس الطيبين، ورواية انواع الحكايات لهم.

– احياناً توجد فلوس لا تحب أن تؤخذ...

– ولم ذاك؟ – سأل شوكار متوجساً.

– الفنانون يضربون.

– يضربون؟ من يضربهم؟

– الناس، الذين يدفعون ثمن التذاكر.

– ولماذا يضربونهم؟

– طيب، لا تروق لهم كلمة قالها الفنان، لا تكون على ذوقهم، أو تكون الحكاية التي يروونها مضجرة، فيضربونه.

– آها... طيب... يضربون بشكل جدي، او مجرد مزاح... للتخويف...

– اي مزاح! يضربونه احياناً بحيث ياخذون المسكين بعد العرض الى المستشفى رأساً، واحياناً اخرى الى المقبرة. في العهد البائد رأيت أمام عيني فناناً في السيرك يعضون اذنه ليقطعوها، ويلوون له رجله الخلفية فتصير الاصابع الى الوراء، والأخمص الى الامام. فعاد البائس بهذا الشكل الى بيته.

– على مهلك، انتظر! كيف رجله الخلفية؟ هل كان على الاربع، أم كيف؟

– يوجد كل شيء... يصنعون كل شيء للتسلية. ولكنني اخطات، اردت ان اقول: الرجل اليسرى الامامية، وباختصار قلبوا رجله اليسرى بالعكس، فراح يسير واخمصه الى الامام، فانت لا تعرف الى اي جهة تسير. ثم اي زعيق زعق، ذلك العفريت المسكين! سمعته المدينة كلها! راح يصفر كالقاطرة، فجعل شعر راسي يقف!

القى شوكار نظرة طويلة متفحصة الى وجه انتيب الجاد، بل والمتجهم بسبب الذكريات المزعجة على ما يبدو، ثم

راح يتأكد من حقيقة ما رواه انتيب، فسأل مستاء:
– واين كانت الشرطة، عليها الطاعون! كيف راحت تتفرج على هذا المنظر؟
– الشرطة نفسها اشتركت في الضرب. رأيت بنفسي أحد افراد الشرطة يمسك باليد اليسرى صفارة ويصفر بها، وباليد اليمنى يقبض على رقبة الفنان بشدة.
– يا انتيب العزيز، في عهد القيصر يمكن أن يحدث هذا، اما في عهد السلطة السوفيتية فلا يحق للميلشيا ان تتخانق.
– الميلشيا لا تمس المواطنين العاديين بالطبع، ولكنها تضرب الفنانين، على أية حال، هذا مسموح به. هذا ما جرت عليه العادة منذ القدم، ولا تغيير فيه.
قلص الجد شوكار عينيه مرتابا.
– أنت تكذب، يا غراب القيظ اللعين! لا استطيع التصديق بك... طيب، من اين يمكن ان تعرف ان الفنانين يضربون الآن ايضاً؟ منذ ثلاثين عاماً وانت لم تنزل الى مدينة، ولا تخرج من العزبة أبداً، فمن اين تعرف كل هذا؟
أكد انتيب له قائلا:
– عندي ابن أخ يعيش في نوفوتشركاسك، فيخبرني في رسائله عن حياة المدينة.
فعاد الجد شوكار الى تردده:
– أوه، اي ابن اخ هذا، – وارسل زفرة عميقة، واربد وجهه – عقبة غير متوقعة، يا انتيب العزيز... مجازفة ان يصير الانسان فناناً على ما يبدو... اذا كان الناس، بالفعل يصلون الى حد القتل، فانا في غنى عن ذلك تماماً... فلتذهب الى جحيم تلك الحياة المسلية!
– ولهذا احذرك لكل طارئ. تشاور أولا مع عجوزك وبعد ذلك اعزم امرك.
اجاب الجد شوكار:
– لا علاقة للعجوز بهذا الأمر. فليست هي التي ستعجن. فلماذا اتشاور معها؟

– عندئذ قرر بنفسك. – ونهض انتيب من الأرض، وداس السيكارة بقدمه.
– لا حاجة بي الى الاستعجال، كما ان الشتاء مايزال بعيداً، ويؤسفني أن أترك الخيول، اذا اردت الحقيقة، والعجوز ستستوحش اذا بقيت وحدها... لا، يا انتيب، دع الفنانين يدبرون امورهم بدوني.. واللعنة على هذه الموارد السهلة! ثم أنها ليست سهلة كثيراً، اذا فكرت في جد. اذا كانوا سيضربونك كل يوم بما وقع في ايديهم، والميلشيا نفسها تستخدم قبضاتها معك بدلا من ان تساعدك، فمع الشكر الجزيل! كلوا هذه الاطايب انتم! شبعت من جور من هب ودب منذ الصغر! تآمر علي الوز والثيران والكلاب وكل ما خلق الله. ووصل الأمر الى حد أن الاطفال ايضاً راحوا يتجاوزون علي. فما رايك في هذه الحلاوة؟ أما أن أضرب مع الفنانين في آخر عمري، أو يلوى أحد اطرافي بالعكس، فلا ومع الشكر الجزيل! لا احب، وهذا كل ما في الأمر! الافضل أن نذهب الى الاجتماع، يا انتيب العزيز، فهناك الأمان والأنس، واترك الفنانين أنفسهم يفكرون في أنفسهم. فهم، على ما اعتقد، شبان أصحاء، عفاريت. كلما ضربوا زادهم الضرب سمنة. بينما انا عجوز، خسارة أن الطعام هناك كثير، ولكن اذا ما كالوا الي الضرب مرة أو مرتين فسأسلم الروح الى باريها. فما نفع الطعام الطيب لي والحال كهذه؟ أولئك الحمقى الذين يضربون الفنانين المساكين سيدوسون على خناقي. لا أريد أن أكون فناناً، فلا حاجة الى أن تغريني في هذا بعد الآن، ايها الشيطان المغفرت، واترك ماتحاوله كلياً والى الأبد. عندما ذكرت لي قبل حين، واثناء الحديث، أن احد الحمقى المجانين عض اذن فنان وقطعها، ولوى قدمه، وضربه ضرباً مبرحاً، صارت اذناي توجعانني، وقدماي تئنان علي، وكل عظامي تؤلمني، وكأنما انا الذي ضربوني، وعضوا اذني، وضعضعوني، كما يريدون... انا اتنرفز كثيراً من هذه الحكايات الوحشية، وكأنني اصاب برجة عصبية... فاذهب، بحق الرب، الى

الاجتماع وحدك الآن، وساستريح انا هنا قليلا، واهدىء نفسي، واضبط اعصابي، وبعدها اذهب لأرفع اعراضا ضد دوبتسوف. أما الآن فلا استطيع ان اخطب، الآن يا انتيب، اشعر بقشعريرة صغيرة في ظهري، وارتعاش في ركبتي، الرجفة، عليها اللعنة، تمنعني من ان اقف بثبات...

واخذ شوكار يلف سيكارة جديدة. وبالفعل كانت يداه ترتجفان، وقطع التبغ المنزلي الكبيرة تتساقط من قصاصة الجريدة الملفوفة وكان وجهه يتلوى دامعاً. نظر انتيب الى شوكار بشفقة مصطنعة:

– لم أدر، يا جد، انك شديد الحساسية بهذا الشكل، والا لما حدثتك عن حياة الفنانين المريرة... لا، ياجد، انت لا تصلح ان تكون فناناً. اقعد فوق الفرن الدافيء، ولا تطارد الفلوس، ولا يجوز لك ان تترك العجوز وقتاً طويلا. يجب ان تشفق على شيخوختها.

– بالضبط، ستفرح، حين ساقول لها انني بسببها ارفض السفر لأصير فناناً! ستشكرني شكراً لا حد له!

وابتسم الجد شوكار بحنان، وهز راسه، متذوقاً مقدماً الارتياح الذي سيحصل عليه ويوفره لعجوزه، حين يخبرها بهذا النبأ السار جداً. ولكن عاصفة كانت في انتظاره...

لم يكن العجوز يعرف أن صديقه المخلص ماكار ناغولنوف أرسل قبل نصف ساعة احد الشبان الى زوجة شوكار يؤمرها أمراً باتاً بان تاتي الى المدرسة، وتاخذ العجوز الى البيت باية حجة كانت.

– زوجتك العجوز بنت حلال، جاءت حين ذكرت! – قال انتيب غراب القيظ مبتسماً على المكشوف، وحمحم مرتاحاً.

رفع الجد شوكار راسه. فزالت البسمة عن وجهه وكأنها مسحت بممسحة! كانت العجوز مقبلة عليه قدماً، متجهمة الوجه، عاقدة العزم، ممتلئة بصرامة اصحاب الأمر والنهي.

همس الجد شوكار ذاهلا:

– طاعون طعنها... من أين جاءت، الملعونة؟ كانت

طريحة الفراش لاترفع راسها، واذا بها تاتيك بنفسها. اي طاعون جاء بها؟

– تعال للبيت، يا جد – امرت العجوز عقيلها بصوت لا يقبل الاعتراض.

نظر الجد شوكار اليها كالمسحور من تحت الى فوق، وهو في جلسته على الأرض، نظر اليها نظرة الأرنب المقنوص. واخيراً قال بخفوت:

– الاجتماع لم ينته بعد، يا عزيزتي، ويجب ان اخطب فيه. رجتني رئاسة عزبتنا رجاء حاراً بان اخطب هناك.

ولكن الفواق امسك به.

– سيدبرون امورهم بدونك، لنذهب! هناك اشغال في البيت.

كانت العجوز اطول قامة من زوجها بشبر، وامتن منه بمرتين. امسكت العجوز من يده بسطوة، واوقفته على قدميه بحركة واحدة بسهولة. افاق الجد شوكار على نفسه، وضرب الأرض بقدمه ساخطاً:

– طيب، لن اذهب! ليس لك اي حق ان تجردني من صوتي! هذا ليس العهد البائد!

استدارت العجوز دون ان تنطق بكلمة واحدة أخرى، وسارت نحو البيت بخطوات واسعة، وهي تجر الى جانبها الجد شوكار، حيث كان يسير بخطوات قصيرة متسارعة ويمانع أحياناً، ومجمل منظره كان ينطق بالخنوع الأعمى للقدر، دون حاجة الى الكلمات.

وكان انتيب غراب القيظ ينظر في اثره ويضحك بصمت. ولكنه كان يفكر، حين كان يصعد درجات مدخل البيت: «ماذا لو يموت العجوز، لا سمح الله، سيصيب الضجر العزبة بدونه!»

الفصل الثالث والعشرون

حالما غادر الجد شوكار المدرسة حتى اتخذ الاجتماع طابعاً آخر تماماً. جاءت خطب الكولخوزيين جادة غير مقطوعة

بنوبات الضحك المفاجئة، وهم يناقشون ترشيح دوبتسوف، وبعد ذلك، ووسط دهشة الجميع تكلم الحداد ايبوليت شالي، وساد الاجتماع لبضع دقائق صمت يشبه الصمت الذي يسبق العاصفة.

وكانت جميع طلبات المرشحين الى الانضمام للحزب قد نوقشت من كل النواحي، وقبل المرشحون الثلاثة جميعهم باجماع الاصوات كمرشحين لعضوية الحزب، بتصويت علني، على ان يمضوا فترة ستة اشهر من الاختبار، حين طلب العجوز شالي الكلام. نهض من المقعد الذي كان ملاصقاً للنافذة، واتكأ بظهره العريض على اطار النافذة، وسأل:

– هل من الممكن ان اطرح سؤالا واحداً على مدير شؤوننا الاقتصادية ياكوف لوكيتش؟

– حتى ولو سؤالين، – سمح له ماكار ناغولنوف على الفور، وقد نشط منشرحاً.

التفت ياكوف لوكيتش الى شالي مكرهاً، وقد جمد على وجهه تعبير ترقب مجهد.

– ها هم اناس يدخلون الحزب، لا يريدون أن يعيشوا بالقرب منه، بل في داخله، يقاسمونه الفرح والترح، – بدأ شالي يتكلم بصوت عالي النبرة مخنوق، غير صارف عينيه السوداوين الجاحظتين عن ياكوف لوكيتش – فلماذا لا تنضم الى الحزب، يالوكيتش؟ اريد أن اسالك بصراحة: لماذا تبقى جانباً؟ أم انه لايعنيك ابداً ان الحزب كالسمكة التي تضرب الجليد، يسير بنا الى حياة افضل؟ وانت ماذا تفعل؟ تريد ان تبقى بعيداً عن الأعمال الشديدة محتمياً في الطراوة، تنتظر ان يكسب لك الخبز، ويسحق، ويوضع في فمك. اهذا ما تريده؟ اي شخص انت؟ رائع حقاً، وامثولة يحتذيها الناس... كل اهل العزبة، اذا اردت ان تعرف!

أجاب اوستروفنوف بحيوية:

– أنا اكسب خبزي بنفسي، ولم اطلب منك بعد.

ولكن شالي دفع ذراعه بقوة، وكأنه يزيح هذه الملاحظة غير الجدية، وقال:

– يمكنك أن تكسب الخبز لغذائك بطرق مختلفة: كأن تضع كيساً على كتفك، وتخرج للتسول على باب الله، وبهذه الطريقة ايضاً لا تموت من الجوع. ولكنني لا أتكلم عن هذا، فلا تتلو، يا لوكيتش، كالصل تحت استان المذراة. انت تعرف عم اتكلم! في الماضي، حين كنا نعمل افراداً، كنت شديداً في العمل، تمسك بأي شغل بشراهة الذئب، وبدون هوادة، فقط أن يأتيك فلس زيادة من مكان ما، اما الآن فتعمل رخو اليدين، للمظهر، ولصرف الانظار عنك... ولكن انا لا اتكلم عن هذا، لم يحن بعد الأوان لمحاسبتك امام الناس على عملك السهل وحياتك المعوجة، وسيأتي الوقت الذي ستحاسب فيه! ولكن الآن قل: لم لا تنضم الى الحزب؟

– لست متعلماً بالقدر الذي يجعلني أنضم الى الحزب، – أجاب اوستروفنوف بخفوت شديد، بحيث لم يسمع ما قاله الا الجالسون على مقربة منه.

صاح شخص من الخلف بلهجة المطالب:

– تكلم بصوت اعلى! لم نسمع ما دمدمت به هناك! كرر ماقلت!

صمت ياكوف لوكيتش طويلا، وكأنما لم يسمع بالطلب الموجه اليه. ولم يتردد في الصمت المترقب السائد غير تقيق الضفادع المتعدد الأصوات والمتساوق في الوقت ذاته في الجدول الداكن الناعس، وصوات البوم من مكان بعيد، لعله في الطاحونة الهوائية القديمة خارج العزبة، وصفير طيور الليل في اجمات الاقاصيا الخضراء وراء النافذة.

ولم يعد الاستمرار في الصمت مقبولا، فاعاد اوستروفنوف ماقاله بصوت اعلى بمقدار كبير:

– لست متعلماً كثيراً لأكون في الحزب.

فسأل شالي من جديد:

– انت متعلم لتكون مديراً للشؤون الاقتصادية، ولا لتكون في الحزب؟

– في الأول زراعة، وفي الثاني سياسة. واذا كنت لا

تفهم هذا الفارق، فانا افهمه، – قال ياكوف لوكيتش بوضوح ورتين وقد تغلب على المباغتة.

ولكن شالي لم يكتف، وقال بضحكة ساخرة:

– ولكن شيوعيينا يمارسون الزراعة والسياسة معاً، وانت تعرف كيف يتجلون فيهما! ولا تضر احداهما بالاخرى. انت تراوغ، يا لوكيتش، ولا تقول ما في قلبك... تريد ان تحوم حول الحقيقة، ولهذا تراوغ.

اجاب اوسترووفنوف بصوت كامد:

– ليس لي ما اراوغ فيه، ولا حاجة بي الى ذلك.

– لا، انت تراوغ! انت لا تريد الانضمام الى الحزب بسبب ما تخفي من افكار... وقد اكون على خطأ. فصلح لي، صلح لي!

وكان قد مضى على عقد الاجتماع اربع ساعات، وصار الجو في المدرسة خانقاً لا يطاق، رغم طراوة المساء. كانت بعض مصابيح الطاولة ترسل اضواءها الشاحبة في الممر والصفوف، ولكن الهواء يبدو بوجودها اكثر احتباساً. ومع ذلك فقد جلس الناس المتصببون بالعرق بلا حراك، يراقبون في صمت وتوتر تلك المبارزة الكلامية التي نشأت بين الحداد العجوز واوسترووفنوف بشكل مفاجئ، شاعرين بأن كل هذا يخفي شيئاً خفياً مثقلاً وغامضاً...

– واي افكار يمكن ان اخفي؟ قلها، اذا كنت عليماً بكل شيء، – مضى اوسترووفنوف يقول، وقد استعاد الهدوء الذي خذله، وانتقل من الدفاع الى الهجوم.

– تحدث بنفسك، يا لوكيتش. فعلى اي اساس، ولاي شيء اتحدث نيابة عنك؟

– ليس عندي ما اتحدث به اليك!

– ليس الي، بل الى الناس... تحدث الى الناس.

– لم يسألني احد عن شيء ما عداك.

– يكفي ان اسالك انا. يعني لا تريد ان تتكلم. طيب، لا بأس، سننتظر، وستتكلم على اية حال، ان لم يكن اليوم فغداً.

– ما هذا التحرش بي، يا ايبوليت؟ انت نفسك لماذا

لا تنضم الى الحزب؟ تحدث عن نفسك، ولا حاجة الى انتزاع الاعتراف مني، فانت لست قساً!

– ومن قال لك انني لا انضم الى الحزب؟ – سأل شالي ببطء، مشدداً على الكلمات بتطويلها، دون ان يغير وضعيته.

– لست في الحزب، يعني لا تريد الانضمام اليه.

تنحنح شالي، دفع جسمه بكتفه عن اطار النافذة. وتراجع اهل العزبة امامه جميعاً، فراح يسير نحو منضدة الرئاسة مدحدحاً غير عجول، قائلا اثناء سيره:

– لم انضم من قبل. هذا صحيح. ولكنني انضم الآن. اذا كنت لا تنضم انت، يا ياكوف لوكيتش، فمعنى ذلك ان علي ان انضم. ولكنك لو كنت قد قدمت طلباً اليوم لامتنعت انا عن الانضمام. فانا وانت لا يجمعنا حزب واحد! نحن من حزبين مختلفين...

سكت اوسترووفنوف، مبتسماً ابتسامة لا هوية لها، بينما تقدم شالي من المنضدة، والتقى بنظرة دافيدوف النافذة اللامعة، وقال وهو يمد عريضة شخبطت على ورقة صغيرة قديمة مصفرة:

– ولكن ليس لي من يصادق على ترشيحي. ويجب ان نجد طريقة لتلافي هذا الوضع... من منكم، يافتيان، يصادق على ترشيحي؟ هاكم اكتبوا!

ولكن دافيدوف كان قد كتب توصية بعجالة وبحروف كبيرة. وبعد ذلك تناول ناغولنوف قلم الحبر منه.

وقبل ايبوليت شالي في الحزب باجماع الاصوات. وبعد التصويت أخذ شيوعيو خلية غريمياتشي يصفقون له، وقد نهضوا من اماكنهم، وبعدهم نهض جميع الحاضرين في الاجتماع مصفقين بتفرق وبلا انتظام باكفهم المعقدة المتصلبة من العمل.

وقف شالي رامشاً بتأثر. وبدا وكأنه يتعرف من جديد، بعينيه النديتين، على وجوه اهل عزبته المألوفة له منذ زمان. ولكن حين همس رازميوتنوف في اذنه: «حبذا، يا عم ايبوليت، لو قلت شيئاً مؤثراً لطيفاً للناس» دفع العجوز رأسه بشمم:

– لا حاجة الى نثر الكلمات في الريح! كما انني لا املك كلمات تشفي الغليل... هل تراهم كيف يصفقون؟ يعني انهم يفهمون كل شيء بدون ذلك، بدون كلمات زائدة.

ولكن تغيراً مذهلا حدث خلال تلك الدقائق في محيا سكرتير لجنة الخلية الحزبية ناغولنوف نفسه لا في وجوه واحد من اولئك الجدد المقبولين في الحزب. لم يحدث ان رآه دافيدوف من قبل بتلك الطلعة، فقد كان ماكار يبتسم ابتسامة عريضة وضاحة. نهض بكل قامته وراء المنضدة، وعدل قميصه العسكري بشيء من العصبية، وداعب باصابعه ابازيم حزامه الجندوي دون غاية، ورفع قدماً وحط اخرى، والاهم انه راح يبتسم كاشفاً عن اسنانه الصغيرة المتماسكة. وشفتاه اللتان كانتا مضمومتين دائماً ارتعش طرفاها، وانفرجتا فجأة في بسمة طفولية مؤثرة، فكانت غريبة جداً على وجه ماكار الصارم كوجوه الزهاد، حتى ان اوستين ريكالين كان أول من افلت، فهتف بدهشة بالغة:

– انظروا، ايها الطيبون، يبدو ان صاحبنا ماكار يبتسم! لأول مرة في حياتي ارى هذه الاعجوبة!..

فرد ناغولنوف دون ان يخفي ابتسامته:

– يا لها من لقطة! لاحظ احدهم! ولماذا لا ابتسم؟ قلبي مبتهج، فانا ابتسم. ليس حراماً. ومن يعارض؟ ايها المواطنون الاعزاء، اهالي عزيتي، اعلن اختتام الاجتماع الحزبي المفتوح. كل مواد جدول الاعمال نوقشت.

وخرج من وراء المنضدة اكثر ابتهاجاً، وقد استقام بكتفيه المستقيمتين اصلا، وقال بصوت صداح:

– بصفتي سكرتير الخلية ارجو من الرفاق الاعزاء المقبولين في حزبنا الشيوعي العظيم أن يتقدموا الي. اريد ان اهنئكم بهذا الشرف العظيم، – وضم شفتيه فعاد ماكار السابق كما كان، ونطق بصوت غير عال، ولكن فيه سلطة الأمر – تقدموا!

كان كوندرات مايدانيكوف أول المتقدمين. وكان الجالسون الى الوراء يرون قميصه المبلل بالعرق ملتصقاً

بظهره من لوحتي الكتف الى العمود الفقري. همست احدى العجائز بتعاطف: «المسكين يبدو أنه حصد نصف هكتار لوحده!» وضحك شخص آخر: «احموه بشكل لا بأس!».

احنى ناغولنوف راسه، وتناول يد كوندرات الممدودة بكفه التي نداها الانفعال، وضغط عليها بكل قوته، وقال متهللا بصوت مرتعش قليلا:

– يا رفيق! يا اخي! تهاني! تأمل جميعاً، نحن الشيوعيين، تأمل بان تكون بلشفياً نموذجياً. هذا هو المنتظر ولا يمكن غيره.

وحين تقدم ايبوليت شالي، آخرهم، بخطوة الدب، ضاحكاً بتحفظ، مربوكاً من التفات الجميع اليه ومد من بعيد يده السوداء المدعوكة بالعمل اقبل عليه ناغولنوف، وطوق بحرارة كتفي الحداد العجوز العريضتين المتحدرتين.

– ايه، يا عم ايبوليت، هل رايت ما اروعها! اهنئك من كل قلبي. وسائر فتياننا الشيوعيين يهنئونك. تمتع بالحياة والصحة والعمل في المطرقة مائة سنة أخرى لخير السلطة السوفيتية، وكولخوزنا. اتمنى لك مديد العمر، يا شيخ! فان طول العمر هذا لن يجلب الا الخير للناس، وانا واثق من ذلك!

وتصافح الاعضاء الاربعة الجدد في الحزب مع جميع الشيوعيين الآخرين، وهم يتزاحمون ويتدافعون، وكان الناس قد تجمعوا عند المدخل يتبادلون الاحاديث بحيوية، الا ان دافيدوف صاح:

– لحظة، ايها المواطنون! اسمحوا لي أن أقول بعض الكلمات.

فحذره احد المحتشدين ضاحكاً:

– هيا، يارليس، فقط ان تختصر، والا فسنختنق تماماً. حرووغرة كما في الحمام تماماً!

واخذ الكولخوزيون يجلسون من جديد في اماكنهم السابقة. وسرت همهمة مخنوقة في المدرسة لبعض الوقت، ثم هدأ كل شيء.

– أيها المواطنون الكولخوزيون، ولاسيما الكولخوزيات! اليوم، وكما لم يحدث من قبل قط، اجتمع أعضاء كولخوزنا جميعا دون أن يتغيب أي واحد منهم...

بدأ دافيدوف بهذا الشكل، ولكن ديمكا اوشاكوف قاطعه صائحا من الممر:

– انت تبدأ، يا دافيدوف، كالجد شوكار. فقد كان هذا يقول: «أيها المواطنون الاعزاء والعجائز!» وانت تشبهه، تبدأ على منواله.

فاضاف العجوز اوبنيزوف:

– هو وشوكار احدهما يتعلم من الآخر: ومن حين لآخر يردد شوكار كلمة دافيدوف الذائعة «حقيقة!» وعن قريب سيقول دافيدوف ايضا «أيها المواطنون الاعزاء والعجائز اللطيفات!»

فاذا بالمدرسة تمتلىء بضحك نابع من اعماق القلب، ولكنه هادر، حتى ان السنة اللهب في المصابيح أخذت تضطرب، واحدها خمد. وضحك دافيدوف أيضا، مغطيا بكفه العريضة فمه بسنه المفقودة، على مألوف عادته. وتاغولنوف وحده صرخ مستاء:

– ولكن ما هذا؟ لا جدية ابدا في هذا الاجتماع! اين ضيعتموها؟ أم هي خرجت مع العرق الذي نضحتموه؟!

ولكنه بصرخته هذه كانما صب الزيت في النار، فانفجر الضحك، ودوى في الصفوف كلها والممر بزخم جديد. هز ماكار يده بيأس، وأدار وجهه الى النافذة بهيئة ضجرة.

لقد كان يصعب عليه هذا التهاون الظاهر، حتى ان مشانغ وجنتيه اخذت تهتز، وارتعش حاجبه الايسر!

ولكنه وثب من مقعد كالملدوغ حين هدأ كل شيء بعد لحظة، لأن صوت الجد شوكار العالي المرتجف صدر مجددا من الصفوف الخلفية:

– اسالكم، أيها المواطنون الاعزاء والعجائز، لماذا كنت اخاطبكم بهذه الصيغة؟

وما كاد العجوز يتم عبارته حتى هدر الضحك كطلقة مدفع، فاطفأ مصباحين آخرين. وفي الظلام حطم احدهم زجاجة مصباح بالمصادفة. وشتم بقوة. وقالت احدى النساء تنجيبه:

– أوه، الجم لسانك! مسرور لأن الغرفة مظلمة ولا احد يراك، فتشتم كما تشاء، يا أحمق!

هدأ الضحك قليلا، وفي الضوء الشاحب تردد مرة اخرى صوت الجد شوكار المهتز الساخط:

– أحد الحمقى يشتم في الظلام كما يشاء، والآخرون يضحكون لسبب غير معروف... هذا لهو وليس حياة! يجعل الناس تمتنع عن الذهاب الى الاجتماعات! سأوضح لكم لماذا كنت أخاطب بهذه الصيغة: «أيها المواطنون الاعزاء والعجائز!». السبب هو ان العجائز امينات وموثوقات. ان كل عجوز، مهما كانت، هي مثل بنك الدولة لا تتلاعب ولا تحتال، وانا لا اتوقع وضاعة منهن في حياتي الهرمة. أما النساء الشابات والفتيات فلا استطيع النظر اليهن مطلقا! ولربما تسألون: لماذا؟ لأن التي دست علي طفلا ليست عجوزا محترمة، فهذا ليس من شغل العجائز، فان اية واحدة منهن، وحتى اشدهن حيوية لا تقوى على أن تنجب طفلا في هذه الدنيا! ولكن صاحبة الشغلة هي شابة لئيمة تخلقت بالعفة على حسابي، والصقت بي ابوة هذا الطفل. ولهذا تراني لا اطيق الشابات من لابسات التنورات على اختلاف اشكالهن، بل ولا استطيع ان القي عليهن نظرة بعد هذه الفعلة! يسوء مزاجي ويصير كمزاج السكران في صباح اليوم التالي، حين يقع بصري على امرأة شابة بالمصادفة! الى هذا الحد اوصلتني هؤلاء اللعينات!.. فكيف ساخاطبهن بعد الصاق الطفل بي، هل سأقول: «سيداتي العزيزات وآنساتي العفيفات» وأصفهن بما يشابه ذلك من النعوت الرقيقة؟ لا، ولن يكون ذلك!

لم يصطبر تاغولنوف، فرفع حاجبيه الى فوق، وسأل مندهشا:

– كيف جئت، يا جد؟ زوجتك أخذتك الى البيت، فكيف جئت الى هنا ثانية؟

أجاب شوكار بعجرفة:

– وماذا لو كانت قد أخذتني؟ وما علاقتك في هذا؟ هذه قضية عائلية، تخصنا، وليست قضية حزبية. أهذا مفهوم لك؟

– لا شيء مفهوم لي. يعني ما دامت قد أخذتك، فقد أخذتك لشغل من الاشغال، ويلزم أن تكون في البيت.

– كنت هناك وزغت، يا ماكاروشكا! لا أحد يلزمني، لا أنت ولا زوجتي العجوز، الى الجحيم جميعاً. حلوا عني، بحق الرب!

فسأل دافيدوف كابحاً ضحكته بكل قوته:

– كيف تحايلت، ياجد، في الخروج من البيت؟

وكان دافيدوف، في الآونة الأخيرة، غير قادر، بحضور شوكار، على الاحتفاظ بالجدية المطلوبة منه، وحتى النظر اليه لم يعفه عن الابتسام، والآن كان ينتظر الرد مقاصاً عينيه، حاجباً فمه بكفه مقدماً. فلا عجب في أن ناغولنوف، حين كانا يبقيان لوحدهما، كان يقول بضيق لايخفيه: «ما هذا الذي يحدث لك يا سيميون؟ صرت ضحوكاً كالطفلة التي تدغدغ، ولم تعد تشبه الرجل!».

تقدم شوكار الى الأمام متشجعاً بسؤال دافيدوف، وظل يحرك كتفيه بضراوة ويزيح الناس المتجمعين في الممشى مستخدماً كل طاقته وهو في طريقه الى منصة الرئاسة.

صاح ناغولنوف به:

– ياجد! لماذا تمشي على رؤوس الناس؟ تحدث من مكانك. أسمح لك بالكلام، ولكن باختصار.

توقف الجد شوكار في منتصف الطريق، وأجاب بصيحة محتدة:

– علم عجوزتك من أين جاءت بالكلام، وأما أنا فاعرف مكاني. أنت دائماً على المنبر، يا ماكاروشكا، أو تناقش من منصة الرئاسة، وتتفوه بكل التوافه، فلماذا علي أن أتحدث

الى الناس من مكان مظلم في الخلف؟ أنا لا أرى من هناك أي وجه، بل أقفية وظهوراً وغير ذلك، وما يجلس الطيبون من الناس عليه من مقاعد. فمع من سأتكلم، حسب رأيك، ومن أخاطب؟ الاقفية والظهور وما شابه ذلك؟ تعال أنت الى هنا، والق خطبك من هنا. ولكنني أريد أن أنظر في عيون الناس، حين أتحدث! هل المهمة واضحة؟ فاسكت اذن، لبعض الوقت، ولا تشتت افكاري. صارت عندك عادة مقاطعتي. ما ان افتح فمي، حتى تقذفني بالصياحات، وكأنما من مقلاع. لا، يا أخي، ليست هذه طريقة للمعاملة بيننا!

وحين وقف شوكار قبالة المنصة، محدقاً في ماكار بعين واحدة، سأله:

– هل رأيت في حياتك، يا ماكار، امرأة صرفت رجلا عن شغله لسبب ملح؟ اجبني بنزاهة!

– نادراً، ولكنه يحدث. بسبب حريق مثلا او اي مصيبة أخرى. ولكن لا تطل الاجتماع، يا شيخ، ودع دافيدوف يتكلم، ولتذهب بعد الاجتماع الى بيتي، وستتكلم هناك حتى مطلع الفجر، اذا شئت.

وكان واضحاً أن ناغولنوف، ناغولنوف الصلب، قد جنح الى التنازل، لمجرد أن يرضي الجد شوكار على نحو ما، ولا يمكنه من اطالة الاجتماع باشياء تافهة، ولكن الجد شوكار بكى، حين حصل على هذا التأثير غير المتوقع، ومسح عينه الدامعة بكمه، وصار يقول من خلال الدموع الحقيقية:

– لا فرق عندي ان أنام عندك او قرب الخيول، ولكن لا يمكن أن أذهب الى البيت اليوم، لأنني ساشتبك مع عجوزتي في معركة ضارية، ويمكن ان أصرع على عتبة بيتي بسهولة تماماً.

وأدار الجد شوكار الى دافيدوف وجهه المتغضن كالتفاحة المشوية، ومضى يقول بصوت بح فجأة:

– وأنت، يا عزيزي، سيميوشكا، تسألني كنت في البيت فكيف طلعت منه؟ وهل تتصور أن ذلك سهل؟ يجب أن اوضح للاجتماع في ثانية واحدة، وبدون تطويل، ما

يتعلق بعجوزتي المؤذية، لانني يجب أن احصل على تعاطف الناس نحوي، واذا لم احصل على هذا التعاطف، فان شوكار سيجد نفسه ملقى على الأرض الرطبة، يسلم الروح الى باريها، والى جهنم وبئس المصير! تلك هي البلية التي تتمخض عنها حياتي الشقية! قبل ساعة جاءت حبيبة القلب الى هنا، وكنت آنذاك جالساً مع اتيب غراب القيظ في الفناء، ندخن، ونتناقش في الفنانين، وحياتنا الراهنة. فاذا بهذه الملعونة تقبل علي، وتاخذني من يدي، وتسحبني وراءها، مثلما يسحب حصان معافى محراثاً واسنان المحراث غير مغروزة في الأرض. تسحبني بخفة، دون ان تلهث، وحتى دون ان تتاوه من الجهد، رغم انني اثبت قدمي في الأرض بكل قوتي.

اجل، ولعلمكم ان في الامكان شد عجوزتي الى محراث لتحرث، او لتجر حمولة ثقيلة، فما اسهل عليها ان تجرني الى حيث تريد. ان لهذه اللعينة قوة هائلة! انها قوية بشكل مرعب، كفرس الجر، لا اكذب والله! فمن غيري يعرف قوتها بكل حذافيرها، وقد جربتها على جلدي!..

جرتني وسحبتني وراءها. وماذا افعل أنا غير الطاعة؟ القوة تقهر بالقوة. واركض وراءها، واسال: «اية حاجة جعلتك تقطعينني من الاجتماع كما يقطع الرضيع من ثدي أمه؟ فان امامي مهمة هناك؟». فتقول لي: «اذهب، يا عجوز، فان احدى الصفاقات خرجت من مفصلها في النافذة، وعليك أن تثبتها، كما يجب، والا فقد تهب الريح في الليل، لا سمح الله، وتكسر نافذتنا». فما رايكم في هذه النعبة؟ واقول لنفسي: هذا ما تترجاه تماماً! فاقول لها: «وهل ستقوم القيامة حتى لا استطيع ان اصلحها غداً؟ لا بد انك فقدت عقلك، ايها البشكور العتيق؟» ولكنها تقول: «انا مريضة، واضجر ان الازم الفراش وحيدة، ولا يضرك أن تجلس بالقرب مني». وهذه القضية الثانية! فارد عليها ايضاً: «استدعي احدى العجائز لتجلس معك، حتى اعود من الاجتماع، واقدم اعراضي على اغافون دوبتسوف». فتقول:

«أحب أن تشاركني أنت لوحدك وحشتي، ولا اريد اية عجوز». وهذه هي القضية الثالثة. اقصد السخافة الثالثة التي يتعين أن ارد عليها!

فماذا افعل؟ هل يمكن ان اتحمل باختياري هذه السخرية من انسان، ام يجب أن اجلو على الفور من هذه السخافة القاهرة؟ وهذا مافعلته، اقصد جلوت من تلقاء نفسي. دخلنا البيت، وبعد تفكير قصير تسللت الى الرواق، ومنه الى مدخل البيت، ووضعت السلسلة في الباب على عجل، وانطلقت في عدو سريع الى هناء الى المدرسة! الشبابيك في بيتنا صغيرة ضيقة وعجوزي، كما تعرفون، سمينة ضخمة، ولا يمكن ان تخرج من الشباك، فستتحجز كما يتحجز خنزير سمين في فتحة سياج، وهذه قضية مجربة، فقد تعفست هناك اكثر من مرة. والعزيزة قاعدة في بيتها الآن كما كان الشيطان، في الزمن القديم، قبل ان تقوم الثورة، يقعد في المغسلة، ولا تستطيع الخروج من البيت! فليذهب من عنده رغبة ليحررها من الأسر، فمن المستحيل علي ان اقع تحت بصرها، وساقضي يوماً او يومين عند احد الناس مؤقتاً، حتى تهدأ قليلاً، ويفتر غيظها علي. فانا لست من الحماقة بحيث اجازف في مصيري، فانا عموماً في غنى عن هذه المعارك وما شابهها. فقد تقضي على حياتي في سورة الغضب، فماذا افعل بعد ذلك؟ بعد ذلك يكتب المدعي العام: كل شيء هادىء في الجبهة الغربية، وانتهى الأمر. لا. ومع الشكر الجزيل، كلوا انتم من هذه الزلابية! فان الذكي يفهم هذه المسالة حتى دون شرح، اما الأبله فسواء اشرحت له او لم تشرح فسيظل ابله الى ساعة موته.

فسال رازميوتنوف بهدوء:

– هل انتهيت، ياجد؟

– يعز علي ان أنتهي معكم. لقد تاخرت في تقديم اعراضي على اغافون، ومع ذلك فقد قبلتموه في الحزب، نعم، يمكن أن يكون هذا احسن، بل وحتى يمكن ان اكون متفقاً معكم. بخصوص العجوز اوضحت لكم على كل حال،

وأرى من عيونكم أن جميع الحاضرين هنا يتعاطفون معي كثيراً. ولا أريد أكثر من هذا! لقد تحدثت معكم بكل سرور، فلا يجوز أن أتحدث الى خيول طوال الوقت. كلامي صحيح؟ مهما يكن فهمكم قليلا، الا أنه، على اية حال، اكثر من فهم خيولي.

فأوعز ناغولنوف:

– اجلس، يا شيخ، والا فسيأخذك الحديث مرة اخرى.

وعلى عكس توقع الحاضرين سار شوكار الى مكانه صامتاً، دون أن يعارض على عادته، الا أنه ابتسم بنوع من التلطف غير الاعتيادي، والتمعت عينه الوحيدة بانتصار يجعل كل واحد، ولا بد، يرى بوضوح تام أن القادم منتصر، وليس مهزوماً. رافقوه بابتسامات ودية. وعامله جميع اهالي غريميائتشي بدف، عميم.

الا اغافون دوبتسوف وحده، فلم يفوت أن يعكر على الجد مزاجه السعيد. فحين مر شوكار به، باغافون، ممتلئاً عظمه، لوى اغافون وجهه المنمش، وهمس بحنق:

– آوه، طولت، يا عجوز... تعال نتوادع!

وقف شوكار كالمسمر، ومضغ شفتيه صامتاً لبعض الوقت، وبعد ذلك استجمع قوته، وسأل بصوت متأثر:

– بأي مناسبة، اقصد لماذا علي ان اتوادع معك؟

– لأنه لم يبق من عمرك الا الشزر القليل... بمقدار ما تأخذ نفساً وتزفره... ستكون في التابوت قبل أن تلحق مقصوصة الشعر أن تضفر لها ضفيرة من شعرها القصير...

– ولكن لماذا، يا اغافوشا؟

– بكل بساطة. هناك نية لقتلك؟

– ممن؟ – اخرج الجد شوكار هذه الكلمة بصعوبة.

– معروف ممن. من كوندرات مايدانيكوف وزوجته. وبالفعل ارسل من يجلب الفأس من بيته.

اخذت رجلا شوكار ترتجفان قليلا، فجلس الى جانب دوبتسوف الذي تنحى له بأريحية، وسأل مصعوقاً:

– ولماذا عزم على القضاء على حياتي؟

– وانت لا تحزر؟

– على الاعراض الذي رفعت ضده؟

– بالضبط! الناس دائماً يقتلون من يتفوقهم. احياناً بالفأس، واحياناً بغدارة. وانت ماذا يعجبك أكثر: أن تموت برصاصة أم تحت فأس؟

– يعجبني! أهذا كلام! ومن يمكن أن تعجبه هذه الشغلة؟! – انفجر الجد شوكار في حنق – الأحسن أن تقول لي: ماذا علي أن أفعل الآن؟ كيف أحمي نفسي من هذا الاحمق المجنون؟

– ابلغ الرئاسة ما دمت على قيد الحياة. هذا كل شيء.

– لا يوجد حل آخر، – وافق الجد شوكار بعد شيء من التفكير – سأذهب الآن لأشتكي لماكار. طيب، الا يهاب الملعون كوندرات من تحمل الاشغال الشاقة بسببي؟

– انه يقول: على شوكار لا يسجنونني اكثر من سنة، وفي اسوأ الاحتمالات لا اكثر من سنتين، والسنة والسنتين أستطيع أن اقضيهما بسهولة واتحملهما بجراة... على عجائز مثله لا يحكمون اكثر... اخف الاحكام يصدرونها على مثل هذه التوافه.

– سيبعض لسانه، ابن الكلبة! سيحصل على عشر سنين. انا اعرف ذلك حق المعرفة، – صاح الجد شوكار بشراسة.

فتلقى على ذلك تحذيراً شديداً من ناغولنوف:

– أيها العجوز اذا كنت ستزعق، مرة اخرى كالتيس الذي لم يكمل قطع رقبته بعد، فسأخرجك من الاجتماع على الفور.

فهمس دوبتسوف واعداً:

– اجلس بهدوء، يا شيخ سارافقك عند الخروج من هنا، ولن أسمح لأحد بأن يمسك.

ولكن شوكار لم يرد على ذلك بكلمة واحدة. جلس سانداً كوعيه على ركبتيه، مطأطئاً راسه كثيراً. كان يفكر في شيء ما باستغراق، ويغضن جبينه بعناد وعذاب، ثم وثب فجأة،

وانطلق نحو منضدة الرئاسة عدواً دافعاً الناس عنه، ورأى دوبتسوف الذي كان يراقبه أن العجوز انحنى على ناغولنوف، وهمس في أذنه بشيء ما مشيراً الى دوبتسوف، وبعد ذلك الى كوندرات مايدانيكوف.

وكان من الصعب اضحاك ناغولنوف، ولكن حتى هذا لم يضبط نفسه، فابتسم بطرفي شفتيه، وهز رأسه مويخاً، وهو ينظر الى دوبتسوف، واجلس شوكار الى جانبه وهمس: «اجلس هنا، ولا تتحرك، والا فستوقع نفسك في مأزق».

وبعد قليل التقط الجد شوكار المنتصر الهادىء، نظرة مايدانيكوف، وقور له من تحت كوع يده اليسرى بشماتة واستهانة. رفع كوندرات حاجبيه متدهشاً، بينما قور له شوكار مرتين، وهو يشعر بالأمان التام، بالقرب من ماكار.

سأل انتيب غراب القيظ مايدانيكوف، وكان يجاوره:

— لماذا يقور لك العجوز؟

رد كوندرات بضيق:

— الشيطان يعلم ماذا يدور في عقله. الاحظ أن عقله اخذ يخف. وقد آن الأوان بالفعل: فهو طاعن في السن، كما عاني المسكين الشيء الكثير. كنا دائماً نعامله بطيبة، وها أنت تراه الآن يبيت لي شيئاً. يجب أن تسأله هو: ما الذي يزعجه.

ونظر كوندرات عرضاً الى المكان الذي كان الجد شوكار يشغله قبل حين، وضحك بخفوت، ولكز انتيب بكوعه:

— كان جالساً الى جانب اغافون، كل شيء واضح الآن. إن اللعين اغافون أسر في اذنه شيئاً عني. ابتكر سخافة، جعلت الجد يغتاظ. فأنا لا أعرف على الاطلاق بما أساء الى الجد. صار كالطفل، يصدق بكل كلمة.

كان دافيدوف واقفاً قرب المنضدة، ينتظر بنفاد صبر متى يعود اهل العزبة المتماهلون دائماً لاحتلال اماكنهم من جديد، ويهدأ اللغط.

— هيا، يا دافيدوف، هيا ولا تتأخر! — صاح ديمكا اوشاكوف نافد الصبر من الانتظار.

تهامس دافيدوف بشيء مع رازميوتنوف، وبادر بعجالة:

— لن ابقيكم طويلاً، حقيقة! انا أتوجه الى الكولخوزيات بشكل خاص، لأن القضية التي سأطرحها عليكم تخص النساء اكثر. ان الكولخوز حاضر كله اليوم في اجتماعنا الحزبي هذا، ونحن، الشيوعيين، بعد التشاور فيما بيننا، نريد ان نقترح عليكم هذا الاقتراح: عندنا في المصانع انشئت منذ زمن بعيد رياض للاطفال ودور للحضانة، حيث يظل الاطفال الاعزاء من الصباح حتى المساء تحت رعاية مربيات وممرضات مجربات، ياكلون فيها ويستريحون، هذه، أيها الرفاق، حقيقة! وخلال ذلك تعمل أمهاتهم، ولا يقلقن على اطفالهن. وهن في حل منهم، لانهن معفيات من الانشغال بهم. فلماذا لا ننشيء روضة اطفال كهذه في كولخوزنا؟ عندنا بيتان فارغان من بيوت الكولاك المصادرة، ولدى الكولخوز حليب، وخبز، وقمح، وغير ذلك، حقيقة! سنؤمن الطعام بالكامل لمواطنينا الصغار، والرعاية أيضاً. فلماذا لا نؤسس روضة الأطفال عندنا؟ حصاد القمح على الابواب، ولكن مردودات النساء في العمل لا تبعث على الثقة، واقول بصراحة، ليست جيدة، وانتن انفسكن تعرفن ذلك. فكيف، أيتها الكولخوزيات العزيزات، هل توافقن على اقتراحنا؟ تعالوا نصوت، فاذا صوتت الغالبية بالموافقة اصدرنا قرارنا الآن، فلا حاجة الى عقد اجتماع اضافي للنظر في هذه القضية. من يوافق أرجو ان يرفع يده.

— ومن سيعارض مثل هذا العمل الخير؟ — صاحت زوجة توريلين الكثيرة الأولاد، وكانت البادية، حين رفعت يدها النحيلة الرسخ، وهي تتلفت نحو جارتيها.

ارتفعت غابة من الايدي فوق رؤوس الجالسين والمتجمهرين في الممرات من الكولخوزيين والكولخوزيات. ولم يعارض احد. فرك دافيدوف يديه، وابتسم في رضى.

— الاقتراح بانشاء روضة اطفال قبل بالاجماع! مقترح جداً، ايها الرفاق المواطنون الاعزاء، مثل هذا الاجماع. ذلك هو المطلوب، حقيقة! غداً سنباشر في الأمر. على الامهات

أن يأتين الى ادارة الكولخوز لتسجيل أطفالهن في الساعة السادسة صباحاً، حال انتهائهن من الفطور. تشاورن، أيها الرفيقات، فيما بينكن، واخترن طباخة مرتبة وتجيد الطبخ، واخترن أيضاً كولخوزيتين أو ثلاثاً محبات للنظافة رفيقات مع الاطفال، ليكونّ مربيات. وسنطلب من مركز المنطقة أن يرسل مديرة للروضة على أن تكون متعلمة وقادرة على تسجيل الحسابات، حقيقة. وقد حسبنا وقررنا أن نسجل لكل كولخوزية مربية وللطباخة يوم عمل كل يوم تعمل فيه في الروضة. أما مديرة الروضة فيتعين أن تدفع لها مرتبا وفق التعريفة المخصصة من قبل الدولة. ولن يصيبنا هذا بالافلاس، حقيقة! اذ لا حاجة الى البخل في المال هنا، لأن المصروفات ستعوض بمردودات العمل، وسأبرهن لكم على ذلك فيما بعد بالحقائق! وسيقبل الاطفال من سن الثانية الى السابعة. هل توجد أسئلة؟

– أليس كثيراً عليهن يوم عمل؟ فان الانشغال بالاطفال ليس بالعمل الشاق، وهو ليس كالعمل بالمذراة في الحقل، – أعرب يفيم كريفوشييف عن شكوكه بصوت عال، وكان هذا من أواخر فلاحي العزبة الأفراد الذين انضموا الى الكولخوز قبل فترة قصيرة.

الا أن عاصفة هادرة من الهتافات النسائية المستاءة احدقت به، واصمتته، فتلوى وجهه في البداية وراح يذب بذراعيه، النساء المنشالات عليه كما يطرد النحل، ثم احس بالشر، فقفز على المقعد، وصاح بصوت صداح مرح:

– على مهلكن، يا عزيزاتي. على مهلكن بحق المسيح! قلت ذلك سهوا. دائماً يفلت لساني ويورطني! اتركنني أخرج، ولا تلمسنني رجاء، ولا تلوحن بقبضاتكن علي! يا رفيق دافيدوف، انقذ كولخوزياً جديداً عندك! لا تتركه يموت ميتة بطولية! انت تعرف نسواننا.

كانت النسوة يتصايحن باصوات متنافرة:

– أنت، يا كذا وكذا، هل انشغلت مع الاطفال مرة؟!

– اجعلوه طباخاً، هذا الخنزير السمين!

– اجعلوه مربية!

– لن يقبل بيوهي عمل، حين سيقضي مع الاطفال يوماً او يومين، بينما يقتر معنا، البخيل!

– لقنه درساً، يا فتيات، حتى لا يثرثر، ويعرف الأصول!..

وكان من الممكن أن ينتهي كل شيء بوقار وهدوء، لو لا هتاف يفيم المازح هذا، فقد كان بمثابة اشارة للاسترخاء، واتخذ الأمر منقلباً غير متوقع ليفيم: فقد انزلته النسوة من على مقعد الدراسة متضاحكات صائحات، وقبضت احداهن بيدها السمراء على لحية يفيم الكستنائية، واذا بقميص يفيم الساتين الجديد يتفتق بكل دروزه وما حولها ويرسل صوتاً عالياً. دعا ناغولنوف النساء الى التزام الهدوء، رافعاً صوته ولكن بدون جدوى. فقد استمرت المناوشة وبعد دقيقة أخرج يفيم الى الممر وهو محمر من الضحك والارتباك، مخلفاً كمي قميصه الممزق مرميين على ارض الصف، بينما كان القميص نفسه الذي لم يبق اي زر فيه، ممزقاً في مواضع كثيرة من الياقة حتى الاطراف.

وكان يفيم يقول وهو متقطع الانفاس من الضحك، وسط قهقهة القوزاق المحيطين به:

– أية قوة صارت لنسائنا اللعينات! هذه مصيبة! لأول مرة اعارضهن، فكانت هذه النتيجة، – ولملم قميصه الشرط ليستر بطنه مستحيا. وولول – ولكن كيف سأذهب الى زوجتي بهذه المخرمات؟ ستطردني على هذه الخسارة! سأضطر أن انضم الى الجد شوكار وتبحث عن ماوى مؤقت عند احدى الارامل. لا يوجد حل آخر لنا، نحن الاثنين.

الفصل الرابع والعشرون

غادر الناس الاجتماع بعد منتصف الليل. ساروا ببطء في كل الشوارع والأزقة، يتبادلون الاحاديث بحيوية، وكانت الأبواب في حديقة كل بيت تصرف. والمزاليج تصلصل

بحدة في سكون الليل، ومن حين لآخر تتردد ضحكة هنا وهناك، حتى أن كلاب العزبة غير المتعودة على مثل هذا الضجيج المتعدد الاصوات في مثل هذا الوقت من الليل استيقظت و اطلقت نباحاً ضارياً عم غريمياتشي لوغ كلها.

كان دافيدوف واحداً من اواخر الذين غادروا المدرسة. فبدا له هواء الشارع بارداً مسكراً بطراوته بعد تلك الوغرة الكثيفة السامة التي كانت تفعم المكان كله. بل وتصور أن حاسة شمه التهمة التقطت رائحة خميرة في النسيم الخفيف.

كان يسير امامه شخصان، وجد نفسه يبتسم حين سمع صوتيهما.

كان الجد شوكار يقول بحرارة:

— ... اما انا فلحماقتي صدقت به، ذلك الخنزير الثرثار، حين قال ان كوندرات ينوي جاداً أن يقتلني بسبب نقدي وانتقادي الذاتي، فارتعبت رعباً شديداً، ورحت اقول لنفسي: «اية فظاعة هذه: كوندرات يمسك بفأس! ان هذا الرجل يبدو وديعاً، ولكن من يدري... فقد يرفع الفأس في سورة الغضب، ويقلع الراس الى قسمين كالبطيخة!» كيف صدقت بذلك الشيطان اغافون؟! انه لا يخطو خطوة حتى يشيننني بشيء ما! طول حياته يلاعب لسانه كما تلاعب الريح خرقة على وتد. ان نسل الشيطان هذا هو الذي علم التيس تروفيم أن يهاجمني، وينطحني بقرونه، اينما كان ولا يهمه انني رجل مصاب بفتق. انا أعرف ذلك بكل دقة! رأيته بنفسي يعلمه هذه الشغلة الوحشية، ولكنني آنذاك لم أتصور قط أنه يحرضه علي، ويعلمه أن يقصر حياتي.

فرد ناغولنوف بصوت متحشرج يهدئه.

— ولكن لا تصدق به! لا تصدق به في كل شيء، وتشكك فيه دائماً، فاغافون شغوف الى حد الموت بابتداع انواع النكات، وهو ينكت على جميع الناس، هذا هو طبعه.

ودخل الاثنان في باب حديقة ناغولنوف، وهما ماضيان في حديثهما الذي بدآها، على مايبدو، وهما في المدرسة. اراد دافيدوف أن يتعقبهما، ولكنه عدل عن ذلك.

استدار الى اقرب زقاق، وبعد أن سار قليلا راى فاريا خارلاموفا متكئة على سياج، سارت للقائه.

كان القمر في محاقه يرسل ضوءاً شحيحاً، ولكن دافيدوف تبين بوضوح، على شفتي الفتاة ابتسامة مرتبكة كئيبة.

— انا انتظرك... انا اعرف انك دائماً تقطع هذا الزقاق في الطريق الى بيتك. منذ زمان لم ارك، يارفيق دافيدوف...

قال دافيدوف فرحاً:

— منذ زمان لم نلتق، يا فاريوخا — فاريوخا! — لقد صرت خلال هذه الفترة كبيرة تماماً وجميلة، حقيقة! اين كنت كل هذه المدة؟

— اما في قلع الاعشاب الضارة، او حش العلف، وفي اشغال بيتية ايضاً. اظنك لم تات مرة واحدة لترائي، ولم اطرا على بالك ولا مرة...

— يالحساسيتك! لا تعتبي علي، فانا دائماً مشغول. اشغال ثم اشغال. لا تحلق الا مرة في الاسبوع، وناكل مرة في اليوم. تلك هي حالنا قبيل الحصاد. طيب، لماذا كنت في انتظاري؟ هل لديك شغل؟ انا لا افهم، هل انت حزينة من شيء ما؟ ام انا مخطيء.

وضغط دافيدوف قليلا على ذراع الفتاة المشدودة الممتلئة فوق المرفق، ونظر في عينيها بتعاطف.

— هل انت في ضيق؟ حدثيني.

— أذاهب انت للبيت؟

— والى اين غير البيت في هذه الساعة المتاخرة؟

— الى اي مكان، فالابواب كلها مفتوحة لك... اذا كنت ذاهباً الى البيت، فطريقنا واحد. ربما ستوصلني الى باب داري؟

— بالتاكيد! عجيبة انت، حقاً! طيب، متى رفض البحارة، وحتى السابقون منهم، أن يوصلوا الفتيات الحلوات؟ — هتف دافيدوف بمزاح لعوب، وقد امسك يد الفتاة — لنسر بانتظام: يسار، يمين! يسار، يمين! طيب،

ما الذي يضايقك؟ اكشفي عما في صدرك! الرئيس يجب أن يعرف كل شيء، حقيقة! كل شيء بكل التفاصيل!

وفجأة شعر دافيدوف بأن ذراع فاريا ترتعش تحت اصابعه، وارتبكت خطواتها، وكأنما تتعثر، وفي تلك البرهة سمع جهشة قصيرة.

– أنت متعكرة المزاج، بالفعل، يا فاريوخا! ماذا بك؟ – سأل دافيدوف في خفوت وقلق، وقد ترك لهجته المازحة. وتوقف ثانية، محاولا أن ينظر في عينيها.

انكب وجه فاريا المبلل بالدموع على صدره العريض. وقف دافيدوف بلا حراك، يقطب حاجبيه الملوحين تارة، ويرفعهما باستغراب تارة أخرى. وهو لا يكاد يسمع من خلال النحيب المكبوت:

– انهم يخطبونني... لفانكا اوبنيزوف... امي تلح علي ليل نهار: «تزوجيه!.. انهم يعيشون عيشة ميسورة!» – وفجأة انفجرت كل مرارة الغم التي ظلت تضطرم في صدر الفتاة فترة غير قصيرة، في صيحة معذبة – ياربي، ماذا افعل؟!

وللحظة قصيرة استقرت يدها على كتف دافيدوف وانزلقت فوراً، وتدلت خائرة.

وهذا ما لم يتوقعه دافيدوف قط، ولم يدر في خلده قط أن مثل هذا الشيء الجديد يمكن أن يجعله في بلبلة تامة! ضغط على يدي فاريا صامتاً ذاهلا مصعوقاً من المفاجأة، شاعراً بألم حاد في قلبه، وترنح قليلا، ونظر في وجهها الباكي المنكس، غير عارف ماذا يقول. وفي تلك البرهة وعى، أخيراً، ما كان يخفيه عن نفسه، وعى أنه يحب هذه الفتاة منذ زمن بعيد، ربما، حباً جديداً بالنسبة له، وهو الرجل المجرب، نقياً، غير مفهوم، وأنه الآن يواجه الأليفين المفجعين والمتلازمين في كل حب حقيقي: الفراق والفقدان...

تمالك دافيدوف نفسه، وسأل بصوت منحشرج قليلا:

– وانت؟ كيف، يا غزالتي؟

– لا أريد أن أتزوجه. افهمني، لا أريد!

ورفعت فاريا الى دافيدوف عينين مغرورقتين بالدموع. وكانت شفتاها المنتفختان ترتعشان بشكل يبعث على التأثر والشفقة. وخفق قلب دافيدوف، كالمجيب لها. وجف حلقه. فابتلع ريقه الواخز بصعوبة، وقال:

– اذن، لا تتزوجيه، حقيقة! لا احد يزوجك بالقوة.

– ولكن افهمني. امي لها ستة اولاد أنا اكبرهم سناً، وامي مريضة، وانا لا استطيع ان اطعم مثل هذا القطيع. حتى ولو اهلكت نفسي في العمل! كيف لا تفهم ذلك، يا روحي؟

– يعني اذا تزوجت، سيعينك زوجك؟

– سيخلع آخر ما عليه لمجرد أن يساعدنا. سيظل يعمل ليل نهار! الا تعرف كم يحبني؟ كثيراً جداً! ولكنني لا أريد عونه ولا حبه! ليس في قلبي قطرة من الحب نحوه. انه يقرفني الى حد الموت! حين يمسك يدي بيديه العرقتين أحس بالتقزز. خير لي... آوه، لاحاجة للكلام! لو كان ابي حياً، لما أشغلت بالي في شيء، ولكنت الآن، ربما، في المدرسة الثانوية...

ظل دافيدوف يحدق في وجه الفتاة الدامع الشاحب في ضوء القمر. كانت تنبات الحزن ترتعي على اطراف شفتيها المنتفختين، وعيناها منكستين، وجفناها في زرقة داكنة. وقد صمتت هي الأخرى، تدعك المنديل في يديها.

– طيب، واذا ساعدنا عائلتك؟ – سأل دافيدوف في غير ثقة، بعد تأمل قصيرة.

ولكنه ما كاد يتم جملته، حتى راحت عينا فاريا تلمعان لا لمعان الدموع، بل لمعان الغضب وكأن الدمع قد جف على الفور. هتفت بصوت هادر واطىء النبرة غليظ كصوت الرجال، ومنخراها ينتفخان:

– اذهب الى الشيطان انت ومساعدتك! فاهم؟!

وهبط صمت قصير مرة اخرى. وبعد ذلك سأل دافيدوف، مذهولا من المفاجأة بعض الشيء.

– ولم هذا؟

– هكذا!
– ولكن ما السبب؟
– لست بحاجة الى مساعدتك!
– ولكن لا اعني مساعدة مني، بل الكولخوز سيساعد امك، كارملة كثيرة الأولاد. مفهوم؟ سأتحدث في ادارة الكولخوز، وسنتخذ قراراً. هل فهمت قصدي، غاريوخا؟
– لست بحاجة الى مساعدة الكولخوز.
هز دافيدوف كتفيه في اسى:
– انت شخصية غريبة! حقيقة! مرة في ضائقة، وتنوين الزواج بأول شاب يخطر لك، ومرة لاتحتاجين الى عون من اي انسان... يبدو انني لا افهمك! لابد أن احدنا اليوم قد اختل عقله، حقيقة. ماذا تريدين في آخر الأمر؟
ودفع صوت دافيدوف الهادىء المتزن – ولربما بدا كذلك لفاريا أيضاً – دفع هذه الفتاة الى اليأس التام. فانفجرت تنتحب، ضاغطة كفيها على وجهها، وقد ادارت ظهرها الى دافيدوف بحدة، ومشت في البداية، ثم اخذت تركض في الزقاق دافعة جذعها الى الأمام، دون أن ترفع كفيها عن وجهها.
لحق دافيدوف بها عند عطفة الشارع، وامسكها من كتفيها، وقال في غيظ:
– اسمعي، يا غاريوخا، دعك من اللعب! انا اسالك جاداً: ما الخبر؟
وهنا اطلقت فاريا المسكينة العنان لياسها الانثوي العارم، لغيظها الخانق:
– انت احمق اعمى! اعمى ملعون! لا ترى اي شيء! انا احبك، احبك منذ الربيع، بينما انت... انت تسير كالمعصوب العينين! جميع صديقاتي يضحكن علي، ولربما الناس كلهم يضحكون. طيب انت اعمى؟ كم ذرفت عليك الدموع، أيها الشيطان... كم سهرت الليالي، وانت لاتفطن الى شيء! فكيف اتقبل منك مساعدة او عطية من الكولخوز، اذا كنت احبك. كيف تحرك لسانك، لسان الملعون، ليقول

ذلك؟! خير لي أن أموت من الجوع بدلا من آخذ منكم شيئاً! هذا كل اردت أن أقوله لك. هل بلغت مرامك؟ حلت الساعة؟ والآن ابعد عني الى صاحبتك لوشكا، فلست بحاجة اليك، لست بحاجة الى حجر بارد، شيطان اعمى مثلك!
وحاولت ان تنتزع نفسها بالقوة من يدي دافيدوف، ولكن دافيدوف كان يمسكها بشدة. يمسكها بوثوق، ولكن دون ان ينطق بشيء. ووقفا على هذه الحال بضع دقائق، ثم مسحت فاريا عينيها بطرف عصابتها، وقالت بصوت هامد متعب غير محمل بأي شيء:
– اتركني. انا ذاهبة.
فرجاها دافيدوف:
– هدئي صوتك. فقد يسمعك احد الناس.
– انا أتكلم بهدوء.
– أنت غير حذرة...
– كفاية! لزمت الحذر نصف عام، ولا استطيع الاستمرار فيه بعد الآن. طيب، اتركني! سيطلع الفجر قريباً، وعلي ان اذهب لحلب البقرة، سامع؟
اطرق دافيدوف رأسه وصمت. كان مايزال يطوق كتفي الفتاة الناعمتين بيده اليسرى، شاعراً لصقه بدف، جسدها الشاب، مستنشقاً رائحة شعرها العذبة. ولكنه كان يخامره شعور غريب في تلك اللحظات، اذ لم يكن يحس بقلق ولا بوهج في الدم، ولا برغبة، بل كان يغلف قلبه حزن خفيف كالدخان، وكان يشعر، لسبب ما، بضيق في تنفسه.
نفض دافيدوف الجمود عن نفسه، ومس بيده اليسرى خنك الفتاة المدور، ورفع رأسها قليلا، وابتسم.
– شكر لك، يا عزيزتي! عزيزتي فاريوخا – غاريوخا!
فهمست همساً لا يكاد يسمع:
– على اي شيء؟
– على السعادة التي تمنحينها لي، على شتيمتك، على تسميتك لي بالاعمى... ولكن لا تتصوري انني اعمى كلياً... ولكن هل تعرفين انني كنت افكر احياناً، وغالباً ما يخطر

في بالي أن سعادتي، سعادتي الشخصية، بقيت وراء السفينة، أقصد في الماضي... رغم انني في الماضي لم يكن لي منها غير النزر القليل...

قالت فاريا خافتة الصوت:

– وأنا أقل منك! – ثم سألت بوضوح اكثر – قبلني، يا وليسي، للمرة الأولى والاخيرة، ودعنا ننصرف. فالفجر مقبل. وغير لطيف أن يرانا الناس سوية، مخجل.

ومدت شفتيها واقفة على اطراف اصابعها كالأطفال، ملقية رأسها الى الوراء. الا أن دافيدوف قبلها على جبينها ببرود كالطفل، وقال بصلابة:

– لا تحزني، فاريوخا، كل شيء سيتعدل! لن ارافقك ابعد من هذا، لا لزوم حقيقة، ولكننا سنلتقي في الغد. وضعت امامي مشكلة... ولكنني ساحلها حين يكون الصبح قد طلع، حقيقة، ساحلها! ولكن قولي لأمك في الصباح أن تلازم البيت في المساء، وسآتيكم مع غروب الشمس، وسيكون لي حديث، فكوني انت أيضا حاضرة، الى اللقاء، يا غزالتي! ولا تزعلي من انصرافي بهذا الشكل... الا يجب أن افكر في مستقبلك وفي مستقبلي! اصحيح ما اقول؟

ولم ينتظر جوابها. استدار بصمت، وسار الى البيت صامتاً بخطوه المتسق المتئد المالوف.

وهكذا افترقا حياديين: لا محبين ولا غريبين. ولكن فاريا نادته بصوت لا يكاد يسمع، فتوقف دافيدوف مكرهاً، وسأل بصوت واطيء:

– ماذا بك؟

ونظر الى الفتاة المتقدمة بسرعة بشيء من الفزع الداخلي: «اي حل آخر قدرت ان تتخذه في لحظات الفراق المعدودة هذه؟ المأزق يمكن ان يدفعها الى أي شيء».

تقدمت فاريا منه بسرعة، والتصقت بدافيدوف اثناء سيرها، نافثة انفاسها في وجهه، وهمست بحرارة:

– يا عزيزي، لا تأت الينا، ولا تتحدث بأي شيء مع امي. هل تريد أن اعيش معك... طيب، يعني... مثلما

كانت لوشكا؟ نعيش سنة، ثم اهجرني! وسأتزوج فانكا. انه يقبلني في أية حال، يقبلني بعدك! قبل يوم أمس قال: «ستكونين في كل الأحوال حبيبة الى قلبي!» الا تريد؟!

لم تعد لدافيدوف رغبة في النقاش، فدفع فاريا عنه بغلظة، وقال بازدراء:

– انت حمقاء! بنت صغيرة! فاسقة! هل تدركين ما تقولينه؟ لقد جننت، حقيقة! تعقلي، واذهبي الى البيت، ونامي. سامعة؟ وفي المساء، سآتي، ولا تحاولي أن تختفي مني! ساجدك في اي مكان!

ولو كانت فاريا قد شعرت بالاهانة، لانصرفت صامتة، ولافترقا بهذا الشكل، ولكنها سألته بصوت ذاهل خافت:

– ماذا افعل، يا سيميون، يا عزيزي؟

ومرة اخرى أثناء لقائهما خفق قلب دافيدوف، ولكن ليس شفقة. طوق فاريا، ومرر كفه عدة مرات على رأسها المنكس، ورجاها:

– اعذريني، فقد احتدمت... ولكنك انت ايضاً لم تقصري... جعلت منك ضحية لي. اذهبي حقاً، يا فاريا العزيزة، ونامي قليلا، وسنتقابل في المساء. جيد؟

– جيد – اجابت فاريا مذعنة. وتنحت عن دافيدوف مذعورة – يا الهي! الفجر طلع بالفعل! ساقع في ورطة...

تسلل الفجر دون أن يلحظ، والآن حتى دافيدوف رأى بوضوح، وكأنما قد استيقظ، معالم البيوت البارزة، والسقائف، والاسطح، ومجاميع الأشجار الداكنة الزرقة في البساتين الصامتة، وشريط الفجر المحمر الكدر الذي لا يكاد يظهر الى الشرق.

* * *

لم يكن مجرد كلام قول دافيدوف في حديثه مع فاريا أن سعادته «بقيت وراء السفينة». ولكن هل كان لهذه السعادة وجود حقاً في حياته اللاهفة العجول؟ لا، في اغلب الظن.

بقي جالساً قرب الشباك المفتوح حتى ساعة متقدمة

من الصباح يدخن سيكارة وراء اخرى مسترجعاً، في ذهنه علاقاته الغرامية الماضية، فتبين، بعد التمحيص، أن اية علاقات لم يكن من الممكن أن يتذكرها الآن بشعور من الامتنان أو الحزن، أو حتى بتأنيب ضمير، في اسوأ الاحوال... كانت له علاقات قصيرة مع نساء عابرات، لاتلزم باي شيء، وما من علاقة اخرى غيرها. كانت الصحبة تتم بسهولة، والفراق يتم بلا عناء، ولا معاناة ولا كلمات آسية. وبعد اسبوع منه كانا يلتقيان كشخصين غريبين، يتبادلان الابتسامات الباردة والكلمات الطفيفة الخالية من المعنى لمجرد التمسك باللياقة. حب الارانب! وكان دافيدوف المسكين يخجل من تذكر ذلك. وحين يرجع بفكره الى ماضيه الغرامي، ويواجه مثل هذه الحكايات، يتعبس مستنكفاً، ويحاول ان يتخطى بسرعة ما كان يبقع الماضي، كما تبقع لطخة مازوت سميكة بزة بحار نظيفة، مثلا. ولأنه كان يريد أن ينسى تلك اللحظات المزعجة بأقرب وقت كان يسارع باشعال سيكارة جديدة في بلبلة، ويفكر: «وحين تحاول ان تخرج بحصيلة لا تجد غير التفاهة والقرف، حقيقة! وباختصار، لا شيء تفخر به، يابحار... لا شيء لك مع النساء اكثر مما لأي كلب!»

كانت الساعة قد بلغت الثامنة، حين قرر دافيدوف مع نفسه: «يعني، أتزوج فاريا. حان للبحار ان ينتهي من حياة العزوبية! يمكن ان يكون ذلك افضل. اجعلها تدرس في مدرسة مهنية زراعية، وبعد سنتين ستكون لنا مهندستنا الزراعية، وسنعمل جنباً الى جنب، وسنرى ما سيكون في المستقبل».

وكان قد تعود، اذا اتخذ قراراً، أن لا يبطيء، أو يؤجل الامر الى غد. فاغتسل، وذهب الى بيت خارلاموف.

التقى بام فاريا في الفناء، فحياها باحترام:

– مرحباً، يا ام! كيف الأحوال؟

– مرحباً، يا رئيس! لا بأس باحوالنا. وانت ماذا تريد؟ اية حاجة جاءت بك في الصباح؟

– فاريا في البيت؟

– نائمة. فانتم تستمرون في الاجتماعات حتى يطلع الفجر.

– لندخل البيت. اوقظيها، لدي حديث.

– تفضل، حل ضيفاً عندنا.

دخلا المطبخ. وقالت ربة البيت، وهي تنظر الى دافيدوف محترسة:

– اجلس، وساوقظ فاريا الآن.

وبعد قليل جاءت فاريا من حجرة الجلوس. انها هي الأخرى لم تنم هذا الصباح، على الارجح. كانت عيناها منتفختين بالدموع. ولكن وجهها نضر نضارة الشباب، وكان دفئا ناعماً يضيئه من الداخل. نظرت الى دافيدوف بشيء من الشرر هلعة مترصدة، وقالت:

– مرحباً، يا رفيق دافيدوف! اذن، فقد تكرمت بزيارتنا منذ الصباح.

جلس دافيدوف على المسطبة، والقى نظرة خاطفة على الاطفال النائمين متلاصقين على سرير متداع، وقال:

– لم اجيء للزيارة، بل لغرض. المسألة، يا ام... –

وصمت برهة باحثاً ومنتقياً الكلمات، ناظراً الى المرأة العجوز بعينيه المتعبتين.

وكانت هذه تقف قرب الموقد، تلملم باصابعها طيات ثوبها القديم على صدرها الخاسف في قلق.

وكرر دافيدوف:

– المسألة، يا ام، انني احب فاريا، وهي ايضاً تحبني. والقرار كالتالي: آخذها الى مركز الاقليم حيث توجد مدرسة ثانوية مهنية، ستدرس فيها، وبعد سنتين ستصير مهندسة زراعية، وتأتي للعمل في غريمياتشي، وفي الخريف القادم، حين نفرغ من اعمالنا، سنتزوج. انا اعرف ان احداً من عائلة اوبنيزوف قد خطبها، ولكن لاتفسري الفتاة على زواج كهذا، فهي التي ستقرر مصيرها، حقيقة.

ادارت المرأة وجهها المتوجس نحو الفتاة:

– فاركا؟!

فلم تستطع هذه الا أن تهمس:

– ماما! – وارتمت على أمها، منحنية بشدة، باكية بدموع الفرح، واخذت تقبل يديها المتغضنتين المتصلبتين من العمل الدائب الطويل.

استدار دافيدوف نحو النافذة، فسمعها تهمس من خلال النشجات:

– ماما، يا عزيزتي! معه استطيع ان اذهب الى آخر الدنيا. سافعل ما يشير به. سواء أن اذهب للدراسة او اشتغل فقط على الا تجبريني على الزواج من فاتكا اوبنيزوف. ساكون تعيسة معه...

وسمع دافيدوف، بعد صمت قصير، صوت ام فاريا المتهدج:

– يبدو انكما اتفقتما بدون موافقة الأم؟ طيب، الرب سيكون الحكم بينكما. انا لا اريد لفاريا الشر، ولكن لا تجلب العار لابنتي، ايها البحار! املي كله متعلق بها! فانت ترى انها الكبرى في البيت، وتقوم مقام المعيل، فانا من المصيبة، ومن الأولاد، ومن الفقر الشديد صرت كما انا الآن... هل تراني كيف صرت؟ صرت عجوزاً قبل الأوان. وانتم، البحارة عرفتكم على حقيقتكم اثناء الحرب... فلا تخرب عائلتنا!

استدار دافيدوف عن النافذة بحدة، وحدق في وجه المرأة:

– لا تمسي البحارة، يا أم! في المستقبل سيكتبون عنا، كيف حاربنا، وقاتلنا قوزاقكم، حقيقة! اما فيما يتعلق بشرفنا، وبحبنا، فقد استطعنا ونستطيع ان نكون اتقى واكثر وفاء من بعض المدنيين الأوغاد: فلا تقلقي على فاريا، فلن امسها بسوء. اما فيما يخص معيشتنا فاريد ان اطلب منك شيئاً واحداً: اذا كنت موافقة على قراننا، فانني سآخذها غداً الى ميليروفو، وادخلها المدرسة الثانوية المهنية، وسانتقل انا للعيش معكم حتى الزواج. فان العيش عندك

سيكون اسهل علي من العيش عند غرباء، ثم هناك شيء آخر: كيف يجب علي الآن ان اعيل عائلتكم، ان اساعدك؟ فانك ستنهارين من اولادك بدون فاريا! ولهذا ساضع على كتفي العناية بكم. فان لي كتفين عريضتين. فلا تقلقي، سانهض بالأمر، حقيقة، هذا ما سيكون عليه الأمر بيننا. هل اتفقنا؟

خطا دافيدوف نحوها خطوة واسعة، وطوق كتفيها النحيلتين، وقال في شيء من الضيق، حين احس بقبلة حماته المقبلة تطبعها على خده بشفتيها المبللتين بالدمع:

– انتن، النسوة، غزيرات الدمع جداً! وبذلك تبعثن الشفقة في اقسى القلوب. طيب، يا شيخة، هل سنعيش في صفاء على نحوما؟ اقول لك عن حق اننا سنعيش في صفاء.

واخرج دافيدوف من جيبه حزمة من النقود مدعوكة ودسها بحركة مرتبكة تحت غطاء المائدة البالس، وتمتم مبتسماً بجراة:

– هذه من بقايا مدخراتي، حين كنت عاملا. فانا لا انفق الا على التبغ... ونادراً ما اشرب... بينما انت بحاجة الى النقود. لتعدي فاريا للسفر، ولتشتري شيئاً للاطفال... وانتهى الأمر... انا ذاهب. اذ يجب علي ان اسافر الى مركز المنطقة ايضاً... وساعود في المساء لاجلب حقيبتي. اما انت، يا فاريا فاستعدي. غداً مع الفجر سنسافر الى مركز الاقليم. طيب، عندكم العافية يا أعزائي، – وطوق دافيدوف بذراعيه فاريا التي اندفعت اليه وامها، واستدار بعزيمة، ومضى نحو الباب.

كانت مشيته صلبة واثقة لاتختلف عن مشيته السابقة المتمايلة قليلا، مشية بحار، ولكن لو ان احداً من الذين يعرفونه نظر اليه في تلك اللحظة لراى فيها شيئاً جديداً...

* * *

في ذلك اليوم نهاراً قام دافيدوف بسفرة الى مركز المنطقة، وحصل على اذن من نيسترينكو للذهاب الى لجنة الاقليم الحزبية. حذره نيسترينكو قائلا:

– اياك ان تتاخر هناك.

– لن اتاخر ساعة واحدة زيادة، فقط ان تتلفن الى سكرتير لجنة الاقليم الحزبية ليستقبلني ويساعدني في مسالة ادخال خارلاموفا الى المدرسة الثانوية المهنية.

قلص نيسترينكو عينيه بخبث:

– هل انت تستغفلني، يا بحار؟ تلوم نفسك، اذا خدعتني ولم تتزوج هذه الفتاة! لن نسمح لك ان تلعب دور دون جوان للمرة الثانية. كان الأمر اسهل مع لوشكا ناغولنوفا، فهي مطلقة على اية حال، بينما الأمر الآن مختلف تماماً!..

نظر دافيدوف الى نيسترينكو نظرة مغتاظة، وقاطعه قبل ان يتم كلامه:

– اي رأي سيىء لك في، يا سكرتير، حقيقة! لقد تحدثت مع امها، وخطبتها حسب القواعد المرعية كلها! فماذا تريد اكثر، لماذا لا تثق بي؟

سأل نيسترينكو بهدوء:

– سؤالي الأخير لك، يا سيميون: هل عاشرتها من قبل؟ واذا كان الجواب بالايجاب فلماذا لا تعقد القران عليها رسمياً، قبل السفر للدراسة؟ فانت مثلا لا تنتظر زوجة لك سابقة تاتيك من ليننغراد! افهمني، ايها العفريت، انني قلق عليك، كاخ، او اي شخص عزيز، وسيكون فظيعاً وفاجعاً لي ان يتسلل الشك في صفاتك كرجل معتبر... وانا لا ادس في شؤونك الشخصية بفضول رخيص... فلا تزعل، سامع؟ طيب، واخيراً: لعلك تريد ان تدخل خارلاموفا الى المدرسة، لتحرر نفسك. لتتخلص منها... حذار، يا اخ!

عكف دافيدوف بتعب رجليه المتخشبتين من العدو السريع على الفرس، وانهد ثقيلا على مقعد قديم مقابل الكرسي الذي يجلس عليه نيسترينكو، ونظر بكلل الى الذراعين المهلهلتين المصنوعتين من الاغصان المشغولة لذلك الكرسي الرخيص، ثم استمع الى زقزقة العصافير المستديمة في أجمات الاقاسيا، ونظر الى وجه نيسترينكو

الأصفر، والى قميصه القديم بكميه المرفوفين بعناية، وقال:

– مؤسف انني عاهدتك على الصداقة في حين تعرفت عليك في الربيع الماضي في موسم الحراثة... مؤسف لأنك، كما يبدو، لم تتعود الثقة باحد... وليكن، ولتذهب الى الشيطان، ايها السكرتير! اظنك لا تثق الا بنفسك، وحتى هذا لا تفعله الا في ايام العطل الاسبوعية، اما الآخرون، وحتى اولئك الذين كشفت لهم عن صداقتك، فهم عندك في موضع شك احمق دائماً... كيف يمكن، وانت بهذا الطبع، ان تقود منظمة الحزب للمنطقة؟ تاكد من نفسك، اولا، كما ينبغي، وبعد ذلك يمكنك ان تشكك في الجميع.

ابتسم نيسترينكو ابتسامة ساخرة موجعة:

– ومع ذلك تكدرت، مع انني رجوتك ان لا تتكدر؟

– تكدرت!

– لست صلب العود، اذن!

نهض دافيدوف اكثر تعباً:

– سانصرف، والا فستتشاتم ...

– انا لا اود ذلك – اجاب نيسترينكو.

– وانا ايضاً.

– طيب، ابق خمس او عشر دقائق أخرى، وسنسوي ما اختلفنا عليه.

– سابقى، – وجلس دافيدوف على المقعد ثانية، وقال – انا لم الحق سوءا بالفتاة، حقيقة! ان عليها ان تدرس. عائلتها كبيرة وكل عبء البيت يقع عليها، فهي كبرى افراد العائلة... أهذا مفهوم لك؟

– مفهوم، – رد نيسترينكو، ولكنه ظل ينظر الى دافيدوف بعينيه الصارمتين المستوحشتين.

– افكر في الزواج منها، حين تستقر في دراستها كلياً، وافرغ انا من أشغال الحقل الخريفية. وباختصار سيكون الزفاف على طريقة الفلاحين، بعد الحصاد، – وابتسم دافيدوف ابتسامة ساخرة خالية من المرح، وحين

رأى نيستريتكو قد خفف الجهامة من وجهه، وراح ينظر اليه بانتباه شديد، مضى يقول بطواعية اكثر، متخلياً عن تكلفه السابق وانكماشه – لم اتزوج من قبل لا في لينينغراد ولا في اي مكان آخر. وانا اقدم على هذه المجازفة لأول مرة مع فاريا. ثم أن الوقت قد حان. بعد قليل سأقترب من الاربعين.

قال نيستريتكو مبتسماً:

– اتحسب السنة بعشر بعد الثلاثين؟

– والحرب الاهلية؟ بودي لو احسب كل سنة منها بعشر.

– في ذلك زيادة بعض الشيء.

– ولكن انظر الى نفسك، وستصدق.

خرج نيستريتكو من وراء الطاولة، وتمشى في الغرفة، وقال في غير وثوق، فاركا يديه كالمبترد:

– ربما... على العموم ليس هذا موضوع الحديث، يا سيميون. لقد سررت بعد ان توضح لي انك في هذه المرة لا تكبو، كما كبوت مع لوشكا ناغولنوفا. فان لديك مايوحي بالثقة في هذه المرة. طيب انا مع هذه البداية الطيبة، واتمنى لك السعادة!

وغمر الدف، صدر دافيدوف فسأل:

– هل ستحضر العرس في الخريف؟

– سأكون اول الضيوف! – قال نيستريتكو، وعادت ابتسامته، كما من قبل، تضيء كومضة فرح، وعاد الشرر اللعوب السابق يتألق في عينيه الكدرتين.

– طيب، مع السلامة! تلفن لسكرتير لجنة الاقليم.

– اليوم! سافر، ولا تتأخر.

– حالا.

وتصافحا بقوة.

خرج دافيدوف الى الشارع المترب الذي ادفأته الشمس، وفكر: «ليس بدون سبب أن يكون مختلفاً عما كان من قبل! انه مريض! هذا الاصفرار، والخدان الغائران،

كخدي الميت، والعينان الكدرتان... لربما لهذا السبب راح يتحدث معي بهذا الشكل؟..»

وكان دافيدوف قرب حصانه، حين ناداه نيستريتكو وقد طلع بجسمه من النافذة.

– عد لدقيقة، يا سيميون!

صعد دافيدوف درجات مقر اللجنة المنطقية دون رغبة.

نظر نيستريتكو الى دافيدوف في احديداب ظاهر اكثر وانكماش بكل جسمه، وأنشأ يقول:

– ربما تكلمت معك بخشونة زائدة، فاعذرني، يا اخ، فانا في محنة كبيرة. فبالاضافة الى الملاريا أصابني السل من حيث لا يعرف الا الشيطان، وهو الآن يتفشى في الرئتين، وبشكل فعال جداً. كهفان في كلتا الرئتين. وغداً سترسلني لجنة الحزب للاقليم الى المصحة. ما كنت أحب ان أتغيب عن المنطقة والحصاد على الابواب ولكن لا حيلة لي في ذلك، فانا لا اغادر للمتعة. ولكنني سأحاول ان أعود حين تعقد زفافك. هل تتصور أنني اردت بذلك ان استثير شفقتك؟ لا، أبداً، مجرد أنني احببت ان أبث لصديق المحنة التي وقعت علي، وبهذا الشكل المفاجيء...

دار دافيدوف حول المكتب، وعانق نيستريتكو بقوة وصمت، وقبل خده الحار المبلل، وعند ذاك فقط قال:

– سافر، يا عزيزي، وعالج نفسك! الشبان وحدهم يموتون بهذا الداء، أما نحن، انا وانت، فلن تودي بنا اية علة!

قال نيستريتكو بصوت لا يكاد يسمع.

– شكراً.

وخرج دافيدوف الى الشارع بخطواته العريضة، وامتطى فرسه، ولأول مرة الهبه بالسوط ليقلع من مكانه، وراح يعدو بسرعة في شارع الدسكرة، مدمدماً بضراوة من خلال أسنانه المصكوكة:

– لن ادعك تهدأ، يا طويل الاذن.

* * *

عاد دافيدوف الى العزبة بعد الغداء، فتوجه مباشرة الى بيت عائلة خارلاموف، وترجل من فرسه عند باب الحديقة، ودخل الفناء بخطو متئد. والظاهر انهم ابصروا به، فبينما كان يقترب من مدخل البيت يفرج ساقيه، مخدد الوجه من طول مكوثه مهتزاً على صهوة الحصان في عدو سريع غير متعود عليه طلعت حماته المقبلة على عتبة البيت تستقبله بطريقة مختلفة حفية به، وكأنها قد تعودت عليه خلال نصف يوم.

– اظنك قد تعبت، يا ولدي العزيز؟ كيف عدت بهذه السرعة؟ فالمسافة الى الدسكرة والعودة منها ليست قريبة. – قالت بتعاطف متكلف، وهي تنظر الى دافيدوف يقترب من العتبة متخلخل الخطو يباعد بين ساقيه، اما في سرها فلربما كانت تضحك بلا مودة، على صهرها المنتظر، وهو يلوح بسوطه كالشطار، بينما هولا يكاد يفرج ساقيه... ومن غيرها، وهي القوزاقية العجوز، يمكن ان يعرف كيف يمتطي الخيالة «الروس» خيولهم...

قال دافيدوف بشيء من الغلظة، وهو يلعن في سره مثل هذا التعاطف:

– لاتتعبي نفسك، يا ام! اين فاريا؟

– ذهبت تبحث عن خياطة. لعلها تريد ان تخيط شيئاً من أشيائها القديمة؟ اوه، يا، اخترت لنفسك عروسة، وأية عروسة! ليس لديها غير تنورتها العتيقة! اين كانت عيناك؟

– انا لم اخطب منك تنورة صباح اليوم، بل فتاة، – قال دافيدوف، وهو يبلل شفتيه المتيبستين من الحر – هل عندك ماء بئر اشربه؟ التنورات اشياء يمكن اقتناؤها وسنؤجلها. متى ستأتي فاريا؟

– العلم عند المسيح. تعال الى البيت! طيب، هل اتفقت مع رئيسك بخصوص دراسة فاريا؟

– وكيف لا؟ غداً سنسافر الى مركز الاقليم، فهيئي الفتاة لسفر طويل. ماذا؟ هل ستذرفين الدموع الآن؟ فاتك الوقت!

وبالفعل اخذت الأم تبكي بمرارة وحرقة، ولكنها سرعان ما تغلبت على ضعفها، ومسحت عينيها بمئزرها المتسخ، وقالت في ضيق ناشجة من حين لآخر:

– ولكن ادخل الى البيت، بحق الرب! وهل سنتحدث على هذه المسالة الكبيرة ونحن واقفان في الفناء؟!

دخل دافيدوف البيت، وجلس على المسطبة، والقى السوط تحتها.

– عن اي شيء نتحدث، يا ام؟ المسالة واضحة، وقد حلت. تعالي نتفق على ما يلي: لقد تعبت كثيراً خلال هذه الايام. اعطيني ماء لأشربه، ثم سانام ساعة، هنا، عندكم، وحين استيقظ سنتحدث في الأمر. اما الفرس فليأخذها احد اولادك الى اسطبل الكولخوز.

صفا وجه المرأة، فقالت:

– لا تقلق على الحصان، سياخذه الاولاد الى هناك، وانتظر انت قليلا، فساجلب لك حليباً بارداً. اجلبه حالا من السرداب.

انهك التعب وليالي الأرق دافيدوف، فلم ينتظر الحليب. وحين جاءت ام البيت حاملة بحذر جرة حليب عليها بلل البرودة، كان دافيدوف قد نام. انطرح على المسطبة التي كان جالساً عليها، مدلياً ذراعه اليسرى بارتخاء، فاتحاً فمه قليلا. لم ترد أم البيت ان توقظه. رفعت باحتراس راسه المسترخي، وحشرت تحته مخدة زرقاء.

نام دافيدوف حوالي ساعتين وقد غلبه دفء البيت والتعب الشديد، واستيقظ على همس أطفال، ولمس رقيق من اصابع انثوية صغيرة. فتح عينيه فرأى فاريا جالسة بالقرب منه تبتسم له بحنان، وخمسة اطفال متجمعين على مقربة، هم كل ذرية آل خارلاموف.

وضع اصغر الأولاد، واكثر هم شجاعة، على ما يبدو، يد

دافيدوف الكبيرة بين يديه الصغيرتين، وضغطها نحوه، وسأل بتهيب:

– يا عم سيميون، صحيح انك ستسكن عندنا الآن؟

دلى دافيدوف رجليه من المسطبة، وابتسم للطفل ابتسامة وسنى:

– صحيح، يا بني! وكيف لا؟ ستسافر فاريا، فمن سيعيلكم ويوفر لك الكسوة؟ سيتعين علي الآن أن افعل ذلك، حقيقة!

ووضع يده بأبوة على راس الطفل الدافيء الاشعث.

الفصل الخامس والعشرون

في اليوم التالي، وقبل طلوع الفجر بوقت طويل، ايقظ دافيدوف الجد شوكار الذي كان نائماً في مستودع التبن، وساعده على شد الحصانين، وجاء بالعربة إلى بيت خارلاموف. ومن خلال الصفاقات غير محكمة الاغلاق راى مصباحاً مضاءاً في المطبخ.

كانت ام فاريا تطبخ، وكان الأولاد نائمين بالعرض على سرير خشبي واسع، بينما كانت فاريا في ملابس السفر جالسة على المسطبة في بيتها، وكانما ليست من اهل البيت، بل ضيفة جاءت لتقضي بعض الوقت.

استقبلت دافيدوف بابتسامة سعيدة عارفة للجميل.

– تهيأت منذ زمان، وانا انتظرك، يا رئيسي.

واضافت ام فاريا بعد أن حيت دافيدوف:

– تهيأت بعد صيحة الديكة الأولى. هذا إبتسار الصبا! اما من حيث الحماقة فلك ان تقول ما تشاء... سيكون الفطور جاهزاً حالا. ادخل، واجلس، يارفيق دافيدوف.

واكل ثلاثتهم على عجل حساء الكرنب البائت وبطاطس مقلية، وتبلغوا بالحليب. شكر دافيدوف ام البيت، حين نهض من المائدة، وقال:

– حان الوقت لأن تودعي امك، يا فاريا. ولكن لا

تطيلي. لا داعي لذرف الدموع، فانت لا تفارقينها إلى الابد. عندما سأذهب الى مركز الاقليم سآخذك معي، يا ام لتري إبنتك... أنا ذاهب الى الحصانين، – وعند العتبة سأل فاريا – هل ستأخذين معك بعض الملابس الدافئة؟

أجابت فاريا بشيء من الارتباك:

– عندي بلوزة مبطنة، ولكنها قديمة جداً.

– تنفع، فانت غير ذاهبة إلى حفلة راقصة، حقيقة.

وبعد ساعة كانوا قد خلفوا العزبة بعيداً وراءهم. جلس دافيدوف الى جانب شوكار، وفاريا في الطرف الثاني من العربة. ومن حين لآخر كانت تمسك يد دافيدوف، وتضغط عليها بحنان، وتغرق عميقاً في افكارها مرة اخرى. لم تكن الفتاة خلال عمرها القصير قد غادرت العزبة لفترة طويلة، ما هي إلا مرات قليلة ذهبت فيها إلى الدسكرة، وهي لم تر بعد سكة الحديد، واخذت أول زيارة لها للمدينة تغمرها بموجة من الفرح الشديد والبلبلة والاضطراب. وكان فراقها لعائلتها وصديقاتها موجعاً لها، يكاد يدر الدموع من عينيها.

وحين عبروا الدون على عبارة، وأخذ الحصانان يخفقان الخطو في صعودهما التل عند شاطيء الدون، قفز دافيدوف من العربة، وسار في الجهة التي كانت فاريا تجلس فيها، سار ينفض قطرات الندى الثقيلة بحذائه الطويل من افسنتين الطريق الذي لم يلمع إشاعته في الضحى، ناشراً في اشعة الشمس كل الوان قوس قزح. ومن حين لآخر كان يرمق فاريا، ويبتسم لها مشجعاً، ويقول بصوت خفيض:

– طيب، يا فاريا، حافظي على عينيك جافتين.

أو:

– أنت كبيرة الآن، راشدة، ولايليق بك البكاء، لا داعي، يا عزيزتي.

وكانت فاريا الندية العينين تطيعه وتمسح خديها المبللين بطرف منديل راسها الازرق، وتهمس بشيء دون أن تصدر صوتاً، وتبتسم له بالرد، ابتسامة متوجسة خاضعة. وكان الضباب يخيم فوق التعاريج الطباشيرية

المحدبة، لجبال الدون، قبل أن تظهر سلسلتها المحجوبة بها.

في تلك الساعة المبكرة من الصباح لم تكن الاعشاب السهبية على جانبي الطريق، ولا الاغصان المتهدلة للوزال الاصفر، ولا الظاهرة على المرتفع، والمتدنية الى الطريق قد نشرت روائحها النهارية حتى الآن. وحتى الافسنتين الجبار فقد رائحته، فقد ابتلع كل الروائح الندى المتناثر على السنابل والاعشاب بغزارة، وكان مطراً تموزياً مدراراً قد سقط قبل حين لفترة قصيرة، ولهذا السبب كانت تتسلط على السهب بجبروت رائحتان بسيطتان: رائحة الندى وغبار الطريق المبلل به قليلا.

كان الجد بمطاره القديم من المشمع، المحزم بقماشة حمراء، اكثر قدماً يجلس متكوراً من البرودة، يعتصم بصمت طويل غير مألوف منه، ومن حين لآخر كان يلوح بسوطه، ويتمطق بشفتيه صافراً، حاثاً الحصانين اللذين كانا يعدوان بدون حاجة إلى حث منه.

ولكنه سأل بحيوية، حين طلعت الشمس:

– يتقول الناس في العزبة، ياسيموشكا، زاعمين انك تنوي الزواج من فاريا. أهذا صحيح؟

– نعم، صحيح.

– حسناً، فالزواج لامناص منه عاجلا او آجلا. أنا اقصد بالنسبة للرجال، – أعلن العجوز ذلك عميق الدلالة واضاف – وانا ايضاً زوجني والداي المرحومان، ما ان بلغت الثامنة عشرة. وفي ذلك الوقت كنت في غاية الكر، وحتى في تلك السن كنت اعرف اي لعنة هو الزواج... وقد حاولت التملص منه اكثر من اي شخص في هذه الدنيا! كنت اعرف جيداً جداً ان الزواج ليس مفروشاً بالزهور. وما اكثر ما تحايلت، يا سيميون، يا اساي! تظاهرت بالجنون، وتمارضت، وسقطت في توبة كاذبة. وبسبب جنوني صار ابي – وكان المرحوم رجلاً صارماً – يضربني بالسوط ساعتين إلى ان انكسر مقبض السوط على ظهري. وكان يضربني على النوبة بسيور الأعنة. وحين تمارضت

اخذ يزعق بصوت قبيح ويقول ان قلبي تقيح كله، وخرج إلى الفناء دون ان يقول شيئاً. وياتي بعريش زلاجة إلى داخل البيت، ويقول لي بلطف شديد: «انهض، يا ولدي، سادأويك...» فاقول لنفسي: ما دام لم يتكاسل من خلع العريش من الزلاجة، فهو لن يتكاسل في قلع روحي من جسدي بدوائه هذا. المسألة خطيرة ان يمسك العريش بيده. فقد كان صاحب حماقة، وقد لاحظت هذه النقيصة فيه منذ ان كنت صغيراً... نزلت من السرير فوراً، وكان احداً رشقني بماء فاتر. وتزوجت. فماذا كان في وسعي ان افعل معه، مع شخص احمق؟ ومنذ ذلك الحين سارت حياتي في إلتواءات وانحرافات وتقلبات! واذا كانت عجوزتي تزن الآن ثمانية بودات صافية، فقد كان وزنها في التاسعة عشرة من عمرها... – ومضغ العجوز شفتيه مفكراً، ورفع عينيه إلى فوق، وانتهى إلى القول بجزم – ما لا يقل عن خمسة عشر بوداً، وحق المسيح لا اكذب!

فسأل دافيدوف بصوت لايكاد يسمع، وهو يختنق من الضحك:

– الا تبالغ في الرقم؟

فرد الجد شوكار بمعقولية عالية:

– وما الفرق عندك؟ بود أقل بود أكثر، ما الفرق عندك؟ فهل أنت الذي تلقى منها العذابات والمعارك، أم أنا؟ لعينة جداً كانت حياتي مع زوجتي حتى استحق عليها شنق نفسي. ولكنها اخطأت في الاختيار. فانا رجل مستميت حين اغضب! وكنت افكر في استماتة: اشنقي نفسك انت اولا، وانا بعدك..

ادار الجد شوكار راسه بمرح، وكركر غارقاً، على ما يبدو بشتى انواع الذكريات، وحين رأى الاصغاء إليه لم يفتر، مضى يقص بولع:

– آه، أيها المواطنون الاعزاء، و... انت فاريا! كان حبنا عارماً انا وعجوزتي في الشباب! ربما تسالانني: ولماذا عارم؟ لأنني بنيت حياتنا كلها على الغضب، والغضب والعرامة

شيء واحد، كما قرأت ذلك في القاموس السميك عند ماكار.

كان يحدث أن استيقظ ليلا، فأرى زوجتي إما دامعة العينين أو تضحك، فأقول لنفسي: «ابكي، يا عزيزتي، فدمع المرأة قطرات من ندى الرب. فأنا أيضاً لا أعيش عيشة عسلية معك، ولكنني لا أبكي!».

وفي السنة الخامسة من حياتنا الزوجية حصل لنا هذا الحادث: عاد جارنا بوليكارب من الخدمة الفعلية. وكان يخدم في فوج الأتمان في الحرس. وقد علموا هذا الاحمق هناك أن يقتل شاربيه، فأخذ في البيت قرب زوجتي يفتل شاربيه. وفي احدى الامامي رأيتهما واقفين عند السياج. زوجتي من ناحية سياجنا، وهو من ناحية سياجه. فدخلت البيت، وتظاهرت بانني نائم، وكأنني لا أرى شيئاً. وفي اليوم التالي في المساء رأيت نفس المنظر عند السياج. فأقول لنفسي: حكاية حقيرة. وفي اليوم الثالث تقصدت الخروج من البيت، واعود في المساء، فاراهما واقفين، عجيبة! ماذا علي أن افعل؟ واهتديت إلى فكرة. لففت ثلاثة ارطال بفوطة، وانسللت إلى فناء بوليكارب، سرت حافياً حتى لا يسمع خطواتي، وبينما كان مشغولا بفتل شاربيه، ضربته على قفاه بكل قوتي، فانطرح على طول السياج كالخشبة.

وبعد بضعة أيام إلتقيت بوليكارب. كان معصوب الراس. فيقول لي بحموضة: «احمق! كان من الممكن أن تقتلني». فأقول له: «غير معروف الآن أينا الاحمق: الذي وقع مطروحاً عند السياج، أم الذي وقف على قدميه».

ومنذ ذلك الحين زالت التعويذة عن زوجتي. وكف الاثنان عن الوقوف عند السياج. إلا أن زوجتي تعلمت أن تصرف باسنانها في الليل. استيقظ على صريف اسنانها، واسأل: «هل توجعك أسنانك، يا عزيزتي؟» فتقول: «حل عني، يا ابله!» فارقد، وافكر مع نفسي: «غير معروف الآن أينا أكثر حماقة: الذي يصرف باسنانه أم الذي ينام بهدوء واطمئنان، كالطفل الوديع في المهد».

كان المستمعان يجلسان بهدوء كثير خائفين أن يجرحا مشاعر العجوز. كانت فاريا تهتز من الضحك بصمت، ودانيدوف يدير وجهه عن شوكار، ويغطيه بكفيه، وينتابه سعال موجع متوتر موصول. بينما مضى شوكار يتحدث بحماس دون أن يلحظ شيئاً:

– ذلك هو الحب العارم الذي يحصل أحياناً! وباختصار نادراً ما يأتي الخير من هذه الزيجات، حين افكر بعقلي العجوز. أو لنأخذ هذا الحادث مثلا: كان يعيش عندنا، في العزبة، في العهد الماضي معلم شاب كانت له خطيبة، هي ابنة تاجر من عزبتنا أيضاً. وكان هذا المعلم أنيقاً جداً وجميلا جداً – في لباسه اقصد – كالديك الفتي، وكان في الغالب يستخدم الدراجة ولا يمشي على قدميه. وكانت الدراجات آنذاك حديثة الظهور، ولما كانت هذه الدراجة أول دراجة في العزبة فان الناس جميعاً كانوا في دهشة من هذه الاعجوبة، ودع الكلام عن الكلاب. ما إن يظهر المعلم في الشارع، وتتالق عجلتا دراجته حتى تجن الكلاب اللعينة. فيهرع مسرعاً ليتخلص منها، ويطوي جذعه على دراجته ويدور رجليه بسرعة فائقة. حتى لاتراهما العين. وكم سحق من جراء صغيرة، ولكنه هو الآخر لقي منها الأمرين.

وذات مرة، بينما أنا اقطع الساحه متجهاً إلى السهب لأتفقد الفرس، رأيت في الجهة المقابلة زفة من الكلاب. في المقدمة كلبة، ووراءها، حسب الاصول، ثلة من الكلاب، حوالي عشرين كلباً، إن لم يكن اكثر. في ذلك الحين كان اهل عزبتنا الملعونون يربون ما شاءوا من الكلاب، بلا حساب. في كل فناء بيت كلبان أو ثلاثة من الصنف المخيف! أي واحد منها أسوأ من نمر شرس، وكل واحد منها بحجم العجل تقريباً. وكان اصحابها يحفظون كل صناديقهم في السراديب. ولكن ما الفائدة؟ المصيبة واحدة، الحرب بينها سجال.. طيب، التقيت بهذه الزفة من الكلاب. وأنا لست أبله. القيت الزمام، وتسلقت عمود تلغراف في لحظة واحدة كأنشط قط، ولويت على العمود رجلي، وابقى في مكاني.

وفي تلك اللحظة، ومن سوء الحظ، ظهر ذلك المعلم على دراجته يتألق بعجلتيه اللامعتين وقرن القيادة. احاطت به الكلاب فاذا به يرمي الدراجة، يراوح في مكان واحد. فاصرخ به: «يا احمق، تسلق على العمود نحوي، وإلا فستحيلك إلى شرائط!» تسلق المسكين نحوي، ولكنه تاخر قليلا. ما ان امسك بالعمود، حتى خلعت عنه في ثانية واحدة السروال الجديد التحفة، والجاكتة الأصلية بازرارها الذهبية، وكل الأشياء الاخرى. واكثر الكلاب شراسة نفذت في مكان ما إلى اللحم العاري.

فعلت به الافاعيل، وانصرفت، في حال سبيلها. بينما هو يجلس على العمود، ولم يبق ما يستره غير الطاقية الرسمية بشارتها، وحتى هذه كسرت ظليلتها، حين صعد على العمود.

نزلنا من مخبئنا، انا واياه، هو في البداية، وانا وراءه. فقد كنت اعلى منه في العمود، تحت الاقداح التي تخرج منها الأسلاك. وهكذا نزلنا على التوالي، هو عاريا وانا في قميص بسيط، وبنطلون من جنفاص فقط. ويسالني المعلم: «اعرني، يا عم، بنطلونك لبعض الوقت، وساعيده لك بعد نصف ساعة» فاقول له: «كيف اتخلى عنه ايها الرجل اللطيف، وانا لا البس شيئا تحته؟ ستغادر انت على دراجتك، واظل انا ادور حول العمود بلا بنطلون في وضح النهار؟ أستطيع أن أتخلى عن القميص مؤقتا، اما البنطلون، فلا اقدر، وارجو المعذرة». لبس المعلم قميصي كالبنطلون واضعا ساقيه في الكمين، وسار على مهل. وكانت له كل الموجبات لأن يعدو، ولكن كيف يعدو، اذا كان يسير كالحصان المقيد؟ ورأته ابنة التاجر، خطيبته، في قميصي... وبذلك اليوم انتهى حبهما... واضطر ان ينتقل الى مدرسة اخرى على عجل. وبعد اسبوع من هذا الحادث — ومن جراء الفضيحة التي لحقت به، والفزع الذي اصابه، وهجران خطيبته له، وانهيار حبهما إلى اسفل سافلين — اصيب الشاب بسل سريع وتوفي. ولكنني لا اصدق بذلك كثيرا. اغلب الظن انه مات من الفزع ومن الفضيحة. إلى

هذه الورطة يؤدي الحب اللعين. ودع عنك ما يلحق به من مختلف الزيجات والاعراس. وانت، يا سيميون، يا أساي، يجب ان تفكر مائة مرة قبل ان تتزوج فاريا. كلهن من صبغة واحدة، فلا عجب اننا وماكار لانحتملهن.

— طيب، يا جد، مايزال لدي متسع للتفكير، — قال دافيدوف مهدئا العجوز، واستغل انشغال شوكار باشعال سيكارة، وجذب فاريا إليه، وقبلها من صدغها، في الموضع حيث خصلة من شعرها الكثيف تخفق في الريح المقابلة.

وبعد قليل اخذ الجد شوكار يهوم غافيا وقد اتعبه كلامه ولربما سرحاته في ذكرياته، فتناول دافيدوف العنان من يديه المرتخيتين تغلب الجد شوكار على نعاسه، وتمتم:

— شكرا لك، يا أساي، لوح بالسوط على الحصانين، وساغفو ساعة... لعنة الله على الشيخوخة. ما إن تدفيء الشمس حتى يأخذ النعاس بمداعبتي. اما في الشتاء فمهما كان برده شديدا يغلبني النعاس اكثر، وبعد قليل ينفذ البرد إلى عظامي اثناء النوم.

رقد صغيرا هزيل العود بين فاريا ودافيدوف، ممددا على طول العربة كالسوط، وسرعان ما اخذ يشخر صافرا صفيرا نحيلا.

والسهب الذي ادفأته الشمس اخذ يفوح بكل ما في الاعشاب المتنوعة من عبير، وامتزجت رائحة الاعشاب المحصودة برائحة غبار الطريق الدافيء في عذوبة، ولاحت خطوط الآفاق البعيدة زرقاء مغبشة في الرهج، واخذت فاريا تحدق بعينيها النهمتين في السهب الممتد وراء الدون العزيز عليها بلا حدود، وإن لم تكن قد رأته من قبل.

* * *

قضوا ليلتهم قرب كومة دريس بعد ان قطعوا اكثر من مائة كيلومتر حتى حلول المساء. تعشوا بالطعام المتواضع الذي حملوه معهم من البيت، وقعدوا بعض الوقت قرب

العربة ينظرون إلى السماء المتجمة صامتين. قال دافيدوف:

– امامنا في الغد استيقاظ مبكر آخر. فتعالا نتهيأ للنوم. نامي انت، يا فاريا، في العربة، وخذي معطفي وتدثري به، أما الجد وأنا فسننام تحت كومة الدريس.

– القرار الذي تتخذه صحيح، يا سيميون، – أيد شوكار بسرور مرتاحاً جداً من أن دافيدوف يرقد معه بالذات.

وفي الحقيقة كان الجد يخاف من النوم وحده في سهب مقفر غريب عليه.

استلقى دافيدوف على ظهره، وقد القى يديه وراء رأسه، ونظر في السماء الشاحبة الزرقة المبسوطة. ووجد ببصره بنات نعش الكبرى، وتنهد، ثم ضبط نفسه في شيء جعله يبتسم بدون وعي.

وعند منتصف الليل فقط خفتت حرارة الأرض التي احمتها الشمس خلال النهار، وشاعت طراوة حقيقية. وفي اغلب الظن كانت هناك، على مسافة غير بعيدة، في وهدة من الوهاد بركة أو بحيرة سهبية ضحلة. كانت ترد منها رائحة الغرين، والقصب. وزغرد طائر السلوى من مسافة دانية جداً. وتناهى نقيق ضفادع متردد، يضعة اصوات فقط. ونعبت بومة صغيرة ناعسة في الليل: «أنام، أنام».

اخذ دافيدوف ينعس، ولكن فاراً اخذ في تلك اللحظة يخشخش في الدريس، فقفز الجد شوكار بخفة جنونية، وهز دافيدوف، وقال:

– هل تسمع، يا سيما؟! أي مكان اخترنا، عليه اللعنة! اظن هذا الدريس مملوء بالأصلال والافاعي. هل تسمع كيف تخشخش الملاعين؟ وهناك بوم تنعب كما في مقبرة... تعال ننتقل من هذه البقعة المهلكة إلى مكان آخر.

رد دافيدوف ناعساً:

– نم، ولا تتخيل.

استلقى شوكار من جديد، وظل وقتاً طويلا يتقلب، وحشر المطر عليه من كل الجهات مدمدماً:

– لقد قلت لك لنسافر على عربة اكبر، ولكن كنت تريد أن تتغندر على هذه العربة الصغيرة. فتفضل الآن، هذه هي النتيجة. والا لكنا قد فرشنا تلك العربة كلها بالقش من عندنا، وسافرنا، باطمئنان، ولنمنا ثلاثتنا في العربة الواسعة. اما الآن، فتفضل، وتمرغ ودريس الآخرين متعفنا كالكلب الشريد. فاريا وجدت مكانا جيداً، تنام فوق، وعليها غطاء، وهذا ما يليق بآنسة. اما هنا فالخشخشة تاتيك من فوقك ومن جنبيك، وحين توجد خشخشة، فالأمان معدوم، فمن يدري من يقوم بهذه الخشخشة؟ فاذا نمت انسل إليك صل، ويلدغك في موضع محرج وعند ذلك مع السلامة للعرس والزواج! في أي موضع يلدغك هذا الملعون يمكن أن يقضي عليك بالتمام. وعند ذاك ستملأ صاحبتك فاريا جردلا بالدموع. ولكن ما الفائدة؟ اما انا فاي صل لايجد نفعاً في أن يلدغني، فان لحمي شائخ معروق، كما تفوح مني رائحة التبغ لأن تروفيم غالباً ما كان ينام جنبي على الدريس. والاصلال لاتحب رائحة التبغ. واضح أنه يلدغك انت ولا يلدغني. تعال ننتقل إلى مكان آخر.

قال دافيدوف في ضيق:

– الا تهدأ اليوم، يا جد؟ إلى اين نسير في منتصف الليل؟

اجاب الجد شوكار حزيناً:

– جلبتني إلى مكان مهلك. ولو كنت اعرف لودعت عجوزتي على الاقل، والا فقد خرجت وكانني لم اخلف زوجة ورائي. يعني لاتريد أن تترك هذا المكان، يا أساي؟

– لا، نم، يا شيخ.

زفر الجد شوكار زفرة عميقة، ورسم علامة الصليب وقال:

– لطيف لو نمت، يا سيميون، ولكن الرعب يملؤني. وقلبي يدق في صدري من الرعب. وتلك البومة اللعينة تنعب، عساها تختنق.

غط دافيدوف في نوم عميق على ولولات شوكار المتسقة.

استيقظ قبل طلوع الشمس. كانت فاريا تجلس إلى جانبه، وقد إتكأت بجنبها على كومة الدريس، وعكفت ساقيها تحتها، تعدل خصلات شعره المشربكة على جبينه، وكانت لمسات اصابعها الانثوية الرقيقة ناعمة حذرة حتى أن دافيدوف، وقد استيقظ، لم يكد يحس بها.

بينما كان الجد شوكار ينام في مكانها على العربة يغطي نفسه بمعطف دافيدوف.

قالت فاريا بخفوت متوردة كهذا الشروق:

– لحقت أن انزل إلى البركة واغتسل. اذهب وايقظ الجد، ولنواصل السفر! – ولثمت بشفتيها خد دافيدوف الشائك، ووثبت على قدميها كالنابض – هل ستذهب لتغتسل، يا سيما؟ سأريك الطريق إلى البركة.

اجاب دافيدوف بصوت خدره النعاس:

– تأخرت على الاغتسال، يا فاريا، سأغتسل في مكان ما في الطريق. هل ايقظك السولق العجوز من زمان؟

– لم يوقظني هو. بل استيقظت بنفسي عند الفجر، وكان هو جالساً بالقرب منك يطوق ركبتيه بذراعيه، ويدخن سيكارة، فاسأله: «لماذا انت غير نائم، يا جد؟» يجيب: «لم انم طوال الليل، يا عزيزتي، فالافاعي كثيرة حولي. أذهبي، وتمشي في السهب، وسأرقد انا في مكانك ساعة مطمئن البال». نهضت، وذهبت اغتسل في البركة.

في منتصف ذلك النهار كانوا قد وصلوا إلى ميليروفو. وخلال نصف ساعة سوى دافيدوف المسالة في لجنة الاقليم، وخرج إلى الشارع بهيجاً يبتسم بارتياح:

– حسم السكرتير كل شيء. هذا ما يجب ان يكون عليه الحسم في لجنة الاقليم بسرعة وكفاءة. ستكونين، يا فاريوخا، تحت رعاية فتيات من لجنة كومسومول الاقليم. أما الآن فلنذهب إلى المدرسة الزراعية، لأجعلك تستقرين في مكان اقامتك الجديد. هناك الآن اتفاق مع معاون المدير، حتى يحل موعد اختبارات الدخول سيتعهدك المدرسون، وفي الخريف ستكونين قد تثبت تماماً، حقيقة! ستهتم بك الفتيات

من لجنة الاقليم، لقد اتفقت معهن على ذلك بالتلفون، – وفرك دافيدوف يديه على عادته، وسأل: – أتعرفين، يا فاريوخا، من سيرسلون الى عزبتنا سكرتيراً لمنظمة الكومسومول؟ من تتصورين؟ ايفان نايدينوف، الشاب الذي كان عندنا في الشتاء، ضمن فريق الدعاية والتحريض. شاب مقتدر جداً، وساكون مسروراً جداً بمجيئه. وعند ذاك ستسير أمور الكومسومول عندنا سيراً حسناً. وانا اقول لك ذلك، حقيقة!

وخلال ساعتين تم كل شيء في المدرسة الزراعية. وحان وقت الوداع. قال دافيدوف بصلابة:

– إلى اللقاء، يا عزيزتي فاريوخا – غاريوخا، لا تستوحشي، وادرسي جيداً، ونحن هناك سنسوي امورنا بدونك.

ولأول مرة قبل فاريا من شفتيها. وسار في الممر. والتفت عند الباب، وفجأة عصرت قلبه شفقة حادة، حتى خيل إليه أن الارضية الخشنة من الالواح تميد تحت قدميه، وكأنه على ظهر سفينة. كانت فاريا تقف ضاغطة جبينها على الجدار، دافنة وجهها في راحتي يديها، وقد نزلت عصبة رأسها الزرقاء على كتفيها، وقد بدا على هيئتها كلها من الانقطاع والشجن الراشد ما جعل دافيدوف يكظم ما في نفسه بالحمحمة فقط، ويسرع في الخروج إلى الفناء.

وعاد إلى غريمياتشي في نهاية اليوم الثالث من خروجه منها.

ورغم الساعة المتأخرة كان ناغولنوف ورازميوتنوف في انتظاره في ادارة الكولخوز. سلم ناغولنوف عليه متجهماً، وقال بنفس التجهم:

– لم تكن في البيت خلال الايام الأخيرة، يا سيميون. سافرت إلى الدسكرة، ثم إلى لجنة الاقليم... اي ضرورة حملتك إلى ميليروفو؟

– سأخبركم بكل شيء في حينه. ما الجديد عندكم في العزبة؟

وبدلا من الجواب سأل رازميوتنوف:

– هل رايت الحبوب في طريقك؟ كيف هي، نضجت؟

– الشعير يمكن أن يحصد هنا وهناك، بطريقة الاختيار. والجودار ايضاً. الجودار يمكن حصده على الفور، في رايي، ولكن جيراننا يتباطاون لسبب لا اعرفه.

قال رازميوتنوف وكانه يخاطب نفسه:

– في هذه الحال لا نسرع نحن ايضاً. يمكن حصده اخضر، حين يكون الجو ملائماً. عند ذاك سيتم نضجه في اكداسه. ولكن ماذا لو هطل المطر؟ سيتلف المحصول.

وافقه ناغولنوف على ذلك.

– يمكن الانتظار ثلاثة ايام اخرى، ولكن بعدها يجب تعبئة كل الجهود للحصاد، والا فان لجنة المنطقة ستتغدى بك، يا سيميون. اما انا واندريه فستجعلنا مشهيات... نعم، عندي خبر جديد. لدي في السوفخوز صديق منذ الخدمة العسكرية، وقد ذهبت لزيارته يوم امس. وكان يدعوني لزيارته منذ زمان، ولكن لم تسنح لي فرصة، غير انني يوم امس عزمت على زيارته، وقلت لنفسي دعني اقضي يوماً في زيارة صديق، وارى، خلال ذلك، كيف تعمل الجرارات. فانا لم ار جرارة طوال حياتي، وكنت كثير الفضول في مشاهدتها. عندهم هناك جرارتان تحرثان، وقد قضيت النهار كله في الحقل. اوه، يا اخوان، لابد ان اقول لكما ان الجرار «فورزون» هذا شيء عجيب! انه يقلب الأرض، وهو راكض. ولكن ما ان يصل الى ارض بكر في منعطف حتى تعوزه القوة على المقارعة، هذا المسكين. يشب كالفرس الناشط امام عقبة، ويقف لحظات، ثم يعود فينقض اظفاره في الأرض، ويسرع حافراً الاخاديد في طريق العودة. الأرض البكر لا يقدر عليها... وفي كل الاحوال لاضير في ان يكون لنا زوج من هذه الخيول في كولخوزنا، وفي هذا كنت افكر، وافكر طوال الوقت. انه شيء محمود جداً في الزراعة! وقد انغمرت به، حتى لم يكن لي الوقت لأشرب كأساً مع صديقي. عدت من الحقل راساً وسافرت الى العزبة.

سأل رازميوتنوف:

– ولكن كنت تنوي السفر الى محطة المكائن والجرارات في مارتينوفسكايا؟

– ما الفرق ان اسافر الى المحطة او الى سوفخوز؟ في كليهما توجد جرارات. ومارتينوفسكايا بعيدة، والحصاد على الابواب.

قلص رازميوتنوف عينيه بمكر.

– اعترف انني ظننت بك الظنون، يا ماكار، فتصورت انك في الطريق الى مارتينوفسكايا ستعرج على شاختي، لترى لوشكا.

– حتى ولم تخطر ببالي! – قال ناغولنوف بحزم – بينما كنت ستذهب انت في اغلب الظن، فانا اعرف، يا صاحبي!

زفر رازميوتنوف:

– لو كانت زوجتي السابقة لما ذهبت لرؤيتها فقط، بل ولأقمت عندها ما لا يقل عن اسبوع! – ثم اضاف مازحاً – لست دمية محشوة بالقش، مثلك.

– انا اعرفك! – كرر ناغولنوف، ثم اضاف بعد ان فكر قليلا – امراة لعينة! ولكنني لست زير نساء، مثلك!

هز رازميوتنوف كتفيه:

– انا ارمل منذ اكثر من اثني عشر عاماً. فماذا تريد مني؟

– ولهذا انت زير نساء.

وبعد فترة صمت قصيرة قال رازميوتنوف بجدية تامة وبهدوء:

– وربما طوال هذه السنين الاثني عشر احب امراة واحدة، فانت لا تعرف؟

– انت؟ اصدقك، ولم لا!

– امراة واحدة!

– اليست هي مارينا بياركوفا؟

– ليس من شانك من هي، فلا تدس نفسك في قلوب

الآخرين! ربما سأخبرك في وقت ما، تحت تأثير السكر، من احببت وما ازال احب، ولكن... أنت رجل بارد، يا ماكار، لا يمكن التحدث معك حديث القلب للقلب. في اي شهر ولدت؟

– في كانون الأول.

– هذا ما ظننت. قطعاً ان امك وضعتك عند فتحة الجليد في النهر. ذهبت تستقي الماء، فجاءها الطلق هناك فجأة، وولدتك على الجليد. ولهذا تفوح منك البرودة طوال عمرك. فكيف يمكن للمرء ان يبوح لك بما في قلبه؟

– بينما انت ولدت على سطح الموقد، على ما يبدو؟

وافقه رازميوتنوف طواعية:

– محتمل جداً! ولهذا تفوح مني حرارة كالريح اللافحة. بينما انت قضية اخرى.

قال ناغولنوف في ضيق:

– ضجرت! كفانا كلاماً عنا وعن النسوان، الأفضل ان نتحدث الى اي فريق سننضم في الحصاد.

اعترض رازميوتنوف قائلا:

– لا، تعال ننهي ما بدأنا من حديث، فسيكون لنا الوقت لنتحدث الى اي فريق سننضم. فكر بهدوء، يا ماكار، في الآتي: لقد وصفتني بزير نساء، واي زير نساء انا الآن، اذا كنت عن قريب سأدعوكما كليكما الى حفلة زفاف؟

سأل ناغولنوف بصرامة:

– والى اي حفلة زفاف؟

– الى حفلة زفافي. امي صارت عجوزاً تماماً، ويصعب عليها تدبير امور البيت، وهي تجبرني على الزواج.

– وانت تصغي اليها، ايها الأحمق العجوز؟ – ولم يستطع ناغولنوف ان يخفي استياءه.

اجاب رازميوتنوف بوداعة مصطنعة:

– وكيف اتخلص، يا عزيزي؟

– طيب، انت احمق مضاعف! – قال ناغولنوف ثم حك قصبة انفه بتفكير، وخلص الى القول – سيتعين علينا، يا سيميون، ان نستأجر بيتاً ونعيش سوية، حتى لا نضجر

كثيراً. ونكتب على الباب: «هنا يسكن العزاب فقط».

لم يتباطأ دافيدوف في الرد:

– لا يجمعنا جامع في هذه المسألة، يا ماكار. فان لي خطيبة ايضاً، ومن أجلها سافرت الى ميليروفو.

نقل ناغولنوف نظرة متفحصة من واحد الى آخر، محاولا ان يحزر أهما يمزحان ام يجدان، ثم نهض ببطء، وانتفخ منخراه، بل وشحب وجهه قليلا من الانفعال:

– هل جننتما ام كيف؟! انا اسأل للمرة الأخيرة هل تقولان هذا جداً ام تضحكان مني؟ – ولكنه لم ينتظر جوابهما، وبصق عند قدمه بغلظة مفزعة، وخرج من الحجرة دون ان يودع.

الفصل السادس والعشرون

ظل بولوفتسيف ولاتيوفسكي معتكفين ليلا ونهاراً كالسابق في حجرة جلوس ياكوف لوكيتش الضيقة يقتلهما الضجر، وتنهار معنويتهما أكثر فأكثر من هذا القعود الاضطراري.

في الفترة الأخيرة قل مجيء الرسل اليهما الى حد كبير، وفقدت أية قيمة بالنسبة لهما تلك الوعود المشجعة التي كانا يتلقيانها من مركز الانتفاضة الاقليمي موضوعة في ظروف بسيطة، ولكنها مختومة بشكل جيد...

ولعل بولوفتسيف كان أكثر تحملا لهذا الحجز المطول، بل وكان يتعمد اظهار نفسه اكثر توازناً، ولكن لاتيوفسكي كان ينفجر، من حين لآخر، وفي كل مرة بطريقته الخاصة. فمرة يلتزم الصمت اياماً، محدقاً في الحائط الذي امامه بعين خامدة، ومرة يصير ثرثاراً بشكل غير اعتيادي ولا يكبح، وحين ذاك كان بولوفتسيف، رغم الحر، يغطي نفسه حتى رأسه بالمعطف، شاعراً في بعض الاحيان برغبة قاهرة، في ان ينهض، ويستل سيفه من غمده، ينزل به، بكل قوته، على رأس لاتيوفسكي المصفف جيداً. وذات مرة، مع حلول

الظلام، اختفى لاتيوفسكي من البيت دون أن يلحظ، ولم يرجع الا قبيل الفجر، حاملا معه ملء ذراعيه من الزهور الندية.

لم يغمض بولوفتسيف جفنيه طوال الليل قلقاً على غياب صاحبه، مضطرباً اضطراباً شديداً، يتسمع لكل نأمة خافتة تأتيه من الخارج. عاد لاتيوفسكي متضوعاً بطراوة الليل، منشطاً بنزهته، مرحاً، وجلب جردلا من الماء الى الرواق، ووضع الزهور فيه باعتناء. ونفذت الى هواء الحجرة الفاسد الثقيل نفحة حادة من عبير البيتونيا المسكر، والتبغ الشذي، والبنفسج الليلي، وزهور أخرى غير معروفة لبولوفتسيف. وفي تلك اللحظة حصل شيء غير متوقع. ان بولوفتسيف ذلك الضابط الحديدي، حين ملأ صدره بروائح هذه الزهور المنسية تقريباً انفجر يبكي فجأة... كان مستلقياً في ظلمة ما قبل الفجر على تخته النتن، يضغط كفيه الندبتين على وجهه وحين أخذت عبراته تخنقه، استدار نحو الجدار بحدة، وانشب اسنانه بطرف المخدة بكل قوته.

سار لاتيوفسكي حافي القدمين بطأ الواح الحجرة الدافئة بنعومة. استيقظت اللياقة من غفوتها فيه، فراح يصفر بصوت لايكاد يسمع بعض الانغام، ويتظاهر بانه لا يسمع شيئاً، ولا يلحظ شيئاً.

وفي نحو الساعة الحادية عشرة نهاراً، حين استيقظ بولوفتسيف من نوم قصير ثقيل، أراد أن يوجه للاتيوفسكي تقريعاً شديداً على غيابه الكيفي، ولكنه بدلا من ذلك قال:

– يجب أن تغير الماء في الجردل... والا ستذبل.

– سأفعل ذلك حالا – رد لاتيوفسكي بمرح.

جلب جرة من ماء البئر البارد، ورش ماء الجردل الدافيء على الأرض.

سأل بولوفتسيف:

– من أين حصلت على الزهور؟

كان يحس بالحرج من ضعفه، والخجل من الدموع التي سكبها ليلا، فاشاح وجهه جانباً.

هز لاتيوفسكي كتفيه.

– «حصلت» كلمة ناعمة جداً، ياسيد بولوفتسيف. «سرقت» اقسى ولكن ادق. بينما كنت اتمشى قرب المدرسة التقطت عبيراً الهيا آثار حاسة الشم عندي، فطفرت الى حديقة المعلم شبين، وقطفت نصف حوضين من الزهور لمجرد ان اجعل حياتنا النتنة انا وانت. واعدك بان ازودك في المستقبل أيضاً بالزهور الطازجة.

– لا، اعفني من ذلك!

– ولكنك لم تفقد كلياً بعض المشاعر الانسانية، – قال لاتيوفسكي بهدوء وتلميح، وهو يحدق في عيني بولوفتسيف.

صمت هذا متظاهراً بانه لا يسمع.

كان كل واحد منهما يقتل الوقت بطريقته الخاصة. كان بولوفتسيف يقضي الساعات جالساً وراء الطاولة يستخير بالورق، ماسحاً باصابعه السميكة بقرف الورق المتسخ السميك، بينما كان لاتيوفسكي يعيد قراءة الكتاب الوحيد الذي بحوزته « Quo vadis » لسينكيفيتش للمرة العشرين، وربما، دون أن ينهض من تخته، متمطقاً بكل كلمة.

واحياناً كان بولوفتسيف يترك الورق، ويقتعد الأرض متربعاً على طريقة الكالميك، ويفرش قطعة من المشمع، ويفك الرشاشة اليدوية وينظفها رغم أنها نظيفة في الاصل، ويمسح ويدهن كل جزء منها بزيت البنادق الدافيء من جراء الحر، ويعود يجمع اجزاء الرشاشة على مهل، متمتعاً بها، لاوياً راسه العريض الجبين الى هذا الجانب مرة، والى ذلك الجانب مرة أخرى. وبعد ذلك يتنهد، ويلف الرشاشة بتلك القطعة من المشمع، ويضعها بعناية تحت تخته، ويدهن الاقراص ويشحنها من جديد، وبعد أن يعود جالساً الى الطاولة يخرج من تحت البساط سيفه الضابطي، ويجرب رهافة حده على اظفر ابهامه، ويمرر معدنه الفولاذي الكامد البريق عدة مرات على المشحذ الجاف بحذر، ويتمتم برضى: «مثل حد الموسى!».

في مثل تلك اللحظات كان لاتيوفسكي يضع كتابه ويقلص عينه الوحيدة، ويبتسم بتهكم:

– تدهشني رومانسيتك الحمقاء، تدهشني بلا حدود! لماذا تلهو بسيفك كما يلهو الطفل بلعبته؟ لا تنس اننا في عام ثلاثين، وزمن السيوف والرماح والقربينة وغير ذلك من الحدائد قد انقضى. المدفعية، يا حضرة، هي التي حسمت كل شيء في الحرب الماضية، وليس الجنود على خيولهم او بغيرها. وهي التي تقرر ايضاً نتيجة المعارك والحروب المقبلة. وانا كمدفعي قديم اؤكد ذلك باوثق الصور.

خزره بولوفتسيف بنظرة شزراء، كما هو دائماً، وقال من خلال اسنانه:

– هل تتصور ان الانتفاضة ستبدأ راساً بالاعتماد على نار بطاريات المدافع؟ ام على الجنود حملة السيوف؟ اعطني في البداية بطارية من ثلاث بوصات على الأقل وسأخلف السيف في عهد حرمة اوستروفنوف بكل سرور، اما الآن فاسكت، ايها المتشدق! اشعر بالقرف من ترثرتك. وجه حديثك عن دور المدفعية في الحرب الماضية الى سادتك البولونيين وليس لي. وعلى العموم انت تحاول دائماً ان تتكلم معي بنبرة استهانة. ولكنك مخطىء، يا ممثل بولونيا العظيمة. ان ثبرتك واحاديثك ذات رائحة كريهة. على العموم كان الناس في العشرينيات يقولون عن دولتك: «بولونيا لم تتعفن بعد، ولكنها اخذت تفوح برائحة كريهة»...

هتف لاتيوفسكي بلهجة تراجيدية:

– اوه، يا الهي، اي ضحالة فكرية! الورق والسيف، الورق والسيف... خلال نصف عام لم تقرأ اية كلمة. الى اي درك وصلت! بينما كنت، في وقت من الاوقات، معلم مدرسة ثانوية...

– كنت معلماً بسبب الحاجة، ايها السيد البولوني العزيز! الحاجة الشديدة!

– اظن لكاتبكم تشيخوف قصة عن فوزاقي هو مالك اراض جاهل بليد يعيش في عزبته، له ولدان ابلهان في

سن النضج ليس لهما الا شغل واحد هو ان يقذف احدهما بديكة البيت في الهواء، ويطلق الثاني النار عليها من بندقيته. وهكذا تستمر الحال دواليك من يوم الى يوم، بدون كتب، وبلا اهتمامات ثقافية، ولا اي ظل لنوازع روحية... احياناً يبدو لي انك احد هذين الولدين... وربما انا مخطىء؟

نفخ بولوفتسيف على فولاذ السيف الميت دون ان يحير جواباً، وتمعن في الظل المزورق ينتشر عليه، ثم يزول ببطء، وبعد ذلك مسح السيف بطرف قميصه الازرق بحذر بل وبرفق، واغمده في غمده المهلهل دون ان يحدث صوتاً.

* * *

ولكن احاديثهما التي كانت تجري بشكل مفاجىء، ومشاحناتهما القصيرة لم تكن دائماً تنتهي بسلام. كانت حجرة الجلوس خانقة، فقد كان نادراً ما يبدل هواؤها. والحر الجائم يزيد من تعاسة عيشهما في بيت اوستروفنوف، فكان بولوفتسيف يقفز اكثر فاكثر من فراشه المبلل المنتن من العرق، ويجار بصوت مكتوم «سجن! انا اهلك في هذا السجن!» وحتى في الليل، اثناء النوم، كان غالباً ما يتفوه بهذه الكلمة الفجة، حتى ان لاتيوفسكي النافد الصبر قال له ذات مرة:

– يا سيد بولوفتسيف، يمكن ان يتصور الانسان انه لم يبق من مفرداتك الشحيحة غير كلمة واحدة هي «السجن». واذا كنت تشتاق بهذا الشكل الى هذه المؤسسة الخيرية، فان نصيحتي السديدة لك ان تذهب اليوم الى لجنة امن الدولة في المنطقة، وترجوها ادخالك السجن على الأقل عشرين عاماً. واؤكد لك ان رجاءك لا يخيب!

فسأل بولوفتسيف مبتسماً ابتسامة معوجة:

– ماذا يسمى هذا؟ ظرافة، على الطريقة البولونية؟

هز لاتيوفسكي كتفيه:

– هل تعتبر ظرافتي مسطحة؟

– انت بهيمة لا غير، – قال بولوفتسيف بلا اكتراث.

فهز لاتيوفسكي كتفيه مرة أخرى، وضحك ضحكة مقتضبة ساخرة:

– محتمل. ولكنني اعايشك منذ زمن طويل، فليس من الصعب ان افقد صورتي الانسانية...

وبعد هذه المناوشة ظلا ثلاثة ايام لايتبادلان اية كلمة. ولكنهما اضطرا في اليوم الرابع أن يتحدثا قليلا من جديد.

في الصباح الباكر، وياكوف لوكيتش لم يخرج بعد الى العمل دخل الفناء شخصان غريبان، احدهما في معطف جديد واق من المطر، والثاني في مشمع متسخ له قلنسوة. وكان الأول يتابط محفظة كبيرة منتفخة، والثاني يضع على كتفه سوطاً بشراشيب انيقة. وحسب اتفاق قديم خرج ياكوف لوكيتش الى الرواق مسرعاً، حين رأى القادمين، ودق دقتين بينهما فاصل قصير على باب الحجرة التي كان يعيش فيها بولوفتسيف ولاتيوفسكي، وطلع الى مقدمة البيت برصانة، وهو يمسد شاربيه.

– هل انتما تقصدانني، أيها الرجلان الطيبان؟ ام تريدان شيئاً من مستودع الكولخوز؟ من انتما؟ من العابرين؟

ابتسم الرجل الركين المكتنز حامل المحفظة بترحاب، ولمعت غمازتان نسائيتان على خديه الممتلئين، ومس ظليلة قبعته المستهلكة بكفه، وقال:

– هل أنت صاحب البيت؟ مرحباً، يا ياكوف لوكيتش! أرسلنا جيرانك اليك. نحن نشتري المواشي، ونعمل لعمال المناجم، نشتري الماشية لهم لطعامهم اليومي، حسب التعبير الشائع. وندفع اثماناً جيدة، اعلى من الأثمان التي يدفعها مشترو المواشي التابعون للدولة. ونحن ندفع اعلى لأننا يجب أن نغذي عمال المناجم تغذية اكثر، وباستمرار. وانت مدير الشؤون الاقتصادية للكولخوز، ولابد أن تفهم احتياجنا... ولكننا لا نطلب شيئاً من مستودعات الكولخوز، فنحن نشتري ماشية الأشخاص والفلاحين الافراد. وقد قيل لنا انك تملك عجلة حولية. ربما تبيعها؟ نحن لا نماكس على السعر، فقط أن تكون ذات لحم.

صمت ياكوف لوكيتش، وحك حاجبه بتفكير، حاسباً في سره اي سعر اعلى يمكن ان يتقاضاه من هذين التاجرين السخيين، دون الحاجة الى التنقل بين الاسواق وأجاب كما أجاب اغلب المزارعين العارفين كيف يتقاضون سعراً غير رخيص:

– ليس عندي عجلة معدة للبيع.

– ربما نلقي عليها نظرة، ونتفق على السعر؟ اقول لك مرة أخرى اننا مستعدون أن ندفع زيادة.

صمت ياكوف لوكيتش مرة اخرى ممسداً على شاربيه، وللاعتبار اجاب بتؤدة، وكأنما يخاطب نفسه:

– عندي عجلة، وسمينة معتبرة! ولكنني احتاجها شخصياً. فان بقرتي هرمت، ويجب تبديلها وهي بقرة من النوع الذي يدر حليباً دسماً، اي قشطتها جيدة جداً حسبما تقولون. ولكن لا، أيها الرفيقان، لا ابيع!

تنهد المكتنز صاحب المحفظة في خيبة أمل.

– طيب، ما العمل! المالك ادرى... اعذرنا، سنبحث عن مشترياتنا في مكان آخر، – ومرة أخرى مس بيده ظليلة قبعته المدعوكة بحركة غير متقنة، وسار في الفناء.

وفي اثره سار راعي الخيول الركين العريض المنكبين، يلعب بسوطه، ويطوف بصره الذاهل في الفناء، وملاحق البيت، والنوافذ، وباب العلية المحكم الاغلاق...

وفي تلك اللحظة لم يتحمل قلب ياكوف لوكيتش، قلب المزارع الاقتصادي، ترك الزائرين يصلان الى باب الحديقة، وبعدها نادى الركين:

– انتظر قليلا، انت، أيها الرفيق شاري الماشية! كم تدفع لكيلوغرام من اللحم الحي؟

– حسب الاتفاق! ولكنني قلت لك اننا لا نماكس في السعر، ان لنا الحرية بالتصرف بنقودنا. وهي معدودة، ولكن لا نبخل بها عند الضرورة، – قال الركين مربتاً بيده السمينة على المحفظة السميكة بافتخار، وهو يقف عند باب الحديقة منتظراً.

نزل ياكوف لوكيتش درجات المدخل بحزم.

– تعالا نرى العجلة قبل أن تساق للرعي ولكن ليكن في بالك انني لا ابيعها بثمن رخيص، احتراماً فقط، لانكما شابان يمكن الاتفاق معكما على ما يبدو، ولستما بخيلين جداً. انا لا اريد حتى أن اشم رائحة التجار البخلاء في فنائي!

فحص المشتريان كلاهما العجلة، وتلمساها الى حد القرف والزيادة في التدقيق، ثم اخذ الركين يماكس بشكل مضجر، أما حامل السوط، فقد سار في الفناء وملاحقه يصفر بوحشة، ناظراً حتى في خنن الدجاج، وفي الاسطبل الفارغ، وفي كل ما لا لزوم للنظر فيه... و في لحظة مفاجأة خطر في بال ياكوف لوكيتش «اوه، ليسا بالمشترين المرغوبين!».

نقص السعر خمسة وسبعين روبلا رأساً، وقال:

– طيب، ابيعها لكما بخسارة، من أجل خاطر الرفاق عمال المناجم فقط. ولكن اعذرني، يجب أن أذهب الى الادارة ولا وقت لدي أقضيه معكما، هل تريدان العجلة الآن؟ التسليم نقداً!

عند مدخل الزريبة بلل المكتنز اصابعه بلعابه، وقضى وقتاً طويلا يعد الاوراق النقدية، واضاف على السعر المتفق عليه خمسة عشر روبلا، وصافح يد ياكوف لوكيتش الذي كان قد ضجر، وغمز له:

– ربما تشرب زجاجة على صفقتنا، يا ياكوف لوكيتش؟ عملنا كمشترين للمواشي يتطلب أن نحتفظ بزجاجة عند الحاجة. – واخرج من جيبه على مهل زجاجة فودكا لمعت لمعاناً خفيفاً في ضوء الشمس الباكرة.

اجاب ياكوف لوكيتش بمرح مصطنع:

– في المساء، ايها الصديقان العزيزان: في المساء! ساكون مسروراً بان اراكما في المساء، واشرب معكما. مثل هذه البهجة التي تشير اليها في زجاجتك موجودة ايضاً لدى صاحب البيت كذلك، فنحن لم نفتقر الى هذا الحد بعد. ولكن أعتذر الآن. صحتي لا تسمح لي بشرب الفودكا في الصباح، وكذلك عملي. اذ يقتضي ان أتوجه الى ادارة

الكولخوز، تفضلا بعد غروب الشمس، وعند ذاك سنتشرب نخب عجلتي.

– على الأقل لو دعيتنا الى البيت، وضيفت اصحابك على حليب أم العجلة. – قال المكتنز متالقاً بابتسامة دمثة وبالغمازتين على خديه المدورين، ووضع يده على مرفق ياكوف لوكيتش مترجياً.

ولكن ياكوف لوكيتش العنود قد كور نفسه بلفة من قوة الارادة والصلابة القصوى، ولهذا اجاب مبتسماً بشيء من الاستهانة:

– فوزاقنا معروفون بحسن الضيافة، وضيوفهم لا يأتون حين يطيب لهؤلاء أن يأتوا، بل حين يدعوهم أصحاب البيت. العل المتبع عندكم غير ذلك؟ ولكن دعونا نتبع ما تعودنا عليه في عزبتنا. هل اتفقنا ان نلتقي في المساء؟ لا حاجة حتى الى تضييع الوقت بالكلام في الصباح. مع السلامة!

ادار ظهره الى المشتريين حتى دون أن يلقي نظرة الى العجلة التي وضع راعي الخيول الركين الحبل على راسها على مهل. سار ياكوف لوكيتش الى مدخل البيت يتهادى بمشية كسول مترنحة. كان يشن ويتاوه بتصنع ممسكاً عموده الفقري بيده اليسرى، وصعد الى الدرجة العليا، وفي الرواق فقط، حين لم يبق اي ظل لتصنعه، ضغط بيده على صدره، ووقف لحظة، مغمضاً عينيه، وهمس بشفتين ممتقعتين: «اللعنة عليكم جميعاً!» هدا الألم الواخز في صدره بعد قليل، وزال دوار الراس ايضاً. وقف ياكوف لوكيتش لحظة اخرى، ثم دق باب حجرة بولوفتسيف بالحاح، ولكن باحترام.

وما كاد يلحق أن يقول، بعد ان اجتاز العتبة: «بلية، يا صاحب النبالة...» حتى راى، مثلما يرى الرائي في ضوء البرق في ليلة عاصفة، ماسورة مسدس مصوبة نحوه، وفك بولوفتسيف الثقيل الطالع الى امام، ونظرته المتوترة المثبتة، ولاتيوفسكي جالساً على التخت. في وضع مهمل، ولكن كتفيه منضغطتان على الحائط تماماً، والرشاشة

اليدوية موضوعة على ركبتيه المرفوعتين قليلا، وماسورتها موجهة الى الباب، على مستوى صدر ياكوف لوكيتش تماماً... كل ذلك رآه ياكوف لوكيتش في لحظة من الرؤية المغبشة، وحتى ابتسامة لاتيوفسكي وبريق عينه الوحيدة المحموم، حين سمع سؤالا، وكأنه آت من مكان بعيد:

– من استقبلت في الفناء، يا مضيفنا العزيز؟!

لم يتعرف ياكوف لوكيتش على الصوت من ذهوله، وكان شخصاً ثالثاً، غير مرئي، وجه له هذا السؤال بهمس صارف متهدج. ولكن قوة قاهرة جعلت العجوز يتغير في وقت قصير: انعكفت من المرفق اليدان اللتان كانتا مسبلتين على الجانبين، وارتخى ياكوف لوكيتش هو الآخر، وتهافت. الا انه تكلم، وان كان بلا ترابط وبتقطع، ولكنه تكلم بلغة اخرى مختلفة عن لغته السابقة:

– لم أدع احداً الي، ولكنهما جاءا بانفسهما بدون دعوة. ولكن الى متى ستظلان، أيها السيدان الطيبان، تصرخان في من يوم الى آخر، وتتحكمان بي كالصبي؟ ان في هذا اساءة كبيرة لي! أنا اطعمكما واسقيكما واوفر لكما كل شيء بدون مقابل. ونساؤنا يغسلن لكما، ويعددن كل طعام مجاناً... يمكنكما ان تقتلاني حالا، ولو في هذه اللحظة. فالحياة معكما صارت عبئاً ثقيلا! وقد بعت العجلة بخسارة، لانني يجب ان اغذيكما؟ لانكما، أيها المحترمان، لا تأكلان المرق بدون لحم. كما تطلبان مني الفودكا باستمرار. ...وقد نبهتكما، حين ظهر في فنائي هذان الضيفان غير المدعوين، وقد حدست، بعد وقت قصير، انهما ليسا بالمشتريين المرغوب فيهم، وقد صددت عنهما قائلا: «عفا الله عنكما، خذا العجلة ولو بدون مقابل، فقط ان تسرعا في الانصراف!» بينما انتما، ايها السيدان الطيبان... ما الفائدة من الاثبات لكما؟ – وهز ياكوف لوكيتش ذراعه في يأس، وضغط صدره على عضادة الباب، دافناً وجهه في كفيه.

– أظن العجوز على حق، سيد لاتيوفسكي. هناك ما

يبعث على الشك، ويجب أن نغادر، قبل أن يفوت الأوان. مارايك؟ – قال بولوفتسيف بصوت ماحل بشكل عجيب وبتلك اللامبالاة الغريبة التي استولت عليه منذ زمان.

– يجب ان نغادر اليوم، – قال لاتيوفسكي بحزم، وهو ينزل الرشاشة بحذر على الفراش المدعوك.

– والارتباط؟

– سنبحث ذلك فيما بعد، – واشار لاتيوفسكي الى ياكوف لوكيتش بهزة من راسه. وقال بحدة، وهو يتوجه اليه – كفى ان تتصرف تصرف النساء العجائز! وحدثنا عم جرى الحديث مع المشتريين: هل دفعا لك النقود كاملة؟ أم سياتيان الى هنا مرة أخرى؟

نشج ياكوف لوكيتش كالطفل، وتمخط بطرف قميصه غير المحزم، ومسح بكفه عينيه وشاربيه ولحيته، وتكلم باقتضاب ودون ان يرفع بصره عن الحديث الذي جرى مع تاجري المواشي، وعن سلوك الركين المريب، ولم ينس ان يذكر انهما سياتيان في المساء ليشربا نخب الصفقة.

تبادل بولوفتسيف ولاتيوفسكي النظرات بصمت حين سمعا ذلك.

– لطيف جداً، – قال لاتيوفسكي ضاحكاً بعصبية – الم يتفتق ذهنك عن شيء اذكى من ان تدعوهما الى بيتك؟ يا لك من تاجر لعين، وأبله ميئوس منه!

– انا لم ادعهما، بل هما فرضا انفسهما، وارادا ان يدخلا البيت حالا، وقد اقنعتهما بعد جهد بان ينتظرا حتى المساء. وانت، يا حضرة، لا اعرف كيف يخاطبونك هناك، عبثاً ان تشتمني، وتعتبرني ابله. اي شيطان، لاسمح الله، سيسول لي لان ادعوهما الى بيتي، مادمت اعرف انكما تقيمان منذ مدة طويلة هنا؟ ا لكي يقطعوا راسيكما وراسي؟

ولمعت عينا ياكوف لوكيتش الذيبتان لمعاناً منحوساً، وختم كلامه بحنق غير مخفي:

– انتم، حضرات الضباط، حتى عام ١٩١٧ كنتم

تتصورون أنكم وحدكم الاذكياء والجنود والقوزاق البسطاء، كلهم جميعاً، مصابون بخلل عقلي. وقد علمكم الحمر، وظلوا يعلمونكم، ولكن لم تتعلموا منهم شيئاً... لم ينفع فيكم العلم والمعارك الكبيرة!

غمز بولوفتسيف للاتيوفسكي. فعض هذا على شفتيه، واستدار نحو النافذة المسدلة بستارتها، بينما تقدم بولوفتسيف من اوستروفنوف والتصق به، ووضع يده على كتفه، وابتسم متصالحاً:

– أنت مولع، يا لوكيتش، بأن تشغل بالك بالصغائر! والانسان، حين يحتد، يتفوه بهذا وذاك. لا يحاسب الانسان على كل خطأ. انت محق في أن اللذين اشتريا العجلة منك ليسا تاجري مواش، الا بمقدار ما انا اسقف. كلاهما من لجنة أمن الدولة. واحدهما عرفه لاتيوفسكي من وجهه. مفهوم؟ انهما يبحثان عنا، ولكنهما يبحثان الآن بلا هدى، كالعميان، ولهذا انتحلا صفة تجار المواشي. والآن اسمع ما اقوله لك: الى وقت الغداء يجب أن نترك المكان واحداً واحداً. اذهب، واشغل صاحبيك المشتريين ساعتين او ثلاث، كما تريد وباي شيء تريد. وبما تاخذهما الى المعارف الذين تجدهم في بيوتهم من جماعتنا، واشرب الفودكا معهما. والله معك ومع صاحب البيت ليقيكما من السكر وانطلاق اللسان. اذا عرفت ذلك قتلتكما كليكما. فتذكر ذلك جيداً! وفي الوقت الذي ستكون فيه مشغولاً بالشرب سننسل نحن بهدوء على طول المنخفض الموجود وراء فناء بيتك الخلفي، ونخرج الى السهب، ولن يجدوا لنا اثراً هناك! اطلب من ابنك ان يخفي في سقيفة الجلة، وبشكل مامون، سيفي والرشاشة واقراص الرصاص وبندقيتينا كلتيهما.

فاستدرك لاتيوفسكي:

– خبىء بندقيتك وحدها، وسآخذ بندقيتي معي.

القى بولوفتسيف اليه نظرة صامتة ومضى يقول:

– ليغلف كل هذه الاشياء في قماشة، ويلفت حوله بهدوء قبل أن يدخل الى السقيفة. لا تجسر، في كل الاحوال،

أن تخفي شيئاً في البيت. ثم لدي رجاء آخر لك، والاخرى أمر: تسلم الرسائل التي ستاتي باسمي، وحالما تتسلمها ضعها تحت صخرة الطحن الموجودة قرب الشونة. في الليالي سنتسلل الى هنا احياناً. هل فهمت كل شيء.

همس ياكوف لوكيتش:

– امرك.

– طيب، اذهب، ولا تصرف بصرك عن هذين التاجرين اللعينين! ابعدهما عن هنا اكثر مما تستطيع، وبعد ساعتين تكون غير موجودين هنا. يمكنك ان تدعوهما الى بيتك في المساء. اخرج التختين من الحجرة الى العلية، وهيء الحجرة، وللتعمية ضع فيها كل ما لديك من سقط المتاع، وحين يطلبان اليك أرهما البيت كله... اغلب الظن انهما سيحاولان بمختلف الحجج ان يفحصا البيت كله... سنغيب اسبوعاً، نعود بعده اليك. لا تعاتبنا على قطعة الخبز التي اكلناها عندك! سيدفع لك بسخاء عن كل ما انفقته علينا من عندك، حين تنتصر قضيتنا. ولكن يجب ان نأتي الى هنا مرة اخرى، لان الانتفاضة في قطاعنا ستبدأ من هنا، من غريمياتشي، والساعة قريبة! – ختم بولوفتسيف قوله بانتصار، وعانق ياكوف لوكيتش بسرعة – اذهب، يا شيخ، وليكن الله في عونك!

* * *

وما ان اختفى اوستروفنوف وراء الباب، حتى جلس بولوفتسيف الى الطاولة، وسال:

– اين التقيت بعضو لجنة امن الدولة هذا؟ هل انت واثق من انك لم تخطىء في التشخيص؟

قرب لاتيوفسكي المقعد، ومال نحو بولوفتسيف، ولعلها المرة الأولى منذ تعارفهما اخذ يتكلم بلا تهكم ولا تمييع:

– يا مريم العذراء! كيف يمكن ان اخطأ؟ ثم انني سأظل اتذكر هذا الرجل مدى الحياة! هل رايت الندبة على خده؟ انا الذي احدثتها له بخنجر، حين القوا القبض علي.

وهو الذي قلع عيني هذه، العين اليسرى عند الاستجواب. هل رأيت أية قبضتين له؟ لقد حدث ذلك في كراسنودار قبل اربعة أعوام. ووشت بي امراة ماتت، والحمد لله! كنت في السجن الداخلي، حين ثبتت ادانتها. وفي اليوم الثاني لهروبي كان قد وضع حد لحياتها. كانت شابة جداً وجميلة، الوضيعة، قوزاقية من كوبان، او الاحرى قحبة قوزاقية، هذا الذي حصل... هل تعرف كيف هربت من السجن؟ — وضحك لاتيوفسكي ضحكة مقتضبة في ارتياح، وفرك يديه الصغيرتين الجافتين — كانوا سيرمونني بالرصاص في كل الاحوال. لم يكن لي ما افقده، فاقدمت على مجازفة مستميتة، بل وعلى بعض الاحتيال... بينما كنت اراوغ المحققين واصور نفسي شخصاً لا اهمية له، ابقوني في حجز انفرادي وعند ذاك اقدمت على خطوة النجاة الأخيرة: وشيت في الاستجواب بقوزاقي من دسكرة كارينوفسكايا، كان عضواً في منظمتنا، ولكنه كان آخر الحلقة. وكان في الامكان أن يشي بثلاثة من اهالي دسكرته لا اكثر، فكان لا يعرف اي شخص من جماعتنا. وقلت لنفسي: «دعهم يعدمون هؤلاء الحمقى الاربعة او ينفونهم، ولكنني سانجو بنفسي، وحياتي لوحدها اهم للمنظمة بما لا يقاس من حياة هذا التافه، هؤلاء البهائم الاربعة». ويجب التنويه بانني كنت العب دوراً غير قليل الاهمية في المنظمة في كوبان. ويمكنك ان تعرف اهميتي في القضية من أنني عبرت الحدود في عام ١٩٢٢ اربع مرات، والتقيت خمس مرات بكوتيبوف في باريس. وشيت بهؤلاء الذين لا صوت لهم في القضية، وبذلك جعلت المحقق يخفف القيود عني، ويسمح لي بالتمشي في فناء السجن مع بقية السجناء. وكان لا يحق لي ان اتماهل. انت تفهم؟ وفي احدى الامسيات، اثناء التمشي مع رعاع الكوبان المحكومين بالموت، رأيت في الدورة الأولى في الفناء سلما نقالا يصل الفناء بمستودع القش، والظاهر أنه قد وضع منذ وقت قصير. وكان ذلك في موسم حصاد العشب، وكان العاملون في لجنة أمن الدولة يجلبون القش في النهار

لعلف خيولهم. سرت دورة أخرى مع الدائرة، ويداي إلى الخلف، كما هو المفروض، وفي الدورة الثالثة تقدمت من السلم بهدوء، ودون أن أتلفت، أخذت أصعد الدرجات ببطء، وكأنما في حلبة السيرك. ويداي إلى الخلف كالسابق... وكان تقديري صحيحاً، يا سيد بولوفتسيف! صحيحاً سايكولوجياً. فان الحراس المصعوقين من جسارتي هذه وفروا لي امكانية صعود ثماني درجات بدون إعاقة، وقبل أن يصيح أحدهم «قف!» كنت قد صعدت الدرجتين الاخيرتين محني الجذع، وقفزت كالعنزة على السطح. وحصل رمي عشوائي، وصياح، وشتائم! وفي قفزتين كنت في حافة السطح، ومنها قفزة أخرى، وأنا في الزقاق! وهذا كل شيء. وفي الصباح كنت في وكر مامون في مايكوب... والعملاق الذي شوه وجهي يدعى خيجنياك. وقد رأيته قبل حين، ذلك الصنم الحجري لإمرأة في سروال. وتريدني الآن أن يفلت من يدي حياً؟ لا، ولتنغلق عيناه الاثنتان جزاء لعيني التي اقتلعها! العينين باثنتين!

صاح بولوفتسيف حانقاً:

— هل فقدت عقلك؟ تريد أن تقوض كل قضيتنا بسبب من احساسك بالانتقام الشخصي؟

— لا تقلق، لن أقتل خيجنياك وصاحبه هنا، بل اتربص بهما في مكان ما خارج العزبة، بعيداً عن غريمياتشي لوغ. سأجعل الحادث يبدو حادث سلب، اسلب من هذين التاجرين نقودهما، مثلما يحدث للتجار السيئين... خبء بندقيتك، بينما سآخذ أنا بندقيتي تحت المطر. لاتحاول أن تثنيني عما انوي عليه. سامع؟ قراري لايقبل النقض! سأخرج انا الآن، وأنت بعدي، في وقت لاحق. وسنلتقي يوم السبت بعد غروب الشمس في الغابة قرب توبيانسكوي، عند الينبوع الذي إلتقينا عنده في المرة الماضية. إلى اللقاء، وبالله عليك لا تغضب علي، يا سيد بولوفتسيف! لقد وصلنا في عيشنا هنا إلى حد توتر الأعصاب، واعترف بانني لم أتصرف دائماً بلياقة.

– كفاك... يمكن الاستغناء عن الملاطفات في وضعنا هذا، – تمتم بولوفتسيف في انزعاج، ومع ذلك عانق لاتيوفسكي، ولثم جبينه المنحدر الشاحب بأبوة.

وتأثر لاتيوفسكي بهذا الاظهار المفاجيء للعاطفة الرقاقية، ولكنه لم يرد أن يكشف إنفعاله، فقال وهو يمسك بمقبض الباب، ويدير ظهره لبولوفتسيف:

– سآخذ معي مكسيم خاريتونوف من توبيانسكوي. إنه يملك بندقية، كما أنه من الذين يمكن الاعتماد عليهم في اللحظة الصعبة. هل لديك اعتراض على ذلك؟

تباطأ بولوفتسيف قبل ان يجيب:

– كان خاريتونوف يخدم في وحدتي رقيباً اول. واختيارك صائب. خذه. إنه رام جيد، وفي كل الاحوال كان كذلك. أنا افهم مشاعرك. افعل ما تريد، ولكن ليس بالقرب من غريمياتشي في كل الأحوال، ولا في عزبة، بل في بقعة ما في السهب...

– سمعاً. إلى اللقاء.

– اتمنى لك التوفيق.

خرج لاتيوفسكي إلى الرواق، والقى على كتفيه قفطاناً قديماً لاوستروفنوف، ونظر من خصاص الباب الى الزقاق المقفر. وبعد دقيقة كان يسير في الفناء متمهلاً، يضغط قربينة الفرسان على جنبه الأيسر، وهناك اختفى وراء السقيفة متمهلاً أيضاً. ولكنه ما إن قفز إلى الوهدة حتى غير هيئته. وضع ذراعيه في كمي القفطان، وامسك القربينة بيده، ورفع سنداد الامان، ومشى مشية الوحش المتربصة مرتقباً منحدر الوهدة يجيل في الجانبين بصراً حاداً، متسمعاً لكل نامة، متلفتاً من حين إلى آخر إلى العزبة الغارقة في الاسفل في دخان الصباح الليلقي.

* * *

بعد يومين، في صباح يوم الجمعة، قتل تاجرا المواشي ومعهما قتل أحد الحصانين المشدودين إلى عربتهما، في

الطريق الذي يربط عزبة توبيانسكوي بعزبة فويسكوفوي، على بعد حوالى ستين متراً من فرع وهدة كلين. أما الحصان الثاني فقد استطاع الحوذي القوزاقي من عزبة توبيانسكوي ان يقطع السيور التي تشد به إلى العربة، ويعدو به إلى عزبة فويسكوفوي. وهو الذي اخبر سوفيت العزبة بما حصل.

وقد ثبت رجل الميليشيا المكلف ورئيس سوفيت العزبة، والحوذي، والشهود الذين هرعوا إلى مكان الحادث مايلي: إن قطاع الطرق الذين كانوا مختبئين في الغابة اطلقوا الرصاص من البنادق حوالى عشر مرات. فقتل بالطلقة الأولى راعي الخيول الضخم العريض المنكبين، فسقط من العربة منكفئاً على وجهه. اصابت الطلقة قلبه بالصميم. وقد صاح التاجر الركين على الحوذي بصوت وحشي بأن يحث الحصانين، وانتزع السوط من يده، ورفع السوط على الحصان الأيمن، ولكنه لم يلحق ان يسوطه، فقد اوقعته الرصاصة الثانية على العربة، حيث اصابت رأسه إلى الاعلى من اذنه اليسرى. واندفع الحصانين هاربين. وسقط الضريع من العربة على بعد حوالى عشرين متراً من راعي الخيول. وتبع ذلك بضع طلقات من بندقيتين في وقت واحد. وسقط الحصان الأيسر منقلباً على رأسه اثناء العدو بعد ان اصابته رصاصة، فانكسر العريش الذي يتوسط الحصانين، بعد أن قلب الحصان العربة التي تدحرجت عليه. قطع الحوذي سيور الحصان السليم، وعدا به بكل قوة. لوحق الحوذي بالرصاص عدة مرات، لاخافته اكثر منه لقتله، لأن الرصاصات، حسب أقوال الحوذي، كانت تصفر عالياً فوق رأسه.

كانت جيوب كلا القتيلين مقلوبة. ولم تكن في ثيابهما هويات. وكانت محفظة تاجر المواشي الفارغة مرمية في عشب على جانب الطريق. وكان قطاع الطرق قد قلبوا راعي الخيول على ظهره لتفتيشه، واسحقوا عينه اليسرى بضربة من كعب حذاء، حسب ما يدل الأثر على الجلد.

قال رئيس سوفيت العزبة، وهو قوزاقي صاحب تجربة خاض حربين، قال لرجل الميليشيا:

– انظر، يا لوكا نازاريفيتش، كيف مثل احد الاوغاد بالقتيل! اهذا لرد ثار قديم؟ أم نتيجة صراع على امراة؟ قطاع الطرق الاعتياديون لايقدمون على ذلك... – وغطى وجه القتيل بمنديل محاولا أن لا ينظر إلى محجر عينه الفارغ المدمى، والى خط الدم اللزج المتحدر المتخثر على خده، ورفع قامته، وزفر قائلا: – إلى اي درك وصل هؤلاء! لابد أن هؤلاء الاشرار تعقبوا التاجرين وسلبوهما نقوداً كثيرة، كما يبدو... ناس ملاعين! من أجل الفلوس قتلوا مثل هذين الشابين الرائعين...

وفي اليوم الذي وصل نبأ مقتل خيجنياك وبويكو – غلوخوف إلى غريمياتشي، سأل ناغولنوف وقد بقي مع دافيدوف لوحدهما في ادارة الكولخوز:

– هل تفهم، يا سيميون، إلى اين تسير الامور؟

– ليس اقل منك فهماً. هذا من صنع بولوفتسيف او الضالعين معه، حقيقة!

– هذا بديهي. ولكنني لا افهم شيئاً واحداً. كيف حدسوا من هما. ذلك هو السؤال! من تمكن من ذلك؟

– هذا السؤال لانستطيع انت وانا ان نجيب عنه. هذه معادلة ذات مجهولين. وانا وانت لسنا قويين في الحساب والجبر. موافق؟

قعد ناغولنوف ملتزم الصمت وقتاً طويلا واضعاً ساقاً على ساق، ناظراً إلى طرف حذائه المترب بعينين غائبتين، ثم قال:

– انا أعرف احد المجهولين.

– ما هو بالضبط؟

– هو أن الذئب لا يفتك بالاغنام قرب وجاره.

– وماذا يترتب على ذلك؟

– القتلة ليسوا من توبيانسكوي ولا من فويسكوفوي هذا مؤكد.

– تظنهم من شاختي او روستوف؟

– ليس بالضرورة، ربما من عزبتنا. الا تعرف السبب؟

– قد يكون – قال دافيدوف بعد تفكير قصير – ماذا تقترح يا ماكار؟

– أن يفتح الشيوعيون عيونهم جيداً. أن يقللوا نومهم في الليل، وأن يتجولوا في العزبة بهدوء وخفية، ويدققوا النظر. ربما سنوفق في أن نلتقي في العزبة او خارجها ببولوفتسيف هذا او بواحد من الغرباء المريبين. فالذئاب تسرح في الليل...

– أنت تشبهنا بالذئاب؟ – قال دافيدوف بابتسامة لا تكاد تبين.

ولكن ناغولنوف رد الابتسامة بالمثل، وقارب بين حاجبيه الكثيفين وقال:

– هم الذئاب، ونحن صيادوها. يجب أن تفهم.

– لا داعي للغضب. انا متفق معك، حقيقة! تعال نجمع الآن جميع الشيوعيين.

– ليس الآن، بل بعد ذلك، حين ينام الناس.

وافقه دافيدوف قائلا:

– هذا صحيح. ولكن لا لنجوب العزبة، فان ذلك سينبه القوزاق راساً، بل لننصب كمائن.

– أين ننصبها؟ حسبما اتفق؟ لا جدوى من ذلك! كان سهلا علي أن اترصد تيموفي، الذي لم يكن له من ياوي إليه غير لوشكا، ولا طريق آخر له. اما هؤلاء، فاين نترصدهم؟ العالم واسع، والبيوت في العزبة كثيرة، ولا يمكن أن نكمن قرب كل بيت منها.

– لا حاجة إلى أن نكمن قرب كل بيت.

– وعلى اي أساس نختار؟

– نعرف ممن اشتريا الماشية، ونراقب بيوت هؤلاء بالذات. رفيقانا القتيلان كانا في اغلب الاوقات يحومان حول المشتبه بهم من المواطنين، ومنهم اشتروا الماشية. وإلى بعض هؤلاء لجا قطاع الطرق. مفهوم؟

– انت رجل مفكر! – قال ناغولنوف باقتناع – احياناً تخطر في ذهنك افكار سديدة جداً.

الفصل السابع والعشرون

عاد بولوفتسيف ولاتيوفسكي إلى حجرة الجلوس في بيت اوستروفنوف، وها هو اليوم الرابع لاقامتهما هناك. لقد جاءا عند الفجر بعد نصف ساعة من نهوض رازميوتنوف من مكمنه في الحديقة المجاورة ليراقب بيت اوستروفنوف، بعد ان تناءب للمرة الاخيرة، وسار بهدوء إلى بيته، مفكراً مع نفسه: «سيميون هذا تخطر في باله افكار لعينة احياناً! كم تقضي من الوقت في ترصد بيوت الآخرين كسارقي الخيول، او اللصوص الاعتياديين، وتراقب ساهرين ليالي كاملة، ولكن بدون جدوى! اين قطاع الطرق اولئك؟ نحن نراقب ظلنا لا اكثر... يجب ان اسرع، وإلا فقد تخرج احدى النساء لتحلب البقرة، وتراني، وتبث في العزبة شائعة تسري كالموجة على سطح النهر: «طلع رازميوتنوف عند الفجر! لا ادري اية إمرأة جسور غفت وتركته ينام دافئاً عندها حتى جاء الفجر وايقظه؟» وتأخذ الألسنة بالثرثرة، وتتحطم سمعتي... يجب التوقف عن هذا العمل! وليتكفل رجال امن الدولة باقتناص قطاع الطرق، ولا حاجة لأن نقوم نحن بوظائفهم. ها انا قد قضيت ليلة في الحديقة، احدق تحديقاً كاد يجعل عيني على جبيني، وفي النهار كيف سازاول عملي؟ انام وراء المكتب في سوفيت العزبة؟ انظر الى الناس بعينين محمرتين؟ سيقولون ايضاً: «الملعون يقضي الليل كله بالسكر، وهو الآن يتثاءب، كالكلب على عتبة البيت!». ومرة أخرى تحطيم تام للسمعة...»

وانسل رازميوتنوف إلى الفناء تعذبه الشكوك منهكاً بعد ليلة ساهرة، واثقاً تقريباً من ان الكمون عمل لاجدوى منه، وعند عتبة البيت ارتطم بامه التي خرجت من الرواق.

– هذا انا، يا ماما، – قال اندريه مرتبكاً، محاولا ان يفلت إلى الرواق.

ولكن العجوز سدت طريقه، وقالت بحدة:

– لست عمياء لكيلا ارى ان هذا انت... الم يحن الاوان، يا اندريه، بان تترك اللهو، والطواف في الليالي كلها؟ لست شاباً، وقد ولى زمن لهوك منذ زمان. أ ما حان الوقت لتخجل من امك ومن الناس؟ تزوج، وارح نفسك، كفاية!

فسأل اندريه في غيظ:

– أتزوج الآن أم انتظر حتى تشرق الشمس؟

– دع الشمس تشرق وتغرب ثلاث مرات، وفي اليوم الرابع تزوج. انا لا استعجلك، – ردت الأم بجدية، متجاهلة النكتة السمجة – اشفق على شيخوختي! يصعب علي، بامراضي التي تصاحب الشيخوخة، ان احلب البقرة، واطبخ، واغسل ملابسك، واعتني بحديقة البيت، وأقوم بكل شؤون المنزل... كيف لاتفهم هذا، يا ولدي؟ انت لا تولي اي اهتمام لشؤون المنزل! فاي مساعد انت لي! حتى الماء لاتجلبه: تاكل ثم تنصرف الى العمل، وكانك نزيل غريب على البيت... لاتهتم إلا بالحمام، تلعب معه كالطفل الصغير. وهل هذا عمل رجال؟ عليك ان تخجل من الناس على لهو الاطفال هذا! لو لا مساعدة نيوركا لي لكنت في قبري منذ زمان! ام عميت فلا ترى انها تاتي إلي كل يوم، عزيزتي هذه، تقوم بهذا العمل او بذاك. تحلب البقرة وتسقي الحديقة، وتقلع الاعشاب الضارة، وتمد يد المساعدة في اي عمل؟ انها فتاة رقيقة حلوة لن تجد مثيلا لها في الدسكرة كلها. وهي ترمقك بعين الحب، وانت لا ترى، عميت من اللهو والشراب! طيب، اين كنت كل هذا الوقت، انظر إلى نفسك مغطى بالاشواك كالكلب الطريد! احن رأسك، يا جرحى الذي لا يندمل! اين مرغوك هكذا، وعذبوك؟...

وضعت العجوز يدها على كتف ولدها، وجعلته ينحني قليلا، وحين احنى اندريه رأسه، أخذت تقلع من رأسه بصعوبة الاشواك المتغرزة في شعره.

رفع اندريه هامته، وابتسم ابتسامة ساخرة، محدقاً في وجه أمه المتغضن باشمئزاز.

– لاتسيئي الظن بي، يا أمي! الضرورة هي التي اقتضت أن أرقد في الشوك، لا اللهو ولا العبث. وهذا شيء غير مفهوم لك الآن، ولكنك ستفهمين فيما بعد، حين يحين الوقت لتعرفيه. أما الزواج فبعد ثلاثة أيام، حسب الموعد الذي حددته أنت، إن لم يكن هذا كثيراً جداً. غداً سأجلب نيوركا إليك في البيت. فقط أن يكون في حسابك، يا أمي، أنك أنت التي اخترت لك كنتك، فكوني معها على ونام، حتى لا تحدث بينكما مشاجرات. أنا أستطيع أن أتعايش حتى مع ثلاث نساء، تحت سقف واحد، فأنت تعرفينني مسالماً حتى أستفز... والآن اتركيني، لأنام قليلا، ساعة على الاقل، قبل العمل.

تنحت العجوز عن طريقه، وهي ترسم علامة الصليب.

– الحمد لله، اذن، على أن الرب ارشدك لتشفق على شيخوختي. اذهب، يا عزيزي، يا ولدي، ونم قليلا، وساقلي لك فطائر للفطور. كما جمعت لك بعض القشطة. لا أعرف كيف اكافئك على هذه الفرحة!

اغلق اندريه الباب خلفه باحكام، بينما مضت العجوز تقول بهدوء، وكأنما مايزال بالقرب منها:

– أنت الوحيد لدي في العالم كله! – وأخذت تبكي.

وفي أطراف مختلفة من العزبة في ذلك الوقت من الفجر أوى للنوم اندريه رازميوتنوف، ودافيدوف، الذي قضى الليل جالساً تحت سقيفة في فناء اتامانتشوكوف، وناغولنوف الذي كان يراقب بيقظة فناء بانيك الخلفي، وبولوفتسيف ولاتيوفسكي اللذان انسلا بسلام إلى بيت اوستروفتوف.

ومن المحتمل أن هؤلاء الاشخاص المختلفين في العقائد والطباع قد حلموا جميعاً احلاماً مختلفة في ذلك الصباح الهادىء المضبب قليلا، ولكنهم غفوا في نفس الساعة...

وكان اندريه رازميوتنوف اسرعهم استيقاظاً. حلق وجهه حلاقة ناعمة، وغسل رأسه، ولبس قميصاً نظيفاً،

وبنطلوناً من الجوخ كان قد جاء بحقوق الورث المباشر من زوج مارينا بيار كوفا الراحل، وقضى وقتاً طويلا يبصق على حذائه، ثم نظفه جيداً بخرقة جافة هي قطعة من طرف معطف قديم. وتهيأ في نية معقودة، وبدون تسرع لا ضرورة له.

حدست أمه سبب هذه الاستعدادات، إلا أنها لم تسأله، خائفة أن تفسد بكلمة قالتة مزاج إبنها المستبشر. فكانت تكتفي بأن ترمقه من حين إلى آخر وتروح وتجيء قرب الموقد اكثر من المعتاد. وتناول الاثنان فطورهما صامتين.

نبهها رازميوتنوف بلهجة رسمية:

– لا تنتظري مجيئي قبل المساء، يا ماما.

قدعت له الله قائلة:

– كان الله في عونك!

– إنه المعين، انتظري، – قال رازميوتنوف متشككا.

وبالعكس من دافيدوف اتم الخطوبة بطريقة عملية وباقل من عشر دقائق. ولكنه ابدى تمسكا بالتقاليد، حين دخل إلى بيت والدي نيوركا. جلس حوالي دقيقتين يدخن صامتاً، ثم تبادل مع والد نيوركا بعض العبارات عن امكانيات المحصول، عن الطقس، وفي الحال أعلن كما يعلن عن شيء قد تقرر:

– غداً سآخذ نيوركا منكم.

فسأل أبو الخطيبة، وهو لا يخلو من ظرافة، على طريقته الخاصة:

– إلى اين؟ لتلزم الخفارة كمراسلة في سوفيت العزبة؟

– اسوا. لأتزوجها.

– هذا يتعلق بها...

إلتفت رازميوتنوف إلى الخطيبة المتوردة الخدين، وسأل حتى دون أي ظل للابتسامة على شفتيه الهازلتين:

– موافقة؟

– منذ عشر سنين وأنا موافقة.

اجابت الفتاة بعزم، دون أن تصرف عن اندريه عينيها المدورتين العاشقتين.

– وهذا كل الكلام، – قال رازميوتنوف بارتياح.

اراد الوالدان التمتع إلتزاماً بالعادات القديمة، ولكن اندريه اشعل سيكارة اخرى، ووقف ضد محاولتهما بعزم:

– أنا لا احاول انتزاع بائنة ولا اي شيء آخر منكما. فماذا تستطيعون أن تنتزعوا مني؟ هيثا الفتاة. اليوم سنذهب إلى الدسكرة، ونسجل عقد قراننا، ونعود بنفس اليوم. وغداً سنقيم الزفاف، وهذا كل ما في الامر.

سألت أم الخطيبة بانزعاج:

– ولم هذا التحرق والاستعجال من جانبك؟

إلا أن رازميوتنوف نظر إليها ببرود واجاب:

– التحرق كان منذ اثني عشر عاماً، كان وذرت الريح رماده... ولكنني استعجل لأن الحصاد ياخذ بالانفاس وأمي العجوز، كما تعرفون، تريد أن تتقاعد عن اشغال البيت كلياً. يعني اتفقنا على ما يلي: سأجلب الفودكا من الدسكرة، لا اكثر من عشرة لترات. هيثوا المزة للفودكا، وادعوا الضيوف. ضيوفي سيكونون ثلاثة: امي، ودافيدوف وشالي.

فاستفسر الأب:

– وناغولنوف؟

– انه تمرض، – رد اندريه كاذباً وهو واثق جداً من ان ماكار لن يحضر الزفاف ابداً.

– وهل نذبح خروفاً، يا اندريه ستيبانيتش؟

– هذا راجع لكما، فقط أننا لن نسرف في الشرب، هذا لا يجوز لي. سيعزلونني من وظيفتي. ويصدرون في حقي توبيخاً حزبياً ساخناً حتى أظل انفخ عاماً على اصابعي التي امسكت بالقدح. – واستدار إلى خطيبته، وغمز لها بشطارة، ولكن لم يسع بابتسامته كثيراً – ساجيء بعد نصف ساعة فاسرعي منذ الآن، يا نيوركا، بان ترتدي كما ينبغي لهذه المناسبة. فانت ستتزوجين رئيس سوفيت العزبة لا شخصاً اعتيادياً.

* * *

كان زفافاً حزيناً، بلا اغان، ولا رقص، وبلا تلك النكات المرحة المتأصلة بحفلات الزفاف القوزاقية وبلا تمنيات للعروسين متحررة احياناً، وغير محتشمة في احيان اخرى... لقد فرض رازميوتنوف اثره على كل شيء. كان جدياً محافظاً صاحياً بشكل لاينسجم مع المناسبة. ولا يكاد يشترك في الاحاديث ويعتصم بالصمت في أغلب الاوقات، وحين كان الضيوف الثملون قليلا يصيحون: «مر» كان يدير راسه إلى زوجته المتوردة، كالمضطر، ويقبلها بشفتيه الباردتين، وكانه مكره على ذلك، وعيناه الحيويتان دائما كانتا آنذاك لا تنظران إلى العروس الشابة، ولا إلى الضيوف، بل إلى نقطة في البعيد، وكانما تنظران إلى ماض بعيد، وبعيد جداً وحزين.

الفصل الثامن والعشرون

وخلال ذلك كانت الحياة في غريمياتشي لوغ، وفوقها تسير مسيرتها المهيبة، الابدية، والمتماهلة. ظلت السحب تسير فوق العزبة بيضاء احياناً بنصاعة الثلج، واحياناً يتغير لونها ودرجاته، فتتدرج من الازرق الكثيف العاصفي، إلى انعدام اللون، واحياناً تتوهج خفيفة او ساطعة عند غروب الشمس، وتنذر بهبوب الريح في اليوم التالي. وعند ذاك كانت النسوة والاطفال في كل أفنية غريمياتشي لوغ يسمعون من اصحاب البيوت، أو من الذين كانوا يريدون أن يكونوهم، عبارات مقتضبة هادئة قاطعة في قناعتها الابدية أيضاً: «طيب، ما الفائدة من تكديس العشب او وضعه في العربات مع هذه الريح؟» عند ذاك، كان احد الجالسين على مقربة – إما ان يكون كبير العائلة او الجيران – يرد بعد تمهل: «لا يمكن! ستنثره الريح!». وعند هبوب الريح الشرقية الشديدة في الاعلى، وتعطل الناس الاضطراري

عن العمل في الاسفل كانت تبدأ في كل بيوت العزبة الثلثمائة حكاية واحدة متكررة عن شخص من العزبة لم يعد من بين أحيائها منذ زمان يدعى ايفان ايفانوفيتش ديغتيريف أراد في وقت من الاوقات، ومنذ زمن بعيد، اثناء هبوب الريح الشرقية، ان ينقل الحبوب من الحقل إلى سقيفة الدريس، وحين رأى الريح تكتسح اكوام سنابل القمح الناضج وحزمة من العربات، حاول باستماته ان يصارع الطبيعة، ورفع على مذراة من ثلاثة رؤوس حزمة كبيرة من السنابل، ونظر باتجاه الشرق، وصاح بضراوة مخاطباً الريح: «طيب، اكتسحي هذا أيضاً، اذا كنت بمثل هذه القوة! اكتسحيه، ايتها الملعونة!» وقلب العربة المحملة بسنابل القمح إلى الأعلى، وسار بها فارغة الى بيته شاتماً بلا هوادة.

سارت الحياة في غريمياتشي لوغ دون ان تسارع في مسيرتها المتماهلة، ولكن كل نهار وليلة كانا يحملان في احد بيوت العزبة الثلثمائة الكبير والصغير من الافراح والاتراح والتوجسات والمتاعب التي لا تنقضي في الحال... في يوم الاثنين، عند الفجر، توفي في المرعى راعي العزبة القديم الجد اغي. وكفى ليعيد إلى القطيع بقرة فتية لعوب، ولكن ركضة الهرم لم يستمر طويلا، فقد توقف فجاة وضغط بالسوط على صدره، وترنح دقيقة، محركا رجليه المرتخيتين في البقعة، ثم تمايل كالسكران، وقد اسقط السوط من يده، وسار عائداً ببطء، وبلا ثقة. هرعت إليه كنة بيسخليبنوف التي كانت قد طاردت البقرة، وامسكت يديه العجوزتين الباردتين، وسألت وهي لاتكاد تلتقط انفاسها، نافثة الأنفاس الحارة على عيني العجوز المتزجتين.

— جدي، يا عزيزي، حالتك سيئة؟! — وظهرت نبرة العويل في صوتها — يا حبيبي! كيف اساعدك؟!

قال الجد بلسان ذابل:

— لا ترتعبي، يا عزيزتي... اسنديني بيدك، وإلا فسأقع...

ووقع، في بادىء الأمر على ركبته اليمنى، ثم انهار

على جنب، ومات. وهذا كل شيء. وفي وقت الغداء، وفي ساعة واحدة تقريباً، ولدت إمرأتان شابتان كولخوزيتان. كانت ولادة احداهما عسيرة جداً. اضطر دافيدوف ان يرسل إلى فويسكوفوي على عجل اول عربة وقعت في يده لتجلب طبيب المنطقة. وكان قد عاد لتوه من بيت الجد اغي الميت، بعد ان القى نظرة الوداع الاخيرة على الراحل، وفي ذلك الوقت جاء إلى ادارة الكولخوز الكولخوزي الشاب ميخي كوزنيتسوف. كان شاحباً قلقاً، بدأ، وهو عند العتبة:

— ايها الرفيق العزيز دافيدوف، اغثني بحق المسيح! زوجتي تتعذب لليوم الثاني، ولا تستطيع ان تضع وليدها. إن لي منها ولدين، كما انني اشفق عليها إلى حد الموت. ساعدني بحصانين، اذ يجب احضار الطبيب، نسواننا لا يستطعن مساعدتها ابداً.

— لنذهب! — قال دافيدوف وخرج إلى الفناء.

كان الجد شوكار قد خرج بعربته إلى السهب ليجلب القش. وجميع الخيول كانت طالعة في اشغال.

— لنتجه إلى بيتك، وأول عربة تصادفنا نرسلها إلى فويسكوفوي. اذهب انت إلى بيتك، وسالتقط انا اي عربة، وارسلها.

كان دافيدوف يعرف معرفة جيدة انه لايليق بالرجل ان يكون بالقرب من المكان الذي توضع فيه إمرأة حملها، ولكنه سار قرب سياج كوزنيتسوف الواطىء بخطوات عريضة يمد بصره خلال الشارع المقفر من طرف إلى طرف، ويسمع أنات المرأة الخافتة، وصيحاتها الممدودة، وهو نفسه كان يحمحم في كتمان الماً على مخاض ام غريبة عنه، ويشتم خافض الصوت باقذع شتائم البحارة. حين رأى الصبي اندريه اكيموف ابن السادسة عشرة سقا الفريق يسير في الشارع على مهل، انطلق مهرولا كالصبي لاعتراضه، وأوقع من العربة برميلا مملوءا بالماء، وليس بدون عناء، وقال وهو يلهث:

— اسمع، يا شاب، هنا امرأة في حالة صعبة.

وحصاناك جيدان، فاجر بهما باقصى سرعة الى فويسكوفوي، واجلب لي الطبيب حياً او ميتاً. ساكون انا المسؤول، اذا حصل شيء للحصانين، حقيقة!

وفي صمت الظهيرة الراكد عادت فارتفعت وانقطعت بسرعة صيحة مكتومة واطئة ارسلتها امراة تتعذب عذاباً مميتاً. تفرس دافيدوف في عيني الشاب، وسأل:

– هل تسمع؟ اسرع، اذن!

وقف الشاب بكل قامته على العربة كالكبار، ونظر الى دافيدوف خطفاً.

– يا عم دافيدوف، انا افهم كل شيء، ولا تقلق على الحصانين.

واندفع الحصانان من مكانهما في عدو سريع، وصفر الشاب في وقفته كالشطار، ولوح بالسوط بجسارة. نظر دافيدوف الى الغبار المتطاير من تحت العجلات، ولوح بذراعه بيأس، وذهب الى ادارة الكولخوز. واثناء سيره سمع مرة اخرى صيحة المراة الوحشية، فغضن وجهه، وكانما من آلم حاد، وبعد ان قطع مسافة تمتم باتزعاج:

– اختلاقات، تعزم ان تنجب، ولكن لا تعرف كما ينبغي، حقيقة!

وفي الادارة ما كاد يستجمع افكاره في الاعمال التي تسمى الروتينية اليومية، حتى جاء شاب مرتبك، هو ابن الكولخوزي القديم ابراموف، واخذ يقول متوتر الاعصاب يرفع قدماً ويضع اخرى:

– يارفيق دافيدوف، عندنا اليوم حفلة عرس، عائلتنا كلها تدعوك. ليس طبيعياً ان يكون مكانك خالياً على المائدة.

وهنا انفجر دافيدوف. قفز من وراء الطاولة، وصاح:

– ماذا بكم، يا اهل العزبة، جننتم؟ في يوم واحد موت وولادة وزواج! أكان هذا على اتفاق مسبق؟!

وضحك في داخله على حدته هذا، فسأل، ولكن بلهجة اهدأ:

– لم هذا الاستعجال منك؟ حبذا لو تزوجت في الخريف القادم، فالخريف الفصل الامثل لاقامة الاعراس.

قال الشاب، وكأنه واقف على سطح ساخن:

– القضية لا تحتمل الانتظار حتى الخريف.

– اية قضية؟

– طيب، لا بد ان تفهم انت بنفسك، يا رفيق دافيدوف...

– اها.. هكذا، اذن. دائماً يجب التفكير في القضية مسبقاً، – قال دافيدوف بسخرية، الا انه ابتسم في الحال، حين فكر مع نفسه: «ليس انا الذي اقول له ذلك، وليس هو الذي يسمع كلامي».

بعد صمت قصير ذي دلالة اضاف دافيدوف:

– طيب، اذهب. سآتي في المساء لبعض الوقت. سنناتي جميعاً. هل اخبرت ناغولنوف ورازميوتنوف؟

– دعوتهما ايضاً.

– طيب، سنناتي ثلاثتنا، ونجلس نحو ساعة. الشراب الكثير لا يجوز لنا، الوقت لا يسمح، فلا تتاثروا. والآن، اذهب، ارجو لك التوفيق. ولو اننا سنقول لكم ذلك، حين نأتي... هل عروسك سمينة جداً؟

– ليست كثيراً، ولكن تبدو...

– حسناً، حين تبدو، فان ذلك احسن دائماً، – قال دافيدوف بشيء من الهزء مرة اخرى، وابتسم ثانية، وقد احس بالزيف في حديثه.

وبعد ساعة، حين كان دافيدوف يوقع التقرير اليومي، دخل في هذا الوقت بالذات الوالد السعيد ميخي كوزنيتسوف وعانق دافيدوف في الحال، وانشأ يقول بلهجة سريعة متأثرة:

– ينجيك المسيح، يارئيسنا! جاء اندريوشكا بالطبيب، وفي الوقت المناسب تماماً: كانت الزوجة على وشك ان تموت، ولكنها بمعونته وضعت لي على الفور ابناً، كيف اصفه؟ كالعجل، لا تقوى على حمله في يديك. ويقول

الطبيب: لم يكن في الوضع الصحيح. وفي رايي، على كل حال، فان لي ابناً في العائلة الآن! ستكون عرابه، يا رفيق دافيدوف!

قال دافيدوف، وهو يمسد جبينه في يده:

– سأكون عرابه، انا مسرور جداً بان وضع زوجتك انتهى بسلام. وما تحتاجه من مساعدة توجه به غداً الى اوستروفنوف، فسأصدر له امري، حقيقة. اما اذا كان الوليد لم يأت في الوضع الصحيح فليست هذه مشكلة، وليكن في علمك ان الاولاد نادراً ما يتصرفون التصرف الصحيح – وفي هذه المرة حتى لم يبتسم، اذ لم يكن يشعر بلهجته الهازئة التي كان قد ضحك منها قبل حين.

والظاهر ان البحار هذا صار عاطفياً، اذا كانت فرحة الآخرين والنهاية الموفقة لآلام المخاض تجعلان عينيه تتندیان بالدموع. وحين احس بالدموع في عينيه غطاهما بكفه، وختم قوله بشيء من الغلظة:

– اذهب، فان زوجتك بانتظارك. واذا احتجت الى شيء فتعال، اما الآن فاذهب. فليس لدي الوقت، أنت تفهم، بدونك لدي من الاشغال ما يكفيني.

وفي نحو المساء من نفس اليوم وقع حدث غير اعتيادي وغير قليل الاهمية بالنسبة لغريميانشي لوغ، ولو انه مر غير ملحوظ من أحد تقريباً. في نحو الساعة السابعة اقتربت من بيت اوستروفنوف عربة على قدر من الاناقة يجرها زوج من الخيول الكريمة. وعند مدخل البيت نزل منها رجل متوسط القامة في سترة كتانية وبنطال من نفس القماشة. نفض الغبار من طية بنطاله المترب بحركة شاخة بشيء من الرشاقة، وصعد درجات المدخل بمرح الشباب، ودخل الرواق بثقة، حيث كان في انتظاره ياكوف لوكيتش المرتعب من الزيارة الجديدة. ضغط بيده الصغيرة الجافة بقوة على كوع ياكوف لوكيتش، وسأل بابتسامة مختفية كاشفاً للحظة عن اسنان مسودة قليلا من التدخين:

– هل الكسندر انيسيموفيتش عندك؟ انا ارى من شكلك أنك صاحب البيت، ياكوف لوكيتش؟

وحين رأى ياكوف لوكيتش من قيافة الزائر وقوامه، وشعر بحاسة رجل مارس الخدمة العسكرية بان الذي جاء اليه رجل من القيادة رفيع المقام، ضرب كعبي حذائه المحكوك طائعاً، واسرع يجيب:

– يا صاحب اللياقة! اهذا انتم؟ يا الهي، ما اشد انتظارهما لكم!

– دلني!

وبخفة غير متاصلة في طبعه، فتح ياكوف لوكيتش طائعا باب الحجرة التي كان بولوفتسيف ولاتيوفسكي يقيمان فيها.

– الكسندر انيسيموفيتش، اعذرني على عدم الاستئذان، جاءك ضيف كريم.

تخطى القادم باب الحجرة المفتوح، وفتح ذراعيه بحركة مسرحية عريضة:

– مرحباً، ايها المعتكفان العزيزان! هل يمكن التحدث هنا بملء الصوت؟

كان بولوفتسيف جالساً وراء الطاولة، ولاتيوفسكي، على عادته، راقداً مرتخياً باهمال على سريره. فاذا بهما يقفزان، ويتخذان وضع «الاستعداد» وكانما بايعاز.

عانق القادم بولوفتسيف، وضغط لاتيوفسكي عليه بيده اليسرى وحدها، وقال:

– تفضلا بالجلوس، يا حضرات الضابطين. انا العقيد سيدوي الذي كان يكتب لكما الأوامر. والآن، وبمشيئة الأقدار، مهندس زراعي في المكتب الزراعي للاقليم. وانا قادم الى هنا بجولة استطلاعية. ووقتي ضيق. ويجب ان اطلعكم على الوضع.

دعا الزائر الضابطين الى الجلوس، وبقي على ابتسامته كاشفاً عن اسنان داخنة، ومضى يقول بمودة مبالغ بها:

– معيشتكما بائسة، يبدو أنكما لا تملكان حتى ما

تقدمانه لضيف... ولكن لن يدور حديثنا عن الضيافة، فسأتناول غدائي في مكان آخر. أرجو أن تستدعيا سائقي الى المائدة، وتأمين حراسة لنا، بالمراقبة على الأقل.

اندفع بولوفتسيف الى الباب طائعاً، ولكن سائق سيادة العقيد الممشوق الطويل كان قد دخل. ومد يده لبولوفتسيف:

– تحية، ياحضرة الضابط! على العادة الروسية لا تجوز المصافحة عبر العتبة، – وتوجه الى العقيد، وسأل باحترام – هل تسمحون لي بالحضور؟ قد ضمنت المراقبة.

كان القادم يبتسم لبولوفتسيف وللاتيوفسكي كالسابق بعينيه الرماديتين العميقتين في محجريهما.

– ارجو التعارف فيما بينكما، يا حضرات الضباط. هذا الرائد كازانتسيف. طيب، وانت، يا سيد كازانتسيف، تعرف أهل البيت. والآن الى الموضوع، ياسادة. تعالوا نجلس الى طاولتكم العزوبية.

سأل بولوفتسيف بتهيب:

– يا سيادة العقيد، وبما تسمح لي بان اقدم لكما شيئاً على البساطة ما هو موجود في البيت.

رد القادم بجفاف:

– شكرا لك، لا حاجة؟ تعالوا ننتقل الى الموضوع رأساً، وقتي محدود. ايها الرائد، هات الخارطة.

أخرج الرائد كازانتسيف من جيب سترته الداخلي خريطة الجيش القيصري لاقليم ازوف – البحر الاسود مطوية اربع طيات، وبسطها على الطاولة، وانحنى الاربعة جميعهم عليها.

عدل القادم ياقة قميصه الكتاني المحلول، واخرج من جيبه قلماً ازرق، ودق به الطاولة وقال:

– اسم عائلتي ليس سيدوي، كما تظنون، بل نيكولسكي. العقيد في الاركان العامة للجيش الامبراطوري. والخارطة عامة، ولكنكم لاتحتاجون الى خارطة تفصيلية للعمليات العسكرية. ومهمتنا كالآتي: ان لديكم حوالى مائتي

نشيط من حملة البنادق او السيوف. وعليكم أن تقضوا على الشيوعيين المحليين، ولكن ليس في الدخول اطلاقاً في اشتباكات صغيرة مطولة، بل السير زحفاً الى سوفخوزم «كراسنايا زاريا» بعد أن تقطعوا وسائل الاتصالات اثناء الزحف. وستقومون هناك بما هو مطلوب منكم، وتحصلون بالنتيجة على حوالي اربعين بندقية بذخيرتها. والأهم من ذلك أن تشقوا طريقكم الى ميليروفو بزحف اقتحامي بعد أن تكونوا قد حافظتم على ما لديكم من سلاح يدوي ورشاشات، واستوليتم على حوالي ثلاثين سيارة لوري في السوفخوز، والمهمة الرئيسية الاخرى... انظروا كم من المهمات الرئيسية اعهدها لكم... ومن اللازم لك، وهذا ما آمرك به، يا حضرة الضابط، ان تباغت، ولا تتركهم ينشرون الفوج المرابط في مدينة ميليروفو، وان تحطمه اثناء الزحف، وتنزع سلاحه، وتستولي على ما لديه من سلاح وعتاد، وتأخذ الذين ينحازون الينا من رجال الجيش الاحمر في الفوج، وتزحف معهم في السيارات باتجاه روستوف. وانا ارسم لك المهمة بخطوطها العامة فقط، ولكن الشيء الكثير يتوقف عليها. وفي حالة الاضطرار، اذا جوبه زحفك على ميليروفو بمقاومة، تحول عن ميليووفو الى كامينسك، بهذا الخط – وخط العقيد بالقلم الازرق خطاً مستقيماً بحركة ذابلة – وفي كامينسك سالتقي بك مع فصيلتي، ياحضرة الضابط.

ثم اضاف بعد أن صمت قليلا:

– من المحتمل أن يساندكم المقدم سافاتييف من الشمال. ولكن لا تعتمدوا على ذلك، وتصرفوا بانفسكم. والكثير جداً يتوقف على عمليتكم، فافهموا ذلك. وانا اشير عليكم بنزع سلاح الفوج في ميليروفو، والاستفادة مما لديه من سلاح وعتاد. انهم يملكون بطارية مدافع على كل حال، وسيساعدنا ذلك في نواح كثيرة. وبعد ذلك سنتحرك من كامينسك لاحتلال روستوف، مفترضا أن قواتنا ستهب لنجدتنا من كوبان وتيريك، ثم هناك مساعدة الحلفاء،

وسنسيطر على الجنوب. وارجو الاخذ بالحسبان، ياحضرات الضباط، ان المعركة التي وصفناها فيها مخاطرة، ولكن ليس لنا مخرج آخر! لاننا، اذا لم نستفد من الامكانيات التي يقدمها لنا التاريخ في عام ١٩٣٠، فالوداع للامبراطورية. فعلينا الانتقال الى اعمال ارهابية صغيرة... هذا كل ما استطيع ان اقوله لكم. والآن لك ان تتكلم باختصار، ايها الرائد بولوفتسيف. وليكن في علمك انني يجب ان اذهب الى سوفيت العزبة مرة اخرى، واؤشر هناك على ايفادي، واسافر الى مركز المنطقة. فانا، كما قلت، شخصية رسمية، مهندس زراعي في المكتب الزراعي، ولهذا ارجو الاختصار في عرض افكارك.

قال بولوفتسيف بصوت كامد، دون ان ينظر الى العقيد:

– سيادة العقيد، انت تضع امامي مهمة عامة دون الدخول في خطوط ملموسة. ساستولي على السوفخوز، ولكنني كنت افترض اننا بعد هذا سنقوم باثارة القوزاق بينما انت ترسلني لخوض معارك مع فوج نظامي للجيش الأحمر. الا يبدو لك ذلك مهمة غير ممكنة التنفيذ في حدود امكانياتي وقواي؟ وحتى اذا تصدت لي سرية في طريق تقدمي... الا تعرضني بذلك الى هلاك محقق؟!

ضحك العقيد نيكولسكي ضحكة هازئة مقتضبة، وهو يدق الطاولة بانامل اصابعه:

– اعتقد ان منحك رتبة رائد كان خطأ. فاذا كنت في لحظة صعبة تتردد، ولا تثق بنجاح الخطة التي اتخذناها، فمعنى ذلك انك لاتستحق ان تكون ضابطاً في الجيش الروسي! اياك ان تكون لديك خططك الخاصة بك، والتي وضعتها بنفسك! كيف يمكن ان افهم من كلامك؟ هل ستنفذ ام يقتضي ان تعزل؟

نهض بولوفتسيف. واحنى راسه العريض الجبين، واجاب بخفوت:

– انفذ، ياسيادة العقيد. ولكن شرط... شرط ان تكون انت المسؤول عن نجاح العملية لا انا.

– اوه، هذا لايخصك، يا حضرة الرائد! – رد العقيد نيكولسكي في ضحكة هازئة مغتمة، ونهض.

ونهض الرائد كازانتسيف على الفور.

وقال نيكولسكي، وهو يعانق بولوفتسيف:

– الشجاعة ومرة اخرى الشجاعة! وهذا ما ينقص معشر الضباط في الجيش الامبراطوري النبيل العريق! تعودتم على القعود، حين صرتم مدرسين في المدارس المتوسطة ومهندسين زراعيين. ولكن التقاليد؟ التقاليد المجيدة للجيش الروسي، هل نسيتموها؟ ولكن لا باس. فقط ان تبدأوا بتلبية أوامر الذين يفكرون فيكم، وبعد ذلك... بعد ذلك تنفتح الشهية اثناء الأكل! آمل، ياحضرة الرائد، ان اراك وانت في رتبة لواء، في نوفوروسيسك او في موسكو، مثلا. ان هيئتك المنكمشة تدل على انك مقتدر على أشياء كثيرة! الى اللقاء في كامينسك. الشيء الاخير الذي اريد ان اقوله هو ان امرا خاصاً سيصدر لكل نقاط المقاومة عندنا بالهجوم في كل مكان في آن واحد. الى اللقاء، الى اللقاء في كامينسك!

عانق بولوفتسيف الزائرين ببرود، وفتح باب الحجرة، والتقت عيناه بعيني ياكوف لوكيتش الذي كان يقف مرتجفا في الرواق، ولم يعد الى مجلسه وراء الطاولة، بل انهبد على التخت، وبعد قليل سأل لاتيوفسكي الذي كان يضغط بظهره على النافذة:

– هل رأيت أي محتال هو؟

هز لاتيوفسكي ذراعه بازدراء:

– مريم ام المسيح. ماذا كنت تريد من هذا العسكري الروسي؟! كان الاحرى ان تسالني، يا سيد بولوفتسيف: أي شيطان سول لي لانضم اليكم؟!

ووقع حدث مأساوي آخر في ذلك اليوم. لقد غرق التيس تروفيم في البئر. والظاهر ان هذا التيس المتسكع بطبعه صادف، اثناء تجواله في العزبة طوال الليل، قطيعاً من الكلاب السائبة ليلا، فلاحقته هذه، واضطرته الى ان

يقفز عبر البئر الموجود قرب ادارة الكولخوز. ولم تكن فتحة فم البئر مغطاة منذ المساء بسبب من تقاعس الجد شوكار لشيخوخته، فما كان من التيس العجوز المذعور من الكلاب، ومن مطاردتها المنحوسة الا ان طفر عبر البئر، والظاهر أن اظلافه الشائخة قد انزلقت، فوقع في الاسفل وغرق.

في المساء، عاد الجد شوكار بعربة القش، واراد أن يسقي حصانيه، وحين حاول استخراج الماء من البئر شعر بأن الدلو يرتطم بشيء لين. وخابت كل مساعيه لاستقاء الماء، مهما حاول أن يحول الحبل الذي يربط الدلو من جانب الى آخر. وعند ذلك عنت للعجوز فكرة فظيعة، اجال عينين متيمتين في الفناء على امل أن يرى عدوه اللدود على سطح السقيفة، ولكن بصره لم يلتقط شيئاً. لاوجود لتروفيم في اي مكان. اسرع شوكار فدخل سقيفة الدريس، ثم ركض الى البوابة، ولم يجد تروفيم... عند ذاك دخل دامع العينين بائس المظهر في محنته الى غرفة الادارة، حيث كان دافيدوف جالسا، وانهد على المسطبة.

— سيميون، يا اساي، حلت بنا مصيبة جديدة. لابد أن تروفيم قد غرق في البئر. لنذهب ونأخذ كلاباً، وننتشله.

فسأل دافيدوف مبتسماً:

— حننت اليه؟ كنت دائماً تطلب أن ينحر.

— وليكن! — صاح الجد شوكار في غيظ — ولكن لم ينحر، والحمد لله! والآن كيف أعيش بدونه؟ كان كل يوم من أيام الله يجعلني في خوف دائم، ولا افارق السوط من الصباح حتى المساء، ادافع به عن نفسي، والآن اية حياة ستكون لي؟ ضجر في ضجر! الآن يمكن أن القي نفسي في البئر وراسي قبل رجلي... واية صداقة كانت بيننا؟ لا صداقة على الاطلاق! كنا نخوض معركة بعد اخرى. ذات مرة امسكته، الملعون، من قرنه، واقول له: «تروفيم، يا ابن الكذا، لم تعد تيساً في مقتبل العمر، فمن اين لك هذه القوة الحانقة؟ من اين لك هذه الجسارة، حتى لا تتركني

لحظة واحدة في سلام؟ فانت دائما تكمن لتسدد لي نطحة من الخلف، او نطحة من جنب. وكأنك لاتفهم انني رجل مريض، ويجب أن تكون لك رافة بي». فيحدق في بعينين جامدتين لا انسانية فيهما على الاطلاق. فاسوطه على ظهره واقول له حالا: «اذهب، عليك اللعنة ثلاثا، أيها الحقير. لا يمكن أن اقنعك بشيء نافع!» اما هو، ابن الشيطان، فيتقهقر حوالى عشر خطوات على الخلف، ويأخذ بقضم العشب، من قلة العمل، وكأن اللعين جوعان! وهو يحدجني بطرف عينيه الجامدتين، يريد، ربما، أن يهجم علي مرة اخرى. مهزلة وليست حياة كانت لي معه! لأنه كان من المستحيل علي أن أتفق على شيء، مع ذلك الابله البليد، مع ذلك الأحمق الصافي! وها هو الآن قد غرق، وأنا آسف عليه، وحياتي صارت بائسة تماماً... — واجهش الجد شوكار باكياً شاكياً، ومسح عينه الدامعة بكم قميصه القطني القذر.

وجد دافيدوف وشوكار كلاباً في الفناء المجاور، واخرجا من البئر تروفيم المنتفخ قليلا. وسأل دافيدوف وهو يدير وجهه عن شوكار:

— طيب، وماذا سنفعل الآن؟

اجاب الجد شوكار وهو مايزال يجهش ويمسح عينه الدامعة:

— اذهب، يا سيميون، ومارس ما لديك من اعمال الدولة. وسادفنه أنا بنفسي. فهذا ليس شغل الشباب، بل شغل الشيوخ. سادفنه، الوغد، عميقاً، حسب كل الاصول، واجلس على قبره، وابكيه... يباركك الرب على اعانتك في اخراجه من البئر، فما كنت ساقدر لوحدي. فان هذا الخصي المقرنن من الوزن الثقيل. فقد كان يعيش على عطايا الناس، ولهذا غرق الأحمق، ولو كان اخف وزناً لطفر من البئر بكل سهولة! لابد أن تلك الكلاب اثارت هلعه، حتى قفز عبر هذا البئر دون ان يشاور عقله. ولكن اي عقل يمكن أن يكون لأحمق عجوز؟ اما انت، يا سيموشكا، يا اساي، يا ضناي، فاعطني ما اشتري به ربع قنينة فودكا،

وسأشرب على ذكراه في سقيفة الدريس مساء. لا حاجة الى ان اذهب الى زوجتي في البيت. اذهب، وماذا احصل من نفع؟ مجرد نرفزة واثارة اعصاب. وادخل في معركة مرة اخرى؟ لا داعي الى ذلك مطلقاً في مثل عمري. ولكنني سأشرب بهدوء، واتذكر المرحوم، واسقي الخيول وانام.

ناول دافيدوف الجد شوكار ورقة من فئة عشرة روبلات وهو يجاهد بكل طاقته ان لا يبتسم، وطوق كتفي الجد الضيقتين.

– ولكن لاتحزن عليه كثيراً، ياجد. اذا احتاج الامر اشترينا لك تيساً آخر.

اجاب الجد شوكار، وهو يهز رأسه بأسى:

– مثل هذا التيس لايشترى بالفلوس، ولا وجود لأمثاله في الدنيا! سيبقى حزني في داخلي، – وذهب لجلب المجرفة محدودباً بائساً، مضحكاً بشكل يمس القلب في تفجعه الصادق.

وبهذا انتهى يوم في غريمياتشي لوغ ملأته الأحداث الكبيرة والصغيرة.

الفصل التاسع والعشرون

تناول دافيدوف عشاءه، ودخل الى حجرته، وماكاد يجلس وراء الطاولة لينظر في الجرائد التي ارسلت له بالبريد قبل حين، حتى سمع طرقاً خفيفاً في مفصل اطار النافذة. كان ناغولنوف قد وضع قدمه على الدكة في الخارج، وقال بصوت مكتوم:

– تهيأ للعمل! هيا، دعني أنسل اليك، واخبرك...

كان وجهه الأسمر شاحباً محترساً. نقل رجله عبر افريز النافذة بسهولة، وجلس على مقعد في خطوة واحدة، وضرب قبضته على ركبته:

– لقد نبهتك، يا سيميون، وحصل ما كنا نتوقع. وقع بصري على واحد منهم، على كل حال، كمنت ساعتين كاملتين

قرب منزل اوسترووفتوف فارى رجلا قصيراً قادماً، يسير بحذر، واتسمع، يعني انه واحد منهم، من اولئك الاوغاد... تأخرت في اتخاذ موقعي للمراقبة، كان الظلام شديداً جداً. تأخرت، اذ كنت خارجاً الى الحقل. ربما وصل قبله شخص ثان؟ باختصار، لنذهب، وناخذ رازميوتنوف في طريقنا. لا شيء ننتظره هنا. سنقبض عليهم هناك، عند لوكيتش، احياء! او على الاقل نقبض على ذلك الذي رأيته.

دس دافيدوف يده تحت وسادة الفراش، واخرج المسدس.

– كيف سنقوم بالعملية؟ تعال نتناقش الموضوع.

اشعل ناغولنوف سيكارة، وابتسم ابتسامة شاحبة:

– مثل هذه العملية قمت بها من قبل، فاسمع اذن، ان ذلك القصير لم يطرق الباب، بل دق النافذة كما دققت انا نافذتك قبل حين. في بيت ياكوف لوكيتش حجرة جلوس لها نافذة واحدة تطل على الفناء. وذلك الوغد – لم اتبين ان كان في قفطان او ممطر – دق على النافذة. وفتح احدهم الباب قليلا، لا أدري ان كان ياكوف نفسه او ابنه سيميون، فدخل القصير الى البيت. وحين صعد درجات المدخل التفت مرة، وحين دخل الباب التفت مرة ثانية. وقد رأيته يفعل ذلك وانا راقد عند السياج. اعلم ان الناس الطيبين لا يدخلون البيوت بهذا التلصص الذنبوي! وانا اقترح هذه الخطة للعمل: انا وانت ندق، بينما يرقد اندريه في الفناء قرب النافذة. ونحن لا نعرف من سيفتح لنا الباب، ولكنني أتذكر باب حجرة الجلوس، هو الباب الأول الى اليمين، حالما تدخل الرواق. واذا كان مغلقاً فسنكسره. سندخل نحن الاثنين، واذا كان سيقفز احد من النافذة فسيلتقطه اندريه. سنأخذ هؤلاء الضيوف الليليين احياء، وببساطة شديدة! سادفع الباب، وستكون أنت واقفاً ورائي بمسافة قليلة، واذا ما حصلت خلخلة اطلق النار على أي صوت يأتي من حجرة الجلوس بلا أي سؤال!

نظر ماكار في عيني دافيدوف بعينين متقلصتين قليلا،

ومن جديد مست شفتيه القاسيتين ابتسامة خفيفة لا تكاد تبين:

– بدلا من أن تداعب هذه اللعبة بيديك، افحص المشط، وتأكد من وجود طلقة في مكانها. سنخرج من خلال النافذة ونغلق الصفاقة.

عدل ناغولنوف الحزام على قميصه، ورمى السيكارة على الارض، ونظر الى كعبي حذائيه المتربين، والى ساقيهما المتسخين، وضحك مرة أخرى بهزء:

– بسبب هؤلاء الحقراء التافهين تغطيت بالتراب كلياً، كالجرو، فقد اضطررت الى ان انطرح في التراب، بكل وضع ممكن بانتظار الضيوف الاعزاء... فظهر أحدهم... ولكن اعتقد أن هناك اثنين أو ثلاثة، لا اكثر. انت لا تظنهم فصيلة، طبعاً؟

جذب دافيدوف الترباس، وعبأ طلقة، وحشر المسدس في جيب سترته، وقال:

– مالي اراك مرحاً اليوم، يا ماكار؟ قضيت عندي خمس دقائق ابتسمت خلالها ثلاث مرات...

– نحن مقبلون على عملية مرحة، يا سيما، ولذلك ابتسم.

انسلا من النافذة، وأغلقا ضلفتيها والصفاقة. ووقفا برهة. كان الليل دافئاً، ونسمة باردة تهب من النهر بمحاذاة الأرض. كانت العزبة نائمة. انتهت مشاغل اليوم السلمية. خار عجل في مكان ما، ونبحت كلاب في طرف العزبة، وفي احد البيوت المجاورة اخذ ديك ناعس داهل يصيح في غير موعده، وقد فقد حساب الساعات. وصل ماكار ودافيدوف الى بيت رازميوتنوف دون أن يتفوها بكلمة واحدة. عكف ماكار سبابته، ودق على النافذة دقة لا تكاد تسمع، وبعد انتظار قليل رأى وجه اندريه في الضوء الشاحب، فلوح له بذراعه يدعوه، وأشار الى مسدسه.

وسمع دافيدوف من البيت صوتاً مكبوحاً جاداً:

– فهمتك. ساخرج بسرعة.

وظهر رازميوتنوف على مدخل البيت في الحال تقريباً. وقال بضيق وهو يغلق الباب خلفه:

– كفي عن ذلك، يا نيوركا! طيب، يستدعونني الى سوفيت العزبة لشغل من الأشغال. فهل أنا ذاهب للعب؟ طيب، نامي، ولا تتحسري، سأعود قريباً.

وقف الثلاثة متلاصقين. سأل رازميوتنوف متهللا:

– هل صادفتموهم؟

قص ناغولنوف عليه الحادث بهمس مكتوم.

...دخل الثلاثة بيت ياكوف لوكيتش صامتين. انطرح رازميوتنوف تحت الاساس الدافئ، لاصقاً به ظهره. وقد وضع ماسورة المسدس على ركبته بحذر. لم يرد أن يتعب يده اليمنى قبل الاوان.

كان ناغولنوف أول من صعد درجات المدخل، واقترب من الباب، وصلصلت السقاطة.

كان فناء اوستروفنوف وبيته غارقين بسكون شامل، ولكنه منحوس لم يستمر طويلا جداً، فقد رد من الرواق فجأة صوت ياكوف لوكيتش عاليا:

– من هذا الشرير الذي يجوب في الليل؟

رد ناغولنوف:

– لوكيتش، اعذرني على ايقاظك في هذا الوقت المتأخر. علينا، أنت وأنا أن نسافر الى السوفخوز الآن، لحاجة ملحة!

مرت لحظة من الخلخلة والصمت.

وطلب ناغولنوف بنفاد صبر:

– طيب، ماذا بك؟ افتح الباب!

– ناغولنوف، يارفيقنا العزيز، وزائرنا في هذا الوقت المتأخر... مزاليجنا... لا تفتح بسرعة، ادخل.

وصلصل من الداخل مزلاج حديدي كبير، وانفتح الباب المحكم قليلا.

دفع ناغولنوف الباب بكفه اليسرى بقوة هائلة، ودفع

ياكوف لوكيتش الى الرواق، وسار فيه بخطى عريضة، بعد أن قال لدافيدوف عبر كتفه:

– ارمه عند الاضطرار!

افعمت أنف ناغولنوف رائحة دافئة لمكان مأهول ومسكرات طازجة. ولكن لم يكن له الوقت ليتأكد من الروائح والاحاسيس، تلمس بيده اليسرى ضلفة الباب بسرعة ممسكاً المسدس بيده اليمنى، وبضربة من قدمه فتح هذا الباب الذي كان مغلقاً بمزلاج خفيف.

– هيا، من هنا، سأطلق النار!

ولكنه لم يلحق أن يطلق النار. فبعد صيحته صدر انفجار قنبلة يدوية، وهدرت في الصمت الليلي الرهيب لعلعة رشاشة يدوية. ثم رنين اطار نافذة يتحطم، وطلقة وحيدة في الفناء، وصيحة انسان.

وقتل ناغولنوف في الحال مطعونا ممزقاً بشظايا القنبلة اليدوية، اما دافيدوف الذي اندفع الى حجرة الجلوس، فقد استطاع، على اية حال، ان يطلق الرصاص مرتين في الظلام، حتى اصابته صلية الرشاشة.

سقط على ظهره فاقد الوعي، ودفع رأسه الى الوراء بعذاب، وضغط بيده اليسرى على شظية خشنة اقتلعتها رصاصة من اطار الباب.

* * *

اواه، كيف غاضت الحياة بذلك البطء من صدر دافيدوف العريض، وقد أصابه الرصاص باربعة مواضع طولا وعرضاً... ومنذ ان حمله أصدقاؤه الى البيت في صمت متعثرين في الظلام، مجاهدين بكل ما لهم من قوة على الا يسببوا حركة موجعة للجريح، لم يعد اليه الوعي مرة واحدة، وجرى كفاح شاق مع الموت استمر ست عشرة ساعة...

في الفجر وصل من مركز المنطقة على عربة يجرها زوج من الخيول المزبدة طبيب جراح وهو رجل شاب جاد بشكل لايناسب عمره. ولم يبق اكثر من عشر دقائق في الحجرة

التي كان دافيدوف يرقد فيها، وخلال ذلك الوقت لم يسمع الشيوعيون من خلية غريسياتشي لوغ، الذين اجتمعوا في المطبخ بصمت متوتر، ومعهم الكولخوزيون اللاحزبيون الذين أحبوا دافيدوف، لم يسمع هؤلاء الا انة خافتة مختنقة واحدة صدرت عن دافيدوف من الحجرة. طلع الطبيب الى المطبخ شاحباً، ولكنه هادىء المظهر، ورد على تساؤل اصدقاء دافيدوف الصامت:

– بلا أمل. مساعدتي لا تجدي شيئاً. ولكن له قوة على الحياة مذهلة! لا تفكروا في نقله من المكان الذي يرقد فيه وعلى العموم يجب الا يمس. لو يوجد في العزبة ثلج... على العموم لا حاجة، ولكن يجب ان يلازمه شخص باستمرار.

وفي اثره طلع رازميوتنوف ومايدانيكوف من الحجرة. كانت شفتا رازميوتنوف ترتعشان، وقد القى على المطبخ نظرة شاردة، دون أن يرى الناس المتزاحمين هناك من أهل العزبة. وسار مايدانيكوف منكس الرأس، وقد توترت العروق على صدغيه بحدة وبشاعة، واحمر الغضنان العميقان المتصالبان فوق قصبة أنفه، فلاحا كندبتين. وخرج الجميع في جمع واحد الى مدخل البيت ما عدا مايدانيكوف، وتفرقوا في الفناء الى جهات مختلفة. وقف رازميوتنوف ملقياً صدره على السياج، مدلياً رأسه، تسري في لوحتي كتفه ارتعاشات بموجات قوية. تقدم العجوز شالي من السياج، وهز عموداً مائلا من خشب البلوط بشراسة عمياء، لا تعي. ووقف ديمكا اوشاكوف لصق جدار الشونة ضاغطاً عليه تقريباً، وراح، كالتلميذ المذنب، يحك باظفره ملاط الجدار المغسول بالأمطار، دون أن يمسح الدموع المنهمرة على خديه. لقد كان كل واحد منهم يعاني فقد صديقه بطريقته الخاصة، ولكنهم جميعاً مشتركون بمصاب رجولي باهظ حط على كاهلهم جميعاً...

ومات دافيدوف ليلا. وقبيل موته عاد اليه وعيه. نظر نظرة قصيرة الى الجد شوكار الذي كان جالساً قرب رأسه، وقال متنهداً:

– لم تبكي، يا شيخ؟ – ولكن زبد الدم خرج في تلك اللحظة من فمه فقاعياً، فلم يات الا ببعض الحركات الراعصة المتحشرجة، وارخى خده المبيض على الوسادة، وبالكاد انهى عبارته : – لا داعي... – بل وحاول ان يبتسم.

وبعد ذلك بسط جسمه ثقيلا وبانين ممطوط، وهمد.

...وغنت بلابل الدون لدافيدوف وناغولنوف، لحبيبي قلبي وهمست لهما سنابل القمح الناضجة، وناداهما برقرقة الحصى الجدول المجهول الاسم، الجاري من مكان في أعالي وهدة غريميا تشي... وهذا كل شيء!

* * *

مضى شهران. وظلت السحب البيضاء صيفاً تمر فوق غريميا تشي ولكنها متلبدة الآن في الخريف، سابحة في السماء العالية التي فقدت لونها خلال الصيف الحار، الا أن أشجار الحور قد تلونت بالذهبي المحمر فوق النهر الذي صار ماؤه شفافاً متثلجاً، وظهرت فوق قبري دافيدوف وناغولنوف المدفونين في ساحة العزبة قرب المدرسة خضرة هشة شاحبة تغمرها شمس الخريف الشحيحة. بل وكانت هناك زهرة سهبية غير معروفة تلتصق باحد اوتاد السياج محاولة في هذا الوقت المتاخر ان تثبت وجودها البائس. ومع ذلك فان ثلاثة من سيقان عباد الشمس نمت بعد أمطار آب غير بعيد عن القبرين واستطاعت أن ترتفع نصف ارتفاعها الاعتيادي، وتتمايل قليلا حين تهب الريح الارضية فوق الساحة.

لقد مرت مياه كثيرة في نهر غريميا تشي الصغير خلال هذين الشهرين. وتغيرت أشياء كثيرة في العزبة. بدا الهرم على الجد شوكار بشكل ملحوظ، وتغير تغيراً لا يعرف به بعد أن دفن صديقيه. صار منكمشاً صموتاً دامع العينين اكثر من ذي قبل... بعد الدفن رقد في البيت لايغادر فراشه اربعة أيام، وحين نهض لاحظت زوجته العجوز، دون ان تخفي فزعها، أن فمه قد اعوج قليلا، وكانما جذب معه نصف وجهه الأيسر كله.

هتفت العجوز مذعورة، وهي تصفق يداً بيد:

– ماذا جرى لك؟!

اجاب الجد شوكار مرتخي اللسان قليلا، ولكن بهدوء ماسحا بكفه اللعاب السائل من شق فمه الأيسر.

– لا شيء على وجه الخصوص... مثل هذين الشابين اراهما التراب. بينما كان يجب ان اكون انا هناك منذ زمان. فهمت المسالة؟

ولكنه حين تقدم من الطاولة ببطء، تبين انه يجرجر رجله اليسرى. رفع يده اليسرى بصعوبة ليلف سيكارة...

– لابد ان الشلل اصابني، يا عجوز، عليه اللعنة! اتوجس شيئاً ما، ولست كما كنت قبل حين، – قال الجد شوكار وهو ينظر بدهشة الى يده التي لا تطيعه.

وبعد أسبوع قوي قليلا، وصارت مشيته واثقة، واستطاع السيطرة على يده اليسرى بدون جهد كبير، ولكنه رفض وظيفة الحوذي بشكل قاطع. ذهب الى ادارة الكولخوز وصرح للرئيس الجديد كوندرات مايدانيكوف:

– اخذت كفايتي من سياقة العربات، يا عزيزي كوندرات، ولن يكون في وسعي السيطرة على الخيول.

اجاب مايدانيكوف:

– فكرنا في ذلك انا ورازميوتنوف، يا جد. فماذا لو عيناك حارساً ليلياً في مستودع العزبة؟ سنصنع لك كشكاً دافئاً عند حلول الشتاء، ونضع فيه موقداً، وتخناً، ونجهزك في الشتاء بفروة، بمعطف، بحذاء من اللباد. فاي فرق بينه وبين البيت؟ وستحصل على مرتب، والعمل سهل، والشيء الأهم انه سيكون لك شغل تقوم به. فهل توافق؟

– بحق المسيح انه يناسبني. شكراً على انكم لاتنسون العجوز ولافرق عندي، فانا لا انام الليل، الآن ودائماً. احن الى صديقينا، ياكوندرات. والنوم صار يتحاشاني تماماً... طيب، انا ذاهب لاودع خيولي، واذهب الى البيت. الى من ستعهد الخيول؟

– الى العجوز بيسخليبنوف.

– انه عجوز قوي. بينما هرمت انا. حطمني فراق ماكار ودافيدوف، وهدم حياتي... لو بقيا في الحياة لعشت سنتين او ثلاثاً اكثر، بدونهما سئمت الحياة، – قال الجد شوكار في حزن، ماسحاً عينيه بأعلى طاقيته القديمة.

ومنذ تلك الليلة اخذ يحرس.

كان قبرا دافيدوف وناغولنوف المحاطان بسياج واطيء غير بعيدين عنه، مقابل مستودع العربة، وفي اليوم التالي، اخذ الجد شوكار فاسا ومنشاراً، وصنع مسطبة صغيرة قرب سياج القبرين. وصار يجلس عليها في الليل.

قال لرازميوتنوف:

– اكون اقرب الى عزيزي الراحلين... سيكون ذلك ابهج لهما في قبريهما، والطف لي في قضاء الليل قربهما... انا لم ارزق بولد، يا اندريه، ولكنني الآن اشعر وكأنني فقدت ولدين دفعة واحدة... قلبي اللعين يضطرب في صدري ليلا ونهاراً، ولا راحة لي منه!

افضى رازميوتنوف – سكرتير الخلية الحزبية الجديد – هواجسه الى مايدانيكوف:

– ا تلحظ يا كوندرات، ان جدنا شوكار قد شاخ كثيرا في الآونة الاخيرة؟ يذوب حنيناً الى الراحلين، ويختلف تماماً عما كان. يبدو أن منية العجوز قريبة... راسه اخذ يهتز، ويداه تسودان. سيكون ذلك مصاباً كبيراً لنا، والله! تعودنا عليه، على العجيب الأطوار هذا، وسيبقى مكانه فارغاً في العربة.

صارت النهارات اقصر، والهواء اشف. ولم تعد الريح تحمل من السهب الى القبرين رائحة الافسنتين المرة، بل رائحة قش طازج من سقائف الدريس خارج العربة.

واثناء الدراس كان الجد شوكار امرح مزاجاً. فقد كانت الدراسات تهدر في سقائف الدريس الى وقت متأخر، والدحاريج الاسطوانية الحجرية تهدر فوق الأرض المدكوكة، واصوات الناس الصائحة وصهيل الخيول تتردد في الارجاء. ثم ساد الصمت. وصارت الليالي اطول واكثر ظلاماً تسري

29-02

فيها اصوات اخرى: انين طيور الغرانيق في السماء الداجنة والتنادي الحزين لطيور البر، وطنين الوز المكبوت، وصفيق اجنحة البط.

– الطير يهاجر الى اصقاع دافئة، – تنهد الجد شوكار في وحدة، وهو يصغي الى اصوات الطيور الآتية من فوق داعية الى الرحيل.

وذات مساء، حين هبط الظلام تقدمت من شوكار بهدوء امرأة ملفوفة بمنديل أسود، وتوقفت صامتة. فسأل العجوز محاولا عبثاً ان يتبين ملامحها:

– من هذه؟

– هذه أنا، ياجدي، فاريا...

نهض الجد شوكار من المسطبة بكل ما في طاقته من خفة:

– وصلت اذن، يا شحرورتي؟ كنت اتصور انك تسيتينا... آه، فاريوخا – غاريوخا، كيف يتسنى أنا وانت! ادخلي السياج، يا عزيزتي، هذا هو قبره، على الطرف... ابقي معه قليلا، وسأذهب أنا لأتفقد المستودع، واتأكد من الاقفال... عندي مختلف الأشغال، احرس ولي من الاشغال مايكفيني في شيخوختي... يكفيني، يا حلوة.

وسار العجوز يقزل مسرعاً عبر الساحة، ولم يعد الا بعد ساعة. كانت فاريا راكعة على ركبتيها، عند راس دافيدوف، ولكنها حين سمعت سعال الجد شوكار ينبهها بلطف، نهضت، وخرجت من باب السياج، وتمايلت، واسندت يدها على السياج مذعورة. ووقفت صامتة. كما صمت العجوز ايضاً. وبعد ذلك قالت بخفوت:

– شكراً لك، ياجد، على انك تركتني اختلي به...

– لا شكر. ماذا ستفعلين الآن، يا عزيزتي؟

– لقد وصلت لأبقى الى الأبد. وصلت اليوم صباحاً، وقد جئت الى هنا في هذه الساعة المتأخرة حتى لا يراني الناس...

– وكيف دراستك؟

– تركتها. أهلي بدوني لايستطيعون أن يدبروا عيشهم.

– لو كان سيميون لما قبل، هذا ما أتصور.

– وماذا علي أن أفعل، يا جدي العزيز؟ – واهتز صوتها.

– أنا لا أصلح لك ناصحاً، يا عزيزتي. فانظري في أمرك أنت. فقط أن لا تؤاخذيه، فقد كان يحبك، حقيقة!

استدارت فاريا بسرعة، ومضت، عبر الساحة لا مشياً، بل هرولة، مختنقة بعبراتها، اذ لم تكن قادرة حتى على أن تودع الجد.

وفي السماء الحالكة الظلام ظلت اصوات اسراب الغرانيق تتردد حتى الفجر بأنين ونداء الى الرحيل، وظل الجد شوكار جالساً متكوراً على المسطبة لا يغمض له جفن، يتنهد ويرسم علامة الصليب.

* * *

وبالتدريج، ومن يوم الى يوم، أخذت خيوط المؤامرة المعادية للثورة والانتفاضة المبيتة للدون تنفك، وتتبين.

في اليوم الثالث على وفاة دافيدوف وصل رجال شعبة الاقليم من لجنة أمن الدولة الى غريمياتشي لوغ، وعرفوا، بدون عناء، أن الرجل الذي قتله رازميوتنوف، والمطروح في فناء اوستروفنوف، هو لاتيوفسكي الضابط السابق في جيش المتطوعين، والمجرم الذي كان يجري البحث عنه منذ زمان.

وبعد ثلاثة أسابيع، وفي ستوفخوز غير بعيد عن طشقند تقدم شخص لا يجلب الانتباه في ثياب مدنية من رجل كهل يدعى كالاشنيكوف لم يمض وقت طويل على اشتغاله كمحاسب، وانحنى على طاولته، وقال بصوت غير عال:

– وجدت لك عملا مريحاً، يا سيد بولوفتسيف... هدوء! تعال نخرج للحظة، سر الى الأمام!

وعلى مدخل المبنى كان في انتظارهما شخص آخر اشيب

الصدغين في ثياب مدنية لم يكن على قدر رفيقه الشاب من التأدب التام وضبط النفس، وحين رأى بولوفتسيف تقدم الى الأمام، وهو يرمش بشدة، وامتقع لونه من الانفعال وقال:

– حشرة! وصلت الى هذا البعد... تتصور انك في هذا الجحر تختبيء عنا؟ طيب، انتظر، عندي معك كلام في روستوف! ساعرف كيف اجعلك تتلوى امامي قبل أن تموت...

– أوي، ارعبتني! أوي، ارهبتني! ارتجف كالسعفة، ارتجف من الفزع! – قال بولوفتسيف هازئاً وقد توقف عند المدخل، واشعل سيكارة رخيصة. بينما كان ينظر من تحت حاجبيه الى رجل الأمن بعينين ضاحكتين حاقدتين.

فتشاه في البقعة، وهو على المدخل، وكان يقول وهو يستدير طائعاً:

– اسمعا، ولا تتعبا انفسكما عبثاً! ليس معي سلاح. وما حاجتي الى أن احمله معي الى هنا؟ مسدس الموزر مخبأ في بيتي. فلنذهب!

في الطريق الى البيت راح يتكلم بهدوء وتعقل، مخاطباً رجل الأمن الأشيب الصدغين:

– بم يمكنك أن ترهبني، أيها الساذج؟ بالتعذيب؟ لن يجديك شيئاً. فانا مستعد لكل شيء، واتحمل كل شيء، ثم لا معنى لتعذيبي، لأنني ساخبرك بكل شيء دون أن اخفي شيئاً ولا أراوغ في شيء، اخبرك بكل شيء اعرفه اطلاقاً! اعطيك كلمة شرف من ضابط. أنت لا تستطيع أن تقتلني مرتين، بينما وطدت أنا نفسي على الموت منذ زمان. لقد خسرنا، وصارت الحياة لي بلا معنى. وأنا لا أقول ذلك حباً لتزويق الكلام – فانا لست مباهياً ودعياً – بل هي الحقيقة المرة لجميعنا. قبل كل شيء ما يمليه الشرف: اذا خسرت فادفع! وأنا مستعد لأن ادفع الخسارة بحياتي. وحق الرب لست خائفاً.

– انزل من عليائك واصمت، ستدفع الثمن فلا تقلق، – نصحه الذي القى عليه بولوفتسيف كلامه الذلق.

وعند تفتيش منزله لم يجدوا من المستمسكات الجرمية غير مسدسه الموزر. ولم تكن في حقيبته الرخيصة اية ورقة ولكنهم وجدوا على الطاولة جميع المجلدات الخمسة والعشرين لمؤلفات لينين.

وسئل بولوفتسيف:

— أهذه لك؟

— نعم.

— ولم اقتنيت هذه الكتب؟

— لكي تحارب عدواً يجب ان تعرف سلاحه...

وكان عند كلمته. ففي الاستجواب في روستوف وشى بالعقيد سيدوي — نيكولسكي، والرائد كازانتسيف، وعدد من ذاكرته كل الذين كانوا في منظمته في غريمياتشي لوغ والعرب المحيطة بها. ووشى نيكولسكي بالآخرين.

وسرت موجة واسعة من الاعتقالات في اقليم ازوف — البحر الاسود. وحكم على اكثر من ستمائة قوزاقي — هم افراد اعتياديون من المشتركين في المؤامرة، ومن بينهم اوستروفنوف وابنه — بمدد مختلفة بالسجن. ولم يعدم منهم الا الذين كانوا يشتركون مشاركة مباشرة في القيام بأعمال ارهابية. وحكم بالاعدام رمياً بالرصاص على بولوفتسيف ونيكولسكي وكازانتسيف، والمقدم سافاتييف من مفاطعة ستالينغراد، وعلى مساعديه الاثنين، الى جانب تسعة أشخاص من ضباط الحرس الأبيض والجنرالات الذين كانوا يعيشون في موسكو مشتغلين اسماء مستعارة. ومن بين التسعة المعتقلين في موسكو والبلدات الصغيرة القريبة منها قوزاقي برتبة فريق كان معروفاً في اوساط جيش دنيكين. وكان يرأس المؤامرة مباشرة، ويقيم الاتصال المستمر مع منظمات المهاجرين العسكرية في الخارج. ولم يفلح الا اربعة اشخاص من المركز القيادي في التخلص من الاعتقال في موسكو، وتسللوا الى الخارج بطرق مختلفة.

وهكذا انتهت هذه المحاولة اليائسة لاعداء الثورة في

اثارة انتفاضة ضد السلطة السوفيتية في جنوب البلاد، تلك المحاولة التي كان التاريخ قد حكم عليها بالفشل مسبقاً.

* * *

بعد بضعة ايام من عودة فاريا خارلاموفا الى العزبة عاد اندريه رازميوتنوف من سفرته الى شاختي. فقد سافر الى هناك بناء على رجاء من مايدانيكوف لشراء قاطرة جر من هناك للكولخوز. وفي ساعة متأخرة من المساء جلس ثلاثة في ادارة الكولخوز: مايدانيكوف، ورازميوتنوف وايفان نايدينوف سكرتير الخلية الكومسومولية التي شكلت في غريمياتشي لوغ. قص رازميوتنوف بالتفصيل عن رحلته، وعن شرائه القاطرة، وبعد ذلك سأل:

— سمعت ان فاريا خارلاموفا عادت الى العزبة، وتركت دراستها، وقيل انها قابلت دوبتسوف، وطلبت منه ان يقبلها في فريقه، أهذا صحيح؟

زفر مايدانيكوف:

— صحيح. الا يتعين عليها ان تعيل امها والأطفال بشيء ما؟ ولهذا تركت المدرسة. ولكنها فتاة ذات كفاءة.

والظاهر ان رازميوتنوف كان قد فكر بكل شيء بخصوص فاريا، فراح يتكلم الآن واثقاً تماماً بان كلامه سيلقى تاييداً:

— انها خطيبة الراحل دافيدوف. ويجب ان تدرس. وهذا ما كان يريده. ولهذا يجب تحقيق ذلك. دعونا نستدعيها غداً الى هنا، ونتحدث معها، ونعيدها الى مدرستها، وليأخذ الكولخوز على عاتقه اعالة عائلتها. وما دام عزيزنا دافيدوف قد فارقنا فلنتكفل نحن باعالة عائلته. هل هناك اعتراض؟

هز مايدانيكوف راسه بموافقة صامتة، بينما هز ايفان نايدينوف المتحمس يد رازميوتنوف، وهتف:

— انت رائع حقاً، يا عم اندريه.

وفي تلك اللحظة تذكر رازميوتنوف فجاة:

— ولكن، يا شباب، نسيت ان اقول لكما... هل

تعرفان بمن التقيت في الشارع في شاختي؟ من تتصورون؟ لوشكا تاغولنوفا! رايت امراة ضخمة بدينة تسير والى جانبها رجل بدين اصلع قليلا... واتمعن فيها، واستغرب: اهذه هي ام امراة اخرى! الوجه ممتلىء، والعينان استطالتا، والعرض لايطوق الا بثلاث اذرع. ولكن المشية مشيتها هي! واتقدم منها لأسلم عليها، واقول: «لوشكا، اهذه انت؟!» فترد علي: «ايها المواطن، انا لا اعرفك». فاضحك واقول لها: «بهذه السرعة نسيت اهل عزبتك! الست لوشكا تاغولنوفا؟». فدفعت شفتيها بدلال على طريقة اهل المدن وقالت: «كنت فيما مضى تاغولنوفا، كنت لوشكا، اما الآن فانا لوكيريا نيكيتيشنا سفيريدوفا. وهذا زوجي سفيريدوف مهندس المناجم، فتعارفا». فتصافحت مع المهندس، فنظر الي هذا نظرة جهنمية، وكانه يقول: لماذا كنت اتحدث مع زوجته بهذه اللهجة المرتجلة؟ واستدار السمينان كلاهما، وانصرفا راضيين عن انفسهما، بينما اقول لنفسي: «اوه، النساء شديدات! فلا عجب ان كان ماكار يقف ضدهن طوال حياته! لم تلحق ان تدفن رجلين تيموشكا وماكار حتى وثبت على رجل ثالث!» ولكن ليس العجب ان تثب على ثالث، بل كيف جمعت كل هذه السمنة في بدنها؟! وبهذا كنت افكر وانا واقف في الشارع. وخيم على قلبي حزن ثقيل، وتاسفت على لوشكا السابقة، الشابة، اللاهية، الجميلة! وكان كل ما مضى كان حلما رايته منذ زمان، ولم اكن اعيش معها في عزبة واحدة، جنباً الى جنب - وتنهد رازميوتنوف - هذه هي حياتنا، ياشباب، تتقلب هذه التقلبات الحادة! فقد تنقلب احياناً بشكل لا يخطر على بالك! طيب، هل نخرج؟

وخرجوا الى مقدمة البيت. على مسافة بعيدة وراء الدون كانت تتراكم سحب رعدية ثقيلة وتشق البروق عرض السماء، والرعد يدمدم بصوت لا يكاد يسمع.

قال مايدانيكوف:

- يذهلني تاخر الرعد هذا العام بهذا الشكل. هل نقف ونستمتع بجماله؟

- استمتعا انتما. فانا ذاهب، - قال رازميوتنوف مودعاً رفيقيه، ونزل الدرجات بخفة.

خرج من العزبة، وتوقف قليلا، ثم اتجه ببطء باتجاه المقبرة. سار في طريق التفافي، مارا بما كان يراه مغبشا من الصلبان والقبور والسياج الحجري شبه المهدم. جاء الى حيث كان عليه ان يذهب، خلع طاقيته، ومسد بيده اليمنى ناصية شعره الشائبة، وقال بصوت خافت وهو ينظر الى حافة القبر المخسوف:

- انا لا اعتني بمثواك الاخير، يا يفدوكيا، تلك العناية الطيبة... - وانحنى، ورفع كتلة من الطين الجاف، وفركه في كفيه، وقال بصوت فقد رنينه تماما - انا لحد الآن باق على حبك، الوحيدة التي لن انساها طول عمري... انت ترين كم انا مشغول... ونادراً ما نلتقي... فاعذريني، اذا كنت تقدرين، على كل مثالبي... على كل ما كدرتك به، وانت في عالم الاموات...

وظل واقفاً لوقت طويل حاسر الراس، وكانما يصغي وينتظر الجواب، وقف بلا حراك، محدودب الظهر كالشيوخ. هبت ريح دافئة على وجهه، وسح مطر دافىء... ومن وراء الدون كانت البروق تلمع بيضاء، فصارت عينا رازميوتنوف الصارمتان الخاليتان من كل فرحة لا تنظران الى الاسفل، الى الحافة الستهاوية للقبر الحبيب، بل الى هناك، وراء حافة الافق غير المرئية، حيث اضاء برق احمر نصف السماء، راسا، وانفجرت العاصفة الاخيرة في هذا العام، مهيبة صافية، كما في فصل الصيف الحار، توقظ الحياة في الطبيعة الغافية.

١٩٣٢ - ١٩٥٩